التيسير في التفسير

الجزء السابع

الرحمن - الناس

تأليف

العالم الرباني الكبير فقيه القرآن

السيد/ بدر الدين بن أمير الدين الحوثي الحسيني

رضوان الله عليه

تحقيق

عبدالله بن حمود العزي — محمد بدر الدين الحوثي

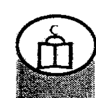


مؤسسة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم الثقافية

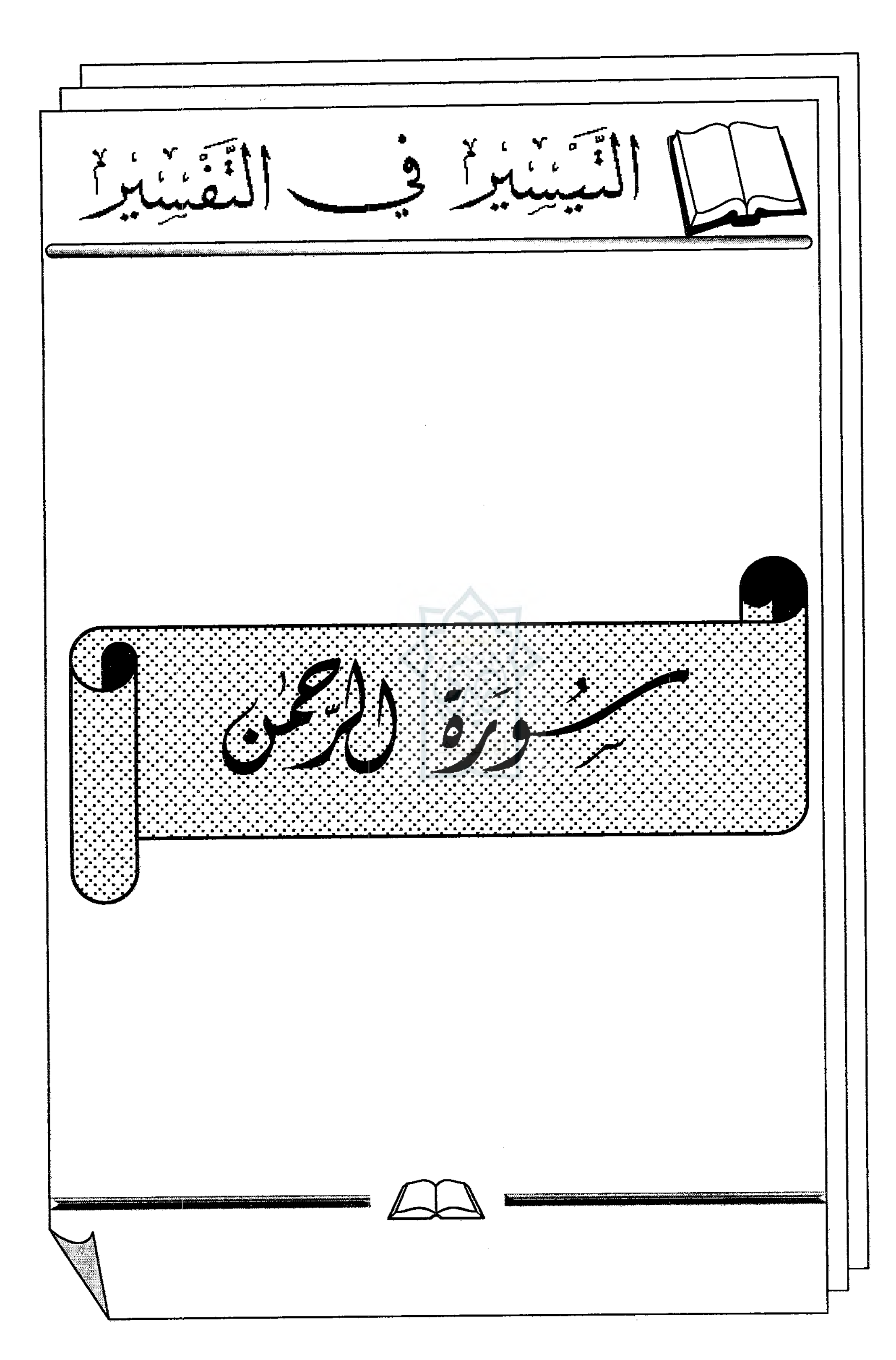
التيسير في التفسير
تأليف العالم الربّاني الكبير فقيه القرآن السيد/ بدر الدين بن أمير الدين الحوثي رضوان الله عليه
تحقيق: السيد/ عبدالله بن حمود العزي ، السيد/ محمد بدر الدين الحوثي
الطبعة: الأولى ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م

قياس القطع: (١٦,٥×٢٤)
عدد المجلدات: (٧)
الصف والإخراج: مؤسسة المصطفى ﷺ الثقافية
إخراج وتنسيق/ علي بن حمود العزي
رقم الإيداع بدار الكتب اليمنية: (٣٢٥/٢٠١٣م)

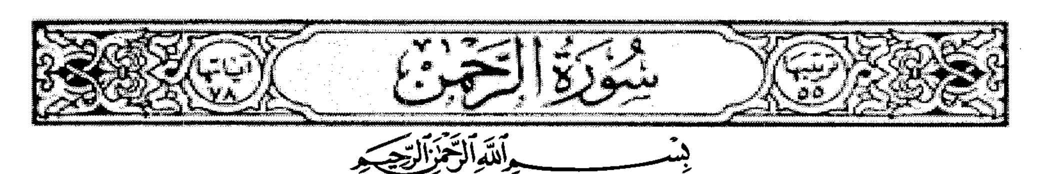




مؤسسة المصطفى ﷺ الثقافية
اليمن ـــ صعدة
جوال: (٠٠٩٦٧.٧١١٣٧٢٧٦٢) ـ (٠٠٩٦٧-٧٣٧٩٩٢٧٧٧) ـ (٠٠٩٦٧-٧١١٦٦٤٧٥٩)
بريد: almostafa.ye@gmail.com ـ hbhbhd@gmail.com


التيسير في التفسير
سورة الرحمن





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ

(سورة الرحمن)

كأنها نزلت في تحقيق أن الله هو (الرحمن) وتوثيق أن اسم الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ وأنه هو (الحق) لأن الكفار أنكروه قالوا: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان:٦٠]

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ٱلرَّحۡمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ هذا من أوائل الأدلة على رحمته سبحانه، فالقرآن رحمة للعالمين يدلهم على طريق الجنة، وعلى طريق النجاة من النار، فيه الهدى والنور فهو أعظم الرحمة لأن الهدى أفضل الرحمة لكونه طريق السعادة الدائمة و ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ يعني أنزل القرآن ويسر علمه للناس.

﴿٣﴾ ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ هذه من آياته ومن رحمته خلقه للإنسان لينعم عليه.

﴿٤﴾ ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ وهذه رحمة عظيمة؛ لأنه فضله بها على الأنعام وعلى سائر الدواب في الأرض لأنه ينطق عما في ضميره، يعبر عما في نفسه، ينظم الحروف يضم حرفاً إلى حرف بسهولة فتوجد كلمة، فيضم كلمة إلى كلمة بسهولة فيوجد كلام فصيح مفهوم، وكل هذا بإلهام من الباري تعالى، وهذا عجيب جداً جداً وهذه الحروف لها مخارج في اللسان وفي الشفتين وفي الحلق وأعلى الفم، فمخارجه مختلفة وبعضها متباينة والكلمة الواحدة تضم حروفاً متباينة، ويستطيع أن يجمعها بسرعة لا يحتاج أن يفكر كيف يضم حرفاً إلى حرف بسهولة، هذا إلهام من الله الرحمن الرحيم.

رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ

﴿٥﴾ ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ وهذه الشمس والقمر بحسبان من آيات الله، فآياته كلها الدالة عليه هي من الرحمة والنعمة للإنسان، الشمس هذه من الآيات العجيبة تجري في مجاريها في بروجها بحسبان، لأنها تقطع كل يوم درجة وكل ثلاثة عشر يوما منزلة، وتنتقل بعد ثلاثة عشر يوماً إلى منزلة ثانية وهكذا حتى تكمل ثماني وعشرين منزلة في سنة وتتمها، والقمر تتمها في شهر واحد ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ دقيق مثل حساب الساعة.

﴿٦﴾ ﴿وَٱلنَّجْمُ﴾ فسروا النجم بأنه الشجر الذي لا ساق له، وهو غريب تفسيره، ولعل تفسيره بأنه نجم من نجوم السماء أظهر وخصوصا بعد ذكر الشمس والقمر فالأولى أن يكون المقصود به النجم الحقيقي المفهوم المتبادر، وإن عطف عليه الشجر ﴿وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ فكل النجوم مسيّرة مسخرة على ما سخرها الباري في مجاريها، ومعنى السجود هنا الخضوع لله والانقياد لتسخيره.

﴿٧﴾ ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ بالنسبة إلى الأرض مرفوعة بقدرته كأنه جعلها سقفاً للأرض ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ تعليم العدل لأن الميزان يكون آلة تستعمل للتوصل إلى العدل لمعرفة الصواب والتساوي في الأشياء المطلوب التساوي فيها، فلما كان (الميزان) هذا الذي هو آلة موضوعاً لهذا الغرض صح استعمال اسم (الميزان) في تعليم العدل كيف يعدلون في معاملتهم فيما بينهم وبين الله وفيما بينهم هم.

وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ

﴿٨﴾ ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾ كأن (أن) مفسرة للميزان نفسه، أن لا تطغوا في الميزان بزيادة على الحق، عندما تزن لنفسك من مال الغير لا تزد على ما هولك.

﴿٩﴾ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ بالعدل ﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ لا تنقصوا في الميزان عما يستحقه المشتري.

﴿١٠﴾ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ وضعها جعلها مبسوطة مفروشة ممهدة صالحة للسكن للأنام أي للخلق كلهم الذين في الأرض.

﴿١١﴾ ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ هذه كلها من رحمة الله لعباده مهدها وجعل فيها أرزاقاً لهم مثل الفاكهة والنخل ذات الأكمام وهي آية من الباري حين جعل التمر في البداية يكون في أكمام أخبية، وإذا كبر التمر انفتح الخباء الكُمّ.

﴿١٢﴾ ﴿وَٱلۡحَبُّ﴾ جعل الله للإنسان الحب هذا رزق عظيم وهو من رحمته بعباده ﴿ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾ العصف: التبن والقصب، وهو رزق لأنعامنا كما قال: ﴿مَتَاعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ [النازعات:٣٣] قال الإمام الهادي عليه السلام: «العصف: القصب» لكن يمكن أنه يريد بالقصب قصب الذرة وقصب الشعير والبر ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ هذا هو آخرها، أنعم الله به على الإنسان، وفضله على الأنعام والسباع بهذه النعم الأشجار ذات الروائح الطيبة وهي كثيرة ومنوعة في شكلها ورائحتها، هذه نعمة عظيمة للإنسان، وتفسير الريحان بما قلنا: هو عندي أقوى من تفسيره بالرزق.

ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ

وإن كان يصح استعماله في الرزق، فاستعماله في ذات الروائح الطيبة أقوى وأظهر، ولأنه ذكره سبحانه بعد ذكر الفاكهة والنخل والحب، ولو كان معناه الرزق لقدمه، كما أنه قد أغنى عن ذكر الرزق ما عدده من الحب وغيره.

﴿١٣﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ نعم الله عليكم ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ أيها الإنس والجن يعني ليس هناك نعمة يمكن أن يكذبوا بها؛ لأنها نعم ظاهرة واضحة.

﴿١٤﴾ ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ﴾ الصلصال: الطين الذي قد يبس واشتد جفافه حتى صار يصلصل ﴿كَٱلۡفَخَّارِ﴾ والفخار: هو الخزف الذي يصنعون منه الأواني ونحوها.

﴿١٥﴾ ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾ المارج: هو اللهب على تفسير الإمام الهادي عليه السلام واللهب هو الأجزاء التي تنفصل عن بعضها في الهواء عند اشتعال النار، هذا هو الذي خلق منه الجان.

﴿١٦﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ هذه الآيات كلها لأن الآيات نفسها نعم وهي تبين بداية خلق الإنسان.

﴿١٧﴾ ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ وهذه من آياته العظيمة لأنه جعل للشتاء مشرقاً من الجهة الشرقية الجنوبية ، وللصيف مشرقاً من الجهة الشرقية الشمالية، وكذلك المغرب فكانت مشرقين ومغربين وهو ربها الذي سخر الشمس تجري في منازلها حتى تتمها، لأنها تبدأ من أقصى منازلها في جهة الشمال وتعود إلى جهة الجنوب حتى تنتهي منازل الصيف، ثم بعدها منازل الخريف، ثم منازل الشتاء، ثم منازل الربيع، ثم تبدأ في منازل الصيف

يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

وهكذا باستمرار، وكل ذلك بتسخير الله وقدرته سبحانه، فهذه آية عظيمة لأنها محكمة بدقة، كل يوم لا تختلف عن عادتها تلك كل يوم درجة في منزلتها ولأنها بذلك النظام وبتلك الدقة وبذلك الإحكام كانت دليلاً على الخالق المدبر العالم بكل شيء.

﴿١٨﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾ نعم ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أيها الجن والإنس.

﴿١٩﴾ ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أرسلهما حين خلق الماء أرسل البحر العذب والبحر الملح الأجاج ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ حقق الإمام الهادي عليه السلام في تفسيره في (سورة الرحمن): أنه التقاء حقيقي إذ لا يوجد بينهما حاجز مادي وإنما حاجز معنوي بقدرة الله سبحانه.

﴿٢٠﴾ ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ بينهما حاجز لا يبغي أحدهما الآخر.

﴿٢١﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾ نعم ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿٢٢﴾ ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ إما بمعنى أنه يخرج من كل واحد منهما اللؤلؤ والمرجان، أو من أحدهما اللؤلؤ، ومن الآخر المرجان، أو يخرج من كليهما لأنهم قالوا أن السحاب تأخذ من البحر العذب وتمطره على البحر المالح وإذا أمطرت هذا العذب تحول إلى لؤلؤ، وكذلك المرجان قد يكون مثله.

﴿٢٣﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ كلها نعم على الإنسان.

﴿٢٤﴾ ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾ وله هو الذي أجراها في البحر السفن التي تجري على وجه الماء تجري بسرعة بسبب الرياح التي تسيرها ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ التي

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ

في البحر ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ فسّروا (الأعلام) بالجبال، وعندي أنه بعيد تشبيهها بالجبال لأنها إذا كانت بعيدة تكون صغيرة في رأي العين حتى تتوارى عن الأنظار، والأقرب: أن الأعلام هنا يقصد بها الرايات، وأن المراد: أنها في حال جريها على الماء وحركتها تشبه الأعلام أي الرايات التي ترفرف وتتحرك عند هبوب الرياح والمشي بها.

﴿٢٥﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾ نعم ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وهذه السفن فيها نعمة كبيرة يسافر الناس فيها لأرزاقهم وحاجاتهم.

﴿٢٦﴾ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ من على الأرض ﴿فَانٍ﴾ فلا ملجأ إلا إلى الله وحده سبحانه الذي ينبغي أن يتوكل عليه ويطلبه ويدعوه كل الناس.

﴿٢٧﴾ ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ هو الحي الذي لا يفنى كما قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨] و (الوجه) هنا يعني: رحمته؛ لأن السياق في رحمة الله لعباده لأن الوجه يستعمل في الرحمة وفي الرضوان، وفي الرضاء والحب كما قال: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ وقال في أعدائه: ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:٧٧] أي لا يرضى عنهم، ولا يرحمهم، فهو كناية عن رحمته لعباده ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ يُجَلُّ ويُعَظَّم ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ هو ذو الإكرام لعباده المؤمنين يكرمهم.

﴿٢٨-٢٩﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كلهم يسألونه لأنهم عباده كلهم أهل السموات وأهل الأرض يلجئون في جميع حاجتهم إليه ويدعونه لحاجاتهم.

﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَـٰنٖ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا

﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ كل يوم وله شأن فهو يشفي مريضاً، أو يمرض صحيحاً، أو ينصر مؤمناً، أو يكبت ظالماً، وهكذا شئون العباد هو المتصرف فيها كيف يشاء؛ لأنه فعال لما يريد.

﴿٣٠-٣١﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ نعمه ﴿..تُكَذِّبَانِ * سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ هذا تهديد لكي نعد أنفسنا لذلك اليوم، كما قال: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الحشر:١٨] لأنه حساب دقيق، يسألنا عما قدمنا ويجازينا فهو يذكرنا لنتنبه جميعاً الجن والإنس.

﴿٣٢﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ نعم الله ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ لأن هذا الإنذار هو من جملة النعم علينا لأننا إذا قبلنا الإنذار وكنا مستعدين للآخرة فزنا برحمة الله.

﴿٣٣﴾ ﴿يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْ﴾ كأنه يقول لأهل السموات وأهل الأرض الذين هم في قبضته كلهم لا يقدر أحد أن يهرب من قبضته سبحانه يقال لهم ذلك، وأقطار السموات جهاتها ونواحيها ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَـٰنٖ﴾ لا يقدرون على الخروج منها بالكلية إلا بسلطان من الله بأن يجعل لهم قدرة ويجعل لهم تمكيناً.

﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ أنعم الله ﴿..تُكَذِّبَانِ * يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ هذا خاص بأعداء الله سبحانه يوم القيامة.

ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴿٤١﴾

﴿شُوَاظٞ﴾ لا دخان فيه لهب من نار ﴿وَنُحَاسٞ﴾ فسروه بالدخان وهذا الدخان قد أشار إليه في (سورة المرسلات) حين قال: ﴿**انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لاَ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ**﴾ [المرسلات:٣٠-٣١] ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ لا يستطيع أحد أن يرد عذاب الله .

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ..﴾ يوم القيامة ﴿فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ﴾ انقلب لونها إلى الحمرة ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ كأنها تتحول إلى سائل تذوب مثل الدهان، في (تفسير الإمام الهادي عليه السلام): «الدهان: حثالة الدهن» فسروه حين قال: ﴿**يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ**﴾ [المعارج:٨] قالوا: مثل حثالة الدهن.

﴿٣٨-٤٠﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَيَوۡمَئِذٖ..﴾ في حالة من أحوالهم وهو عند وصولهم إلى أبواب جهنم حينئذ ﴿..لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لا يقولون: ما ذنبك؟ ماذا فعلت؟ لأنه قد جعل الله فيهم السيماء والعلامات التي توضح أنهم مجرمون، وهو قوله:

﴿٤١﴾ ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ﴾ فالخزنة خزنة جهنم عندما يرونهم لا يسألونهم عن شيء، وليس المقصود أنهم لا يسألون سؤال تبكيت واحتجاج وقت الحساب ﴿فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾ قالوا إنهم يأخذون بنواصي النساء، وأقدام الرجال، وهذا عند وصولهم إلى أبواب جهنم، أما قبل ذلك فإنهم يساقون كما قال الله: ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا**﴾ وقال: ﴿**مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ**﴾.

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ

﴿٤٢﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أيها الجن والإنس.

﴿٤٣﴾ ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾كأنه يقال لهم هذا حينما يصلون إلى أبواب جهنم.

﴿٤٤﴾ ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ يعذبون بالماء الحار، يغمسون فيه ويسحبون فيه لأنه قال: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر:٧١-٧٢] فمرة بين الحميم ومرة بين الجمر واللهب ﴿ءَانٍ﴾ حار شديد الحرارة قد بلغ في الحرارة أقصاها.

﴿٤٥﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ أنعمه ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ لأن الحديث عن هذا رحمة للناس لأنه إنذار فهو نعمة.

﴿٤٦﴾ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ المؤمن الذي خاف مقام ربه وهو لا يزال في الدنيا خاف الموقف في ذلك اليوم يوم يقوم الناس لرب العالمين، يوم العرض على الله، واستعد له في الدنيا، هذا يكون له في الجنة جنتان لأن الجنة مشتملة على جنات كثيرة بساتين متعددة.

﴿٤٧-٤٨﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ نعم الله ﴿..تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ الأفنان قد تكون بمعنى جمع فَنَن وهو الغصن، وقد تكون بمعنى فن وهو النوع من الشيء، وأنا أرجح في هذا الموضع أن المقصود به الأغصان؛ لأنها جمال للشجرة، كما أن جمال الشجرة في الورق كذلك الأغصان لأنها زينة لها

ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوۡجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ

أما (الأفنان) بمعنى الأنواع، فستأتي في قوله: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ فأغنى ذلك عن تفسير (الأفنان) هنا بالأنواع.

﴿٤٩-٥٠﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ أنعمه ﴿..تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ﴾ في كل واحدة عين جارية مثل ما قال في (سورة الغاشية): ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ [آية:١٢] عين ماء تروي الشجر فتبقى مثمرة ومخضرة باستمرار كما قال: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد:٣٥].

﴿٥١﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ أنعم الله ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ أيها الثقلان.

﴿٥٢﴾ ﴿فِيهِمَا﴾ في الجنتين ﴿مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوۡجَانِ﴾ صنفان بقدرة الله وفضله ورحمته.

﴿٥٣﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ نعم الله ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ أيها الثقلان.

﴿٥٤﴾ ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ﴾ يقولون: إن البطائن هي المباشرة للأرض فيدخلون في إشكال لا يجدون إلا أن يقولوا: هذه البطائن فكيف بالظاهر؟! وعندي أن البطائن هي وجه الفرش المباشرة للجالس؛ لأن الحديث عن وصف ما يتكئون عليه، وأنه الإستبرق وهو غليظ الديباج ﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ﴾ الثمر الذي قد نضج وطاب يكون دانياً قريباً للمتناول.

﴿٥٥﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ نعم الله ﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

﴿٥٦﴾ ﴿فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ حور قاصرات الطرف على أزواجهن فلشدة حبها له ورغبتها فيه لا تريد إلا هو ولا تنظر إلا إليه ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أبكار لم يفتضهن قبلهم أحد لا جن ولا إنس.

﴿٥٧-٥٨﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ نعم الله ﴿..تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ شبه هؤلاء الحور بالياقوت وهو أحمر اللون ﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾ قالوا: صغار اللؤلؤ وهو أبيض شديد البياض، فيكون بياضها مشرباً بحمرة زائدة في بعض الأجزاء من الجسد مثل الخدود.

﴿٥٩-٦٠﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ ليس جزاء طاعته لله وتقواه في الدنيا إلا الإحسان في الآخرة من الله، وهذا أمر عظيم جداً حق أن يطرب له الإنسان حين يقول ملك الملوك لعبده: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ يعني: حين يعتبر إحسان العبد الحقير مقابل إحسانه هو، وكأنه بعمله للطاعات قد أحسن إلى الله!! سبحان الله ما أكرمه.

﴿٦١-٦٢﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ومن دون الجنتين بقي له جنتان أقرب من تلك إلى قصره فهي حينئذ أربع اثنتان بجوار قصره، واثنتان أبعد منهما.

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ

﴿٦٣-٦٤﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَآمَّتَانِ﴾ يعني لصلاح الشجر صار الورق لشدة اخضراره وصلاحه يضرب في خضرته إلى سواد.

﴿٦٥-٦٦﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ قوية النضخ، قوية الجري ولقوتها صار الماء يترشش على جوانب المجاري مما يدل على غزارة الماء وقوة اندفاعه.

﴿٦٧-٦٨﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ في الجنتين فاكهة ونخل ورمان النخل والرمان فيهما زينة جميلة عندما يخضر ورق الرمان وتتفتح أزهاره وتتدلى أثماره يكون بديع المنظر، وهكذا النخيل منظرها غاية في الجمال.

﴿٦٩-٧٠﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ في الجنتين ﴿خَيْرَٰتٌ﴾ نساء خَيِّرات ذوات أخلاق طيبة تحب الإحسان وتحب ترغيب الزوج، والأدب والطاعة يعني الخير كله والحسان من الحسن أي الجمال.

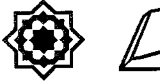
﴿٧١-٧٢﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ هذا تفسير للخيرات الحسان ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ مصونات رغبتهن في البقاء في الخيام لا تحب أن تغادر خيمتها وهذه من الصفات الحسنة في المرأة. والخيام هذه روي أنها من اللؤلؤ والزبرجد.

إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

﴿٧٣-٧٤﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ جعلهن أبكارا مثل ما قال: ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ [الواقعة:٣٦].

﴿٧٥-٧٦﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ..﴾ فراش ﴿رَفْرَفٍ﴾ وكأن الرفرف هو ذو خمل ومن شأنها أن ترف يعني تتحرك حينما يجلس عليها، وهذه الخمل في لونها ﴿خُضْرٍ﴾ جميلة لخضرتها ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ جميل فيه زينة عظيمة بديعة، والعرب تسمي الشيء البديع المتقن عبقريا وهو وصف للفرش ـ أيضاً.

﴿٧٧-٧٨﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ أنعمه ﴿..تُكَذِّبَانِ * تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ عظم وجل اسم ربك الرحمن ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ ذي العظمة والجلال، والإكرام لعباده المؤمنين سبحانه وتعالى.






سورة الواقعة





سُورَةُ الوَاقِعَةِ

مرتبتها ٥٦ — آياتها ٩٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ الواقعة: هي التي لا بد من وقوعها، إذا وقعت كان أمراً عظيماً، يدل عليه سياق الكلام في السورة.

﴿٢﴾ ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ كل ما أخبر الله به عنها وعن ما فيها من الأحداث والوقائع فهو صدق لا يتبدل.

﴿٣﴾ ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ خافضة لأعداء الله المتكبرين في الدنيا، رافعة لأولياء الله ترفع درجاتهم.

﴿٤﴾ ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ هذا تفصيل وتفسير للواقعة مثل قوله: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر:٢١] وقوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة:١] وقوله: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة:١٤].

﴿٥﴾ ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ فُتَّتْ حتى صارت أجزاء إلى حد أنها تصير هباء منبثا كما قال:

﴿٦﴾ ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنۢبَثًّا﴾ الهباء أجزاء صغار ترى في شعاع الشمس الداخل من النافذة.

﴿٧﴾ ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً﴾ الخطاب إما للأحياء الموجودين في وقت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أي أنت ومن آمن بك ومن لم يؤمن بك، أو الخطاب للبشر كافة، مثل ما قال: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف:٢٨] يعني النساء كافة.

وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٞ مِّنَ

﴿٨﴾ ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ أصحاب اليُمْن والخير والبركة ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ سؤال عنهم كأنه تقديم للجواب عنهم من هم، أو تعظيم لأمرهم، وشأنهم الذي سيصيرون إليه.

﴿٩﴾ ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ كذلك أصحاب الشؤم والنحس والعاقبة السيئة ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ الأقرب عندي والله أعلم أنه سؤال عن حالهم التي يكونون عليها، سؤال تقدمة للجواب الذي سيجاب به عنهم، وتفصل به أحوالهم.

﴿١٠﴾ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ هذا الصنف الثالث السابقون، السابقون في طاعة الله، السابقون إلى الثواب العظيم، والدرجات العلى، كأن المعنى: السابقون في الدنيا السابقون في الآخرة.

﴿١١﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ لأن لهم قربى وزلفى ومكانة عظيمة، فهم مقربون عند الله سبحانه وتعالى، ويمكن أنهم المعنيون في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء:٦٩] والله أعلم.

﴿١٢﴾ ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ إما خبر بعد خبر لأولئك، وإلا: المقربون في جنات النعيم، كله مستقيم.

﴿١٣﴾ ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ يبين مقدارهم من الأمم ﴿ثُلَّةٞ﴾ أي جماعة ﴿مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ﴿١٨﴾ لَّا

﴿١٤﴾ ﴿وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ كأنه قد قل الخير فيهم ليس السابقون منهم إلا قليلاً، والثلة قالوا: هي تعبير عن جماعة كبيرة.

﴿١٥﴾ ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ﴾ هذه السرر موضونة أي منسوجة محكمة النسج مضاعفة النسج.

﴿١٦﴾ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا﴾ الاتكاء الميل بالجانب، والاعتماد على شق ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾ لأنهم متحابون في الله متآخون، فالإنسان يحب أن يرى صاحبه، وصاحبه يحب أن يراه، وكأن كلا يرى صاحبه في غرفته، مع سعة وكثرة نوافذ وأبواب الغرف يقال: إنه يكون للغرفة الواحدة خمسمائة باب.

﴿١٧﴾ ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾ يخدمهم ﴿وِلۡدَٰنٞ﴾ خدام غلمان يقربون لهم ما يطلبون ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ عندي أن معناه ـ والله أعلم ـ مخلدون لا يصيبهم مرض، بل يكونون أصحاء سالمين من كل ما ينفر مثل الزكام والسعال ونحوه مما يستقذر فيمن يلي خدمة الإنسان.

قال امرؤ القيس:

وهل يعمن إلا سعيد مخلد　　　قليل هموم ما يبيت بأوجال

﴿١٨﴾ ﴿بِأَكۡوَابٖ﴾ يقربون لهم الأكواب التي يشربون منها وهي جمع كوب وصفها في (سورة هل أتى) بأنها ﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ﴾ [آية:١٦] جمع من الفضة والزجاج ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ جمع إبريق كأنه يصب من الإبريق في الكوب ﴿وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ﴾ خمر من عين نابعة.

يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٞ ﴿٢٢﴾ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا

﴿١٩﴾ ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا﴾ لا يصيبهم صداع بسببها ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ لا يحصل لهم نزيف، النزيف قد يكون إسهالاً، وقد يكون دماً، تتقطع الكبد وتنزف دماً، فهذه الخمر لا ينزفون عنها أي بسببها، ليست مثل خمر الدنيا تأتي بمضار، مثل ما قال في (سورة الصافات): ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ﴾ [آية:٤٧].

﴿٢٠﴾ ﴿وَفَٰكِهَةٖ﴾ يطوف بها الولدان ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ هؤلاء السابقون يكون لهم من الفاكهة مما يتخيرون، وينتقون ويحبون.

﴿٢١﴾ ﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ﴾ كذلك ﴿مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ قدمت الفاكهة على اللحم لأنها تفتح شهية اللحم، كما قدمها في (سورة الطور) قبل اللحم.

﴿٢٢﴾ ﴿وَحُورٌ عِينٞ﴾ رفعها، لأنها ليست مما يُقرّبه الخدم، وهي إما معطوف على ولدان ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ﴾ ﴿وَحُورٌ عِينٞ﴾ يطوف عليهم حور عين، أو ولهم حور عين، حور: جمع حوراء، وعين: جمع عَيناء واسعة العين، الحَوَر: شدة سواد الأسود في العين مع شدة بياض الأبيض فيها، ويمكن أن تكون مكحلة من أصل الخلقة.

﴿٢٣﴾ ﴿كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ﴾ في صفاء البشرة ونعومتها وبياضها كأنها ﴿ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ﴾ المصون الذي لا يزال في أخبيته.

﴿٢٤﴾ ﴿جَزَآءَۢ﴾ لهؤلاء السابقين ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ في الدنيا.

سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً

﴿٢٥﴾ ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ أنظر من حكمة الله سبحانه لم يجعل هذا من الجزاء لما أخره بعد قوله: ﴿جَزَآءً﴾ لأنه ليس إلا مجرد سلامة من أذى ومن ضر واللغو هو الكلام التافه والتأثيم: كأن يقال يا فاجر يا خبيث ونحو ذلك مما في الدنيا، ففي الآخرة لا شيء من هذا.

﴿٢٦﴾ ﴿إِلَّا﴾ لكن ﴿قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ لا يسمعون من بعضهم الآخر إلا كلاماً طيباً، يسلمون على بعضهم البعض.

﴿٢٧﴾ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ هذا القسم الثاني بدأ يفسره و﴿ٱلْيَمِينِ﴾ هي رمز اليُمْن كما أوتي كتابه بيمينه.

﴿٢٨﴾ ﴿فِي سِدْرٍ﴾ السدر: هو هذا النبق العلب، ﴿مَّخْضُودٍ﴾ لا شوك فيه يستظلون به؛ لأن ظلاله جميل.

﴿٢٩﴾ ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ الطلح المنضود، قالوا: هو الموز ﴿مَّنضُودٍ﴾ لما كانت أوراقه من أسفله إلى أعلاه مرصوص بعضها على بعض.

﴿٣٠﴾ ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ ظل أشجار كبيرة ظلها واسع ممدود، وفي الحديث: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها».

﴿٣١﴾ ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ عين جارية، أو كما قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان:٦] يفتحونه ويفجرونه هم متى أرادوا.

﴿٣٢﴾ ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ لأصحاب الميمنة.

﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۝ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ﴾ (٣٥-٤١)

(٣٣) ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ عنهم لأنها مثمرة في كل وقت ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ ليسوا ممنوعين عنها بل يقطفون منها متى أرادوا، وتلاحظ أنه لم يذكر أن مع هؤلاء أصحاب الميمنة خدماً مثل السابقين الذين قال عنهم: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ..﴾ لأن أولئك بمثابة الملوك.

(٣٤) ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ ولهم فرش مرفوعة على السرر.

(٣٥-٣٦) ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ۝ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ يمكن أن الضمير هنا مبهم فسره بقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ كما قال: ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ البعض يقول إن الفرش هنا عبارة عن الحور نفسها، لكن بالإمكان أن تبقى الفرش على حقيقتها، ويفهم من ذلك من على الفرش وهي الحور ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ كل ما أتاها وجدها بكراً.

(٣٧) ﴿عُرُبًا﴾ عروبة متحببة إلى زوجها تكلمه بكلام لطيف جميل مرغب ﴿أَتْرَابًا﴾ مستويات في السن.

(٣٨) ﴿لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ إما بمعنى جعلهن ﴿أَتْرَابًا﴾ لأصحاب اليمين بحيث يتساوين هن وأصحاب اليمين في السن، أو بمعنى أن كل هذا لأصحاب اليمين الحور وكل ما ذكره.

(٣٩) ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أصحاب اليمين هم جماعة من الأولين يمكن أنها جماعة كثيرة.

(٤٠) ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ كذلك.

ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾

﴿٤١﴾ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ هذا هو القسم الثالث بدأ يفسّره ويحكي وضعهم السيء، وتلاحظ أنه لم يقل: ﴿ثُلَّة﴾ كما وصف السابقين وأصحاب اليمين، وهذا يدل على كثرة أهل النار وأنهم معظم البشرية، نعوذ بالله.

﴿٤٢﴾ ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ السموم قد يكون هواء حاراً جداً يدخل من مسامه مع التنفس ويصل إلى رئتيه، والحميم الماء الحار.

﴿٤٣﴾ ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ كأنه ظل من دخان أسود.

﴿٤٤﴾ ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ ليس ظلاً بارداً ولا يفيدهم وإنما يزيدهم ضيقاً كما قال تعالى: ﴿لاَ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ [المرسلات:٣١].

﴿٤٥﴾ ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ هذا هو السبب الترف أدى إلى أن يستكبروا فعصوا رسلهم.

﴿٤٦﴾ ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الجريمة الكبيرة، أو القسم العظيم، اليمين الغموس.

﴿٤٧﴾ ﴿وَكَانُواْ﴾ ينكرون البعث ﴿يَقُولُونَ﴾ استنكاراً ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ قد تحولت أجزاؤنا بعضها قد صارت تراباً، وبعضها لازال عظاماً ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾هل نبعث بعد هذا ونجازى.

أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ

﴿٤٨﴾ ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أيضا ـ وهو الأغرب عندهم ـ هل سيبعث آباؤنا الأوائل الذين قد بليت أجسامهم بين التراب.

﴿٤٩-٥٠﴾ ﴿قُلْ﴾ هذا رد عليهم ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ..﴾ لابد أن يبعثوا ويجمعوا كلهم الأولون والآخرون ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ ميعاد محدود.

﴿٥١﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ يشير إلى هؤلاء الذين في الدنيا الضالين عن الحق المكذبين بلقاء الله المعرضين عن كتابه.

﴿٥٢﴾ ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ هذا نوع من الجزاء يدل على غيره.

﴿٥٣﴾ ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ يضطر لمواصلة الأكل حتى يملأ بطنه رغم حرارتها وشدة كراهتها.

﴿٥٤﴾ ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ كذلك يشرب على الزقوم.

﴿٥٥﴾ ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ يستمر في الشرب لا يمنعه شدة حره من شربه، حتى يقطع أمعاءه و﴿ٱلْهِيمِ﴾ الإبل التي تصاب بمرض يسمونه (الهيام) إذا أصابها تظل تشرب باستمرار حتى تموت كما يقال.

﴿٥٦﴾ ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ﴾ ضيافتهم ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ فور وصولهم إلى جهنم تقدم لهم هذه المائدة من الزقوم والحميم نعوذ بالله، ولما كان قد توعدهم بهذا المصير في الآخرة، بعد أن حكى تكذيبهم جعل يحتج عليهم فقال:

فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ

﴿٥٧﴾ ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ﴾ قد صار خلقكم دليلاً على أنه ممكن بعثكم، وأن لا وجه ولا حجة لكم في استبعاده حين قلتم: ﴿أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا..﴾.

﴿٥٨﴾ ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ﴾ المني هو الماء الدافق ليس فيه صورة ولا عظام ولا مفاصل ولا عروق وخلق سبحانه منه إنساناً.

﴿٥٩﴾ ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ هم يعلمون أن الله سبحانه هو الذي يخلقه.

﴿٦٠﴾ ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ فهو بقدرة الله الإحياء والممات ، كذلك جعله على مقادير محدودة هذا يموت في وقت، والثاني في وقت آخر، والثالث كذلك في أوقات متفرقة على صفة محكمة، لأنه لو جعل الموت للجيل الواحد في لحظة واحدة لأختل نظام الحياة وكان هولاً شديداً لا يطاق ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ لستم بفائتين علينا.

﴿٦١﴾ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ نجعل خلائف في الأرض غيركم وننشئكم في حالة لا تعلمونها، بأن نغير هذه الحالة التي أنتم فيها إلى حالة ثانية مثل المسخ أو غيره.

﴿٦٢﴾ ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ لما خلقناكم أول مرة ﴿فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فهلا تذكرتم قدرتنا على إنشائكم بعد الفناء.

ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ

﴿٦٣﴾ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ الحرث الذي تحرثونه من الأرض، تبذرون فيه البذر.

﴿٦٤﴾ ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ الله الذي زرعه أنبت الزرع وأحياه ونماه حتى جاء منه الثمر، لا دخل للمخلوقين في هذا إلا عملية البذر بالبذور التي خلقها هو سبحانه.

﴿٦٥﴾ ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ لأن جعله للزرع هذا إنما هو من تفضله ورحمته ونعمته على عباده، وإلا لو شاء لجعله ﴿حُطَٰمًا﴾ مفتتاً مكسراً ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ ظللتم تفكهون بالحديث قائلين:

﴿٦٦﴾ ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ حدثت لنا غرامة وخسارة لما جعله حطاماً.

﴿٦٧﴾ ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ من الثمرة في المستقبل.

﴿٦٨﴾ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ لا يحتاج إلى وصف الماء لا في كونه يروي، ولا في كونه يبرد، أو أنه لذيذ طعمه وعذب هم يعرفون كل هذا فاكتفى بقوله: ﴿تَشْرَبُونَ﴾.

﴿٦٩﴾ ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ من السحاب كلا.. الباري هو من أنزله.

﴿٧٠﴾ ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ ليس من الضروري أن يكون عذباً بل لو أراد لجعله أجاجاً شديد الملوحة وإنما رحمة منه وتفضل.

نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ

﴿٧١﴾ ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾ تشعلونها.

﴿٧٢﴾ ﴿ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ﴾ شجرة المرخ والعفار أعرف شجرة العفار وهو شجرة في طعمها نكهة الكبريت وورقها أبيض، وكذلك عيدانها ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ﴾ الله الذي أنشأها بقدرته.

﴿٧٣﴾ ﴿نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا﴾ النار هذه ﴿تَذۡكِرَةٗ﴾ للناس لأنها تذكر بنار الآخرة ﴿وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ﴾ الذين قد صاروا في القواء أي القفر مسافرين فهم بحاجة إلى نار للتدفئة والطبخ ونحو ذلك من الفوائد التي لا تخفى.

﴿٧٤﴾ ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ نزهه عما يقول أعداء الله الكافرون، حينما أنكروا قدرته على البعث بقولهم: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا...﴾ فهو العظيم القادر على كل شيء، العالم بكل شيء.

﴿٧٥﴾ ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ هذا قسم من الله ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ ولعل المقصود بمواقعها مواضعها في بروجها ومجاريها التي لا تختلف عنها؛ لأن فيها حكمة وإتقاناً عجيباً، ودلالة على الخالق.

﴿٧٦﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ لأنه آية عظيمة لكنهم لا يفكرون ولا ينظرون في آيات الله.

﴿٧٧﴾ ﴿إِنَّهُۥ﴾ هذا القرآن هذا جواب القسم ﴿لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ فيه الخير والهدى والنور والنفع للمؤمنين الذين يتفهمونه، ويتبعونه ويتمسكون به.

إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ

﴿٧٨﴾ ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ كأنه كتاب في السماء أول ما أنزل للملائكة ليقرؤوه وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤] فهو أم الكتاب ربما هو يعني الكتاب المكنون قال الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام في وصفه: «سماويٌّ أحله الله برحمته أرضه».

﴿٧٩﴾ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ ذلك الكتاب المكنون لا يمسه إلا الملائكة المطهرون، الذين طهرهم الله من الذنوب.

﴿٨٠﴾ ﴿تَنزِيلٌ﴾ أنزله الله على رسوله ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ المالك وهم عباده، يدعوهم إلى الهدى ويحتج به على أعداء الله.

﴿٨١﴾ ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ هذا القرآن الذي هو بهذه الصفة من الحكمة والإحكام والإتقان العجيب، والذي قد سمعوه وعرفوا أنه أمر خارق ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ متساهلون فيه متهاونون به ترون أنه من السهل تكذيبه.

﴿٨٢﴾ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي بسبب أنكم تكذبون، الراجح عندي في معناها أنهم كانوا يستدلون على كونهم المحقين بما هم عليه من التكذيب بآيات الله مغترين بنعم الله عليهم كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم:٧٣] استدلوا على أنهم أهل الحق بما أعطاهم ووسع عليهم من الدنيا حتى جعلوا التكذيب سبباً للرزق، وهذه أظهر عندي من الاعتماد ـ في تفسيرها ـ على رواية أنهم كانوا يقولون: مطرنا بنوء كذا..

﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ

﴿٨٣﴾ ﴿فَلَوْلَآ﴾ حين ينكرون الآخرة والبعث والجزاء ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ الروح ﴿ٱلْحُلْقُومَ﴾ طلعت الروح ووصلت إلى الحلقوم وأوشكت على مغادرة الجسد.

﴿٨٤﴾ ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ إلى هذا الذي أشرف على الموت أو ﴿تَنظُرُونَ﴾ أي تنتظرون خروجها.

﴿٨٥﴾ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ ملائكتنا الذين يتولون إخراجها ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ لا ترونهم.

﴿٨٦﴾ ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ كرر ﴿فَلَوْلَآ﴾ ليرتب عليها قوله ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ يعني: غير مجزيين في الآخرة ترون أن هذا المشرف على الموت وما يعانيه ليس إلا لأسباب بسيطة ومجرد وعكة صحية طفيفة يمكن أن يستعمل لها الأدوية، إذاً فعالجوه بأي علاج لعلكم:

﴿٨٧﴾ ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ أي الروح ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعوى أنكم غير مدينين ولكن هذا الموت أمر الله لا يمكن رده عندما ينزل.

﴿٨٨-٨٩﴾ ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ هذا الذي قد خرجت روحه ﴿..مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ رَوْح استراحة من عناء الدنيا وتعبها وبلائها وما عاناه من مشاق في صبره على طاعة الله، وعلى الجهاد في سبيل الله فاستراح.

أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

كما قال في الحديث: أنه مر على رسول الله ﷺ بجنازةٍ، فقال: ((مستريحٌ أو مستراح منه)) قلنا: يا رسول الله ما مستريحٌ أو مستراح منه؟ قال: ((العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد العاصي يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب)) (تيسير المطالب) [ج١/ ص ٤٢٩].

فهذا معنى (رَوْح) أي راحة وخروج من عناء الدنيا إلى حياة أفضل ﴿وَرَيۡحَانٞ﴾ يفسره البعض بالرزق لكنه في الريحان هذا الشجر الذي تكون رائحته طيبة أظهر، فحمله عليه أظهر وأقوى من تفسيره بالرزق، لأنه بعدها قال: ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾ وفيها ما تشتهيه الأنفس.

﴿٩٠-٩١﴾ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ هذا الميت ﴿..مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ * فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ هذا عندي أنه بشارة له بأنه من أصحاب اليمين ليأمن ويطمئن أنه ناج من النار، أي سلام لك حال كونك من ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أو سلام لك أنت من ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ المهم أنه بشارة أنه من أصحاب اليمين، هذا عندي أقرب.

﴿٩٢﴾ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أعداء الله الذين ضلوا عن الحق عن سبيل الله.

﴿٩٣﴾ ﴿فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ ضيافة وقرىً له معجل من حميم.

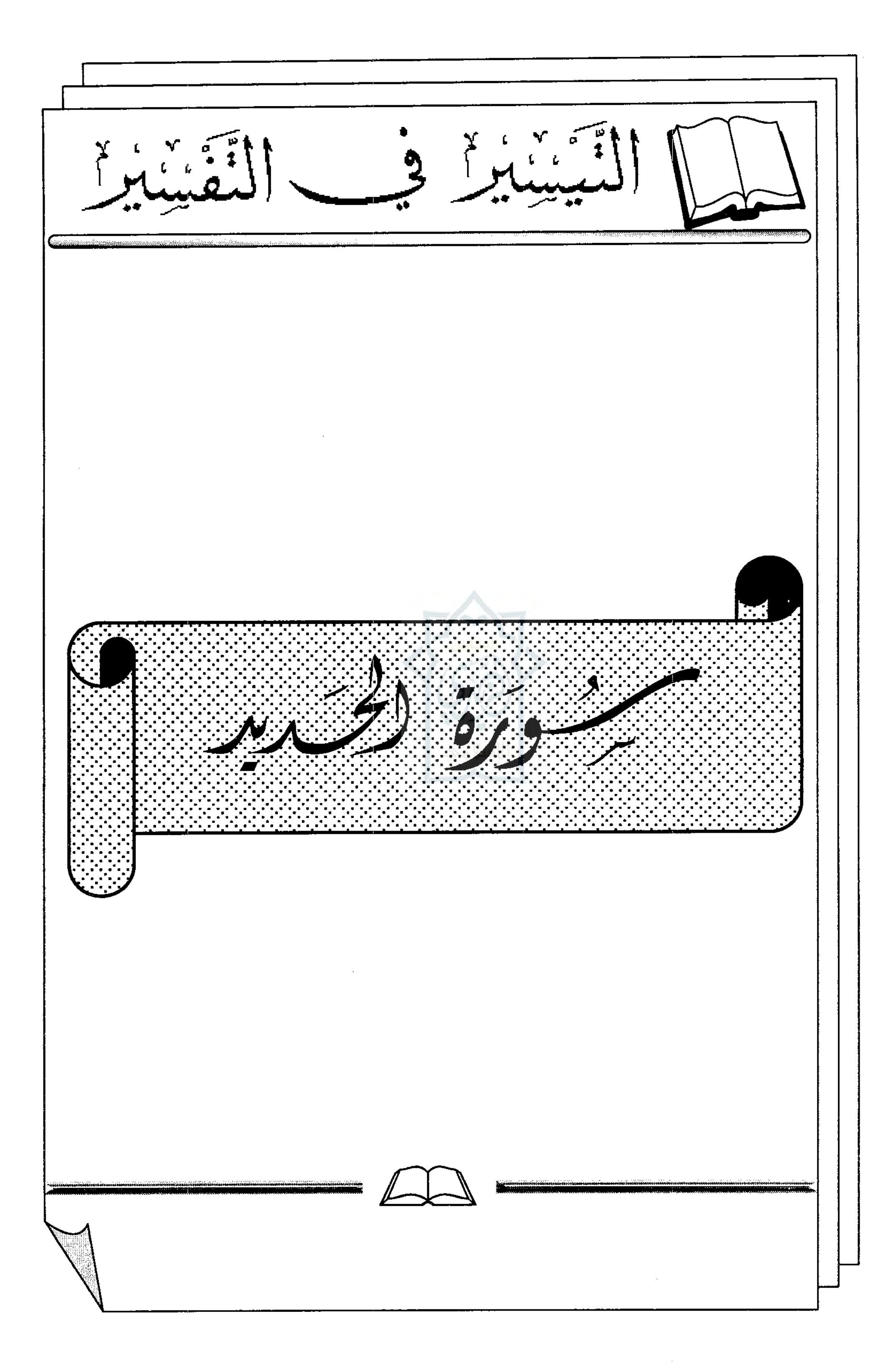
﴿٩٤﴾ ﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ حين يدخل جهنم، ويباشرها بجسده، والجحيم النار المتأججة.

(٩٥) ﴿إِنَّ هَـٰذَا﴾ القرآن ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ فإذا كان هو الحق اليقين فما وعد به فهو حق وصدق من أنه لا بد من لقاء الله، ولا بد من الجزاء للمؤمنين، ولا بد من الجزاء لأعداء الله.

(٩٦) ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ نزهه عما يقول المكذبون بالقرآن، الذين أنكروا أنه من الله لأنهم بذلك جعلوه كأنه قد أهمل عباده وتركهم وكأنه ما خلق السموات والأرض إلا عبثاً، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.






التيسير في التفسير
سورة الحديد



سُورَةُ الحَدِيدِ

آياتها ٢٩ — ترتيبها ٥٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الراجح فيها: أن معنى تسبيحها دلالتها على تنزهه من كل نقص ومن كل عيب لأنها تدل على قدرة عظيمة وعلم محيط بكل شيء، وأنه غني عن كل شيء، فدلت على أنه منزه عن كل ما ينسب إليه الجاهلون ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ بعزته وحكمته هو غني عن تسبيحهم.

﴿٢﴾ ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كلها مملكة له السموات بما فيها من الملائكة، والأرض بما فيها من البشر وغيرهم، كلها ملكه ﴿يُحْيِۦ﴾ هذا تحقيق لمعنى الملك وأنه، ملك يختص به، بحيث أنه يحيي يوجد أحياء ﴿وَيُمِيتُ﴾ يميت أحياء، لأن له الخلق والأمر وحده.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أحاطت قدرته بكل شيء، لا يفوته شيء، ولا يعجز عن شيء.

﴿٣﴾ ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ قبل كل شيء ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ بعد كل شيء ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ بآياته ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ عن أن يدرك بالحواس ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ علمه محيط بكل شيء، هذه الآيات أثبتت عزته وحكمته وقدرته على كل شيء، وعلمه بكل شيء.

ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ

﴿٤﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ خلق الأرض والسماء في يومين، وجهز الأرض بالجبال وغيرها في أربعة أيام ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ كان له الملك والولاية على كل شيء والأمر والنهي والتصرف.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ما يدخل فيها مثل البذور وغيرها ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من الأرض مثل النبات و غيره ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾الملائكة والمطر وغير ذلك ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ ما يصعد، الملائكة ـ أيضاً ـ والكلم الطيب وكل أعمال العباد وأرواح المؤمنين وأما أرواح الكافرين فلا؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف:٤٠] فهو عالم بكل شيء.

وقوله: ﴿فِيهَا﴾ يظهر منه: أن المقصود بالسماء: نفس جهة علو، حين قال: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي في جهة علو ولم يقل: إليها بل أبهمها، يصعد فيها في جهة علو بما فيها السبع السموات، ومن تحت السماء الدنيا كله سماء ﴿وَهُوَ﴾ الله سبحانه ﴿مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ لأنه قد قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ نبهنا على أنه ليس مثل استواء المخلوق الذي يقعد على العرش ويتحيز في جهة معينة، بل لا يقاس بالمخلوقين في شيء وكذلك فهو معنا لا بالمقارنة، قال أمير المؤمنين: «مع كل شيء لا بمقارنة».

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ سبحانه بصير بأعمالنا يجازي على كل عمل بقدر ما يناسبه صالحاً كان أو سيئاً قليلاً أو كثيراً.

تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم

﴿٥﴾ ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أعادها كأنه ليرتب عليها قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ فله ملك السموات، وإليه المرجع عند المشاكل والحاجات والمهمات؛ لأنه على كل شيء وكيل ليس متخليا عن عباده.

﴿٦﴾ ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ بقدرته ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ تنبيه على قدرته العظيمة ﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كذلك ينبه على إحاطة علمه بكل شيء حتى ما تخفيه الصدور.

﴿٧﴾ ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لأن الإيمان بالرسول ﷺ يستلزم الإيمان بالرسل كلهم والكتب كلها ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ﴾ لأن الإنسان إذا أطاع الله في هذا الإيمان والإنفاق فسيوفق لطاعته في غيرها ومعنى مستخلفين أي أننا نخلف غيرنا في المال فكأنه للناس عامة إنما اللاحق يخلف السابق ويحوزه ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ الأساس هو الإيمان ليقبل الإنفاق.

وقوله: ﴿مِنكُمۡ﴾ كأنه يعني مضاعفة الأجر للأولين لأنهم السابقون الذين قام الإسلام على إنفاقهم وتضحياتهم فهم المؤسسون وبجهودهم استقوى الإسلام وتمكن وتوسع فيما بعد، واستمر حتى وصل إلى الأجيال من بعدهم فما وصل إلينا إنما هو من آثار الأولين.

مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ

﴿٨﴾ ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ بمعنى كيف ﴿لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ لستم مهملين بل معكم رسول يدعوكم إلى الإيمان ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بما ركب فيكم من العقول التي تدلكم على أن الله ربكم كما قال: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا**﴾ [الأعراف:١٧٢].

﴿٩﴾ ﴿هُوَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ وهي تدلنا على الإيمان فكان قد زودنا بالعقول وبالآيات التي ينزلها القرآن وكذا بالأعلام من أهل بيت النبوة عليهم السلام ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمات الجهل والشرك والكفر ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلى نور الإيمان والهدى ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حين يعلمكم الإيمان لتنجوا من النار وتدخلوا الجنة وهذا من رأفته ورحمته بكم.

﴿١٠﴾ ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ وليس لكم ﴿أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لأن الملك لله، والمال لله، وقد أمر بالإنفاق، فكان من الواجب الإنفاق في سبيل الله ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو الوارث بعد كل أحد ومن بخل بالمال تركه للوارث ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ بيَّن الفرق تفاوتهم في فضل الإنفاق بين من أنفق وقاتل قبل الفتح وبعده.

ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١١﴾ يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ

ويمكن أنه قبل الفتح عموماً فتح مكة والحديبية، فيكون ذلك الإنفاق في وقت متقدم عند حاجة الإسلام إلى الإنفاق وإلى الجهاد يوم كانوا فقراء وقلة فكان للأنفاق في ذلك الزمن وكذلك الجهاد كان له فضل كبير ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾ مثل الإمام علي عليه السلام الذي تميز بكثرة الإنفاق والمصابرة على والجهاد من أول الإسلام فهؤلاء أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ الفريقين من المؤمنين وعدهم المثوبة الحسنى بمعنى الجزاء الحسن على عملهم كلاً على قدر عمله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ خبير بأعمالكم عالم بخبرها وحقيقتها.

﴿١١﴾ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ أعاد الكلام في الترغيب في الإنفاق، وهو الإنفاق في سبيل الله، ويمكن أنه يشمل الإنفاق في سبيل الله وغيره، لكن الإنفاق في سبيل الله قد صرح به في قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ يكون إنفاقه بطيبة نفس، ومن الحلال فشبهه كأنه قرض لأنه يعود له يوم القيامة لا ينقص عليه شيء ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ يضاعف له في العمل وفي الأجر فما بالك بالأولين المؤسسين فأعمالهم تتضاعف بسبب ما يترتب عليها من الفوائد وما يتفرع عليها من المصالح مع مرور الزمن فهي تضخم بقدر ما يترتب عليها من الفوائد، هذه مضاعفة العمل نفسه ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ الثواب بعد ما يكون العمل قد كثر وكبر يضاف له أجر كبير بقدره مضاعفٌ كريم طيب يدل على كرم المعطي.

تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ

﴿١٢﴾ ﴿يَوْمَ﴾ يحتمل: أنه ظرف لقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي يحصل له أجر كريم في ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بمعنى يوم القيامة، ويحتمل أن يكون بمعنى اذكر ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ بعد خراب هذا العالم وفنائه حيث لا شمس ولا قمر ولا نجوم يعم ظلام دامس، لكن يبقى مع المؤمنين نور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم،لأنهم أوتوا كتبهم بأيمانهم فكان النور فيها نور حقيقي يستضيئون به ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يبشرهم الملائكة بالجنة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ باقين فيها ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لا أعظم منه فوز لأنه سعادة عظيمة دائمة.

﴿١٣﴾ ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ كأن المؤمنين في تلك الحالة ذاهبون إلى الجنة فيناديهم المنافقون: انتظرونا نقتبس من نوركم، توهموا أنه مثل نور الدنيا يمكن أن يقتبسوا منه ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ كأن الملائكة هم الذين أجابوا عليهم ويتهكمون بهم بقولهم: ﴿فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ بينما المؤمنون ماضون في الطريق إلى الجنة لم يلتفتوا إليهم، والملائكة يذودونهم عن اللحاق، ولكنهم يلحون في المحاولة ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ ما أوقفهم عند حدهم إلا السور الذي حجز بينهم وبين المؤمنين، وحال دون اللحاق بهم ﴿بَاطِنُهُۥ﴾ باطن السور، أو باطن الباب مما يلي المؤمنين ﴿فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ والسلامة من العذاب ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ مما يلي المنافقين.

قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ

﴿١٤﴾ ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ هؤلاء المنافقون ينادون المؤمنين من خلف السور قائلين: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ حين منعوا من الدخول معهم وأوصد الباب في وجوههم ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ قد كنتم مسلمين في البداية ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ فيما بعد بالنفاق ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ قد كنتم تتربصون بالإسلام وجاهدين في أن يبطل ويظهر الكفر ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ شككتم في صدق الوعد والوعيد، وكنتم مترددين ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ كنتم تمنون نفوسكم أنكم إذا رجعتم إلى الله سوف يغفر لكم ويثيبكم من غير عمل ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ فما بقي إلا الصدق والحقيقة ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ الشيطان غركم بالله حولكم عن الله سبحانه.

﴿١٥﴾ ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ هذا يوم القيامة ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ أيها المنافقون ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كذلك لا يؤخذ منهم فدية ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ تأوون إليها هي مستقركم ومكانكم الدائم ﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ هي التي تتولاكم أرى أن المعنى هكذا يعني ما بقي لكم مولى، لأن الله تعالى لما قال: ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [السجدة:١٤] يعني: أنه أهملهم وتركهم لما غضب عليهم فلم يعد هنالك من يتولاهم كما قال: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد:١١] فما بقي إلا جهنم تتولاهم، وهذا من المشاكلة مثل: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٣٨] وقد قالوا في تفسير ﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي هي أولى بكم وهو مستقيم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ مصير بائس تصيرون إليه ـ نعوذ بالله ـ

لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٌ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ

﴿١٦﴾ ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ قد قرب الوقت لهذه القلوب لأن تخشع إذا ذكر الله وذكرت عظمة الله وجلاله وقدرته على كل شيء، وعلمه وإحاطته بالإنسان وبعمله ومصيره، وأنه القادر على تعذيبه ليس له مهرب منه، فإذا فكر فمن حقه أن يخشع قلبه ويذل لله سبحانه، وكذلك تخشع لذكره ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي القرآن، لأنه قال: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر:٢١] فحقهم وحقنا نحن أن تخشع قلوبنا جميعاً لذكر الله وما نزل من الحق ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ﴾ أهل الكتاب كأنه التوراة والإنجيل، أو قبلهم ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ﴾ طال عليهم الوقت وهم متغافلون عن التذكر مع وجود الكتاب بين أيديهم لكنهم نسوا حظاً مما ذكروا به ﴿فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٌ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ فكانت القسوة نتيجة لعدم التذكير، والفسق نتيجة للقسوة نعوذ بالله.

﴿١٧﴾ ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ كأن هذا دواء لقسوة القلوب أن يتذكر الإنسان ويعلم أن الله على كل شيء قدير لأنه يحيي الأرض بعد موتها، ويحيي الموتى بعد موتهم يعيدهم، فكذلك القلوب تحيا بذكر الله فيمدها الله بالهداية، وهذا مما يزرع الأمل في نفس الإنسان في إمكانية التوبة والرجوع إلى الله، لأنه مع قسوة القلب قد يقنط الإنسان من رحمة الله. قال الإمام علي عليه السلام في وصيته لأبنه «أحي قلبك بالمواعظ وقرره بالفناء» ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ تعقلون ما تدل عليه.

قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ

﴿١٨﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ أعاد الكلام في الحث على الإنفاق ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ جعله قرضاً، باعتبار أنه سيوفّاه يوم القيامة ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ مثل ما قال سابقاً: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ يضاعف لهم نفس العمل وكذلك يحصل لهم أجر كريم.

﴿١٩﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ هذا عودة إلى الترغيب في الإيمان وأنا أرى أن كل مؤمن داخل في اسم الصديقين، وداخل في اسم الشهداء، يعني الشهداء الذين يشهدون على الناس يوم القيامة؛ لأنه قد قال: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣] وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١] فالمؤمن شهيد على من رأى من أهل زمانه.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ على الإيمان ﴿وَنُورُهُمْ﴾ يوم القيامة، ويمكن أن المقصود النور الحقيقي الذي ذكره سابقاً ففي قوله: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الذين كفروا بالآخرة، وكذبوا بآيات الله الدالة على صدق الرسل ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ هذا هو مصيرهم في مقابل مصير الذين آمنوا بالله ورسله.

مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن

﴿٢٠﴾ ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ لما كان الناس يتكالبون على الدنيا ، ومن أجلها كفروا بالرسل وحاربوهم حفاظاً على مناصبهم بين أنها ليست إلا شيئاً حقيراً تافها لا يستحق كل هذا العناء وأن يفوت الجنة ويدخل النار من أجلها وأمرنا أن نعلم ذلك ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ أهلها في لعب ولهو، اللعب ظاهر معناه، واللهو الانهماك فيما يلهيهم عن طاعة الله، وعن العمل الصالح ﴿وَزِينَةٞ﴾ مما يعجب المرء التزين به من الأزياء والحلي وغيرها ﴿وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ﴾ يتفاخرون بكثرة المتلكات ﴿وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ كل واحد يسعى للتفوق على الآخر في المال والولد.

﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ﴾ وكل هذا الذي من أجله يستحسنها الإنسان ويميل إليها إنما هو مثل مطر أحيا النبات ﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ لأنهم لا يريدون إلا الدنيا ولا يفكرون إلا فيها فهم يعجبون بها أكثر من غيرهم، والأولى حمله على ظاهره لكون الكفار لا يؤمنون بالآخرة، فالدنيا لها وقع شديد في نفوسهم وهي عظيمة عندهم، مثل ما قال ذلك الجاهلي: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ [النساء:٧٣] يريد الغنيمة سماها فوزاً عظيماً.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أنا أرجح في معنى ﴿يَهِيجُ﴾ على ما تقدم أنه بمعنى يتناهى في الصلاح ويتكامل ويحين وقت حصاده ﴿فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾ من بعد ذلك ينتهي، تمثيل لأمور الدنيا وملذاتها مما يتفاخر ويتكاثر فيه الناس، وأنه ليس إلا مؤقتا عما قريب يكون حطاماً.

رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ

وكل ما تقدم عن الدنيا من الأوصاف فإنما ينطبق على أهلها الذين جعلوا منها غاية ولم يستغلوها كمزرعة للآخرة أما المؤمن الواعي فإنه يسخر ما يملكه من الدنيا ـ مهما كثر وعظم ـ في طاعة الله وفي سبيل الله، فهي دار صدق لمن صدقها كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في جوابه على الذام للدنيا.

﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أمور عظيمة وأهوال شديدة تستحق أن يشغل الإنسان فكره ووقته في الدنيا بما ينجيه من عذاب الله ويبلغه مغفرته ورضوانه ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ كذلك كما أن فيها عذاباً شديداً فيها أيضاً مغفرة ورضوان لمن سار في طريق الجنة واستقام عليه حتى النهاية والبداية هي من هنا من الدنيا ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ ليست إلا متاعاً يستمتع به فترة قصيرة ثم ينتهي؛ لأن المتاع انتفاع قصير غير مستمر بل لأمد يسير، فلهذا سمي متاعاً إضافة إلى كونه ﴿مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ يغتر به عن الآخرة.

﴿٢١﴾ ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يأمرنا الله أن نسابق إلى المغفرة، لأن الإنسان إذا لم يسابق قد يخترمه الموت والمسابقة إلى المغفرة يكون بالمبادرة إلى التوبة والتخلص مما يجب التخلص منه ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عندي أنه حين قال كعرض السماء والأرض أنها كروية كما هي السماء والأرض ﴿أُعِدَّتْ﴾ هذه الجنة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ ترغيب في الإيمان، والمقصود به الإيمان الكامل الذي يبعث على طاعة الله وتقواه، وعلى الحذر من النار والرغبة في الجنة.

أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ

﴿ذَٰلِكَ﴾ الجنة هذه العظيمة الواسعة ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ بالهداية والتوفيق أي أن نفس الهداية لها والتوفيق إنما هو بفضل الله يؤتيه من يشاء فلا ينالها أحد إلا بفضل الله ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ عنده الفضل العظيم يلتمس منه، ويرتجى منه، ويطلب منه؛ لأنه عنده لا عند غيره.

﴿٢٢﴾ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مثل ما يصيب الأشجار من البَرَد أو الجراد وغيرها من الآفات والمصائب التي تأتي على الأرض ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ مثل الأمراض والموت ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ كلها مقدرة لم تات صدفة بل قد قدره الله لنا ولأرضنا من قبل أن يخلق الأرض ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ تقديرها كلها على كثرتها.

﴿٢٣﴾ ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أخبرناكم بأن هذا كله مقدر من عندنا لكيلا تأسوا إذا علمتم أنه كله مقدر الضر في أنفسكم أو في الأرض لا مهرب منه ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ كذلك لأنه شيء مكتوب فلا ينبغي الفرح به يعني الفرح الذي يصحبه سرور واطمئنان، تطمئن النفس إلى الشيء، كأن الدنيا قد استقامت للإنسان إذا حصل له شيء منها، بينما في الواقع أنه لا يصفو للإنسان عيش فيها لأن المنغصات كثيرة ولا فرحة إلا وبعدها هم ولا صحة إلا وتبعها سقم هذا ما يجب أن نفهمه عن الدنيا، وأما السرور بغير اطمئنان وركون إليها فهو ضروري جبل عليه الإنسان وليس مذموماً ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ صاحب الخيلاء المعجب بنفسه، الفخور الذي يفخر على غيره، فهذا ليس محبوباً عند الله، ثم مضى في وصفه أيضاً:

يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا

﴿٢٤﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ كأنه سبب جهله، وفرط تغفله وصل إلى حالة الخيلاء والفخر وأداه ميله إلى الدنيا وتشبثه بها إلى أن يبخل بماله فسلب التوفيق وتمادى في غيه حتى صار يأمر غيره بالبخل، كما قال تعالى عن أولئك المنافقين ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾ [المنافقون:٧] ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن الله تعالى وعن طاعة الله، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ ليس بحاجة إلى أحد فهو غني وحميد يستحق الحمد.

﴿٢٥﴾ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ وهم كثير آخرهم محمد ﷺ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدلائل البينات التي تدل على أنهم رسل ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الرسول ومعه كتاب فيبين لهم ما في الكتاب ويتركه لهم بعد أن يموت ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ﴿وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ والميزان يبدو أنه هنا تعليم العدل كيف يعدل الناس في معاملتهم لبعضهم الآخر ، ويتمثل ذلك بالأحكام التي في القرآن الكريم وما جاء عن الرسول ﷺ ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ فيه بأس شديد حين يستعمل في الحرب، ومنافع للناس فيه كثيرة ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أما هذه ففائدة عظيمة حين يستخدم في الجهاد في سبيل الله لأن السلاح بأنواعه قديما وحديثا مصنوع من الحديد فوفر سبحانه هذه المادة لتستخدم في

وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا

مجالها الصحيح من قبل من ينصره ورسله بالغيب، يعني وهو لما يشاهد ما أعد الله لأوليائه المجاهدين في الجنة، وكانت قوة الإيمان بذلك هي الدافع الأساس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فلهذا اختار للمؤمنين أن يجاهدوا في سبيله، واقتضت قوته وعزته أن ينصرهم.

﴿٢٦﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ هما من ضمن الرسل حين قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا..﴾ وإنما خصهما بالذكر ليرتب عليه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ الأنبياء منهم والكتب تنزل عليهم ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾ من تلك الذرية من اهتدى بهدى الله، وآمن بالرسول والكتاب ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ لأنهم مالوا إلى الدنيا وهم من ذرية نوح وإبراهيم.

﴿٢٧﴾ ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ ثم أتبعنا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ على آثار هؤلاء الذين هم من ذرية إبراهيم ونوح أتبعنا على آثارهم برسلنا، فالرسل كثير ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أتبعنا به وهو من أواخر الرسل المبشرين بمحمد ﷺ وخصه بالذكر ليرتب عليه ما بعده من الحديث في الذين اتبعوه ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ آتى عيسى الإنجيل كما آتى موسى التوراة والأنبياء الكتب، فليس الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ بدعاً كما تقدم.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورًا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ

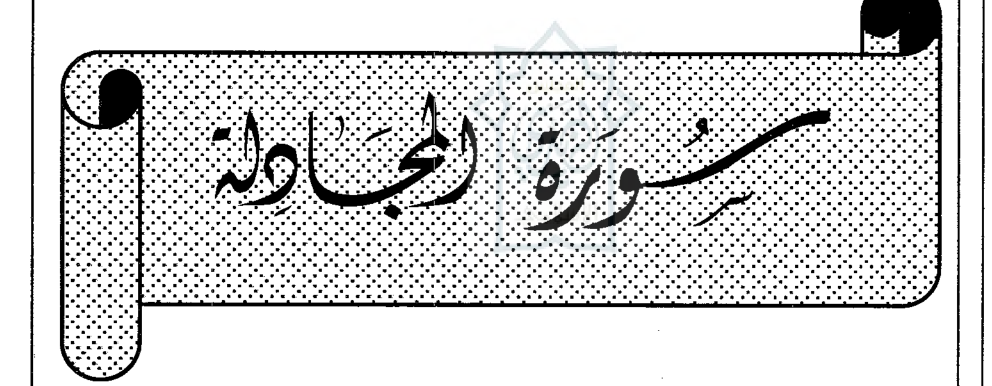
﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ الذين استقاموا على دينه من الحواريين كأن المقصود هم ﴿رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾ الرأفة أبلغ في الرقة والعطف من الرحمة فجعل ذلك في قلوبهم فكانوا يهتمون بالمريض وباليتيم وبالطفل ويسعون في مواقع الرحمة ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً﴾ تخلياً للعبادة ﴿ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ يعني الرهبانية هذه ابتدعوها هم وهي زائدة على الذي كتب عليهم ومن أجلها تصوفوا وتركوا الزواج رغبة عن الملذات ﴿مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ يمكن أنه استثناء منقطع أي لكن ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ﴿فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ لأن فيها مشقة لما كانت تعني التفرغ الكامل للعبادة وترك أمور الدنيا ﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡ﴾ لأن الأساس هو الإيمان لا يقبل العمل إلا بالإيمان فالمؤمنون منهم آتاهم الله أجرهم على العبادة ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ لم يكن عملهم مقبولاً عند الله. لأنه قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧].

﴿٢٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ رجع الكلام في الإيمان والحث عليه؛ لأنه في البداية قال: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ في الموجز الذي في أول السورة، ثم قال بعده: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يذكرّ بأهمية ووجوب الإيمان بالرسول ﷺ وهذا الإيمان الذي يأمر به ليس مجرد التصديق باللسان بل هو الإيمان الراسخ في القلب الباعث على اتباعه ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ نصيبين يمكن أنه نصيب مقابل الإيمان، ونصيب مقابل التقوى حين قال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ ويمكن أن يكون أحد الكفلين في الدنيا ثواباً عاجلاً، والثاني في الآخرة ثواب آجل

ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ نوراً في قلوبكم بصيرة وهدى تتنور قلوبكم مثل ما قال: ﴿أَوَمَنۡ كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢] قد يعني أن هذا النور توفيق وهداية وزيادة بصيرة لا يميل مع أهل الدنيا ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ لأن التقوى تستلزم التوبة التي بها تغفر الذنوب ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ كثير المغفرة والرحمة.

﴿٢٩﴾ ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ﴾ يمكن أن المقصود ليعلم يقال: أن (اللام) زائدة حتى أن الإمام الهادي في (الأحكام) مثّل بهذه الآية في الاستدلال على أن العرب تثبت (لا) وهي لا تريدها ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ﴾ ليعلم ﴿أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ لما مَنّ الله على أهل الكتاب بإرسال الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم استحكمت في كثير منهم الأنانية حتى أنفوا أن يجعل الله الرسالة في غير (بني إسرائيل) فكانوا ألد الأعداء للرسول محمد ﷺ فنبههم في هذه الآية إلى كون الأمر بيده والفضل بيده يؤتيه من يشاء، وليس لهم أن يتحكموا أو يتدخلوا في مسألة اختيار من أراد الله من عباده رسولاً ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ لأن الملك له، والأمر له وهو أعلم حيث يجعل رسالاته ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ فيطلب منه سبحانه الفضل العظيم بالإيمان والإنفاق والطاعة، والانقياد لأمره.


سورة المجادلة



سورة المجادلة

ترتيبها ٥٨ — آياتها ٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ هذه التي قالت: «اللهم إن أوساً طلقني حين رق عظمي ونثرت له كنانتي، وقلّتْ حاجة الرجال مني» يعني شكت إلى الله، لأن النبي ﷺ لما يكن لديه جواب في هذه المسألة وظلت تجادله فيما أقدم عليه زوجها من الظهار، وهي تطلب حكما شرعياً في المسألة وإلا فهي تعلم أن الجاهلية كانوا يجعلونه طلاقاً ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ اتجهت بشكواها إلى الله ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ تحاور النبي ﷺ والمرأة هذه ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ما يخفى عليه شيء من الأصوات، ولا شيء من المرئيات كلها متجلية له.

﴿٢﴾ ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ أولاً أنكر الظهار عليهم وأن زوجته لا تصير أمه بسبب الظهار ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ هن أمهاتهم حقيقة ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ الذين يظاهرون ﴿لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ كذباً فيه ميل إلى الباطل أي أن جعلها مثل ظهر أمه ليس حكم الله، وإنما حكم جاهلي ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ عما مضى في الجاهلية لا يحاسبهم عليه مثل قوله في قتل الصيد: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة:٩٥] لما كانوا يقتلون الصيد في الحرم أيام الجاهلية، فنهى عنه الإسلام وعفا عما مضى من قتلهم له في الجاهلية وهدد من عاد إليه في الإسلام بالانتقام.

ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ

﴿٣﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ من عاد إلى الظهار بعد ما نهى الله عنه في الإسلام وبعد ما بين أنهم إنما يقولون منكرا من القول وزورا ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ شرع حلاً للمشكلة إذا كان قد جعلها على نفسه مثل ظهر أمه فيحرر رقبة يعتق رقبة من قبل أن يطأها ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ هذا الكفارة موعظة وزجر لكم لتتركوا الظهار.

﴿٤﴾ ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ عتق رقبة ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ كذلك حل المشكلة يلزمه عند عجزه عن العتق صيام شهرين ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ وهو كذلك لا يمسها إلا بعد أن يكمل صيام شهرين متتابعين ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ صيام شهرين فالحل قوله: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ يعطي لكل واحد نصف صاع من بر مثلا أو صاعاً من غيره، والأقرب: أنه لا يلزمه الامتناع عن المماسة في مسألة الإطعام إذا عجز عن الإطعام. لأنه الخيار الأخير، وإذا لم يجد فلا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴿ذَٰلِكَ﴾ هذا التعليم والأحكام الشرعية هذه ﴿لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ التي حددها لكم عتق رقبة أو إطعام ستين مسكيناً أو صيام شهرين متتابعين ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ بأحكام الله ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٥ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٦ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٧ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ

۝٥ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ هذا ابتداء كلام كأنه في المنافقين والكفار. يحادونه أي يعادونه ويباينونه ﴿كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ كبتوا: أذلوا وأخزوا مثل ما أذل وأخزى الذين من قبلهم ﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ تهدي من أراد أن يرجع إلى الهدى ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ لأنهم أهل للإهانة في مقابل كبريائهم.

۝٦ ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا﴾ يمكن أن المقصود يبعثهم جميعاً المنافقين والكفار ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ سبحانه أحصاه ما فات عليه منه شيء من أعمالهم، بينما هم قد نسوا تلك الأعمال لعدم اهتمامهم بمستقبلهم الأخروي ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ أعمال الإنسان كلها هو شهيد عليها، وهذه فيها موعظة عظيمة لأنه حين يأتي يوم القيامة وظهرت الأعمال التي ما كانوا متوقعين أن لها ذلك الأثر السيئ وأنها توجب لهم النار، والنار قد برزت أمام أعينهم، هذا أمر كبير كبير، وورطة مهمة عظيمة.

۝٧ ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ كأنه تعجيب من هذه الحالة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أحاط علمه بها كلها السموات وما فيها، والأرض وما فيها

وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ هذا تمهيد للكلام في النجوى للدلالة على أنه رقيب على كل متناجين شهيد عليهم بما قالوا لا يخفى عليه شيء من كلامهم ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ حتى لو اختفوا في أي مخبأ في الدنيا فهم تحت رقابته لا يخفى عليه كلمة من كلامهم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وهذه هي النتيجة أنه يوم القيامة ينبئهم بما عملوا ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من عملهم لأن علمه محيط بكل شيء.

﴿٨﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ هذا تعجيب منهم لأنهم ارتكبوا خطأ عظيماً حين عادوا إلى النجوى، وخصوصا وقد تقدم النهي عنها ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ نفس الذي نهوا عنه لا يزالون يتناجون به، الإثم وكأنه فيما يخصهم، والعدوان: الاعتداء على غيرهم، وكذلك يتناجون بمعصية الرسول قد يكون هذا بناء منهم على الكفر، وأنهم غير مؤمنين بأنه رسول ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ تحية اختلقوها هم معهم فيها نية فاسدة ولعلها قولهم: السام عليكم، السام: يعني الموت ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ جعلوها وسيلة للكفر حيث أضمروا في نفوسهم هذا القول، ومعناه: لو كان محمد رسولاً حقاً لعذبنا الله بما نقول لكونه يعلم سرنا ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ رد عليهم بما قالوا في أنفسهم ﴿حَسْبُهُمْ﴾ بمعنى تكفيهم جهنم لا يشترط أن يعذبهم في الحال فجهنم هي المصير السيئ الذي لا أسوأ منه ـ نعوذ بالله منها ـ

تَتَنَـٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

﴿٩﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَـٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ هذا يشير إلى الإذن منه سبحانه بالمناجاة لكن بشرط أن لا يتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول كما فعل الكفار ﴿وَتَنَـٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ لا بأس في التناجي بالبر والتقوى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ فراقبوه لأن مصيركم إليه.

﴿١٠﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هو الذي يغري أولئك المنافقين بها لأجل يحزن المؤمنين عندما يرون المنافقين وهم يتناجون ويتآمرون ضد المؤمنين ﴿وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ فأمّنهم من ضرر أولئك مهما تناجوا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ ليتوكلوا على الله ويعلموا أنه لا يضرهم شيء إلا بإذنه، أي بتخليته بينهم وبين عدوهم.

﴿١١﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾ تفسحوا لا تتزاحموا عند النبي ﷺ وربما كذلك عند الهداة من أهل بيته، وكل المجالس التي يجتمع الناس فيها للاستماع للعلم والحكمة والموعظة، فأمرهم بأن يفسحوا ليتسع المجلس لأكبر عدد ممكن من الناس لتعم الفائدة وينتفع الجميع .

ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞

فإذا قيل لكم ذلك أياً كان القائل ﴿فَٱفۡسَحُواْ﴾ امتثلوا لأن فيه أجراً وثواباً ﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ قد يكون في الدنيا والآخرة ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ﴾ أي قوموا وانصرفوا ﴿فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ لامتثالهم للأوامر في التفسح والنشوز بدون أنفة، والمقصود بالذين أوتوا العلم هنا أولئك الذين قد استفادوا أكثر من غيرهم من المؤمنين الجدد وذلك لمداومتهم على مجلس الرسول ﷺ واستماعهم لتعاليمه بقلوب واعية حتى منحهم الله الهداية والعلم والحكمة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ لا يخفى عليه من أعمالكم شيء.

﴿١٢﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾ قدموا صدقة قبل المناجاة، ولعل الهدف من ذلك هو التخفيف على النبي ﷺ من كثرة المناجاة لأن الكثير يريدون مناجاته ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾ تقديم الصدقة لأن الصدقة تطهرة من الذنوب ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ﴾ ما تتصدقون به ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ لا يضطركم إلى الصدقة ولا لترك المناجاة مع الإعدام، كما قال سبحانه: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق:٧].

﴿١٣﴾ ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖ﴾ بخلتم عن تقديم الصدقة قبل المناجاة ، لأنه لم يعمل بهذه الآية غير أمير المؤمنين علي عليه السلام أما الباقون فقد تركوا مناجاة الرسول خشية تقديم الصدقة.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ﴾ لم تطبقوا أمر الله بالتصدق قبل المناجاة ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أسقط عنكم هذه الفريضة وهذا الحكم ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لأن المهم أن تكون الصلاة قيمة كاملة بشروطها وفروضها وكذلك الزكاة لا ينقصون منها شيئاً ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في كل ما أمركم ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أطعتم أم عصيتم.

﴿١٤﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ نعوذ بالله، هذا التولي كأنه أشد الكبائر وأقبحها؛ لأن عقوبته هي الدرك الأسفل من النار والظاهر أن المقصود بهم المنافقون الذين تولوا اليهود المغضوب عليهم ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ هؤلاء المنافقون الذين تولوا اليهود ما هم منكم أيها المؤمنون لأنهم خرجوا عن دائرة الإيمان بتولي اليهود فأنتم لا تثقون بهم، كما أنهم غير مقبولين لدى أوليائهم من اليهود فهم لا يثقون بهم فصاروا مذبذبين، وهذا من جهة الثقة بهم ليسوا من اليهود أما في الإثم ووحدة المصير فهم منهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:٥١] يعني في الإثم والعذاب ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ مثلا يحلفون بالله إنهم ما قالوا إلا كلام حق وصواب لكي يغطوا نفاقهم وجرائمهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون متعمدون اليمين الفاجرة الغموس ـ نعوذ بالله ـ

﴿١٥﴾ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فهم أهل للعذاب الشديد في الدرك الأسفل من النار لأجل توليهم للكفار، ولأجل الأيمان الفاجرة، وسائر معاصيهم لله ورسوله.

فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ كلمة ﴿كَانُواْ﴾ تدل على التكرار في الماضي، وأنه قد طال أمدهم في معاصي الله وليس فقط هاتين الجريمتين المذكورتين.

﴿١٦﴾ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ﴾ كأنه يعني صدوا غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بسبب أيمانهم الكاذبة التي اتخذوها وسيلة للتضليل والخداع؛ لأنه يظهر أن بعض المؤمنين كانوا يغترون بكلامهم كما قال سبحانه: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٧] ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ دلالة على أنهم قد ارتكبوا جرائم كبيرة.

﴿١٧﴾ ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ لا يغتروا بأموالهم ولا بأولادهم التي أنعم الله بها عليهم في الدنيا فهي لا تدفع عنهم من عذاب الله شيئاً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ في الدرك الأسفل من النار.

﴿١٨﴾ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ المنافقين والكفار ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾ في محاولة يائسة للتغطية على جرائمهم ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ مثل ما يحلفون لكم في الدنيا الآن ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ يحتمل: أن المقصود في الدنيا أو في الآخرة ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ والباري سبحانه عالم بهم ولا يمكن أن يغتر بكذبهم سبحانه.

ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

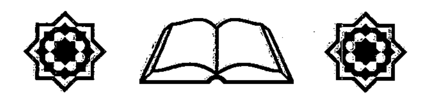
﴿١٩﴾ ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ سيطر عليهم ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ لأنهم ظلوا غافلين عن الله غفلة شديدة لا هم لهم إلا الدنيا وعمل النفاق وكل الجرائم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أهل هذه الصفة هم حزب الشيطان الذين انظموا إليه وصاروا في قبضته يدير شئونهم كيف يشاء ﴿أَلَآ﴾ هذه (ألا) أداة إعلام للتنبيه على أهمية القضية ﴿إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأنهم سيخسرون يوم القيامة أنفسهم وأهليهم وما يملكون ولم يبق لهم إلا العذاب الأليم.

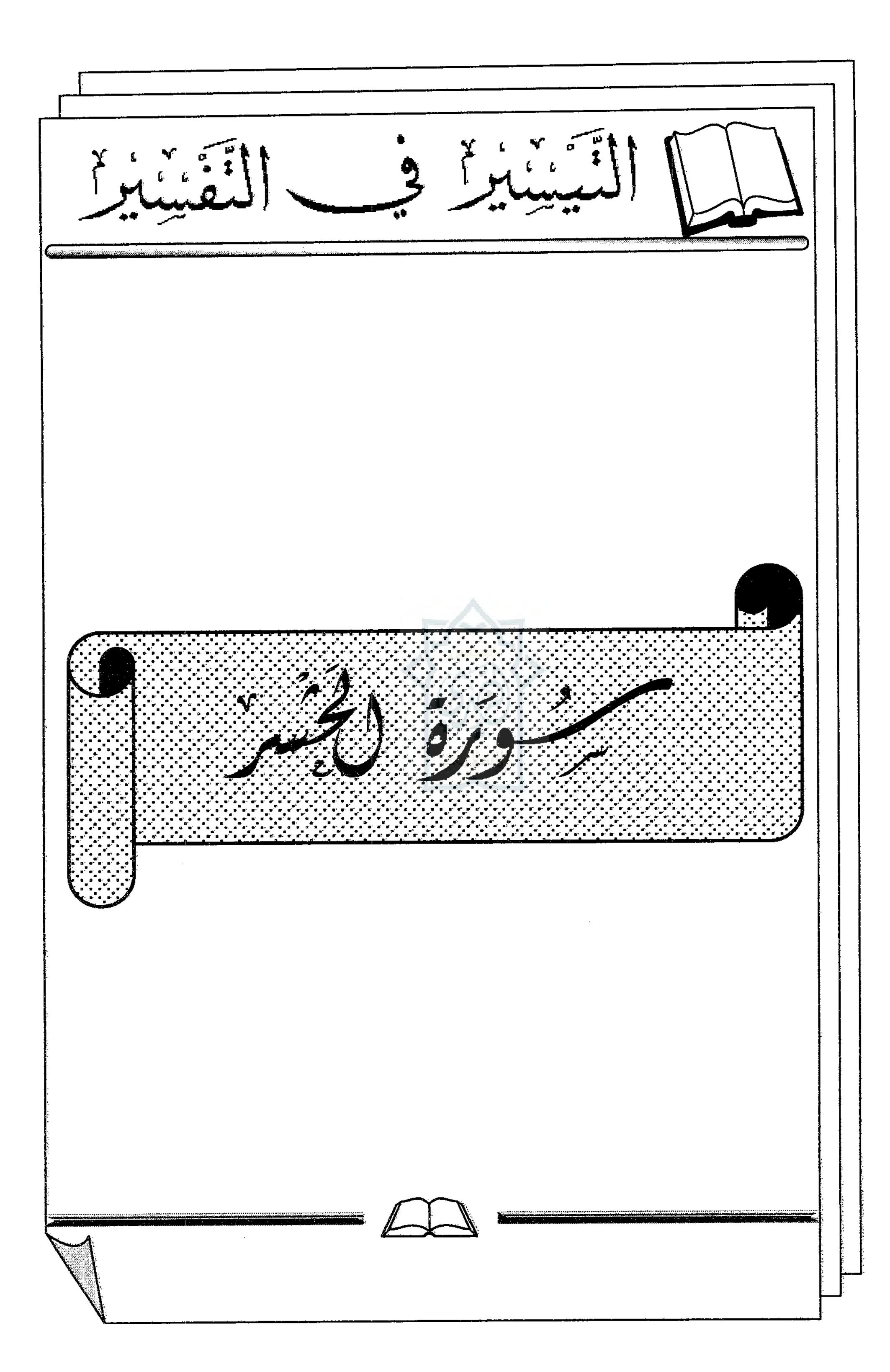
﴿٢٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ يباينون ويعادون الله ورسوله، يمكن أنها في الكفار والمنافقين جميعاً فهم يعتبرون محادين لله ورسوله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ لأن الله أعز رسوله وأعز المؤمنين وأذل أعداءهم.

﴿٢١﴾ ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ هذا لأن الله سبحانه هو الغالب على أمره والقاهر فوق عباده كتب ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ حكم بهذا وأوجبه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ فهو الغالب على أمره القاهر فوق عباده.

﴿٢٢﴾ ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ هذا تحذير عام لكل الناس بعد ما بين شدة غضبه على الذين

يوادون قوما غضب الله عليهم، وفيه: يبين أن المؤمنين الصادقين لا يوادون الكفار لا تجد أيَّ مؤمن يواد من حاد الله ورسوله سواء كانوا من الكفار أو كانوا محسوبين على المسلمين كالمنافقين ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ فلا تراهم يوادونهم فالمؤمنون قلوبهم لا تقبل موادة أعداء الله بعد أن علموا أنهم محادون لله ورسوله، بل تكون قلوبهم نافرة عنهم كما قال: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة:٨١] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ ثبّت الإيمان في قلوبهم حتى لا يتولوا ولا يوادّوا أعداء الله ﴿وَأَيَّدَهُم﴾ قواهم ﴿بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ بروح من الإيمان، أو بروح من الله أي حياة الإيمان في قلوبهم، ثم وعدهم الجزاء العظيم، في الآخرة فقال: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ باقين فيها أبداً ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ وهذا هو الفوز العظيم إذا رضي الله عنهم، فما بعد الرضا إلا نعيم مقيم وخير عميم ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ لما رأوا فضله وإنعامه وصدق وعده ازدادوا حباً له ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ هؤلاء الذين لا يوادون أعداء الله، وهم المؤمنون الذين ثبّت الله الإيمان في قلوبهم هم حزب الله الذين سيجاهدون في سبيله بأموالهم وأنفسهم ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ في الدنيا والآخرة، عسى الله أن يجعلنا منهم.




التيسير في التفسير
سورة الحشر



سُورَةُ الحَشْرِ

آياتها ٢٤ — ترتيبها ٥٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ سبح له نزهه سبحانه من كل نقص ومن كل عيب كل ما في السموات وما في الأرض وكلها دلائل على أنه منزه عن كل نقص وهذا يعم العقلاء وغيرهم أعني بالدلالة إما دلالة لفظية وإلا دلالة عقلية ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العزيز الذي لا ينال، والحكيم الذي أفعاله وأقواله لا تخرج عن الحكمة.

﴿٢﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ الله سبحانه هو الذي أخرجهم من ديارهم لأول الحشر، والآية العظيمة هي في إخراجهم أول الحشر؛ أي بداية إخراجه من (المدينة المنورة) لأنه لم يكن هناك من يأمل في إخراجهم في ذلك الوقت، كما قال: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ﴾ والحشر: يعني إخراجهم من ديارهم ومن بلادهم، وهؤلاء المعنيون هم يهود بني النضير حينما نقضوا العهد الذي بينهم وبين المسلمين، فحكم الله بجلائهم من المدينة المنورة والقصة في كتب السيرة والتاريخ.

ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هؤلاء اليهود كانت لهم حصون منيعة ظنوا أنه لا يمكن لأحد أن يزعجهم منها ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ﴾ من حيث لم يتوقعوا ولم يظنوا.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ من شدة الرعب كانوا يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فالمؤمنون يخربونها نكاية بهم، وهم يخربونها ربما لأخذ بعض الأشياء النفيسة معهم، وحسداً من أن يستفيد منها المؤمنون ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ اعتبروا كيف يأتي النصر من الله وفي الأوقات التي لم يكن أحد يتوقع النصر فيها.

﴿٣﴾ ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ﴾ من بلادهم والخروج منها ﴿لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ لما سلموا من العذاب في الدنيا فكان لا بد لهم من عذاب إما الجلاء أو غيره فلما أن كتب عليهم الجلاء كان هو عذابهم العاجل ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ بقي لهم عذاب النار لم يسقطه عنهم عذاب الدنيا.

﴿٤﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ كله من الإخراج والجلاء والعذاب العاجل، والعذاب الآجل كله ﴿بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ باينوا الله وعادوه، ومن يباين الباري ويعاديه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿٥﴾ ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ ﴿مَا قَطَعۡتُم﴾ من النخل ﴿مِّن لِّينَةٍ﴾ وهي نوع من النخيل غير البَرْنيَّة والعَجْوة وهما من النوع الجيد في النخيل، وبقية الألوان يسمونه لينة، فما قطعوا أو تركوا من الألوان الباقية فهو بإذن الله، أي إباحته ﴿وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ بما أباحه للمؤمنين من قطعها أو استبقائها ليستفيدوا منها.

﴿٦﴾ ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ أي من أهل الكتاب يعني ما أرجعه وأعاده أرى أنه سمي الفيء فيئاً لأن الله أرجعه لنفسه سبحانه لأنه المالك فأخذه من أهل الكتاب لنفسه وجعله لرسوله والفيء هو الرجوع ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ لأنه أفاءه من دون حرب ولا إيجاف، والإيجاف: سرعة السير.

فالمعنى: أن هذا الفيء منحة من الله لرسوله لأنه حصل بدون حرب ولا قتال وإنما هيبة اليهود من رسول الله جعلتهم يهربون مخلفين ذلك وراءهم، وهذا تبيين للمؤمنين لتطيب نفوسهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ بقدرة الله سبحانه وقعت الهيبة والرعب في قلوبهم حتى ذهبوا وأخلوا البلاد.

شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ

۝٧ ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ الأول فيما أفاء الله على رسوله من بني النضير وهذا فيما أفاء الله على رسوله من أهل القرى وهي من قرى أهل الكتاب القرى التي حول المدينة المنورة ﴿فَلِلَّهِ﴾ كلها لله وحده ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ أنظر هذا (لام) لله أي كله لله، وليس المعنى أنه قسمان قسم لله وقسم للرسول، بل كله لله، وكله للرسول، ولا ينافيه جعله كله للرسول ﴿وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ هؤلاء الآخرين خصص لهم (لاماً) وحدهم ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هنا لم يقل ولليتامى وللمساكين ..الخ.

والمعنى: أنه للرسول يعطيهم جميعاً مما أفاء الله عليه، ولعل اليتامى معظمهم من يتامى الشهداء ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ فجعله الله بأمر الرسول يتصرف فيه كيفما أراد، وهذا الحكم لأجل أن لا يبقى هذا المال متداولا بين الأغنياء يتبادلونه بيعاً وشراء، ويحرم منه المحتاجون، ولا فرق بين هذا الفيء والذي ذكره في الآية قبلها وإنما هذا مفصل، والخلاصة أنه جعله إلى الرسول لأنه هو الذي سيضعه في مواضعه.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ من هذا الفيء ﴿فَخُذُوهُ﴾ لا يقل الواحد أنا لست من الفقراء أو المساكين، لأنه قد صار للرسول وله الأمر فيه ﴿وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ كذلك لأن الأمر له فيه ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ فلا تأخذوا ما ليس لكم فيه حق، فهو عالم سبحانه بما يأتي في المستقبل هو عالم بدخائل النفوس ومدى طمع البعض الذين استولوا بالقوة على هذا الفيء بعد وفاة الرسول ﷺ والتاريخ يحكي (قصة فدك والعوالي) والله ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا

﴿٨﴾ ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ توجيه للرسول ﷺ ليعطي هؤلاء الفقراء الذين قد هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأموالهم، وهم من المساكين والمحتاجين وإنما هاجروا لنصرة دين الله، ورسوله، وليحافظوا على دينهم ويتقربوا إلى الله بالجهاد بين يدي الرسول ﷺ، فهم الصادقون في إيمانهم والصادقون في هجرتهم، فيعطيهم الرسول من هذا الفيء، لأنهم محتاجون إليه، وفيهم فائدة عظيمة ونصرة للإسلام.

﴿٩﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ويعطي الفقراء الذين تبوؤوا الدار أي المدينة المنورة تبوؤها استمروا في سكناهم لها لكونها قد صارت بلاد الإيمان والإسلام فتبوؤها لهذا، ولو كان النبي ﷺ في غير بلادهم لهاجروا إليه وهؤلاء هم الأنصار.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ لأنهم أحبوا الله ورسوله، وأحبوا الإسلام فما كان فيه نصرة للإسلام وزيادة في قوته أحبوه، فلأن هؤلاء المهاجرين جاءوا ليجاهدوا مع الرسول ﷺ أحبوهم بحب الإسلام.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ مهما أوتي المهاجرون من المال لا يجد الأنصار في صدورهم أي شيء من حسد أو غيرةٍ، بل يفرحون بذلك.

وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بل حازوا الدرجة الرفيعة، وهي: أنهم يؤثرونهم على أنفسهم يؤثرون المحتاج ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ حاجة شديدة.

﴿وَمَن يُوقَ﴾ من يقه الله ﴿شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ بأن أعانه على نفسه حتى أنفق في سبيل الله وفي مرضات الله ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ فشح النفس خطر على المؤمن، وقد فاز من وقاه الله شره.

﴿١٠﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ الفقراء الذين جاؤوا من بعدهم، ولا يعدون مهاجرين، كأنه قد خرج وقت الهجرة بعد فتح مكة لأنها صارت دار إسلام فمن هاجر منها بعد فتحها لم يكن له حكم المهاجر وربما كان مجيؤهم رغبة في مجاورة الرسول ﷺ ليتعلموا منه دينهم ويجاهدوا معه فكذلك يعطون من الفيء ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ لأنهم محبون للسابقين الذين جاهدوا في سبيل الله ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ دعوا الله أن تسلم قلوبهم من الغل على السابقين من المؤمنين بسبب ما وقع من القتل لأنه في الحروب الماضية ربما كانوا قد قتلوا من أقاربهم أو نحو ذلك مما يدعو للحقد على المؤمنين مثل ما كان عليه معاوية وأبو سفيان وغيرهم من المنافقين ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فاجعل فينا حباً لهم ولا تجعل في قلوبنا غلاً عليهم، واغفر لنا ولهم برأفتك ورحمتك.

لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ

﴿١١﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ هذا تعجيب من حال هؤلاء المنافقين الذين كانوا يحرضون إخوانهم اليهود على عدم الانصياع لأمر الرسول لهم بالخروج بعدما نقضوا العهد، بل وعدوهم بالتضامن والخروج معهم وهو تحريض مبطن على عدم الخروج ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ لا نطيع محمداً فيما كان ضرراً عليكم ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ إذا قاتلكم المسلمون فسنقاتل في صفكم ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ وكفى بالله شهيداً، ثم فسر كذبهم ما هو فقال:

﴿١٢﴾ ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ بل يفرحون بالسلامة لأنفسهم لأنهم قد تستروا بالإسلام ظاهراً ولأنهم قوم يفرقون ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ على فرض لو حظروا الحرب لكي ينصروهم ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ يهربون من الحرب ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ حين يولون الأدبار بل سيقتلون أو يشردون.

﴿١٣﴾ ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم﴾ في صدور هؤلاء المنافقين ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ لأنهم لما لم يفكروا في آيات الله ما عرفوا الله، ولا عرفوا الآخرة فخوفهم من المؤمنين أشد من خوفهم من الله.

تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ

﴿١٤﴾ ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا﴾ وهم مجتمعون ﴿إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ﴾ يعني إلا حينما يكونون داخل القرى المحصنة وأنتم خارجها ﴿أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭ﴾ لا يجرؤون على مواجهتكم ﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞ﴾ لأنهم عبيد الدنيا تتفرق أغراضهم وأهواؤهم فيقتتلون فيما بينهم على الدنيا ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ في الصورة يظهرون متآخين متحابين ﴿وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾ متفرقة متباينة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ لا يستعملون عقولهم وإنما تبعاً للأهواء.

﴿١٥﴾ ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗا﴾ هؤلاء المنافقون في معاضدتهم للكفار من أهل الكتاب ينطبق عليهم مثل الذين من قبلهم قريباً من المشركين يوم بدر، لما كان رأي البعض ترك القتال فحرضهم الآخرون على القتال، فكان المصير سيئاً جداً ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾ حينما عزموا على قتال المسلمين بعد التردد في قرار القتال فكان وبالاً عليهم وذاقوا وخامة ما عزموا عليه من القتال ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ نتيجة لسوء التدبير كانت العاقبة القتل والأسر والقهر ولهم عذاب أليم في الآخرة.

﴿١٦﴾ ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ مثلهم كمثل الشيطان لما قالوا: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ يحاولون بذلك تشجيع اليهود ﴿إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ﴾ ورّطه حتى كفر ثم تخلى عن نصرته وأسلمه للعذاب، واصطنع لنفسه عذراً فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وهو كاذب في ذلك.

وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا

﴿١٧﴾ ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَا﴾ الشيطان والإنسان ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال الحسين بن القاسم: «إن هذا الشيطان هو من شياطين الإنس؛ لأن شيطان الجن لا يراه أحد» وهو قريب.

﴿١٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ هذه بداية لموعظة عظيمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ولتحملكم تقوى الله والحذر من عذابه على أن تنظروا ماذا قدمتم لغد ليوم القيامة هل ينفعها ما قدمت ويوصلها إلى الجنة، أو أنه عمل غير صالح يسبب لها عذاب جهنم، يعني الأمر مهم جداً وينبغي الاستعداد له ومحاسبة النفس ومراجعة الماضي والتخلص مما يلزم التخلص منه.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ حين تحاسبون أنفسكم وتنظرون ما قدمتم لغد، فاتقوا الله ولا تتساهلوا حينما يرى الإنسان أنه قد أذنب ويرى صفحات ماضيه ملطخة بالآثام فعليه أن يتقي الله، ويجد في التوبة والتخلص من حقوق المخلوقين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فحق علينا أن نتقيه لكونه مطلعاً على كل أعمالنا الصالحة والسيئة وهو الذي يحاسبنا وهو الذي يجازينا.

﴿١٩﴾ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾ لا تنسوا الله مثل هؤلاء المنافقين الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، كما قال ـ أيضاً ـ: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧] سلبهم التوفيق والهداية، فلم يوفقوا لتلافي أنفسهم من عذاب الله وإنقاذها من النار وهم لا يزالون في دار الخيار، فظلوا

يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ

مشغولين بالدنيا واتباع الأهواء ﴿أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ الذين غفلوا عن ذكر الله واتجهوا إلى الدنيا.

﴿٢٠﴾ ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ هذا تنبيه للغافلين لأن أكثر الناس على هذا أهل غفلة يحتاجون إلى خطاب وإنذار قوي بهذا الشكل لتوضيح أنه يوجد فارق كبير بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ لأنهم صبروا على طاعة الله واجتناب معاصيه ففازوا بالجنة.

﴿٢١﴾ ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ يعني جدير بكم أن تتقوا الله وترجعوا إليه، لأنه قد أعطاكم هذا القرآن الذي لَوْ أنزله عَلَى جَبَل على ضخامته وصلابته وعقل الجبل هذا القرآن ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ لأن القرآن شيء عظيم، فيه مواعظ عظيمة، وزواجر كبيرة، وتحذير شديد حين يحذر من جهنم، فجدير بنا أن نحذرها؛ لأن الجبل نفسه لو نزل عليه القرآن لتشقق وتصدع من خشية الله ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ هذا المثل حين قال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ..﴾ هو من الأمثال التي يضربها للناس ليتفكروا وينتفعوا بها وتتجلي بها المعاني وتتضح للناس ليهتدوا بها.

﴿٢٢﴾ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا تنسوه اذكروه وراقبوه واتقوه وكونوا معه لأنه ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ ما عملتم فهو عالم به لا يخفى

ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ

عليه شيء مما خفي أو ظهر حتى ما في ضمائركم كله هو يعلمه ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فيلزمكم أن تتقوه لأنه سوف يرحمكم إذا اتقيتموه فهو يقبل من رجع إليه وتاب من ذنوبه.

﴿٢٣﴾ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أكدها مرة ثانية لنعلم أنه ليس هناك من يصح أن يرجع إليه ويطلب ويعبد إلا هو ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ ملك الملوك لأنه المالك للعالمين جميعا ولذلك كان له الأمر والنهي والتصرف فيهم كيف شاء ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ المقدس المنزه عن كل نقص وعن كل عيب ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ لا ينال بضر، أو السلام في معاملته لعباده لا يريد لهم إلا السلامة والخير وإنما هم الذين يجنون على أنفسهم بمخالفته ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ للأحياء من الإنسان والحيوان الذي جعل الأمن في قلوبهم ليعيشوا في طمأنينة لأنه لو لا الأمن لتعكر صفو حياتهم وساءت معيشتهم حينما لا ينفكون يتذكرون ما يمكن أن يصيبهم من البلاء وأنواع المحن مما يبتلى به الناس عادة.

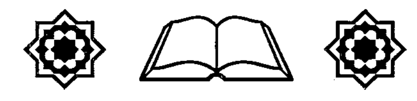
﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ قال في (تفسير الشرفي): معناه: الرقيب على كل شيء الحافظ له وقيل: ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ اسم لله سبحانه وتعالى من أسمائه الحسنى وهو إما بمعنى الرقيب على كل شيء الحافظ له، أو الشاهد، أو القائم على كل نفس ، أو المتولي لرعاية عباده، وأحسن ما أراه في معنى ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ أنه بمعنى الرعاية لعباده والتولي لشئونهم والحافظ لهم، من قولهم: هيمن الطائر إذا رفرف على فراخه.

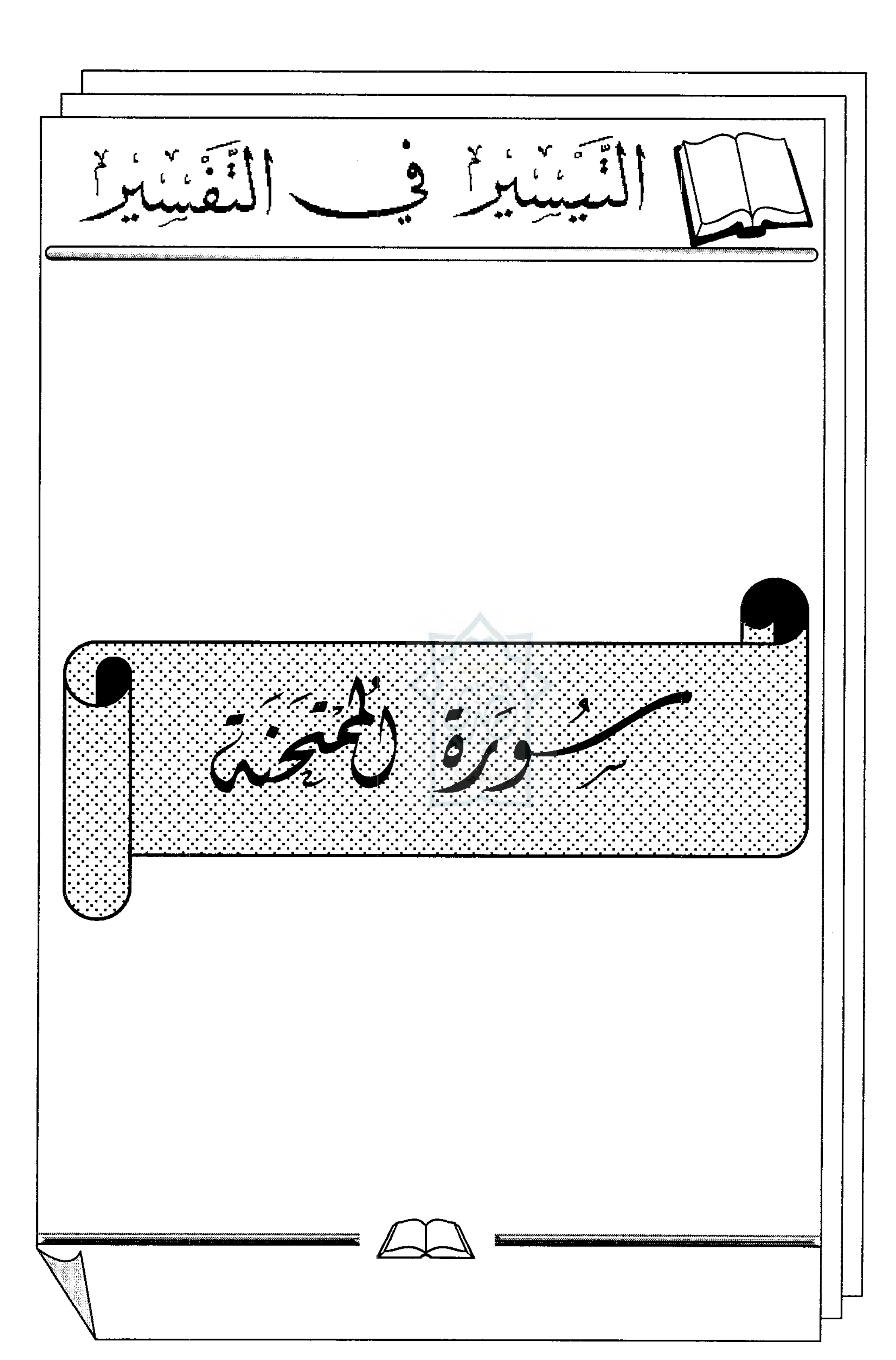
﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا ينال ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ كذلك القاهر فوق عباده، أو باعتبار شدة عقابه لأعدائه مثلما قال: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء:١٣٠] يعني: من القوة والاقتدار ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ بالحق، لأن له الكبرياء

ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

والعظمة والجلال سبحانه وتعالى ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ تنزه عما يدعيه المشركون من الشركاء والأنداد فهو منزه عن أنْ تكون له أنداداً.

﴿٢٤﴾ ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿ٱلۡخَٰلِقُ﴾ الذي خلق الأشياء وقدرها بحكمته وعلمه وقدرته ﴿ٱلۡبَارِئُ﴾ الذي برأ المخلوقات ميز بينها بأوصافها وأشكالها وصنعها، فجعل كل نوع فيها بريئاً أي متميزاً عن غيره يعني ميز بعضها عن بعض بالفروقات الواضحة ﴿ٱلۡمُصَوِّرُ﴾ خالق الصور سبحانه، وهي آية عظيمة لمن تفكر وتدبر تدل على قدرة وعلم وحكمة عجيبة ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ هذه التي عددها من أسمائه الحسنى الموجودة في القرآن في مواضع متعددة وهي كثيرة ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ينزهه سبحانه بلسان الحال والمقال ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ العزيز الغالب الذي لا ينال، وقد أعاد ذكر هذه الصفة لكونها هنا مقرونة بالحكيم، ليبين: أن عزته لا تفارق حكمته في كل تصرفاته في مخلوقاته سبحانه وتعالى.




التيسير في التفسير
سورة الممتحنة



سُورَةُ المُمْتَحِنَة

آياتها ١٣ ترتيبها ٦٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ هذه قالوا: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، حين كاتب أهل مكة ينذرهم مهاجمة الرسول ﷺ لهم والرسول قد كان عزم على أن يباغتهم بناء على خطة محكمة تمكنه من فتح مكة بدون قتل كثير بسبب حرمة الكعبة، ولو أن الله قد كان أباحها له ساعة من نهار حين يفتحها لكن الرسول ﷺ يود أن يتم الفتح بأقل ما يمكن من القتلى لما أسلفنا، قالوا ثم إن جبريل عليه السلام نزل فأخبر النبي ﷺ بأن الكتاب الذي أرسله حاطب إلى أهل مكة مع الضعينة، فلحقها الإمام علي والزبير وأخذا منها الكتاب.

وقالوا: قال له النبي ﷺ: «ما حملك على ما صنعت»؟ قال: هؤلاء المهاجرون كلهم معهم قرابات يحمون بيوتهم وأهلهم، وأنا أهلي ليس معهم من يحميهم فأردت أن أتخذ يدا عند قريش، وعلمت أن الله سينصر نبيه، يعتذر بهذا ويبين أنه ما نافق، فنزلت السورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ حين كاتبهم ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ بالقرآن والرسول، فلا يصلح أن يكاتبهم، ولا أن يلقي إليهم بما يدل على المودة.

إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ

﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ الخطاب للمهاجرين ﴿أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ كراهة أن تؤمنوا بالله ربكم بسبب إيمانكم بالله ربكم حين وحدتموه وعبدتموه وحده يخرجونهم لهذا السبب ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ فلا تلقوا إليهم بالمودة ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ وهذا إخبار بما كان من حاطب من الكتاب الذي كتبه إليهم ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ ما راقبتموني بينما أنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ يلقي إليهم بالمودة ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ الطريق السوي التي لا يضل عنها إلا هالك.

﴿٢﴾ ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ لو ظفروا بكم لأخذوكم بقوة، وكانوا لكم أعداء لا أصدقاء، حتى ولو خدمتموهم تلك الخدمة ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ كانوا سيقتلونكم ويسبونكم ويلعنونكم مثلا لو ظفروا بكم ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ يودون أن يرجعوكم إلى الكفر الذي يؤدي بكم إلى النار، فهم أعداء شياطين.

﴿٣﴾ ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ﴾ الذين كاتبتم الكفار من أجلهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ..﴾ الآية [عبس:٣٤] ويكون أهل الجنة وحدهم وأهل النار وحدهم حتى ولو كانوا أقارب وأرحاماً ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ بصير بكم كلكم أنتم وإياهم يجازي كلاً على قدر ما يستحق.

إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ

﴿٤﴾ ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ كأن هذا من التجريد الذي يذكره أهل البديع بمعنى أنه أسوة نفس إبراهيم أسوة أي قدوة، أو بمعنى أنه يجدر بكم أن تتأسوا بهم ﴿إِذْ﴾ حين ﴿قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ رفضناكم وتبرأنا منكم ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ يعني تؤمنوا بالله أنه لا إله إلا هو ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ هذا ليس إلا استثناء منقطعاً لأن قول إبراهيم لم يكن إلا عن موعدة وعدها إياه، يعني فلا يتأسى به فيها؛ لأنه قال: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة:١١٤] ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ﴾ لأبيه ﴿مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ ليس لي يد عند الله تجعله يغفر لك ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ﴾ وحدك ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ وكلنا أمورنا إليك ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ رجعنا إليك ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ إليك وحدك نصير في الآخرة.

﴿٥﴾ ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لما أعلنا العدواة لهم فلا تمكنهم من ظلمنا لأنه إذا مكنهم كان قد جعلهم فتنة للكفار يفتنون بهم ويظلمونهم ويقتلونهم فيعذب الكفار يوم القيامة بسببهم ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ﴾ يا ربنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ لأن عزتك وحكمتك تقتضي أن تغفر لأوليائك الذين هم معك منيبين إليك راجعين إليك معادين لقومهم من أجلك.

يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا

﴿٦﴾ ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ في إبراهيم والذين معه ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ يرجو ثوابه، ورحمته يوم القيامة كأنه يعني أن الذي لا يتأسى بهم فليس ممن يرجو الله واليوم الآخر ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن التأسي بهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ الغني عن التأسي وعن طاعتهم له ولرسوله، وهو الحميد الذي يستحق الحمد حتى لو لم يحمده أهل الأرض.

﴿٧﴾ ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ يقرب ﴿أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗ﴾ يعني يقرب أن يسلموا وتحصل بينكم المودة ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٞ﴾ على كل شيء ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يغفر ما مضى إذا أسلموا وتابوا إلى الله.

﴿٨﴾ ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ لا ينهاكم الله عن قوم مسالمين لكم لم يقاتلوكم في الدين، ولم يخرجوكم ولا ظاهروا على إخراجكم، فلا ينهاكم عن ﴿أَن تَبَرُّوهُمۡ﴾ فقط، وفرقٌ بين البر والتولي، لأن البر يعني تحسنوا إليهم ﴿وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ تعاملوهم بالعدل فالمعاملة بالعدل والإحسان لا بأس بها بينكم وبينهم مثل الإحسان إليهم بإعطائهم شيئاً بطريقة لا توحي بالمودة وإنما من باب الإحسان والـمُرُوءة مثل حق الوافد عليك من طعام وشراب ونحوه حتى ولو كانوا فجاراً ماداموا غير محاربين في الدين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ الذين يعدلون في معاملتهم مع المؤمنين وغيرهم.

يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟

﴿٩﴾ ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ هذا النهي الشديد والذي أكد عليه كل التأكيد من أول السورة ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فلا تتولوهم ولا يشترط في عدم جواز التولي أن يجمعوا بين هذه الإجراءات ضد المؤمنين، لأنه هنا إنما يحكي واقعاً وأحداثاً وقعت يوم ذاك، والمهم في مسألة التولي هو أن لا تكون معهم ومن ضمنهم في قضاياهم ضد دين الله وأولياء الله.

﴿١٠﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ الامتحان لمعرفة أهي مؤمنة حقيقة أم أن مجيئها لغرض آخر غير الهجرة إلى الله ورسوله هرباً من زوج أو من ظلم ولي أو نحوه فشرع الامتحان حتى يتحققوا من صدق إيمانها ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ إذا انكشف أنها مؤمنة فلا يجوز أن يردوها إلى الكفار.

ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ فرّق بينهم اختلاف الملة ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ أعطوهم المهور التي قد أنفقوا على الزوجات، تسلَّم لزوجها الكافر لأن المرأة لا تعاد إليه.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ لأنه قد انقطع الزواج بينها وبين الأول، بشرط إعطائها المهر، وبعد نهاية العدة ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ لا يتمسك المسلم بعقد الزواج بينه وبين الزوجة إذا رفضت الإسلام والهجرة من بلاد الكفر أو ارتدت ﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ فيهن من المهور اطلبوه من الكفار ﴿وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ وهم أي الكفار يسألوكم ما أنفقوا من المهور في نسائهم المؤمنات المهاجرات إليكم ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أن تسألوا ما أنفقتم ويسألوا ما أنفقوا ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في أحكامه وفي كل تشريعاته.

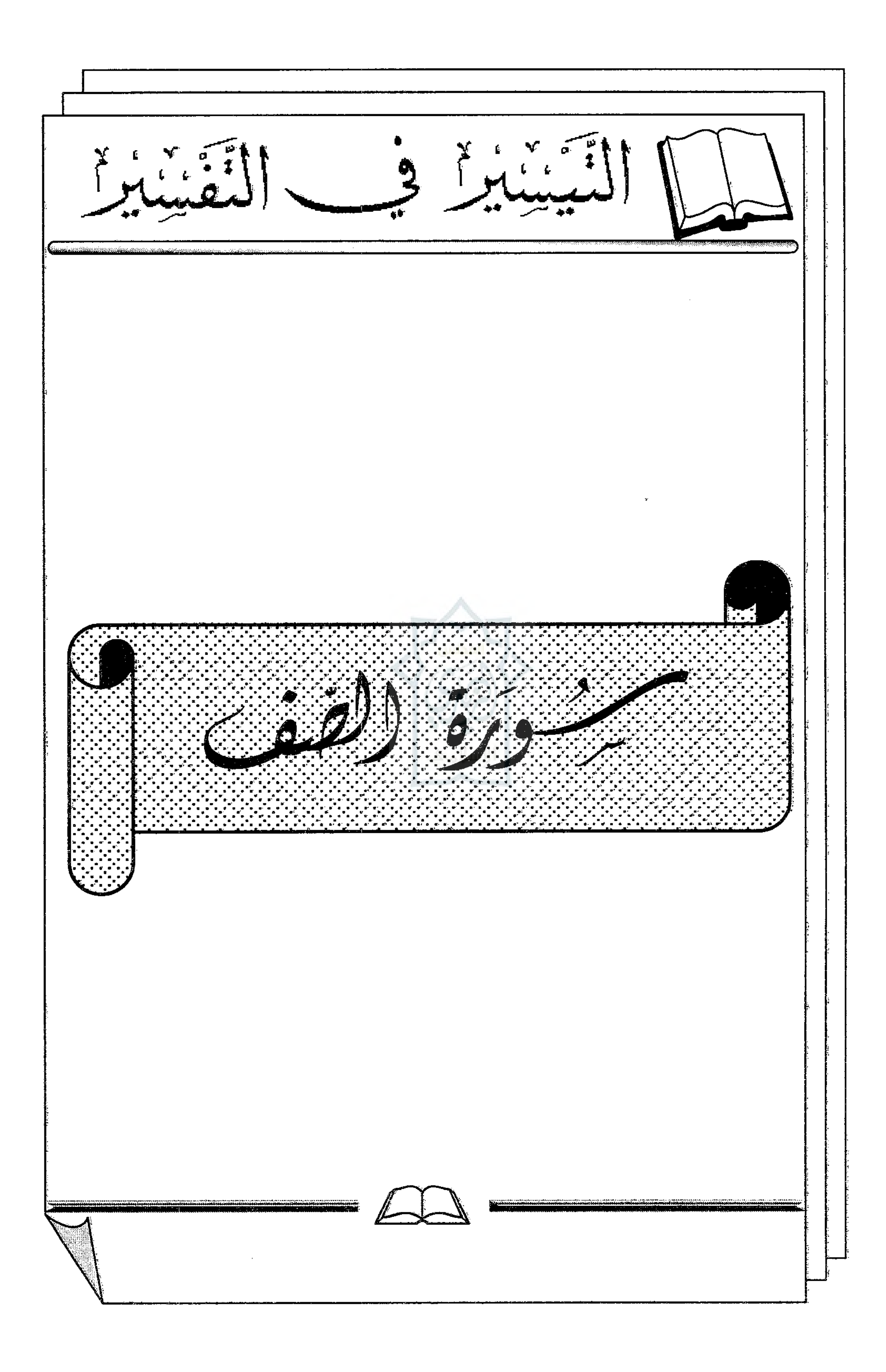
﴿١١﴾ ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ﴾ من العُقْبة وهي النوبة حين طلبتم من الكفار أن يدفعوا مهور زوجاتكم الكافرات فرفضوا ذلك ﴿فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾ يعطي الأزواج المؤمنون من بيت المال أومن الغنائم مثل ما أنفقوا في نسائهم من المهور ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في معاملتكم وفي كل شيء ﴿ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ إذا كنتم مؤمنين بالله، فالإيمان بالله يستدعي التقوى.

فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

﴿١٢﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ﴾ يعني أن الله أمره بمبايعة النساء، تبايعه بالقول دون أن يمس يدها، على أن لا تشرك بالله شيئاً، أي شيء لا صنماً ولا غيره ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ﴾ لأن المرأة قد تقتل ولدها إذا خافت الفضيحة في الزنا ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ عندي أنه في القذف يعني لا تختلق كذبة تفتري على غيرها وبين الأيدي والأرجل هو من الترشيح مثل: **﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾** [الأنعام:٣١] ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ أمره الله أن يستغفر لهن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كثير المغفرة وواسع الرحمة.

﴿١٣﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ ﴿لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وهم اليهود مثل قوله تعالى في (سورة المجادلة): **﴿أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾** [المجادلة:١٤] لأنهم مظنة أن يتولوهم لما كانوا مخالطين لهم في المدينة المنورة في أول الإسلام ﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ قد يئسوا من رحمة الله في الآخرة ليس معهم فيها نصيب، يعني: قد عرفوا وضعهم في الآخرة من الآن؛ لأنهم قد كفروا بمحمد ﷺ بداعي الكبر والحسد، وهم يعلمون أنه رسول ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾ الذين قد ماتوا وصاروا ﴿مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ لأنهم كذلك قد يئسوا من رحمة الله وعلموا أنه لا نصيب لهم منها في الآخرة وتيقنوا أن مصيرهم إلى جهنم.




التيسير في التفسير
سورة الصف



سُورَةُ الصَّفِّ

مدنية ٦١ — آياتها ١٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ نَزَّهه عن كل نقص وعن كل عيب ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا ينال، وليس بحاجة إلى أن يسبحوه.

﴿٢﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ كأنهم كانوا يعدونه بالجهاد في سبيل الله ثم يتخلف بعضهم ويؤثر الحياة الدنيا.

﴿٣﴾ ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ المقت قالوا هو أشد البغض ﴿أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أن يعدوا بأنهم سيجاهدون ثم يتخلفوا.

﴿٤﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ هؤلاء المقاتلون الصادقون الذين تراهم في تراصهم في الصف حين القتال كالبنيان المرصوص، يصف حالهم يوم كان القتال بالسيوف؛ لأن المطلوب يوم ذاك أن يظلوا بهذا الشكل، وهو يرمز إلى جانب الوحدة والأخوة والتعاون والتناصر فيما بينهم وكون ذلك من أهم عناصر القوة.

﴿٥﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ واذكر إذ قال موسى، كأن هذا ليتأسى بموسى ـ صلوات الله عليه ـ فيما يناله من الأذية من المنافقين: ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ هذا شيء عجيب أن يكافئوه بالأذية بعد أن أنقذهم من تلك

إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ

المعاناة الشديدة في طغيان فرعون ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ فكيف لا تحترمون الرسالة من الله ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟﴾ هؤلاء أصحاب موسى ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ فاحذروا أنتم يا أصحاب محمد أن تؤذوا رسول الله ﷺ فيصيبكم ما أصابهم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ لم يعودوا يستحقون الهداية بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله.

﴿٦﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ واذكر إذ قال عيسى ابن مريم ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ هذه حجة كبرى عليهم كونه مصدقاً بالتوراة غير كافر بها، متمسكاً بها أيضاً يعني هو نفسه مصدق لما بين يديه من التوراة، وقد فصل في (سورة المائدة) زيادة على هذا ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ عيسى يبشرهم برسول يأتي من بعده وينص عليه بالاسم حتى لا يترددوا في التصديق به ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ عيسى ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ العظيمة المذكورة في القرآن ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ﴾ إضافة إلى كونه ﴿مُّبِينٌ﴾ يعني: بيّن أنه سحر وكذبوا وتمردوا على الله، فهذا قدوة يتأسى به النبي ﷺ فيما كذبه به قومه.

﴿٧﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ افترى على الله الكذب في حال أن الرسول يدعوه إلى الإسلام فلا أظلم من هذا المفتري مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ [الحديد:٨] فالرسول يدعوه إلى الإسلام، وهو في نفس الوقت

بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى

يفتري الكذب على الله مثل مسيلمة الكذاب، ومثل غيره ممن يدعي أنه يوحى إليه، كما قال الرئيس الأمريكي بوش: إنه يتلقى التوجيهات في الحرب على ما يسمى بالإرهاب من الله مباشرة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذا من الظلم والله لا يهدي القوم الظالمين الذين كذبوا على الله.

﴿٨﴾ ﴿يُرِيدُونَ﴾ هؤلاء الذين افتروا على الله الكذب ﴿لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ دينه الحق الذي فيه الهدى والنور ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ظهور دين الله لا يريدون أن يظهر.

﴿٩﴾ ﴿هُوَ﴾ الله سبحانه ﴿ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ قد أرسله ليظهره على الدين فكيف يترك المجال للكفار ليضيعوا الإسلام ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ ولو كرهوا إظهاره، يعني أن أمر الله ووعده بإظهار دينه على الدين كله وارد لا شك فيه، وقد تقدم شيء من التوضيح حول معنى إظهاره على الدين في تفسير (سورة الفتح: آية ٢٨).

﴿١٠﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وما أعظمها من تجارة تكون نتيجتها النجاة من العذاب الأليم.

﴿١١﴾ ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذه الطريقة التي بها تنجون من عذاب أليم لأن الأساس هو الإيمان بالله ورسوله إذ لا قيمة لأي عمل بدون ذلك

مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٌ قَرِيبٌۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ لابد أن يكون الجهاد في سبيل الله ومن أجل دينه، وأن يجاهد بماله ونفسه ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ الجهاد ﴿خَيۡرٌ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ ولو كرهته النفوس فهو خير لكم؛ لأنه بالجهاد ينصر الله دينه ويعلي كلمته، ويعتزّ المؤمنون، ويذل الكفار والمنافقون، وينتهي الفساد من الأرض.

﴿١٢﴾ ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ هذه أول فوائد الجهاد غفران الذنوب كلها قال: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ ولم يقل: (من ذنوبكم) ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وهذه الفائدة الثانية إضافة إلى النجاة من العذاب أن ينعم الإنسان بالجنة.

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ أفضل من مساكنكم في الدنيا، التي تتركونها حين ذهابكم للجهاد ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ يعني استقرار وأمن ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ إذا أمن الإنسان وسلم من عذاب الله، ودخل الجنة.

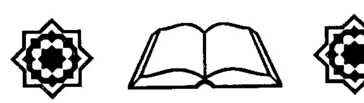
﴿١٣﴾ ﴿وَأُخۡرَىٰ﴾ ولكم فائدة أخرى من فوائد الجهاد ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ لأنها عاجلة، والنفس مولعة بحب العاجل هي: ﴿نَصۡرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إذا جاهدتم في سبيله ﴿وَفَتۡحٌ قَرِيبٌ﴾ يفتح لكم في البلاد.

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بخير عظيم، كما قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٧] غير ما ذكر من الفوائد هذه في الدنيا والآخرة تتحقق بالجهاد في سبيل الله.

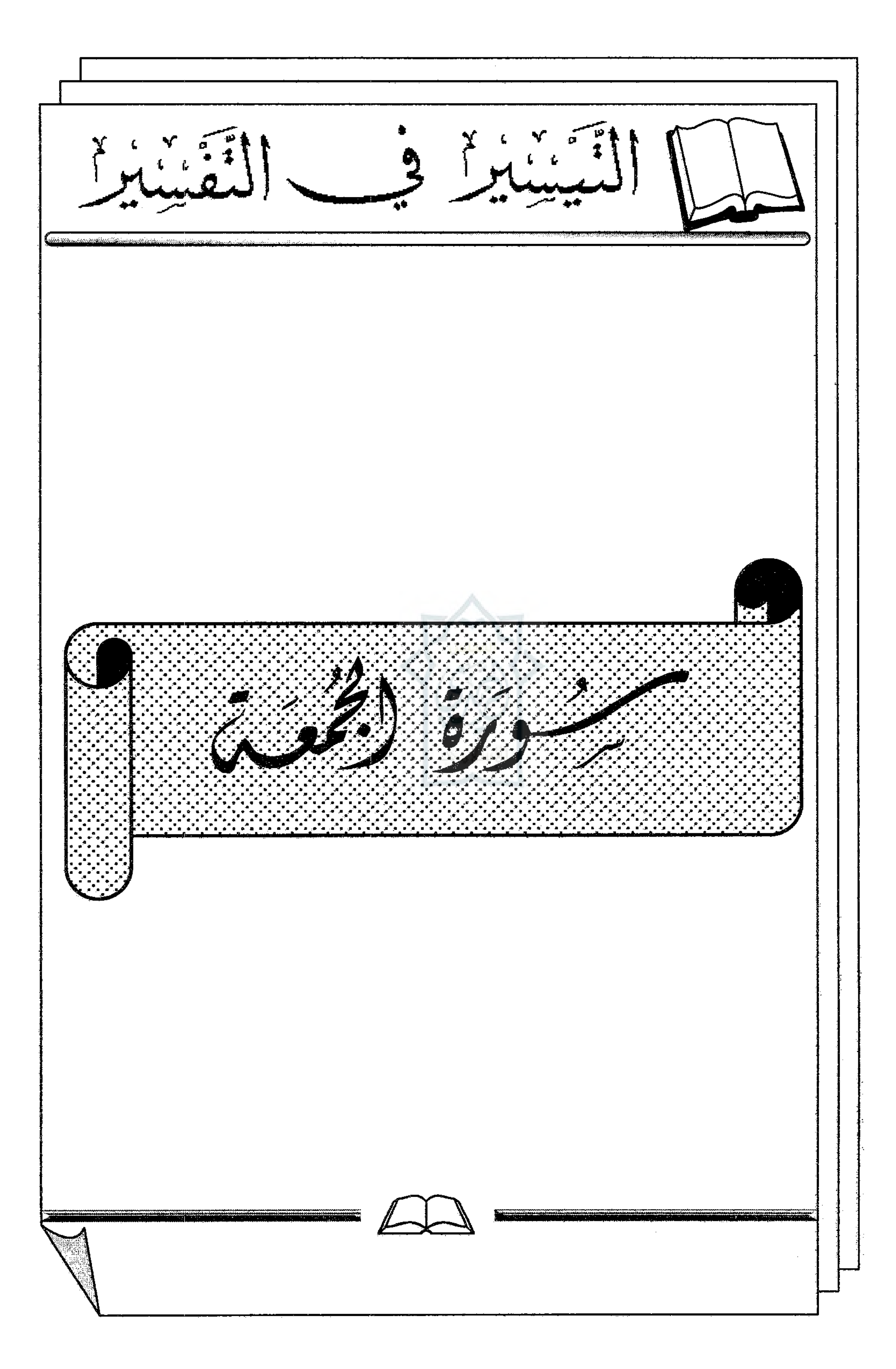
ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

﴿١٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ **هذا أمر بالجهاد ونصرة دين الله** ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ **أي كونوا كما قال الحواريون:** ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ **ونصروا دينه فانصروا دين الله مثلهم، وذلك حينما أحس عيسى بالكفر من اليهود.**

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ **بعيسى وجاهدوا معه** ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞ﴾ **بعيسى عليه السلام وأرادوا قتله** ﴿فَأَيَّدۡنَا﴾ **قوينا** ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ **أصبحوا منتصرين غالبين، وهذه بشارة للمؤمنين وتحفيز لهم كي يجاهدوا في سبيل الله لينصرهم مثل ما نصر أصحاب عيسى عليه السلام.**






التيسير في التفسير
سورة الجمعة





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾

(سورة الجمعة) مدنية

وهي مما تأخر نزولها، لأن فيها رد على اليهود، وفيها صلاة الجمعة والدعوة إليها

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ يسبح هذا يسمى فعل العادة، بمعنى أن عادة كل شيء أن يسبح لله بغض النظر عن كونه في الحال أو في المستقبل، قال الله: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ [النور:٤٥] ليس المقصود في الحال ولا في الاستقبال وإنما بمعنى عادته أن يمشي، هذا فعل العادة ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والتسبيح منها على أحد أمرين: إما الدلالة من حيث أنها آية تدل على تنزيه الباري، وكأنها ناطقة به، فكأنها تسبح تنطق بالتسبيح، وإلا من حيث أنها آية إذا فكر فيها المؤمن سبّح لله، فلما كانت باعثة على التسبيح صارت كأنها سبحت هي.

﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ﴿ٱلْمَلِكِ﴾ الذي له الملك على كل شيء ﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾ المنزّه عن كل عيب وعن كل نقص ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب الذي لا ينال ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ الذي أفعاله وأقواله كلها قائمة على الحكمة.

﴿٢﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾ الأميين قد يطلق هذا الاسم على من ليسوا من أهل الكتاب من الأمم الأخرى ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ من الأميين ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يقرأ عليهم آيات الله، وهذه نعمة كبيرة لهم ورحمة ودعوة إلى الجنة والنجاة من النار.

=

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ﴾

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يجعلهم أزكياء طيبين بعد ما كانوا جهلة في ضلال مبين ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بحيث يكتبون ويقرؤون الكتب، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يتعلمون الحكمة يكونون حكماء يضعون الأشياء في مواضعها، يهتم بهم توعية وتعليماً حتى يكونوا حكماء لتكون أقوالهم وأفعالهم على الصواب، يعني يدعوهم إلى هذا ويربيهم عليه، ما اقتصر فقط على التلاوة عليهم ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لما كانوا عليه من الجهل ولا كتاب لهم ولا رسول وهم في جاهلية جهلاء يعبدون الأصنام ويأكلون الميتة ويئدون البنات ويحرمون بعض ما أحل الله وغير ذلك، فكانوا في أمس الحاجة إلى هذا الرسول الذي بعثه الله فيهم ليزكيهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

﴿٣﴾ ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ بمعنى ويزكي آخرين ويعلمهم الكتاب والحكمة آخرين ﴿مِنْهُمْ﴾ من الأميين ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ لما يوجدوا ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ سبحانه الغالب على أمره ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تصرفاته كلها على الحكمة وهذا من حكمته إرسال الرسول ﴿فِي الأُمِّيِّينَ﴾ وإن غضب اليهود وكانوا يريدون الرسالة فيهم دون بني إسماعيل، والعطف في قوله ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ على الضمير في يزكيهم أو يعلمهم وليس على الأميين، لأنه يلزم أن يكون موجوداً فيهم وبينهم، وهم لما يوجدوا إلا بعد وفاته، فلم يبعث في الآخرين وإنما علمهم وزكاهم بواسطة نقل المعاصرين له.

﴿٤﴾ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ الرسالة التي تخرج الناس من الظلمات إلى النور هو فضل الله إحسانه ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ لأن الحكم له والأمر له، يضع رسالته حيث يشاء ويجعل الكتاب والحكمة حيث يشاء ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ عنده فضل عظيم لا يطلب إلا منه، ويتوصل الناس إليه بالإيمان والطاعة.

لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾

﴿٥﴾ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ هذا مثل لليهود حينما لم يعملوا بالتوراة التي أنزلت عليهم وحملهم الله إياها شبههم بالحمار يحمل أسفارا، أجزاء كأنها من التوراة نفسها، أو أسفار كتب أيٍّ كتب، لكن الأقرب أن القصد من التوراة لأنهم يقولون في أجزائها: سفر كذا، وسفر كذا، وهي أسفار كما نقول القرآن أجزاء ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ وهو لا يعلم ماذا تحوي هذه الأسفار بينما ينوء بحملها على ظهره فكذلك اليهود لما لم يتعلموا التوراة ولا اتبعوها.

﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هذا مثلهم السيئ الذي انطبق عليهم، فلم تعد لديهم الصلاحية لجعل الرسالة فيهم وقد تركوا التوراة التي أنزلت هدى لهم وموعظة وتفصيلاً لكل شيء، وقد صار غيرهم أولى بأن يجعل فيه الكتاب والحكمة فجعلها الله في الأميين ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فلأنهم استمروا على ضلالهم، صاروا مستحقين لأن يتركوا عقوبة لهم.

﴿٦﴾ ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ اليهود ﴿إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ لأنهم يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه وأنهم شعب الله المختار ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ تمنوه لتذهبوا إلى الجنة مادمتم ترون أنها بانتظاركم وحدكم لأنكم إذا كنتم أولياء لله فلا بد أن تكونوا من أهل الجنة، والجنة خير لكم من الدنيا.

وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن

﴿٧﴾ ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ لا يمكن أن يتمنوه أبداً ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ لأنهم عالمون بذنوبهم وبمعاصيهم وأن لهم جرائم تسوقهم إلى النار فهم لا يريدون الموت لكثرة ذنوبهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فلم يحكم عليهم بهذا الحكم إلا لأنه عليم بباطنهم وظاهرهم.

﴿٨﴾ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ﴾ الفرار المحافظة على الحياة لا بد لكم منه ولو لم تتمنوه، ولو كنتم كارهين له فاستعدوا له بالتوبة والإيمان ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ الذي هو عالم بكل ما قدمتم الغائب منه والمشاهد ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لأنه عليم به ما خفي عليه منه شيء، ولا نسي منه شيئاً ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا.

﴿٩﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ هذا خطاب للمؤمنين أعني الذين قد أسلموا، وهم الذين يستحقون أن يخاطبوا بهذا الخطاب ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ حين يؤذن لها قبل الخطبة ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ حين تسمعون المؤذن فاسعوا إلى ذكر الله لتسمعوا ما يذكركم بالله من خلال الخطبة والصلاة، وتذكرون الله في الصلاة ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ عندما يؤذن لصلاة الجمعة حرم البيع ووجب التوجه لصلاة الجمعة ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أن تحضروا لذكر الله وتتركوا البيع ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تقبلون التعليم وتعملون به.

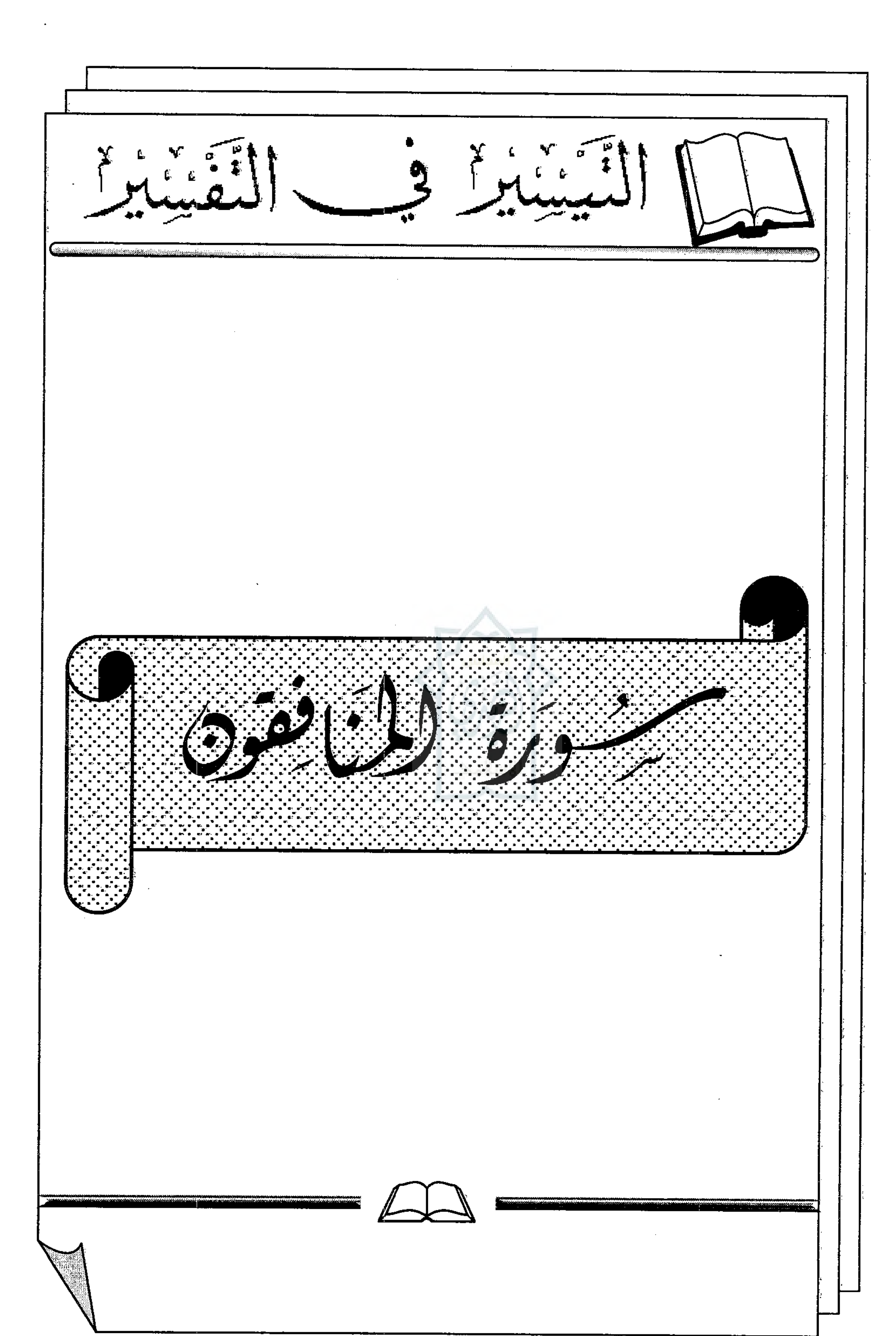
فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

﴿١٠﴾ ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ انتهت صلاة الجمعة ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا يلزمكم البقاء في المسجد فهو رخصة في الخروج ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ ابتغوا من فضل الله، شامل لكل عمل مباح من البيع وغيره، مثل: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ استمروا على ذكر الله أينما كنتم فليس انتهاء الصلاة يعني انتهاء ذكر الله، بل إنها محفزة للاستمرار على ذكر الله تعالى.

﴿١١﴾ ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ عاب عليهم هذه الطريقة، قالوا: إنها وصلت تجارة من القمح وكانت العادة أن تضرب الطبول لإعلام الناس بذلك فلما سمعوا قرع الطبول انفضوا إليها مبادرين بسرعة للشراء، وكان النبي ﷺ يخطب للجمعة، ويقال: أنه لم يبق معه سوى ثلاثة أشخاص في بعض الروايات فأنكر الله عليهم هذا وعابه عليهم.

﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ لو لزموا المسجد وسماع الخطبة لحصل لهم من فضل الله وثوابه أفضل مما ذهبوا إليه من اللهو والتجارة ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فهو الذي بيده خزائن السموات والأرض وهو أكرم الأكرمين.





التيسير في التفسير
سورة المنافقون





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا

(سورة المنافقون) مدنية

وذُكرت فيها بعض معائب المنافقين. قالوا: كانت تقرأ في عهد الرسول ﷺ في صلاة الجمعة في الركعة الثانية و(سورة الجمعة) في الركعة الأولى، ربما أن ذلك لما يحويانه من التوعية السياسية من خلال الطرح عن اليهود والمنافقين وخبثهم ومكرهم وخداعهم، وكذا من الجوانب الاجتماعية والآداب الإسلامية.

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ هذا من أعمالهم أنهم يظهرون الإيمان، حتى كأنهم متيقنون حين ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ أنه رسول الله ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ هذا صِدْق لكن المنافقين كاذبون في قولهم نشهد، وليس عندهم يقين، ولا علم، إنما هم جهلة شاكّون ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ وهذا فضح لهم.

﴿٢﴾ ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ يتقون بها غضبكم وعقابكم، فكانت أيمانهم تتكرر دائماً مثل قولهم هذا ومثل قوله عنهم: **﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا..﴾** [التوبة:٧٤] **﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ..﴾** فهي من عادتهم الأيمان الفاجرة ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صدوا ربما يعني صدوا غيرهم عن سبيل الله، فهذا فساد كبير ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إن المنافقين ساء ما كانوا يعملون أعم من هذه الأعمال التي قد ذكرت منهم.

ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ

﴿٣﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ آمنوا في البداية حين قال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة:١٧] فكأنهم في البداية قد كانوا آمنوا حقيقة ولكنهم تحولوا ونافقوا، ثم بعد ذلك كفروا ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فكثرت منهم المعاصي وتكررت حتى طبع على قلوبهم سلبهم الله ألطافه وتركهم في طغيانهم يعمهون ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ بسبب أنه قد طبع على قلوبهم فصارت مخذولة كالممنوع دخول الهدى إليها.

﴿٤﴾ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ أجسام فيها كمال يلفت الأنظار بصنع الباري سبحانه ﴿وَإِن يَقُولُواْ﴾ حين يتحدثون بحضرتك ﴿تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ لأنه كلام فصيح منمق وجميل، فجمعوا بين كمال الأجسام وفصاحة الكلام، فهم فتنة للبسطاء وفاقدي الوعي ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ في تثاقلهم عن طاعة الله، لا يسارعون إليها إذا دعوا إلى الصلاة أو دعوا إلى الجهاد فهم أهل تثاقل كما قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة:٥٤].

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ لشدة حذرهم من انكشاف جرائمهم للمؤمنين وهم كذلك جبناء، كما قال الله: ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة:٥٦] أي يخافون كما أنهم يتوقعون في كل لحظة مهاجمة الكفار للمسلمين. وهم في أوساطهم فينالهم أي أذىً فهم دائماً في توجس من أي صيحة سواء صيحة من المؤمنين أو صيحة من الكافرين يحسبونها كأنها عليهم ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ هم العدو الأكبر الأخطر لأنهم يُخربون من الداخل ويطلعون على أحوال المسلمين عن كثب فهم -كما يفهم من الحصر والقصر- العدو الشديد العداوة.

لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى

﴿فَٱحْذَرْهُمْ﴾ يا رسول الله ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ هذا دعاء عليهم بمعنى اللعنة والغضب عليهم ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ من أين يؤفكون، يعني: يُقْلَبون عن الحق الذي هو القرآن والرسول، وما جاءهم به من الهدى والنور، فمن الغريب أن يضلوا في ظروف كهذه بل من حقهم في ظل الرسول والقرآن أن يهتدوا لأن القرآن يتنزل بين ظهرانيهم والرسول يتلوه على مسامعهم فكان عجيباً أمرهم من أين يؤفكون؟ يُقْلَبون من الحق إلى الباطل.

﴿٥﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ مما قد وقع منكم ليتخلصوا من الجرائم الماضية ﴿لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾ يلوونها إشارة إلى عدم إعجابهم بذلك ورفضهم له ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يعرضون ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ يستكبرون عن أن يذهبوا إلى الرسول ﷺ ليستغفر لهم.

﴿٦﴾ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ لأن الله وحده عالم بباطنهم وظاهرهم وأسرارهم وجرائمهم المخفية أما الرسول فلا يعرف ما يسرون وما يضمرون فسواء استغفاره لهم وعدمه ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ فإذا لم يهدهم فكيف يغفر لهم وهم لا يزالون مجرمين مصرين على جرائمهم.

﴿٧﴾ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ وهذا من جرائمهم ينهون عن المعروف يريدون أن يفرضوا حصاراً اقتصادياً على

ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ

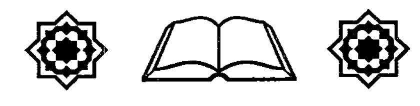
المسلمين لتحطيم الإسلام ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ لكي يذهبوا ويتركوا الرسول لوحده ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو الرزاق سبحانه لعباده، لو لم يمد إليهم أحد من هؤلاء المخاطبين بيد فهو قادر أن يرزقهم من ناحية ثانية ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يفهمون الأشياء الخفية لكونهم لم يتعلموا ولم يستعملوا عقولهم ولم يفكروا فكانوا أغبياء لا يعرفون إلا ما يتعلق بأمور الدنيا.

﴿٨﴾ ﴿يَقُولُونَ﴾ بعد أن ضاقوا ذرعاً بالمؤمنين من المهاجرين في المدينة ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ يقصدون أنهم الأعز والمؤمنين الأذل وأنهم عند عودتهم إلى المدينة سيخرجونهم منها ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ليست للمنافقين ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ جهالة وغباء مفرطاً وإلا فهي واضحة عزة رسول الله ﷺ ومن معه من المجاهدين الذين باعوا أنفسهم من الله، متوحدين مستبسلين، فكيف لا تكون العزة لهم.

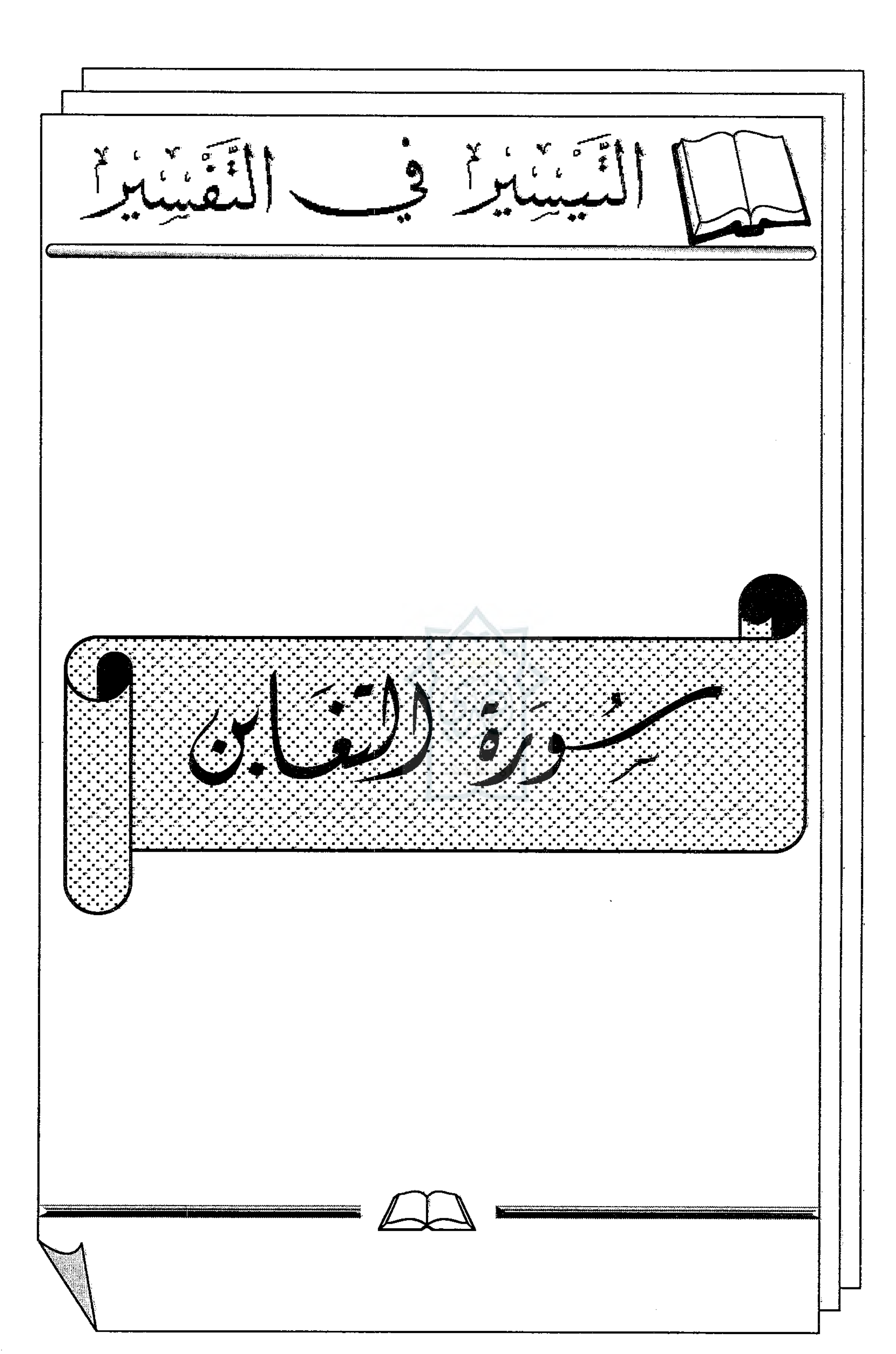
﴿٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لا تشتغلوا بها عن ذكر الله في الصلاة صلاة الجمعة وغيرها من الصلوات ولا عن ذكر الله عموماً بحيث ينسون الله بقلوبهم، حين يكون همهم الأموال والأولاد ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ يترك ذكر الله ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الذين خسروا أنفسهم يوم القيامة وأهليهم.

رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١١﴾

﴿١٠-١١﴾ ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ أنفقوا في سبيل الله مما رزقناكم من الحلال لأن المنافقين قالوا: ﴿لَا تُنفِقُواْ﴾ فلفت انتباههم لضرورة الإنفاق في سبيل الله ليقوم الجهاد، ويعتز الإسلام والمسلمون ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ لأن النهاية هي أن يموت الإنسان ويترك ماله للوارث فقد يحضره الموت فجأة وهو لا يزال يسوف ويتردد في الإنفاق فيتمنى أن يحصل على مهلة ولو قصيرة، حين يرى عاقبة تفريطه في الإنفاق مع تمكنه منه ﴿فَيَقُولَ﴾ عند حضور الموت ﴿..رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ فلا بد من أن يعمل الإنسان ويتصدق وهو في فسحة من الأجل أما الآن فلا تأخير قد نفِذَ العمر ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ عليم بأعمالكم كلها فاعملوا في الفسحة حيث ينفعكم، وهو غير خاف عليه شيء من خبرها، وهذه نعمة ورحمة لنا يحفزنا على العمل إذا علمنا بأنه خبير بأعمالنا وأنه رحيم حكيم لا يفوت علينا منها مثقال ذرة.






التيسير في التفسير
سورة التغابن



سُورَةُ التَّغَابُن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ قد مر تفسيره ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كلها تسبح له لأنه الخالق المالك ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ له الأمر والنهي والتصرف ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ لأنه المنعم المتفضل المحسن على عباده ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من ذلك إعادة الخلائق بعد الموت.

﴿٢﴾ ﴿هُوَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ الناس المخاطبين المكلفين ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ لأنه لا يتذكر أن الله الذي خلقه فكفر، إما كفر بقدرة الله لما لم يؤمن بالبعث، واستبعد أن يقدر الله على إعادته، فكفر بقدرة الله على البعث، أو الذين أشركوا بالله كفروا بكون الله المالك لهم وحده، لا شريك له في خلقهم ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ مؤمن بقدرة الله على كل شيء، وأن الله ربه وحده لا شريك له ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ بصير يجازي كلا على قدر ما يستحق من خير أو شر.

﴿٣﴾ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ لم يخلقها عبثا بل خلقها بالحق، ولتجزى كل نفس بما كسبت ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ صور البشر ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ فأحسن صورنا نعمة منه وآية تدل على قدرته وعلمه ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وحده لا شريك له، لا يصير العباد إلا إليه ليسألهم عما قدموا ويجازيهم بما عملوا وليس هناك من شفعاء ولا أحد يكون له مشاركة في الأمر.

تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

﴿٤﴾ ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ هو عالم بكل شيء، علمه محيط بكل شيء، فهو يعيد الموتى، ويحيط بأعمال المكلفين، لا ينسى ولا يغلط في شيء ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ كذلك، لأنه عالم الغيب والشهادة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بما تخفيه الصدور.

﴿٥﴾ ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾ كان فيهم عبرة لكم لتؤمنوا، وتسلموا من العذاب فهم عبرة لكم لو اعتبرتم بهم وبأنبائهم حين كذبوا برسلهم، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه، وكيف أخذهم الله ﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾ وخامة أمرهم الذي هو الكفر والعناد والشقاق لله ولرسله ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ في الآخرة إضافة إلى العذاب العاجل في الدنيا.

﴿٦﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذاقوه ﴿بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ عادة تكون آيات بينات تدل على أنهم رسل من الله ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ كذبوا الرسل واعتلّوا باشتراط أن لا يكون الرسول بشراً، استبعاداً لأن يكون الرسول بشراً، وهذا مما لا حجة لهم فيه ﴿فَكَفَرُواْ﴾ برسلهم ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ عن طاعة ربهم ﴿وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُ﴾ عنهم ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾ فأخذهم الله.

﴿٧﴾ ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْ﴾ لأنهم لما كفروا بآيات الله كفروا بالبعث أيضا، ولو آمنوا بالآيات لآمنوا بالبعث والجزاء ﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله

وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن

﴿بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إنه سيبعثكم وينبئكم بما عملتم، لأنه لا ينسى منه شيئاً.

﴿٨﴾ ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لتسلموا العذاب، وتسلموا من مثل ما حل بالأمم من قبلكم ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ هذا القرآن آمنوا به ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ إن آمنتم أو كفرتم، فهو عالم بعملكم ويخُبره باطنه وظاهره.

﴿٩﴾ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ عائد إلى قوله: ﴿لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ البعث والحساب يوم جمع العالمين ﴿يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ لأن من الناس من يخسر نفسه وأهله، فيخسر كل خير، فكان هو المغبون، الغبن الدائم ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ يغطي الله سيئاته كأنه بحيث لا يراها نهائياً، أو لا يحاسب بها فضلاً عن غفرانها وتغطيتها ﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ هذا هو الرابح ولا غبن ولا خسارة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ في الجنة أبداً هذا هو السعيد، سعادة دائمة ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الفوز برضوان الله والجنة والنجاة من النار.

﴿١٠﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ كفروا بالله وبرسله، وكذبوا بآيات الله الدالة على رسالة الرسل وبالكتب، كذبوا بها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتون ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ مصير ـ نعوذ بالله منه ـ لا أسوأ منه، ولا أشر منه.

يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟

﴿١١﴾ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ سواء في الأرض أو في أنفسنا على ما تقدم في (سورة الحديد) ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ كلها بتخليته، وبعلمه قبل وقوعها ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ إيماناً يبعث على طاعته وتقواه وذكره وشكره ولا ينساه هذا هو الإيمان الصحيح الصادق ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ ينوره ويهديه لطاعته ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ من آمن فهو عالم بإيمانه لا يضيع منه شيئاً، ولا يخفى عليه منه شيء.

﴿١٢﴾ ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ هذا أمر بطاعة الله وطاعة رسوله لندخل الجنة، ونسلم من النار، وهذه العبادة التي خلقنا لها ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن طاعة الله ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ ليس عليه أن يكرهكم على الطاعة ولم يكلف بهدايتكم، وإنما كلف بالإنذار والتبليغ، وقد أدى ما عليه من البلاغ البين الذي تقوم به الحجة عليكم.

﴿١٣﴾ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا إله إلا هو لأنه هو الخالق المالك فهو رب كل شيء، فإذا كان هو رب كل شيء فلا يستحق العبادة إلا هو؛ لأن كل المخلوقين عباد له وليس لغيره فيهم شرك ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يكلون أمورهم إليه ليثبتوا على الإيمان والطاعة، وليقدروا على الوقوف في وجه المشركين وتحدي طغيانهم، فلا بد من أن يكلوا أمرهم إلى الله.

وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾

﴿١٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ وإن لم يتصور منهم العداوة، لكن في ذلك الوقت قد يؤمن الإنسان وتظل زوجته مشركة حتى لو أظهرت الإيمان، أو ابنه مشركاً ولو أظهر الإيمان، فيكون عدواً لأبيه وهو لا يدري بعداوته له فينبههم الله ليحذروا، وكذلك في أي وقت وزمان خصوصاً مع اختلاف المعتقدات والأفكار فالحذر واجب ﴿وَإِن تَعۡفُواْ﴾ عما يصدر منهم من أذى أو تقصير في حقوقكم ﴿وَتَصۡفَحُواْ﴾ تعرضوا عما وقع منهم ﴿وَتَغۡفِرُواْ﴾ والمغفرة كأنها متقاربة في المعنى هي والعفو ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ ترغيب في العفو حتى لا نشدد على الأولاد، وعلى الأزواج.

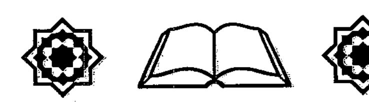
﴿١٥﴾ ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ فلا تفتتنوا ولا تحملكم الرغبة فيهم والإشفاق والحب لهم على التقصير في طاعة الله والجهاد في سبيل الله، أو على البخل بالإنفاق في سبيل الله لأنه قد يبخل الإنسان بالإنفاق لأجل الولد أو تشبثاً بالمال وحباً له فهذه هي الفتنة ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ إذا آمنتم به، وأطعتموه، وأنفقتم في سبيله.

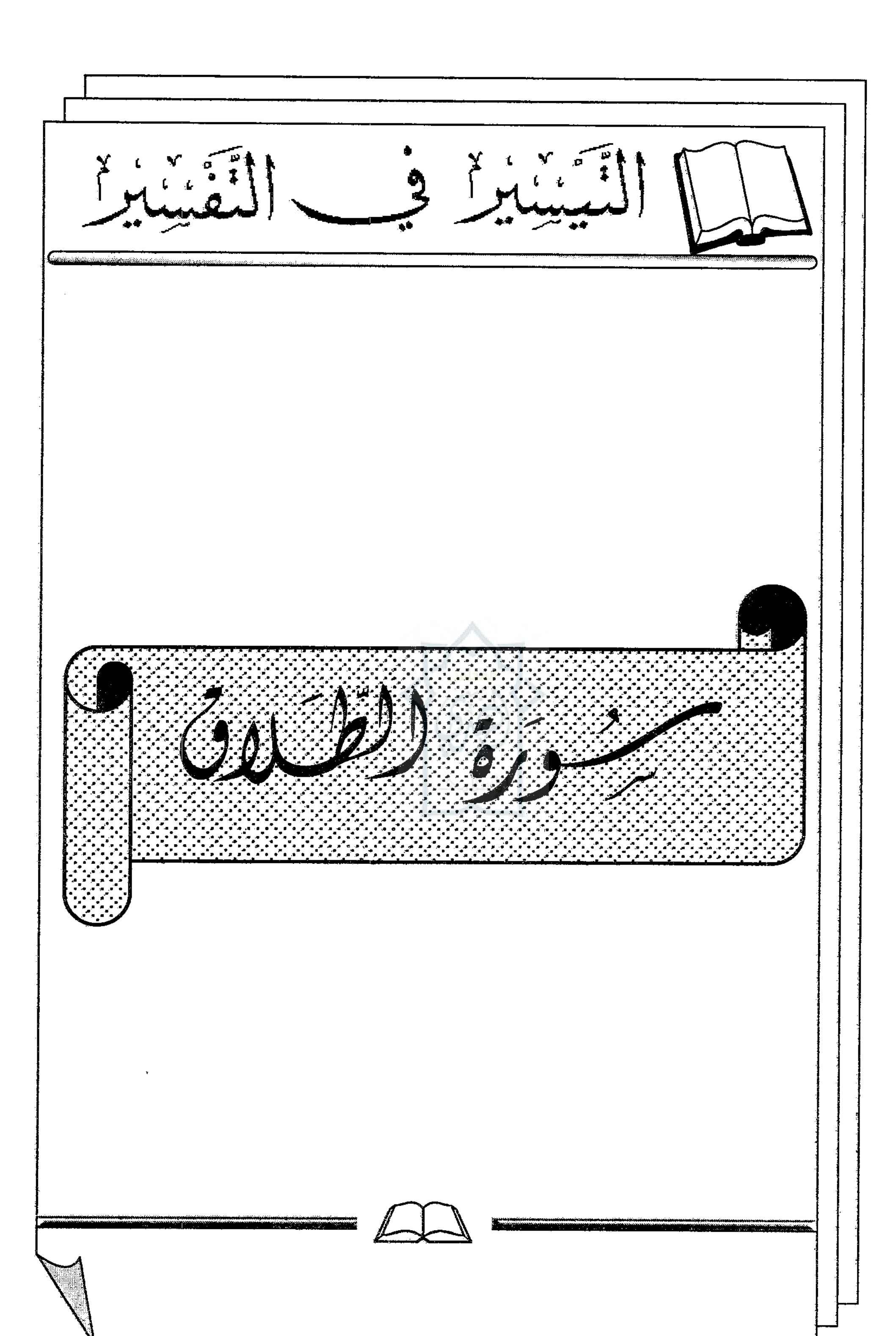
﴿١٦﴾ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ لتنالوا هذا الأجر العظيم ولأن العذاب شديد فينبغي الحذر بقدر الجهد ﴿وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ لله ولرسوله

﴿وَأَنفِقُوا﴾ من أموالكم في سبيل الله ﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ حينما تنفقون فالخير عائد لكم أنتم كما أن عاقبة البخل عليكم كما قال: ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [محمد:٣٨] ﴿وَمَن يُوقَ﴾ من وقاه الله ﴿شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الذين يفوزون في الدنيا والآخرة ويفلحون، لأنه إذا غلبه الشح وبخل فاتت عليه الجنة واستحق عذاب النار.

(١٧) ﴿إِن تُقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو أن يكون الإنفاق بطيبة نفس ومن الحلال وبحيث يكون لله خالصاً، وبنية صادقة ﴿يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ ما أقرضتم يضاعفه قال في الحديث: «.. حتى تصير اللقمة مثل جبل أحد» ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ لأن من أسباب المغفرة الإنفاق في سبيل الله وفي وجوه الإنفاق المذكورة في (سورة البقرة) وكأن الإنفاق يصلح الضمير مما يدفع الإنسان للتقرب إلى الله والاستقامة على طاعة الله ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ فما أنفقتم فسيضاعف الثواب عليه، فهو يشكر على القليل ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعجل على من عصاه بل يتأنى بعبده لعله يتوب ويرجع.

(١٨) ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فما عمل الإنسان فهو عالم به سبحانه كل عمله من إنفاق أو غيره فهو عالم الغيب والشهادة ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا ينال ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي تصرفاته وأفعاله وأحكامه كلها قائمة على الحكمة سبحانه وتعالى.




التيسير في التفسير
سورة الطلاق



سورة الطلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ وجه الأمر في هذه المسألة إلى النبي ﷺ مما يدل على أنه ينبغي أن يكون الوالي أو المتفقه في الدين هو الذي يتولى أمور الطلاق؛ لأنه عادة تحصل أخطاء كثيرة في الطلاق كأن يطلق غير طلاق السنة، أو يسترجع شيئاً من المهر أو نحو ذلك. فوجه الخطاب إلى النبي، كأنه الذي يتولى في وقته شئون الطلاق ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ لتستقبل العدة، فلا يطلقها وهي حائض، وكذلك من المهم أن يطلقها في طهر لم يكن قد وطئها فيه لئلا تلتبس العدة هل هي عدة حيض أو هي عدة انتظار وضع الحمل لاحتمال العلوق بذلك الوطئ.

﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ لأنها حد من حدود الله، ثلاث حيض، أو ثلاثة أشهر على ما سيأتي من التفصيل فلا بد من التدقيق في حساب الأيام إن كانت بالأشهر، وفي عدد الحيضات إن كانت بالحيض ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ لا تتساهلوا في حدوده فيما أمر به بحيث يكون الطلاق على غير السنة، أو لا تحصون العدة، كذلك اتقوا الله ربكم في أمر آخر وهو قوله: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ دعوها تعتد في بيتها، كأن الأصل والمفروض في الطلاق أن يكون رجعياً، أما الطلاق البائن فلا ينطبق عليه هذا الحكم، والهدف من هذا الحكم في الطلاق الرجعي هو ما أشار إليه فيما بعد بقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.

﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾

﴿وَلَا يَخۡرُجۡنَ﴾ نهاها عن الخروج من البيت ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ فيخرجها من بيته ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ فيما يتعلق بالطلاق والعدة وبقائها في البيت ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ معصية لله يستحق عليها العقاب ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ هذا كأنه توضيح لبيان الحكمة من تشريعه لهذه الأحكام من عدم الإخراج والخروج فإذا امتثل الزوجان لأمر الله، وقعدت في البيت فلعل النفوس تطيب ويصلح الله الشأن ويراجعها الزوج لأن معظم حالات الطلاق تأتي نتيجة لانفعال آني، أو لتوهم خاطئ أو نحو ذلك.

۝٢ ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾ آخر العدة قبل الاغتسال من الحيض ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾ لا يكن إمساكه لها من منطلق الضرار بها ﴿أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾ لا بإزعاج، وجرح مشاعر وسوء أدب ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ يظهر أنه عائد إلى الكل، الطلاق والرجعة، وهذا الإشهاد لابد منه تفادياً للمشاكل التي قد تحدث ولو بعد حين، فقد ينكر البعض الطلاق أو الرجعة ليثبت الميراث أو ينفيه عن الآخر كما أن لذلك علاقة بالنفقة وغيرها ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ هذا خطاب للشهود ليشهدوا شهادة قيمة لا عوج فيها ولا تلاعب ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ التوجيه والإرشاد من أول السورة ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ لأن الإيمان بالله واليوم الآخر يبعث على الطاعة، لمكانة الإيمان بالجزاء وبأن الباري رقيب على العباد وسوف يحاسبهم ويجازيهم.

وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ مهما عظمت المصائب وكثرت المشاكل وتعقدت الأمور فإنه إذا اتقى الله وامتثل أمره يخلصه منها ويعينه ويوفقه.

﴿٣﴾ ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ من حيث لا يتوقع ولا ينافي ذلك الرزق من حيث يتوقع مع ذلك ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يكل أموره إليه ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ كافيه وهو نعم الوكيل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ لأنه على كل شيء قدير، وعالم بكل شيء، وعالم بحالة المتوكل عليه، فهو بالغ أمره ما قدّره للعبد فهو منفذ ما قضاه ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ قدَّر الأرزاق والآجال وما يتعلق بحياة الإنسان في هذه الدنيا فهي كلها بمقادير.

﴿٤﴾ ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أيها الحكام في احتمال الحمل حين طلقها ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ اليأس إما لبلوغ السن الميئوس من الحيض عنده، أو عرض لها مرض فانقطع الحيض حتى يئست، وتلاحظ هنا أنه علق الحكم على يأسها هي، وليس على يأس العالم أو الحاكم الشرعي بل على يأسها هي.

نعم.. فمتى يئست فعدتها ثلاثة أشهر، ولا ينبغي اليأس إلا بعد أن تستعمل الأدوية التي يرشد الطبيب إليها في مثل هذه الحالة، فإذا استعملتها وحسب الوصفة الطبية ولم تر منها فائدة حتى أيست من الحيض فلتعتد بالأشهر ثلاثة أشهر وإذا انكشف خطؤها بأن عاد إليها الحيض بعد ذلك

يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو

فلتعتد بالحيض، ولا حرج عليها كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ﴾ فعدتها ثلاثة أشهر كذلك والمقصود من لم يأتها الحيض أصلاً ﴿وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ التي طلقت وهي حامل فأجلها وضع حملها وليست عدتها بالحيض ولا بالأشهر فمتى وضعت حملها ولو بعد ساعة من الطلاق انتهت عدتها ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ فما أحسن تقوى الله، والالتزام بطاعته في كل شيء، لكي تتيسر أمور الإنسان، ويعينه الباري في أمور دينه ودنياه.

﴿٥﴾ ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ تلك الأحكام في الطلاق والعدة فارعوها لكونها أمراً من الله ولا تخالفوها ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ السيئات الحادثة قبل التقوى ﴿وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ يعظم له الأجر على تقواه لأن التقوى سبب الجنة.

﴿٦﴾ ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ رجع الحديث إلى مسألة السكنى بعد النهي عن إخراجهن فأعاده ليبني عليه ما بعده ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ على قدر وجدكم يعني حالتكم المادية، كما قال: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ فيكون سكناها في العدة من حيث الجودة أو عدمها على أساس الإمكانيات المادية المتوفرة ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ لا يضيق عليها المكان بأي سبب كان ليحملها على مغادرته.

سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾

﴿وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ حتى لو طالت المدة لأن الأجل أن تضع حملها فلزم أن ينفقوا عليهن حتى ذلك الحين ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ بعد أن تضع حملها ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ نفقة الحضانة، لأنها تضطر للاشتغال بالمولود ترضعه وتحفظه وتخدمه ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ مثلا إذا قصر الزوج هذا في بعض الحقوق عليه للمرأة فلابد أن يأمره ويرشده الذين حوله من المؤمنين فيتواصوا بالحق ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ على الإجارة بأن طلبت أكثر مما ينبغي ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ يسلمونهُ لمرضعة غيرها إذا رفضت هذه الأم أن ترضعه بإجارة معقولة.

﴿٧﴾ ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ بقدر حاله الذي عنده سعة وهو واجد ينفق بقدر حاله فلا يبخل ولا يقاصي ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ ينفق بقدر حاله لا يترك الإنفاق بحجة أنه مقل بل ينفق مما آتاه الله ولو قليلاً ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ بقدر ما آتاها قل أو كثر ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ فلينفق ويرجو من الله اليسر في المستقبل، فلا يوسوس له الشيطان أنه سيدخل نفسه في أزمة حين يدفع النفقة؛ لأن الله قد وعد باليسر بعد العسر.

﴿٨﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ هذا ابتداء كلام في طاعة الله واتباع الرسل يقول: كم من قرية عتت عن أمر ربها أي تمردت على الله ورفضت طاعته واتباع رسله ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ على ما قد وقع منها من المعاصي كلها أولها وآخرها ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ عذابا تنكره النفوس لشدته.

فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

﴿٩﴾ ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ فذاقت وخامة أمرها الذي هو العتو عن أمر ربها ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ خسرت أنفسها وخسرت كل خير.

﴿١٠﴾ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ مع عذاب الدنيا عذاب الآخرة ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ احذروا الوقوع في مثل ما وقعوا فيه ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ هذا القرآن العظيم الذي يكفي العاقل إذا تدبر آياته.

﴿١١﴾ ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ هذا الذكر عندي أن المقصود به الآيات، والمعنى: أرسل رسولاً يتلو عليكم آيات الله، فكأنه تفسير لقوله: ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الذين يقبلون ويمتثلون ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ من ظلمات الجهل والمعصية ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلى نور الهدى والطاعة.

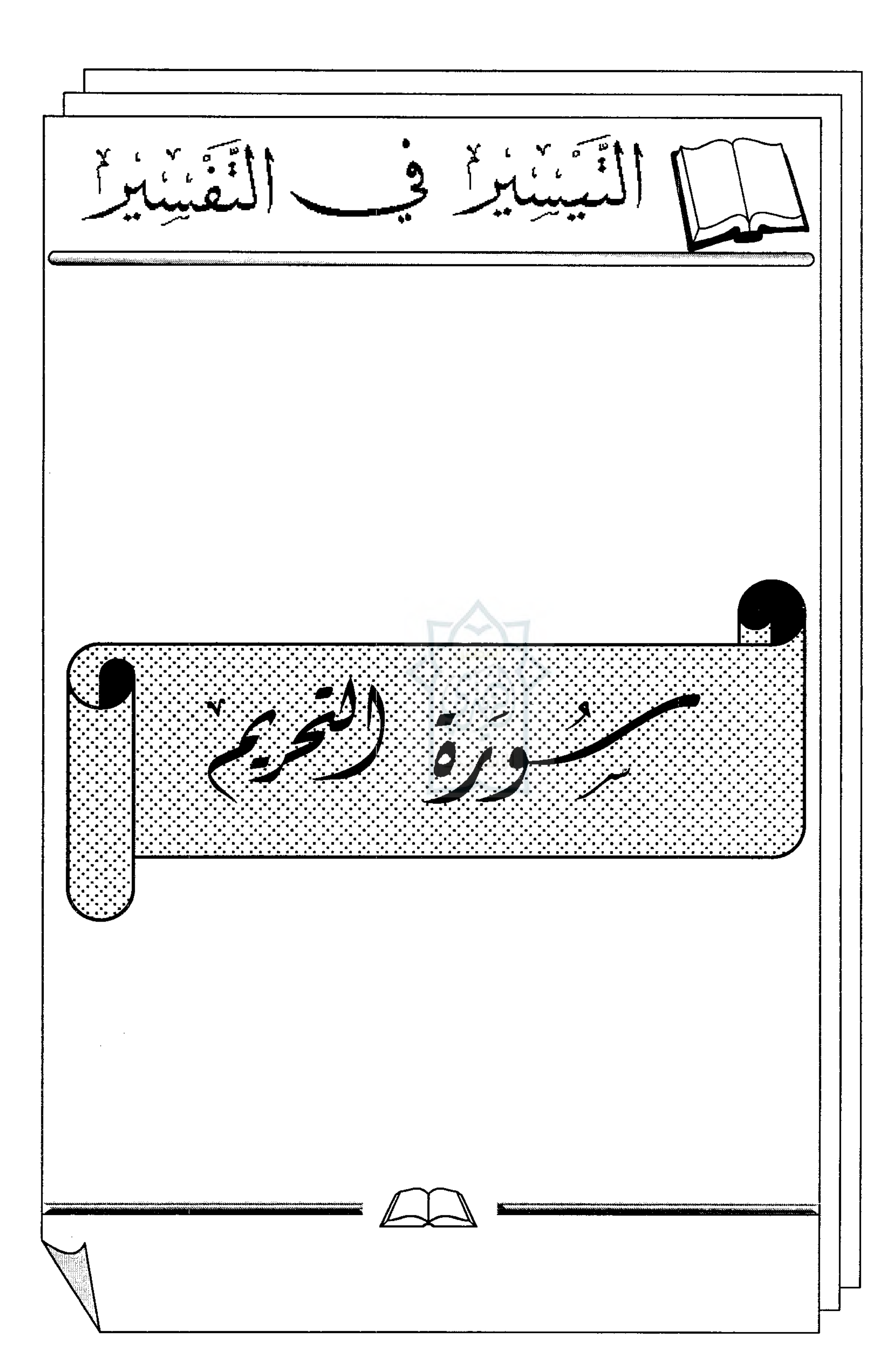
﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ بعد ما حذّر من مثل عذاب الأمم الماضية بشر بالخير من يؤمن بالله.. ﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾ قد أحسن الله أي في هذه الجنات أحسن رزقه الذي سينعم فيه خالد مخلداً.

(١٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ هو قادر على كل شيء، فكما قدر على خلق السموات والأرض، فهو قادر على البعث والجزاء بالجنة والنار، وجاء هذا التعقيب بعد الوعد والوعيد ليدلل على قدرته سبحانه على ذلك لأنه الذي خلق السموات السبع، ومن الأرض مثلهن سبع أرضين ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾ بين السموات والأرضين كما قال: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة:٥] ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ لأن خلقها آية ودليل عليه، ويكون من جملة فوائد خلقها أن نعلم أنه على كل شيء قدير ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ أنه عالم بكل شيء، وقدير على كل شيء، لأن في خلقها دلالة على قدرته وفي إتقان وإحكام صنعها دليل على علمه سبحانه وتعالى.






التيسير في التفسير
سورة التحريم



سُورَةُ التَّحْرِيمِ

آياتها ١٢ — ترتيبها ٦٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ يروى: أن رسول الله ﷺ شرب عسلاً عند إحدى نسائه قيل: إنها زينب بنت جحش فتواطأت حفصة وعائشة على أن يقولا له متى دخل عليهما: إنا نشم منك ريح المغافير، وهي كما قيل: صمغة حلوة الطعم كريهة الرائحة، فلما دخل على حفصة قالت له ذلك، وكذلك قالت عائشة عند دخوله عليها، فعند ذلك حرم العسل على نفسه كراهة للومهما وتطييباً لأنفسهما، فعاتبه الله على ذلك وأمره بتكفير اليمين ليعود إلى جاريته إن شاء.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فالأمر لا يستدعي كل هذا الدلال والاسترضاء لأن فعلك هذا لا يعد جريمة في حقهما.

﴿٢﴾ ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ شرع وأوجب الكفارة كفارة اليمين للتحلل مما حلف منه ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ الذي يرعاكم ويحسن رعايتكم ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بكل شيء من أحوالكم لا يخفى عليه شيء من أموركم ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تصرفاته فيشرع لكم في دينه على ما تقتضيه الحكمة.

﴿٣﴾ ﴿وَإِذْ أَسَرَّ﴾ واذكر ﴿إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ﴾ أفشت سر رسول الله ﷺ ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أعلم النبي بأنها قد

قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ

أخبرت بذلك السر ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ عرف النبي بعضه لها أي أخبرها ببعض ما قد أفشت وأعرض عن بعضه تكرماً منه ﷺ، كأنه كراهية منه للتشديد عليها ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ بهذا البعض ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ يعني الله سبحانه الذي أوحى إليه هذا.

﴿٤﴾ ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ رجع يخاطب بعض أزواج النبي ﷺ ليتوبا إلى الله مما اقترفا ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ قد مالت عن الحق قالوا: إن الخطاب هذا موجه لعائشة وحفصة، الرواية في البخاري ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ تتعاونا عليه على النبي ﷺ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ وهو ناصره ومؤيده ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ مع النبي ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ علي بن أبي طالب ـ صلوات الله عليه ـ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ مناصرون للنبي ﷺ كأن هذا كله لأجل الدلالة على أن الله معه والملائكة والمؤمنين وليس فقط لأجل القضية المذكورة، وهو نوع من البديع أن يسترسل ويتطرق إلى ذكر شيء آخر غير ما عليه السياق لفائدة في ذلك.

﴿٥﴾ ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ هذا تخويف لهن لئلا يتجرأن على أذيته مرة أخرى ﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ ووصف البديل المفترض بأنهن الجامعات لهذه الأوصاف: ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ مخلصات لأنفسهن لله سبحانه ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيئين.

وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ

﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ خاضعات لله ولرسوله ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ إلى الله إذا لم تتب أزواجه المعنيات فسيستبدلهن بنساء تائبات ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ لله سبحانه وتعالى ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ يذهبن معه حيث ذهب سواء في الجهاد أو في الهجرة أو غير ذلك ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ يكون البديل بعضهن ثيبات وبعضهن أبكار وفي كل صنف مواصفات ومميزات تحلو للرجل، فالثيبات يتمتعن بالعقل والفهم وتجربة الزواج ومعرفة ما يصلح للزوج ونحو ذلك، كما تتميز البكر باللذة والمتعة لما هي عليه من الصباء والتصابي، هذا ملخص كلام الإمام الهادي عليه السلام في معنى الآية.

﴿٦﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهذه كأنها متعلقة بما مضى ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ على الرجل أن يسعى في نجاته ونجاة أهله من النار وذلك بالموعظة والتعليم والتربية ﴿وَقُودُهَا﴾ حطبها ﴿ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ خزنتها ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ أهل غلظة وشدة على أهلها دونما رأفة ولا رحمة، فهم يوقدونها ويسعرونها باستمرار لا يدعونها يفتر تأججها ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ يمتثلون ما أمرهم الله به من تعذيب العصاة، ولا يخالفون له أمراً.

﴿٧﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كأنه يقال لهم هذا في حال عذابهم في جهنم ليعلموا أنه ليس إلا جزاء على ما كانوا يعملون في الدنيا لتكون أعمالهم حسرات عليهم.

أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ

﴿٨﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذا الخطاب موجه إلى المؤمنين كلهم ﴿تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ارجعوا إليه ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ توبة صحيحة تمحو الذنوب وتُقبل عند الله سبحانه وتعالى، والتوبة الصحيحة هي أن يندم على المعاصي من أجل حق الله عليه وأن من حقه أن لا يُعصَى أبداً، كما يجب أن يعزم عزماً صادقاً على عدم العودة إلى المعصية، ويطلب من الله أن يغفر له فإذا لم يكن صادقاً في ذلك، وإنما توهم أنه قد عزم أو أنه قد ندم والواقع خلافه فلا تتم التوبة لأن الندم فائدته أن يتخلص من الرضى بالمعصية لأنه قال أمير المؤمنين عليه السلام: «على كل داخل في باطل إثمان إثم العمل به وإثم الرضى به» فلهذا يكون عدم الندم بمثابة الرضى بالمعصية وهذا مخل بالتوبة كما يشترط التخلص من المظالم جميعها.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ يَقْرُبُ حينما تتوبون إلى الله توبة نصوحا أن يكفر الله عنكم سيئاتكم يغطيها كأن لم تكن ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ بسبب التوبة إلى الله ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ يشرفهم ويكرمهم ولن يخزيهم بل يكرمهم جزاء لما لاقوه في الدنيا من التعب والعناء في دعوة الناس ومحاولة هدايتهم لهذا فلابد أن يكونوا مشرفين مكرمين عند الله يوم القيامة ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ﴾ مثل ما تقدم في (سورة الحديد).

جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝ وَضَرَبَ

﴿يَقُولُونَ﴾ وهم في الآخرة لهول المطلع وعظم الموقف وإن كانوا آمنين لكن يدعون الله قائلين: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أتمم لنا ما أعطيتنا من هذا النور وكرامات البشارة بإيصالنا إلى ما وعدتنا من دار كرامتك، والخلاص في موقف الحساب.

(٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أمره بجهادهم أما الكفار فواضح وأما المنافقين فلدورهم في الإفساد خصوصاً فيما بين المؤمنين ومحاولة تفكيكهم من الداخل ونحو هذا من أعمال المنافقين وتخريبهم، فلا بد من جهادهم لكن قد يكون حسب ما تقتضيه المصلحة حينئذ وقد يكون ذلك بالغلظة في القول والزجر والتخويف والتهديد غير القتل، وقد تقتضي المصلحة قتلهم كما قال: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً..﴾ إلى قوله: ﴿..وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ [الأحزاب:٦٠-٦١] ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ في المعاملة والجهاد ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ ومأوى الكفار والمنافقين جهنم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أسوء مصير ـ نعوذ بالله ـ يصيرون إليه.

(١٠) ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ هذا مثل للكافر وأنه لا ينفع الإنسان قربه من نبي أو نحوه إذا لم يلتزم هو في نفسه بدينه وشرعه ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ نبي الله نوح، ونبي الله لوط ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ امرأة لوط قالوا كانت تخبر قومه بأن لديه ضيوفاً، فيتعرض لأذية قومه.

ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

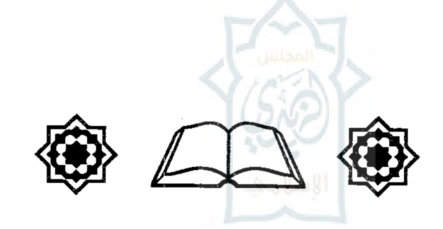
﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ لم يكن لزوجيهما أي صلاحية ليدفعا عنهما من عذاب الله شيئا ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ ولو كنتن زوجين لنبيين من أنبياء الله العظام، فهذا فيه عبرة لعائشة وحفصة لتحذرا وكذا درس لجميع أزواج النبي ﷺ في عدم الركون إلى كونهن أزواج النبي وأنه في يوم القيامة لا ينفع الإنسان إلا عمله.

﴿١١﴾ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ ما ضرها كونها زوجة لكافر لأنها مؤمنة فنفعها إيمانها ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ أذكر، إذ توجهت إلى الله بهذا الدعاء ليخلصها من فرعون وعمله ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لما كانت مؤمنة لم تلجأ إلا إلى الله لينقذها من شر فرعون وظلمه.

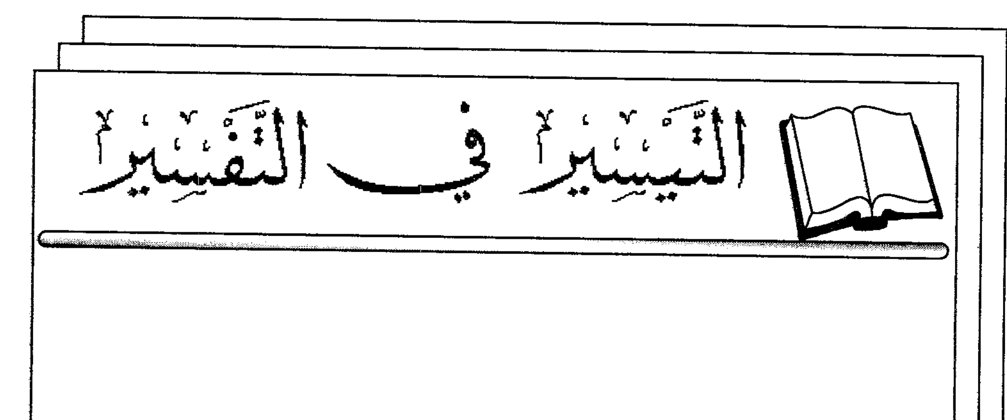
﴿١٢﴾ ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ ضرب بها المثل في المؤمنات ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ تطهرت وتنزهت من الجريمة ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ حين خلقنا عيسى نبي الله في بطنها.

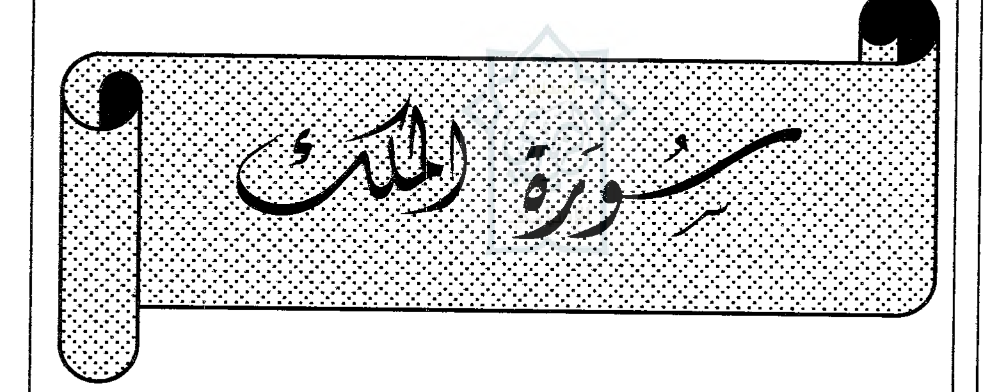
﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ كلمات الله كل ما وعد به الباري أو أخبر به صدقت به، وكذلك كتب الله هي مصدقة بأنها من الله ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ الخاضعين لله، المنقادين له، المستسلمين لأمره، ولعل السبب في جعلها مثلاً للمؤمنين للعبرة بها فيما لاقته من اليهود من الرمي لها بالجريمة

وأن ذلك لم يضرها؛ لأنها كانت مؤمنة مخلصة عفيفة فنصرها الله، وكبت أعداءها، وأرغم أنوفهم، كما وعد به في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج:٣٨] وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١].






التيسير في التفسير


سورة الملك





سورة الملك

آياتها ٣٠ — مكية ٦٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿تَبَٰرَكَ﴾ جلّ وعظم وتعالى من كل ما ينسب إليه المشركون، الجاحدون بالنشأة الآخرة، المستبعدون لقدرة اللّه على إحيائهم بعد الموت المكذبون للنذير البشير، جهلاً بحكمة اللّه وقدرته على كل شيء، وعلمه بكل شيء، وتفسير ﴿تَبَٰرَكَ﴾ بهذا المعنى هو المناسب لاشتقاق أصله من البَركة ـ بفتح أوله وثانيه ـ كما أنه المناسب لسياق السورة هذه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ يفيد: أنـه تعـالى لا يشـاركه في الملـك المطلق مشارك، وأنه يؤتي الملك من يشاء وينزع الملـك ممـن يشـاء، وأن كـل من في السماوات والأرض تحت أمره، يحكم فيهم ما يشاء، فـلا ولـد لـه ممـا يزعم المشركون، الذين قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة:١١٦] وماهم من دونـه من ولي ولا شفيع.

وقوله تعـالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يفيـد: أنـه قـدير علـى البعـث والإعادة بعد الفناء، كما يفيد: أنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿٢﴾ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ﴾ الذي ﴿يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر:٤٢] ويقدر لها الموت بتحديد أجلها، ولعله سمى خلقاً لما فيه من التقدير والتنظيم وحسن التدبير، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ [الواقعة:٦٠] حيث يترتب موت الناس على وفق الحكمة، ولما في قبض الأرواح وتوفي النفوس من التقدير؛ لاختلافه في الشدة، وتفاوته في طول النزع، على ما تقتضيه الحكمة من التشديد والتخفيف.

وقد قيل: إن الموت نفسه عرَض موجود يحلّ في الجسم محل الحياة ـ والله أعلم، وخلق الحياة دليل عظيم على قدرة اللّه؛ لأنه كالمشاهَد، فالحمل يكون في بطن أمه ميتاً، ثم يحييه اللّه فيتحرك ويخرج من بطن أمه حياً بعد أن كان نطفة، وهذا دليل على قدرته تعالى على إحياء الإنسان بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا﴾ [مريم:٦٦-٦٧].

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ يفعل بكم فعل المختبر الذي يريد أن ينظر كيف تعملون، ويعلم أيكم أحسن عملاً، ولما كان الاختبار مؤقتاً لمدة محدودة يترتب عليه الجزاء الدائم كانت الحياة الأولى محدودة تنتهي بالموت والحياة الآخرة التي لا تنتهي، فصحّ أنه تعالى خلق الموت والحياة ليبلونا أينا أحسن عملاً.

وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذرايات:٥٦] حيث أفاد أن المقصود من الحياة هو العبادة في هذه الحياة، وزاد الاختبار أيهم أفضل عبادة، وذلك أنه خلقنا ليعرضنا على رحمته، ويهيئ لنا طريق جنته بأن يدعونا إلى عبادته ويمكننا من الاستباق إلى خيراته ولكوننا في مقام الاختبار، لزم أن نكون ممكنين من الاختيار، ولزم من التمكين من الاختيار للعبادة التمكين من تركها، لأنه لو لم يكن تمكيناً من الفعل والترك، لكان إلجاءً إلى الفعل منافياً للاختيار ومنافياً لاستحقاق المدح والتعظيم وبلوغ مراتب الشرف والتكريم الذي أراده اللّه لمن عبده وعمل صالحاً واتقاه، فمن عدل عن ذلك وكفر نعمة ربه، فقد ترك ما خلق له، ولهذا قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ ولم يقل: (أيكم يحسن العمل، وأيكم يسيء).

سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ لأنّ موقف الاختبار والتخلية ليس منافياً لعزته تعالى؛ لأنه مكّنهم على شرط الجزاء لمن لم يتب من الفجار بالعذاب، ولم يمكنهم تمكين إهمال يفسدون في الأرض ويتمردون على اللّه ويكذبون الرسل ويحاربون الدعاة إلى اللّه، ثم لا يجازيهم، ولهذا فلابد من الآخرة، ولابد من عذابهم وهو أعظم مقاصد السورة الكريمة، أو من أعظم مقاصدها، فقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ تقديم للوعيد.

ثم قال: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لأنه يدعو إلى التوبة، يدعو الكفار إلى الإيمان والعبادة ليغفر لهم، ويتوعدهم ليخافوا عذابه ليتوبوا إليه فينجَوا من عذابه ويفوزوا بثوابه، فذِكْر العزّة مقرون بذِكْر الغُفران لهذا المعنى، لأن الوعيد الذي يأتي في السورة على معنى التحذير من الإصرار على الكفر.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ ﴿٣﴾ هذا دليل على قدرته ليعلم الكافرون وغيرهم أنه قادر على كل شيء، فهو قادر على خلقهم مرة ثانية كما قال تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات:٢٧] وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:٥٧].

وقوله تعالى: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ هي المخلوقات العليا التي سفلاهن سقف للأرض، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء:٣٢] وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة:٢٢] والبشر يؤمنون بها، لبقاء ذكرها من النبوات الأولى، ولذلك قال نوح لقومه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح:١٥] وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

وذكر خلق السماوات في جملة آياته للبشر، وقد فسرت السماء: بأنها عالَم النجوم، وفسرت: بأنها الفضاء الواسع الرحب بما فيه من النجوم وغيرها، حتى فسر قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح:١٦] أي في مجموعهن. انتهى. ومعنى ذلك: أنها من السماوات، وهذان القولان أو هما قول واحد خلاف الظاهر عندي.

وقوله تعالى: ﴿طِبَاقًا﴾ معناه: متطابقة، والمتطابقة قيل في معناه: المتماثلة في الاتساع وغيره، وقال الإمام الهادي عليه السلام، كما حكاه الشرفي في (المصابيح): «ومعنى ﴿طِبَاقًا﴾ فهو طبقة فوق طبقة، ومعنى طبقة فوق طبقة، فهو سماء فوق سماء حتى ينتهي إلى السماء السابعة التي ليس فوقها سماء» انتهى، والأرجح عندي: الجمع بين المعنيين المذكورين هنا.

وقوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ معناه: ما ترى في خلقه من اختلاف، والأرجح عندي هنا، أن المعنى: ما ترى فيه من تعارض وتدافع في الدلالة على الله والهداية إليه التي جعلها برحمته، ولهذا علّقه على قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ و(الخلق) إما أن يراد به السماوات، فكأنه تعالى قال: (ما ترى فيها من تفاوت) ولكنه أقام الظاهر مقام المضمر، ليفيد ذلك: أن كونها صنع الرحمن هو سبب عدم التفاوت وهذا أقرب؛ لأن السياق فيها.

ويحتمل: العموم، والمراد به الخلق الثابت المستمر كالسماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار، فهي كلها على نظام وتناسب محكم يدل على ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠] وأن ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس:٨٣] يدبر أمره كيف يشاء، بل وكل المخلوقات فهي لا تتفاوت في أنها تدل على الخالق القدير الذي بيده الملك.

خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ

وقوله تعالى: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ بمعنى: هل ترى من خلل في إتقان الصنع وتفاوت في الدلالة على الخالق القدير الذي بيده ملكوت كل شيء؟! وتسمية الخلل في إتقان الصنع فطوراً مجاز، لأن البناء الذي لم يحكم يتفطر، والقرينة الترتيب بـ(فاء التفريع) على قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ وإرجاع البصر: إعادة النظر إلى ما يراه البصر.

﴿٤﴾ ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ في (مصابيح الشرفي): «عن الهادي عليه السلام يقول: ﴿ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ وأجد استعمال النظر ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ أي مرّتين، ليثبت لك أمرك، ويتبين لك خبر ما قصد بصرك، وأنك إن فعلت ذلك وأجدت التمييز والبصر [و] استعملت في ذلك العقل والفكر لم ترَ في شيء مما خلقنا تفاوتاً فيما ركبناه عليه من تقديرنا» انتهى.

فالمعنى: ثم ارجع البصر في خلق الرحمن، وتأمّل بفكرك وبصرك، هل ترى من خلل في خلق الرحمن؟! فإنك إن تفعل ذلك ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي يرجع إليك من حيث أرسلته ذليلاً صاغراً موقناً أنه لا خلل في خلق الرحمن ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ منقطع كليل دون أن يرى خللاً.

﴿٥-٦﴾ ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ * وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ السماء الدنيا: أقرب

تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن

السماوات إلينا، زينها الله ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ وهي النجوم المنيرة، وهذا يشعر بأن السماء ليست عين النجوم ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ النجوم ﴿رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ يرجمون بالشهب المأخوذة منها، وهي أجزاء منها أو شُعَل نار تنقدح منها أو كهرباء تتولد منها ـ والله أعلم.

وأقرب الاحتمالات: أنها نار؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر:١٨] وهي التي نراها في الجوّ نازلة يرمي بها الشياطين المسترقون للسمع من السماء ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ أعدّ الله للشياطين عذاب النار المسعرة الموقدة الملتهبة، وفي هذا نقل الكلام من دلائل قدرة الله التي منها تزيين السماء بالمصابيح، الذي هو دليل على صدق الوعيد إلى الوعيد حيث عطف على وعيد الشياطين وعيد الكفار عامة، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ والذين كفروا بربهم يعم الذين أنكروا قدرته على الخلق الجديد والحياة الثانية بعد أن صاروا عظاماً ورفاتاً، فبذلك جحدوا أن الله على كل شيء قدير.

و(المصير): المرجع الذين يصيرون فيه في الآخرة خالدين فيه أبداً، وفي وعيد الشياطين ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ ووعيد الذين كفروا ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ ولعل سبب الفرق أن شياطين الجن هوائيون فتعذيبهم باللهب قبل الجمر، أما كفار البشر فتعذيبهم بهما نعوذ بالله.

۝٧ ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ﴾ ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا﴾ إذا أسقطوا فيها وأوقعوا فيها ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ﴾ ﴿شَهِيقًا﴾ صوتاً يكون لقوة التهابها وتسعرّها.

وفي (سورة الفرقان): ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [آية:١٢] وأصل الزفير: الصوت الخارج من الحيوان مع خروج النفَس، والشهيق: الصوت الخارج مع الجذب للنفَس، والمراد: أصوات مشبهة للصوتين، فإذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً، وإذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً.

وقوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ في (تفسير الإمام الهادي عليه السلام): ((معنى ﴿تَفُورُ﴾ هي تغلي بأهلها وتقلبهم في أعالي لهبها، ترفعهم تارة، وتضعهم وتشويهم تارة، وتفسخهم.

(٨) ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ﴿تَكَادُ﴾ تقطع ويبين بعضها وينفصل عن بعض من شدة غيظها على أهلها، وهذا يدل على أن لها حياة وشعوراً، ويوافقه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق:٣٠] ولا قرينة صارفة عن الحقيقة؛ لأن قياسها على الأرض لا يصح على فرض ثبوت حكم الأصل، لأن أمور الآخرة مخالفة لأحوال الدنيا، ولأن اللّه تعالى يقول: ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت:٢١] والسياق في النطق الحقيقي، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت:٦٤].

﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يظهر من قوله تعالى: ﴿فَوْجٌ﴾ أن أهلها يلقون فيها أفواجاً، قال الإمام الهادي عليه السلام: ((والفوج: فهو الجماعة الكبيرة)) انتهى، وقد قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر:٧١] وهذا يناسب كثرتهم، وفائدة السؤال تقريرهم على أنهم استحقوا العذاب ولم يبق لهم حجة، وهذا يبطل الجبر، لأنهم لو كانوا مجبورين ما كان للسؤال معنى، و(النذير): المبلغ بأنه يقع المخوف، والإنذار: الإبلاغ بوقوع الأمر المخوف.

شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ

﴿٩-١٠﴾ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ ﴿بَلَىٰ﴾ حرف يفيد إثبات المنفي بـ(لم) ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ أي كذبنا النذير، الذي هو الرسول المبلغ للإنذار عن الله تعالى، وكأنهم لتصغير باطلهم قالوا: ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ فجعلوا جريمتهم ما فعلوا تجاه النذير، وما قالوا فيه، فهي مقصورة على النذير لم تبلغ الجرأة على الله والمجاهرة بالتمرد عليه، ولكن هذا لم يفدهم شيئاً.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ سماع تفهّم وتعرّف للحقيقة ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ كذلك عقل تأمّل وطلب للحق؛ لأن العقل يدعو العاقل إلى استماع الإنذار وطلب الحقيقة إن شك في صدقه، ومعنى هذا: أن يلتمس دليلاً على صدقه إن كان صادقاً، ولكنهم على العكس من ذلك أعرضوا عن الدليل على صدق النذير، وقالوا: ما نزل الله القرآن، الذي هو المصدق المعجز الدالّ على صدق الرسول، فكذبوا به في ضمن قولهم: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ تبريراً لكفرهم وتكذيبهم للرسول المنذر، ومخالفة لما يقتضيه العقل، فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ من الأمم التي قد خلت من قبلهم وغيرهم، نظير قوله تعالى في (سورة الأعراف): ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ﴾ [آية:٣٨] فيظهر منه: أن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ إلى هنا في الذين كفروا بمحمد ﷺ، وهذا يوحي بكثرة أهل النار؛ لأن قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ يفهم منه كثرتهم، وقوله: ﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يفيد: أنهم مكثورون ببقية أهل النار.

ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ

﴿١١﴾ ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾ الذي هو التكذيب للرسول ﷺ، والتكذيب بالحجة على صدقه وبآيات اللّه الدالة على صدقه، وبكل ما أنزل اللّه، وما ترتب على ذلك من محاربة الدين، وفتنة المسلمين، وغير ذلك والإعراض عن النظر الصحيح عند سماع النذير ﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ سحقاً وبعداً، يقال ذلك فيمن أصابته مصيبة يستحقها، ومعناها: الرضى بما وقع عليهم وعدم المبالاة بهم، بل الرغبة في زيادة المصيبة عليهم، وفي (الصحاح): السُحق ـ بالضم ـ البعد، قال: «وأسحقه اللّه، أي أبعده» انتهى.

و(أصحاب السعير): أهلها الباقون فيها، كما يقال: أصحاب القرية، وأصحاب الدار لسكانهما، و(أصحاب السعير) إما للعموم، يشمل هؤلاء الذين اعترفوا بذنبهم فصاروا في أصحاب السعير، فالمعنى: فسحقاً لأصحاب السعير وهؤلاء منهم، وإما للخصوص وأصله فسحقاً لهم إلا أنه أقيم الظاهر مقام المضمر لإفادة تعليق الإبعاد على كونهم أصحاب السعير لئلا ينصرف إلى اعترافهم بذنبهم فتفوت الدلالة على إظهار غضب اللّه عليهم بتعذيبهم في السعير وهذا أقرب؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَسُحۡقٗا﴾ فيه تفريع بـ(الفاء) على قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾ فهو قرينة الخصوص في الذين كفروا من عهد رسول اللّه ﷺ.

﴿١٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ هكذا جرت عادة القرآن الكريم بالمقارنة بين الوعد والوعيد؛ لأن مهمة الرسول وإنزال القرآن التي هي التبشير والإنذار تتأكد بالتكرار الذي تقتضيه الحال؛ لبعد أكثر الناس عن السماع والإجابة والاستعداد للآخرة.

مع أن الجمع بينهما فيه زيادة إيضاح لأن بضدّها الأشياء تتميز، كما قال الشاعر:

وبضدهـا تتمـيز الأشـياء

فإذا ذكرت عاقبة أهل الباطل وقرن بها ذكر عاقبة أهل الحق، كانت كل واحدة من العاقبتين تزداد وضوحاً للعاقل، بالمقابلة بينها وبين الأخرى، و(الخشية): خوف يبعث على الحذر، فهي خاصة بما يمكن الحذر منه عند الخاشي بأي وسيلة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨] فهؤلاء يخافون خوفاً مقروناً بالحذر الذي هو التقوى، وقال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ [النساء:٩] فالخشية خوفهم المؤدي إلى أن يحذروا أن يدانوا بمثل ما دانوا غيرهم أو أن يعاقبهم اللّه بظلم اليتيم الذي كان أبوه يخاف عليه كما أنهم لو تركوا يتامى خافوا عليهم لضعفهم، ولكون خشية اللّه تبعث المتقين على تقوى اللّه علق عليها الوعد هنا، وفي قوله تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [ق:٣٣] وللتلازم بين الخوف والتقوى في معنى الخشية.

قال الإمام الهادي عليه السلام في تفسيرها: «معنى ﴿يَخْشَوْنَ﴾ فهو يتقون ويخافون ربهم، فهو خالقهم وسيدهم ومالكهم ومقدرهم وجاعلهم ﴿بِالْغَيْبِ﴾ فهو في الغيب، ومعنى في الغيب فهو في سرهم وما تغيّب من أمرهم واستتر من الناس من أفعالهم على التقوى، بخلاف الخوف الذي يحصل لأعداء اللّه يوم القيامة فهو اضطراري، فالذين يخشون ربهم بالغيب يخشونه من أجل إيمانهم بالغيب، ويراقبون اللّه في السر كما يراقبونه في العلانية، فيحذرون العصيان، ويلازمون التوبة مما مضى منهم من المعاصي، ويعاودون التوبة كلما وقعت منهم زلة، ولا يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون؛ لأن الخشية تعود فتبعثهم على المبادرة إلى التوبة كلما وقعت منهم زلة، فكلما رجعت الخشية فتحققت التوبة دخلوا في عموم هذه الآية الكريمة».

ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ

﴿١٣﴾ ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ فهو سواء في علمه تعالى ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وهي أخفى ما يخفيه الإنسان، فهو عليم بها؛ لأنه ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة:٢٩] و(ذات الصدور): ما تختص بها الضمائر فلم تزل مخفية فيها مذ كانت من نيّة أو عقيدة أو حب أو بغض أو رغبة أو رهبة أو إرادة أو كراهة، أو غير ذلك مما تخفيه الصدور، ولا يخرج إلى الظهور بلسان أو قلم، أو غير ذلك من أسباب الاطلاع عليها، فهي منسوبة إلى الصدور؛ لاختصاصها بها دون ما تظهره أسباب الظهور، فسميت ذات الصدور أي السرائر ذات الصدور، أو الخفايا ذات الصدور، أو نحو ذلك.

﴿١٤﴾ ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾ كيف لا يعلم من خلق وخلقه دليل على أنه بكل شيء عليم فالمخلوقات تشتمل على مخلوقات غامضة محكمة في أعضائها وأجزائها كما يحويه الإنسان من مجاري الغذاء الدقيقة التي توصل إلى كل جزء غذاءه من عظم أو عرق أو عصب أو مخ أو لحم أو جلد أو غير ذلك.

وكما في الدماغ من أجزاء تركيبه وكيفياتها الخاصة بكل نوع منها من خلاياه وهكذا خلايا القلب والكبد وسائر الأعضاء كما يذكر في علم تشريح الإنسان ويعرف بالتأمل على سبيل الإجمال.

وكذلك في سائر الحيوانات والشجر وكذلك الأرض وما تحويه من مواد تناسب مواد تركيب الإنسان من كالسيوم وحديد وغير ذلك مما هو معروف

عند أهل الطب العصري وأعظم من ذلك كله خلق الروح الذي لا يعلم الناس حقيقته وماهيته على التفصيل، فكل ذلك دليل على أن الخالق تعالى بكل شيء عليم؛ لأنه بكل خلق عليم.

وقد غلط بعض الأشعرية في احتجاجه بالآية على أن أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه وتعالى؛ لأن معناها عنده، ألا يعلمها وهو الذي خلقها، وهذا التفسير دعوى منه لا يدل عليه العقل ولا اللغة العربية، والذي ذكرته أنسب لعادة القرآن التي هي الاحتجاج بقضايا العقول، أما أفعال العباد فإن العرب لا تسميها خلقاً، ولا يفهمونها من قوله: ﴿خَلَقَ﴾ لأنهم إنما يقولون فعل لمن حصل منه الفعل، ولا يقولون: (خلق) وكذلك القول لا يقولون لمن أوجده خلق قولاً سراً ولا جهراً إلا إذا أرادوا أنه اختلقه وافتراه، فكيف يصح تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ كيف لا يعلم قولكم وهو الذي خلقه، والعرب لا تقول: (خلق القول) إلا بمعنى اختلقه، والقرآن ﴿عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣] وهكذا مني الناس بالتفاسير المعطوفة على المذاهب في كثير من الآيات، فإنا لله وإنا إليه راجعون، نسأل الله التسديد برحمته.

﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ المناسب للسياق، أن يكون معنى ﴿اللَّطِيفُ﴾ هنا الذي يطلع على كل شيء لا يحجبه شيء عن شيء فلا يخفى عليه مستور في الصدور ولا في غيرها، قال الراغب في (المفردات): «ويعبر باللطافة واللطف عن الحركة الخفيفة، وعن تعاطي الأمور الدقيقة، وقد يعبر باللطائف عما لا الحاسة تدركه، ويصح أن يكون وصف الله تعالى به على هذا الوجه، وأن يكون لمعرفته بدقائق الأمور، وأن يكون لرفقه بالعباد في هدايتهم» انتهى المراد.

وفي (لسان العرب): ((وقول الفرزدق: ولَلّهُ أدنى من وريدي وألطف، إنما يريد وألطف اتصالاً)) انتهى، فهو قريب من قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦].

فحاصل المعنى: نفوذ علمه إلى ما بطن، فأما على تفسير اللطف بالرفق بعباده، فيكون معطوفاً على جملة الكلام في العلم، وهو الذي حكاه الشرفي عن الإمام الهادي عليه السلام، ولفظه: ((واللطيف: فهو البر بخلقه المتفضل عليهم برزقه المان عليهم بمرافقه)) انتهى، و﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ العليم بخُبْر كل شيء وخفي أمره.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ (١٥) ﴿ذَلُولاً﴾ غير متصعبة على الإنسان، يستعملها للحرث والمشي والبناء وغير ذلك، لا تمتنع عليه بشكل يمنع من ذلك، مثل: كثرة الحفر، والشقوق، والجرف التي تنهار بمن مشى عليها، ومثل كثافة الرمال التي تهوي فيها الأرجل، ومثل: الوحل الذي يكون قد اختلط الطين والماء فصار تزل فيه الأرجل أو يتوحل الماشي، أو غير ذلك من الأشكال المبطلة للانتفاع بالأرض.

وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ معناه: أنه تعالى هو الذي خلقها للناس وجعلها صالحة لانتفاعهم بها، وقوله تعالى: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ يفيد: تذليلها على اتساعها وتذليل مجال الماشين فيها لم يقتصر تذليلها على مسكن الإنسان منها وذكر المناكب التي هي أظهر في الظهور المرتفعة؛ لأنها أوفق للمشي من الأودية التي تكون فيها البطحاء أو الماء الغيل الجاري أو يعرض لها نزول السيل الذي هو خطر على من في الوادي وفي المشي حاجات ومنافع بالتجارة وغيرها.

فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ دليل على بعض فوائد تذليل الأرض التي يحصل للإنسان بها رزقه من الحرث والضرب في الأرض للتجارة واستخراج المعادن وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ كالنتيجة للدليل فحيث بيَّن سبحانه قدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء كان ذلك رداً على من يستبعد البعث وأثبت أن إليه النشور وحيث بيَّن إنعامه على عباده كلهم مع أن منهم شاكراً ومنهم كافراً بين أن إليه النشور ليجزي كلاً بعمله، وحيث بين أنه خلق الأرض للناس بحيث ينتفعوا بها بيّن أنهم لم يخلقوا ليبقوا فيها أبداً، بل لا بد من النشور الذي هو البعث ليرجعوا إلى الله ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه:١٥] فخلق الإنسان كان على أساس أنه سيجزى بما عمل فيها، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية:٢٢].

﴿١٦﴾ ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ هذا خطاب للكفار الذين قد تعرضوا لأخذ العزيز المقتدر وأمنوا مكر الله، فهو سؤال إنذار لهم بالعقوبة، وتذكير أنهم معرضون للخسف بهم، وتوبيخ لهم على أمنهم وعدم خوفهم من العذاب مع كفرهم.

وقوله: ﴿مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ قال في معناه الإمام الهادي عليه السلام كما في (المصابيح): «معنى ﴿مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ فهو الله الواحد الذي هو في الأرض كما هو في السماء، لا يخلو منه مكان» انتهى.

وفي (مجموع الإمام القاسم عليه السلام) في معنى هذه الآية وأمثالها [ص٣٨١-٣٨٢/ مخطوط]: «فالمعنى في ذلك كله على المشاهدة والتدبير، لا على أنه في شيء يحويه، ولا على أنه مع شيء ملازق له، ولا على أنه على شيء كما الإنسان على السرير وعلى السطح وقد خلا منه ما هو أسفل من ذلك، ومن ذلك قول الشاعر:

وصرنا خاليين وليس معنا ... سوى رب البنية والمقام»

انتهى المراد، والبيت شاهد واضح؛ لأن الشاعر أراد أنه معهما ولم يقصد المقارنة.

وفي كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام في (نهج البلاغة) [ج١/ ص١١٣]: «لم يحلل في الأشياء، فيقال: هو فيها كائن، ولم ينأ عنها، فيقال: هو منها بائن» انتهى.

وقد ظنّ بعض المشبهة أن تنزيهه سبحانه يستلزم التعطيل، أي نفي الخالق، وهو غلط سببه قياس الخالق على المخلوق، فظنوا أن قولنا: «ليس في الأشياء بوالج ولا عنها بخارج» تعطيل، وظنوا أنه لابد أن يكون فيها أو يكون خارجها، وذلك لظنهم أنه لابد أن يكون في مكان قياساً على المخلوق، فأما مع عدم المقايسة فلا مانع من أن يكون قريباً من المخلوق لعدم المسافة بينه وبين المخلوق، ولمشاهدته للمخلوق وتدبيره أمره، فيعتبر بذلك حاضراً، كما قال تعالى: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

وبهذا المعنى يقال: هو في كل مكان، ومع ذلك لا تثبت له الظرفية؛ لأنه لا يحويه مكان، فلا يقال: هو في السماء إلا على المعنى الأول، لا على معنى أنها ظرف له تحويه، فالسماء والأرض سواء، ولكن تختص السماء بأنها قبلة الدعاء،

ويتنزل منها الأمر، والملائكة الذين يتنزلون بأمر اللّه إلى رسله، وغير ذلك، كما يقال للكعبة بيت اللّه، لا على معنى أنه ساكن فيها، وناسب تخصيص السماء في سياق قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن تَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ باعتبار أن محقها وخرابها يخص المشركين وآلهتهم التي يدعون من دون اللّه من الأحجار المنصوبة والتماثيل المصنوعة، فلو خسف بهم الأرض لتهاووا لأن الأرض مقرهم، أما اللّه تعالى فهو غني عن الأرض فعبر عن ذلك بقوله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ مع أنه غني عن السماء، لكن أفكار الجاهلين بالله لا تتحمل أن يقال: من ليس في مكان، فخاطبهم بما يفهمون وعبر عن نفسه بما يعبرون مع صحة المعنى باعتبار أن كونه فيها معناه مشاهدتها وتدبيرها.

فإن قيل: ففيه إيهام الظرفية ولا يصح؟

فالجواب: أنه تعالى قد دل على نفسه بآياته، ودل بمخالفته للمخلوقات على كونه خالقاً غير مخلوق، فالإيهام مدفوع بالعقل والمتوهم مستند إلى الجهل وقد بين تعالى أن في كتابه آيات محكمات وأخر متشابهات، والعقل يميز بين المحكم والمتشابه، فالآية أعني قوله تعالى: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وأمثالها من الآيات الكريمة مصحوبة بدلالة العقل والمحكم من القرآن، فلا إيهام.

تنبيه: قد يكون الجاهل يتخيل أن اللّه في السماء، مع أنه غافل عن المسألة، وعن تقرير ذلك بقرار في نفسه، وإنما هو تخيل وقع له بدون نظر ولا استدلال ولا التفات إلى شبهة، كما نجد من أنفسنا تخيل بعض عظماء الرجال أهل الشهرة بالفضل وكرائم الخصال، مثل الشجاعة والإصلاح بين الناس والسخاء وغير ذلك، فيكون في خيالنا كبيراً، ولو سئلنا أهو كبير البدن عظيم الجسم أم صغير أم متوسط، لقلنا: لا ندري فالخيال غير الاعتقاد.

وقد أشار إلى هذا الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام، فتقرير العامة وتركها على خيالها الذي هي غافلة عنه أرجح من إيقاعها في مشكلة لا تتحمل حلها ما دامت على جهلها، ولذلك ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب اللّه ورسوله» انتهى.

و(الخسف بهم): أن تمحق الأرض وتهدم فتهوي بهم، كما خسف بقارون وداره، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ في (تفسير الإمام الهادي عليه السلام) كما في (مصابيح الشرفي) يقول: «فإذا هي تذهب بكم ذهاباً، وتهبط بكم في بطنها هبوطاً، ومعنى ﴿تَمُورُ﴾ فهي تنخسف وتغور» انتهى.

﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ ﴿١٧﴾ يقول الإمام الهادي عليه السلام كما في (المصابيح): «يقول: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ من هو في كل مكان من هو في السماء وغيرها، وهو اللّه الخالق لها ولغيرها» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ (الحاصب): هو الذي يرميهم بالحصباء، أي بالحجارة مثل ريح شديدة تحمل الحجارة وترميهم بها، أو ملك يحصبهم، قال في (الصحاح): «وحصبت الرجل أحصبه ـ بالكسر ـ أي رميته بالحصباء» انتهى. وهو تخويف للكفار ليحذروا العذاب العاجل.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ سوف تعلمون حين ينزل بكم العذاب صدق نذيري، وأنه قاطع لأعذاركم مبطل لتعللكم، وأنه كان لكم ناصحاً أميناً ومرشداً مبيناً، لم يكن يستحق منكم إلا التصديق والإتباع، وشكر نعمته عليكم لا التكذيب.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم

﴿١٨﴾ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السالفة ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ نكيري تغييري عليهم وردعي لهم وعقوبتي العاجلة النازلة بهم، فقد بلغكم من أنبائهم ما فيه عبرة لكم، لتحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بهم بسبب التكذيب، وهو يصدق على تكذيبهم لرسلهم، وتكذيبهم بآيات اللّه الدالة على صدق الرسل، وقد جاء في التكذيبين قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ:٤٥] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٤١-٤٢].

﴿١٩﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ هذا دليل من دلائل قدرة اللّه تعالى وحجة على الكافرين المنكرين للبعث لاستبعادهم القدرة على إحياء العظام وهي رميم، فهم يشاهدون الطير التي تصف أجنحتها وهي طائرة فوقهم وصفها لأجنحتها يكون بنشرها وبسطها، بحيث يصير الريش مصفوفاً غير متداخل بخلاف حالة القبض للجناح الذي يتداخل به الريش، والقبض ضد البسط يحدث في خلال الطيران، وهذا لصنع اللّه في الطير وأجنحتها، وفي الهواء ولطافته، فهو الذي يمسك الطير في الهواء برحمته ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ فهو عليم كيف يخلق ما شاء مهيّأ لما يراد به، ولذلك فهو قادر على إحياء الموتى وتجديد خلقهم، وإن كان ذلك مستبعداً عند الكفار، كما هو قادر على جعل الطير يصف جناحيه وهو في الهواء ولا نعلم كيف أمكن ذلك.

مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ

﴿٢٠﴾ ﴿أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ هذا تأكيد لوعيد الكفار بعد وضوح الدلائل على قدرة اللّه، وكتب (أمَّن) في صورة كلمة واحدة والأصل (أم) و (أم) هذه بمعنى (بل) وبعدها (من) التي هي في لغة النحو للاستفهام.

والمعنى: سؤالهم: من هذا الذي هو جند ينصرهم ويدفع الرحمن عنهم ويحول بينه وبين إهلاكهم أو تعذيبهم، وهم يعلمون أنه لا جند فكيف لا يتقون عذابه؟! وقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ يشير إلى أنه تعالى شأنه الرحمة، وإنما يعذبهم لكفرهم وتسبيبهم لعذابه.

وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ يدل على أنهم لا يعتمدون على سبب نجاة مع تمردهم وإنما هم في غرور وانخداع بسبب جهلهم وفرط غفلتهم واتباعهم للشيطان.

﴿٢١﴾ ﴿أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ ﴿أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ فلا مطر ولا نبات ولا أنعام ولا طعام ولا شراب، فهم يعلمون أن اللّه هو الذي ينزل المطر وينبت الزرع ويأتي بالثمر، فلو شاء تعالى لعذبهم بالجوع وأهلكهم، فهم مُستحِقون لذلك لكفرهم بنعمة اللّه وتكذيبهم، وهذا تنبيه لهم ليتنبهوا من غفلتهم عن اللّه، ويتذكروا حاجتهم إليه، ويحذروا عقوبة الكفران ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ ﴿لَّجُّوا۟﴾ تمادوا وبالغوا ﴿فِى عُتُوٍّ﴾ في عناد وتمرد وإباء وتكبر عن قبول الحق ﴿وَنُفُورٍ﴾ إعراض وفرار من الحق وأهله.

وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ

﴿٢٢﴾ ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ﴿يَمْشِي مُكِبًّا﴾ تمثيل لمن يمشي على غير بصيرة، وفي (تفسير الإمام الهادي) كما في (مصابيح الشرفي): «ومعنى ﴿يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ يقول: يمضي على جهل من أمره ويعمل في غير صواب» انتهى.

قلت: ووجه التمثيل أن الذي يمشي وهو مكب على وجهه كالساجد لا يرى الطريق ولا يدري أهو على صواب أم غلط لأنه ينقل مساجده إلى جهة الأمام ولا ينظر إلى أمامه، وهذا لا يكون إلا من عاجز عن القيام والقعود أو من مجنون أو نحوه، وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تمثيل لمن يعمل على بصيرة من أمره ومعرفة بالحق ويمضي على الصواب.

﴿٢٣﴾ ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿أَنشَأَكُمْ﴾ أوجدكم ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ جمع فؤاد، والفؤاد قيل: هو باطن القلب، الذي هو مركز اللب ومحل العقل.

وفي (تفسير الإمام الهادي عليه السلام) كما في (مصابيح الشرفي): «والأفئدة: فهي القلوب التي يعقلون بها» انتهى.

ولعل المعنى واحد، والمراد مركز العقل، والقولان في (لسان العرب) وفي هذه الآية الكريمة الجمع بين الدلالة على قدرته تعالى القدرة التي لا تقاس بها قدرة المخلوق، والتي يفقدها من يعبدونهم من دون الله، والدلالة على نعمته العظمى، فكل واحدة من الثلاث النعم لا يعدلها ملك الأرض.

هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾

وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ فيه احتجاج عليهم؛ لأن شكر المنعم واجب يعاب تاركه ولو كان قليلاً فكيف إذا كانت نعمة في عظمها لا تقاس بها نعمة وفي كثرتها ودوامها لا تعد لديها نعمة المخلوق شيئاً وهم مع ذلك يعصونه ويطيعون عدوه ويعبدون من دونه ما لا يستحق ولا يملك لهم نفعاً ولا ضراً.

﴿٢٤-٢٦﴾ ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في (تفسير الإمام الهادي عليه السلام) كما في (المصابيح): «ومعنى ﴿ذَرَأَكُمْ﴾ فهو أنبتكم وأخرجكم وأوجدكم وخلقكم وبثكم في الأرض» انتهى، وفي (الصحاح): «ذرأ الله الخلق: خلقهم» انتهى باختصار.

ولا تعارض بين التفسيرين؛ لأن الإمام الهادي عليه السلام زاد تفسير قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي تخرجون من القبور وتبعثون بعد الموت إليه؛ ليحاسبكم ويجزي كل نفس ما كسبت تحشرون إليه وحده، فهو الذي يحاسبكم، وهو الذي يجزي وليس لأحد غيره شيء من الحكم ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦] فشركاء المشركين يضلون عنهم يومئذ، والله وحده يعذب من يشاء ويرحم من يشاء [و] مع ما ذكر من الآيات والإنذار ووضوح صدق النذير والزواجر المذكورة ودلائل قدرة الله تعالى مع ذلك كله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وهذا اقتراح يتخذونه شبهة، كأنهم يقولون: إن كنتم تعلمون أنه سيكون فكيف لا تعلمون متى يكون وقد خلت قرون كثيرة فلم يبعثوا، فإن كان يأتي لا محالة فحددوا وقته.

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ

﴿قُلْ﴾ يا محمد، وهنا ملاحظة للفرق بين السؤال والجواب فسؤالهم موجَّه إلى رسول اللّه ﷺ ومن معه لأن السائلين لا يفرقون بين الرسول ومن معه لإنكارهم الرسالة فجعلوهم سواء في إثبات الوعد، وجاء الجواب من اللّه تعالى مبدوءاً بـ﴿قُلْ﴾ ولم يقل: قولوا؛ لأن محمداً ﷺ هو الرسول المبلغ الأول للوعد، أما الذين معه فهم أتباعه المؤمنون برسالته وإنذاره وتبشيره.

﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فلا أعلم إلا ما علمني، وحينئذ فلا تلازم بين العلم بما وعد اللّه والعلم متى يكون، لأن اللّه أعلمني ما وعد ولم يعلمني متى يكون ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فقد أديت مهمتي وليس يجب علي ما اقترحتم؛ لأنه خارج عن واجبي، والمبين: الذي صدقته الآيات الدالة على صدقه وجاء بها دالة على صدق إنذاره، فأبان بها صدق إنذاره الواضح البين المفهوم، فهو ﴿مُّبِينٌ﴾ من حيث وضوح إنذاره وتيسر فهمه، ومن حيث وضوح صدقه في إنذاره بما أبان لهم من الحجة.

﴿٢٧﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ فلما رأوا ما وعد الله ﴿زُلْفَةً﴾ قريباً حولهم حين جاءت القيامة وأهوالها، كأنه قيل: استعجلوا العذاب بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ لأنها كلمة يقولها من استبطأ الشيء، فإذا جاء الوعد اختلفت حالتهم.

فلما رأوه حولهم ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ يظهر الخوف والفزع الذي في قلوبهم بأثره في وجوههم فأسند إلى الوجوه.

ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

وفي (تفسير الإمام الهادي عليه السلام): «ومعنى ﴿وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هم الكافرون أنفسهم، لا أن السوء نزل بالوجوه دون الأبدان، بل الوجوه والأبدان وسائر جميع أعضاء الإنسان، ومن ذلك ما تقول العرب في أشعارها:

إني بوجه الله من شر البشر   أعوذ من لم يُعِذِ اللّه دمر

فقال: بوجه الله، وإنما أراد اللّه، كذلك قوله سبحانه: ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي سيء الذين كفروا أي نزل بهم السوء والبلاء عند معاينتهم للعذاب والشقاء» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ إخبار بتبكيتهم وتقريعهم حين يرون ما يوعدون ويندمون على تكذيبهم به واستعجالهم به ليزدادوا ندماً وتحسراً وألماً، ومعنى ﴿تَدَّعُونَ﴾ تطلبون، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ [يس:٥٧] وفي الآية دلالة على ثبوت حكم الإلزام الصحيح؛ لأنهم جعلوا مطالبين به، لأن استعجالهم به كان معلقاً على شرط يجحدون وقوعه وهو صدق الوعد كأنهم قالوا: ائتوا به إن كنتم صادقين، فلما كان الشرط واقعاً وهو أنهم صادقون لزمهم أنهم قد طالبوا به ولم ينفعهم جحدهم بوقوع الشرط ونظيره في الفقه في أن الغلط ليس عذراً قول أمير المؤمنين عليه السلام: «من حلف بالطلاق ثم حنث ناسياً لزمه الطلاق».

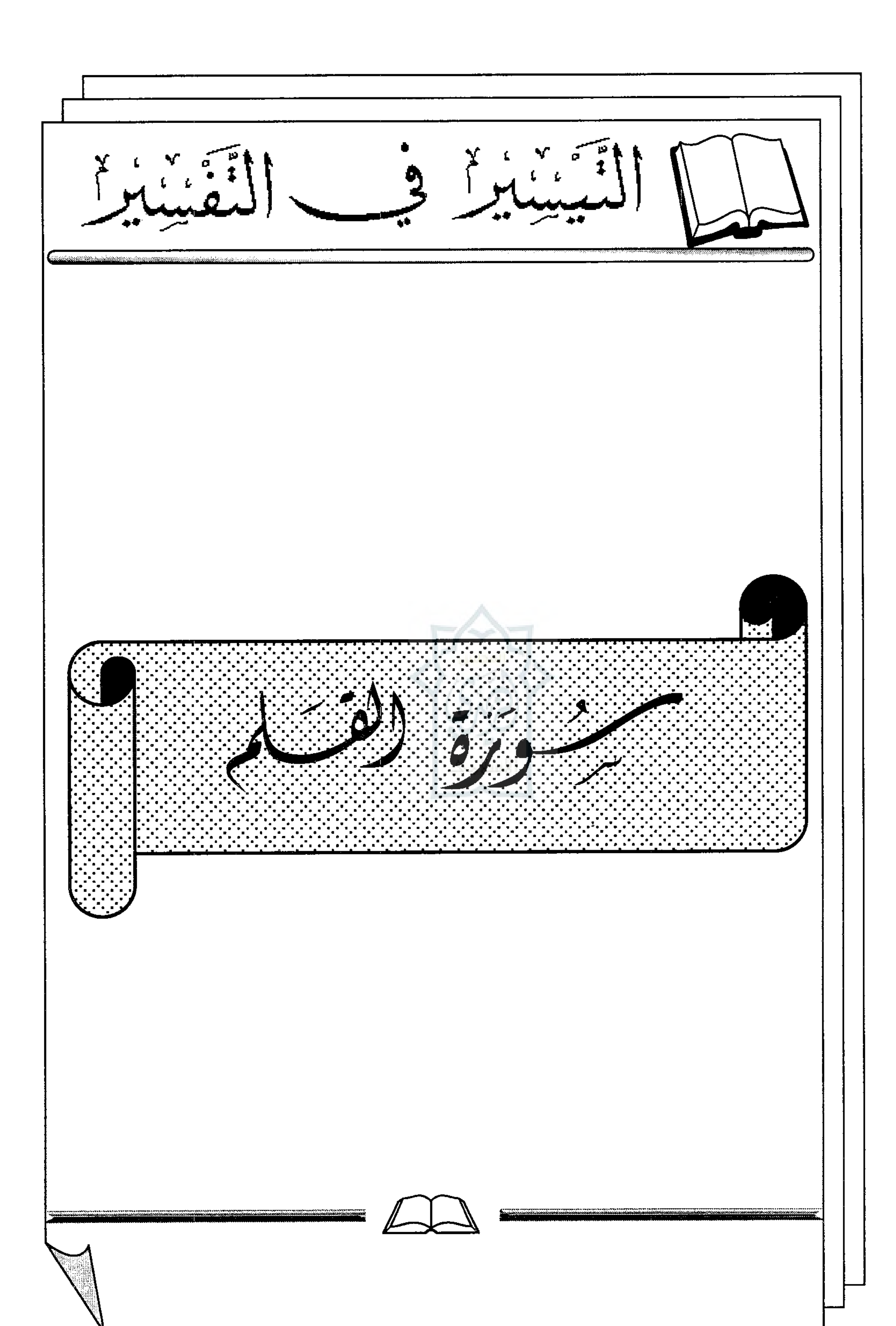
﴿٢٨﴾ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لا يغنيكم ولا ينفعكم ولا يضركم إهلاكنا أو رحمتنا،

فإذا رأيتم ذلك وعرفتموه فاهتموا بخاصة أنفسكم لتنقذوها من عذاب محقق بسبب كفركم إن متم عليه؛ لأنه لا يجيركم منه مجير وليس من اللّه مجير، ولا ينجيكم إلا التوبة من الكفر والرجوع إلى اللّه، ومعنى ﴿يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يحميهم ويدفع عنهم، كما يدفع الرجل عن جاره أو عن المستجير به.

(٢٩) ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿قُلْ﴾ للكافرين الذين يكفرون بالرحمن ولا يؤمنون لله بهذا الإسلام الكريم ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ لأنا آمنا بقدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء وبما تدل عليه أسماؤه الحسنى وبأن بيده الملك ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ تسليماً لأمره، ورضى بقضائه، ورجاء لفضله ورحمته، فلذلك وكلنا أمورنا إليه، واتكلنا على تدبيره لشؤوننا، قال الإمام الهادي عليه السلام: «يقول وعليه اتكلنا، ومعنى اتكلنا فهو عليه اعتمدنا وبه اكتفينا، لا نريد غيره، ولا نتوكل على سواه» انتهى.

قلت: الحصر والقصر مأخوذ من تقديم الجار والمجرور ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان:٤٢]. وقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ يفيد: أنهم في غواية بينة كما تتبين غواية من تراه يمشي عادلاً عن الطريق في غير طريق، وذلك لوضوح الحق وصدق النذير وشهادة كلام اللّه بصدقه ومن أصدق من اللّه قيلا.

(٣٠) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ هذا تذكير لهم بحاجتهم إلى اللّه تعالى، كقوله: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ وهو مع هذا تخويف لهم من تعرضهم للعقوبة بتفويت مائهم عليهم وتغييبه في بطن الأرض وإبعاده عنهم، ومعنى ﴿غَوْرًا﴾ غائراً، ومعنى ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ فمن يأتيكم بماء ظاهر غير غائر، أي من عين ظاهرة.


التيسير في التفسير
سورة القلم



سُورَةُ القَلَم

ترتيبها ٦٨ — آياتها ٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نٓ ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥

(١-٢) ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نٓ ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ ﴿نٓ﴾ الراجح: أنه حرف من حروف المعجم استعمل هنا كاستعمال الحروف في أوائل السور ﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ هذا قسم بالقلم؛ لأنه آية من آيات الله ونعمة من نعمه، حيث هدى الإنسان للإفهام والفهم بواسطته، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٣-٥] ويمكن دخوله ـ أيضاً ـ في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن:١-٤] فبواسطة القلم انتشرت العلوم وتوارثتها الأجيال وبواسطة القلم حفظت الأموال والحقوق، والقلم أحد اللسانين يقوم مقام اللسان مع التباعد ومع تعسر اللقاء ولغير ذلك من الأشياء.

وفي تفسير: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ يقول الإمام الهادي عليه السلام: ((﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ من كتاب رب العالمين، ويثبت به من أحكام أحكم الحاكمين، ويكون به أثبت علم المتعلمين والعالمين)) انتهى المراد.

أقسم الله بالقلم وما يسطرون، وجواب القسم قوله تعالى: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..عَظِيمٍ﴾ ومعنى ﴿مَا أَنتَ﴾ ما أنت يا محمد ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ الذي أنعم عليك بالعقل وحفظه ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ أي ما أنت بمجنون كما زعم الكافرون، والعقل وحفظه لك كان بنعمة ربك، قال الإمام الهادي عليه السلام: ((يريد بكرامة ربك ومدافعته عنك كل سوء وربك فهو خالقك ومالكك)) انتهى.

﴿٣﴾ ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا﴾ ثواباً عند اللّه يعطيك في الآخرة جزاء على طاعتك له وصبرك على تحمل أعباء الرسالة، ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ لا يمن عليك يوم القيامة ولا يستكثر في جنب صبرك وعبادتك وإن كان كثيراً عظيماً.

﴿٤﴾ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام: «تفسيره: فهو ما جعله اللّه عليه من الطبع الكريم والقلب البر الرحيم، والأخلاق الحسنة والطبائع الكريمة من الصبر والتجمل والعفو والتحمل وغير ذلك» إلى قوله: «والخلق: فهو ما يتخلق به العباد بينهم وتخلقهم فهو فعلهم» انتهى.

يريد عليه السلام: أن حسن الخلق حسن المعاملة للناس مثل ما ذكره، ومثل: الرفق واللين، وطلاقة الوجه، والكلام الطيب، وإكرام الضيف والتفريج عن المكروب، وإطعام الجائع، ومواساة المحتاج.. إلى غير ذلك من محاسن العادات.

وفي الحديث الذي رواه الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «إن الرجل لينال بحسن خلقه درجة الصائم نهاره، القائم ليله، المجاهد في سبيل اللّه، وإن سيء الخلق ليكتب جباراً وإن لم يملك إلا أهله» انتهى.

وحسن الخلق من حيث هداية اللّه وتحبيبه إلى صاحبه يعتبر نعمة من اللّه وإن كان فعل العبد، كما قال الإمام الهادي عليه السلام، وقد قال عليه السلام في (الأحكام) في أواخرها: «الحسن الخلق قريب من اللّه قريب من الناس، والحسن الخلق يدرك بحسن خلقه ولين جانبه من مودة الناس ما لا يدركه المعطي للمال الذي لا خلق له من الرجال، فمن حسن خلقه فليشكر اللّه فإنها أعظم نعم اللّه عليه» انتهى، ثم ذكر الحديث السابق.

بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩

والذي يظهر: أن حسن الخلق إحسان يدل على رغبة في الخير وحسن نية وكرم نفس، وسوء الخلق إساءة تدل على اللؤم أو محبة للشر أو سوء النية، ولهذا أمكن من سيء الخلق أن يعطي المال، ومع ذلك لا يصير من أهل حسن الخلق لأن عطاءه لم يدل على الرغبة في الخير وكرم النفس؛ لأنه عارضه سوء خلقه ووصف خلق رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بالعظيم لعلو درجة أخلاقه الكريمة وكثرتها وكل واحد منها عظيم فصبره عظيم وحلمه عظيم وسخاؤه عظيم ورفقه عظيم ونفعه عظيم إلى غير ذلك، فخلقه عظيم تصغر عنده أخلاق كرام الناس صلى الله عليه وآله وسلم.

وذكر الإمام الهادي عليه السلام أن اللّه امتن على نبيه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أراد بذلك أنه أنعم عليه بحسن الخلق وعظمه، قلت: ولا يبعد أنها في مقابلة قول الكفار: إنه لمجنون؛ لأن حسن الخلق وعظمه يدل على رجاحة في العقل عظيمة لأجلها كان له من الحلم والصبر والتجمل (بالجيم) والتحمل للأذى في اللّه ما ليس لغيره مثله.

۝٥-٦ ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ سوف ترى يا محمد وسوف يرى الكفار من هو ﴿ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ وذلك يوم القيامة حين تنكشف الحقائق وتبلى السرائر ويحكم اللّه بين عباده، ويتبين لهم الذي يختلفون فيه، والمفتون إما المعذَّب، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات:١٣] وهذا قول الإمام الهادي عليه السلام، وإما المغلوب على عقله كما أفاده (صاحب الكشاف).

وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتۡلَىٰ

ومرجع المعنيين واحد؛ لأنهم يوم القيامة إذا حكم الله بين عباده أبصروا أن رسول الله ﷺ كان هو كما وصفه الله على خلق عظيم وعلى حق وليس بمجنون كما زعموا، وعلموا أنهم هم الذين خدعهم الشيطان وحال بينهم وبين استعمال عقولهم حتى صاروا كأنهم قد سلبوا عقولهم وعند ذلك أبصروا الحق وأبصروا أن المفتون فيهم الذي كان قائدهم إلى الباطل مثل أبي جهل أو غيره، والراجح في معنى: ﴿بِأَييِّكُمُ﴾ أنه في أيكم، أي في أي الفريقين المسلمين والكافرين.

﴿٧﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ فسيحكم بين الفريقين بالحق أو فقد أعلمك أنك على الحق فاثبت عليه وتوكل على الله.

﴿٨-٩﴾ ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ * وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ في مساوماتهم الباطلة ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ لو تساهل لهم في شركهم فيتساهلون في عبادة الله كأن تتركهم على دينهم ولا يفتنوا من أسلم.

﴿١٠﴾ ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾ (الحلاف): كثير الحلف، و(المهين): الذليل الحقير، كما في (تفسير الإمام الهادي عليه السلام) ولعل هذا الحلاف كان يتهدد الرسول ﷺ ويحلف على تهديده، فأمر الله رسوله ﷺ أن لا يطيعه ليتوكل على الله ويثبت على دعوته، ولعله ـ أيضاً ـ كان يؤكد دعاويه بالأيمان لتقبل منه، وكذلك لعله كان يعد رسول الله ﷺ إن أطاعه بعض الوعود ويؤكد وعوده بالأيمان لظنه أن ذلك يؤثر.

(١١-١٣) ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ في (تفسير الإمام الهادي عليه السلام): ((فالهماز: الذي يهمز الإنسان من خلفه، ومعنى يهمزه: أي يؤذيه بلسانه ويتناوله ويقع فيه من ورائه وينتقصه)) انتهى، وفي (تفسير الإمام القاسم عليه السلام): ((والهمزة من الناس فهو من يغتاب صاحبه ويغمزه..)) إلخ.

والمشي بالنمائم: هو المجيء إلى هذا بالخبر عن الآخر والمجيء إلى الآخر بما قال الأول، ليوقع بينهم الوحشة والبلاء والعداوة والأذى، والنميمة فلا تكون إلا في الكلام الذي يسبب الوحشة ويفسد بين الناس.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾ مناع للخير يمنع الماعون وغيره ولا يعطي من نفسه إنصافاً ولا إيماناً بالحق ولا وفاء ولا صدقاً ولا غير ذلك، وفي (تفسير الإمام الهادي عليه السلام): ((الممتنع من كل خير، الداخل في كل ضير)) انتهى. والمعتدي: الظالم، ومن الاعتداء: هتك حرمة الشهر الحرام بغير حق، والأثيم: صاحب الإثم المستحق للعقاب.

﴿عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ فسر العتل بالغليظ الجافي في (الصحاح) و(الكشاف) وذكر له في (لسان العرب) تفاسير عدة، ويعجبني في تفسيره (تفسير الإمام الهادي عليه السلام) حيث قال: ((العتل: فهو الفدم من الرجال في الخلق والفعال، الذي لا فهم له بما يقول أو يفعل ولا معرفة له بما يأتي وما يعمل الذي لا يميز بين الأمور في معانيها ولا يعرف حسناها من مساويها ولا يفعل شيئاً بتمييز أصلاً، ولا يأتي من الخير إلا ما عتل عليه عتلاً لفدامة خلقه وقلة تمييزه لنفسه)) انتهى، قوله: فدم، قال في (الصحاح): ((أي عيي ثقيل)) انتهى.

عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا

فهذه الصفات أساس الغلظة والجفاء، من حيث أفادت أنه أحمق لا خير فيه ثقيل، وقوله تعالى بعد ذلك - أي بعدما ذكر من أخلاقه السيئة وأوصافه الردية - : ﴿زَنِيمٍ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام: «له زنمتان في حلقه متدليتان كزنمتي الشاة» انتهى باختصار، وقال عليه السلام: «يعرف بهما، ويستدل على معرفته بذكرهما» انتهى، وقال (صاحب الكشاف) في تفسير ﴿زَنِيمٍ﴾ دعيّ، قال حسان:

وأنت زنيم نيط في آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفردُ

وكان الوليد دعيّاً في قريش ليس من سنخهم ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة من مولده» انتهى المراد، وهو يفيد: أن هذه الآيات نزلت في الوليد، والأولى أنها عامة؛ لقوله تعالى في أولها: ﴿كُلَّ حَلَّافٍ﴾ وإن كان الوليد بن المغيرة هو الداخل فيها دخولاً أولياً.

وقد أفاد الإمام الهادي عليه السلام نزولها في الوليد - أيضاً - فالمراد: الوليد ومن كان مثله في الباطل، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨] وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان:٢٤] فالأوصاف المذكورة ذكرت لتهجين من هي فيه ولكونه من كبار الكفار، لزيادة التحذير منه بخصوصه ومن كان مثله، لا لكون الصفات شروطاً في النهي كلها.

﴿١٤-١٥﴾ ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۞ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ فلم يزده ماله وولده إلا خساراً وجمعاً

لصفات اللؤم المذكورة، فمن أجل أنه كان ذا مال وبنين ظهر فيه الجفاء والغلظة والهمز والنميمة والدناءة، في سبيل الحفاظ على ماله وولده، فهو بخيل جبان حريص رافض للعفة ومعالي الأمور كثير الكذب، فهو يحتاج إلى كثرة الأيمان ليصدق وأصل ذلك البطر.

وبعد هذا التعليل بكونه ﴿ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ رجع الكلام في وصفه، فقال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي هي أساطير الأولين، قال الإمام الهادي عليه السلام: «و﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فهي أحاديث الأولين، وأحاديث الأولين فهي أقاويل المكذبين وأسمار المتحدثين، فنسب هذا الزنيم آيات الرحمن الرحيم إلى الأسمار والباطل والقول القديم الحايل» انتهى باختصار.

قلت: وسمى هذه الأباطيل ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ لأنه عنى أنها مسطورة أي مكتوبة حفظت بعد الأولين بتسطيرها، والأساطير: جمع أسطورة، فهو مع لؤمه لا ينصف الحق إذا سمع الحجة، إنما يجيب بالتكذيب ومجرد الدعوى الكاذبة.

(١٦) ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ إهانة له، والوسم: جعل السمة وهي العلامة في الدابة تكون ليبقى أثر الكي علامة فيها يميزها عن غيرها، قال الإمام الهادي: «و﴿ٱلْخُرْطُومِ﴾ الأنف وما والاه» قال عليه السلام: «وإنما ذكر اللّه الخرطوم دون غيره؛ لأنه شيء لا يستر بثوب ولا يستتر عن المتوسمين؛ لأن الوجه بارز أبداً للناظرين» انتهى.

وقد اتفق كلام الإمام الهادي عليه السلام و(صاحب الكشاف) والراغب: أن هذا تمثيل، قال الراغب: «أي نلزمه عاراً لا ينمحي، كقولهم: جدعت أنفه، قال: و﴿ٱلْخُرْطُومِ﴾ أنف الفيل، فسمى اللّه أنفه خرطوماً استقباحاً له» انتهى. وقال (صاحب الكشاف): «وفي لفظ الخرطوم استخفاف به واستهانة» انتهى. ووجهه ما ذكره الراغب.

يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ

﴿١٧-١٨﴾ ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ ﴿بَلَوْنَٰهُمْ﴾ اختبرناهم كما اختبرنا ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ اختبرهم سبحانه وهو أعلم بهم من أنفسهم، والاختبار يكون بالنعمة ليظهر الشاكر ومن لا يشكر، ويكون بالشر ليظهر الصابر الراضي بقضاء الله من ضده، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥] والضمير في ﴿بَلَوْنَٰهُمْ﴾ للمكذبين؛ لأنه سبق ذكرهم في قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. فَيُدْهِنُونَ﴾ وهم من قريش، كما ذكر الإمام الهادي عليه السلام في تفسير ﴿بَلَوْنَٰهُمْ﴾.

ويحتمل: عوده إلى الأقرب ﴿كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ..﴾ إلى آخر الصفات، ولعل وجه التشبيه: أن الله تعالى مكن المذكورين من قريش بحيث ظنوا أن الغلبة لهم ضد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وطغوا، مع أن حالهم ينكشف وتذهب قوتهم وتصير كأن لم تكن، وذلك في نهاية المعركة يوم (بدر) فإن كانت هذه نزلت بعد يوم بدر فالشبه ظاهر من حين نزلت، وإن كانت الآية نزلت قبل يوم (بدر) فهي مبشرة بتحول حالهم وخيبة آمالهم كما تحولت حال أصحاب هذه الجنة المذكورة وخاب أملهم، وهذه الجنة زرع كثيف كان لأناس حول (صنعاء) ولعل حرثها، ومكانها هو الذي يسمى الآن (الجنات) على طريق (صعدة).

﴿إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أذكر قصتهم، وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُواْ﴾ بمعنى حين أقسموا أي حلفوا ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ ليقطعن ثمرها، هكذا فسره الإمام الهادي عليه السلام، وأفاد مثله (صاحب الكشاف) وأفاد: أنه معنى الحصاد وهو الظاهر؛ لأن غرضهم أخذ الثمر ومنع المساكين.

﴿وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ﴾ لا يقولون: ((إن شاء اللّه)) فيثبتوا بذلك القدرة لله، قال (صاحب الكشاف): ((فإن قلت: لم سمي استثناء، وإنما هو شرط؟ قلت: لأنه يؤدي مُؤَدَّى الاستثناء من حيث أن معنى قولك: لأخرجن إن شاء اللّه ولا أخرج إلا أن يشاء اللّه واحد)) انتهى.

قلت: الأرجح عندي: لأخرجن إلا أن يشاء اللّه أن لا أخرج، فهو المماثل لقولك: لأخرجن إن شاء الله، وقول (صاحب الكشاف): عما هو شرط، لعله يعني في عرف النحاة أو في عرف العلماء، فأما في اللغة فالمرجع في الاستثناء والشرط إلى المعنى وإن لم يكن بالأدوات الخاصة، والإمام الهادي عليه السلام قد فسر قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ﴾ يقول: ((لم يقولوا: إن شاء اللّه)) وهذا قد أفاده الزمخشري نفسه في الجواب على السؤال.

(١٩-٢١) ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ * فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ * فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ﴾ ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ نزل بها أمر اللّه في ليلتهم وفي حال نومهم ﴿فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾ ذهب ثمرها وأصبحت كالزرع المحصود.

﴿فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ﴾ قال الإمام الهادي: ((معنى (تنادوا مصبحين): تصايحوا وتداعوا عندما أصبحوا)) قلت: وهذا الراجح عندي في معنى النداء أن أصله الصوت العالي، ولذلك سمي الأذان نداء، وقال الشاعر:

فقلت أدعي وأدعو إن أندى لصوت أن ينادي داعيان

وقد اعترض على هذا بقوله تعالى في زكريا: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ [مريم:٣] والجواب: أنه نزل منزلة الصوت الرفيع على طريقة المجاز ومعه القرينة، وهي قوله تعالى: ﴿نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ ولعل وجهه مشابهته للصوت العالي

صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾

في عناية زكريا به، وكونه عند الله بمنزلة الصوت العالي؛ لأنه سواء عنده ﴿مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد:١٠] فقد سمعه سبحانه كما لو كان نداء.

وقد قال الراغب: «النداء: رفع الصوت وظهوره» ولا يشترط أن يقترن بأحد حروف النداء إلا في عرف النحاة.

﴿٢٢﴾ ﴿أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ﴾ ﴿أَنِ﴾ مفسرة، والكلام تفسير لما تنادوا به من القول، و(الغدو): الذهاب في الغداة، أي أول اليوم، و(الحرث): موضع الزرع، وقولهم: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ﴾ تحريض على التبكير ليصرموا زرعهم، وأعتقد أنهم أرادوا إنكم إن لم تبادروا حضر معكم المساكين فلم تحصلوا منها على طائل؛ لأن المساكين إذا حضروا لم تستطيعوا منعهم وهم كثير، وعند ذلك تعودون وكأنكم لم تصرموها لقلة ما تعودون به، وهذا مبالغة منهم لتأييد أصحابهم لهم في دفع المساكين.

﴿٢٣-٢٤﴾ ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ * أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾ ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ في طريقهم، وفسر ما يتخافتون به قوله تعالى: ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾ وهنا نهي مؤكد بـ(نون التوكد) وتعميم لمنع المسكين الواحد لو حضر وأراد الدخول عليهم حين يصرمونها.

﴿٢٥-٢٧﴾ ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ * بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾ فحين وجدوا من أنفسهم أنهم قادرون على صرم لا يحتاجون إلى معاونة أحد غيرهم، صمموا على أن لا يدخلها عليهم مسكين، لا ليتصدقوا عليه ولا ليعينهم فيأخذ منهم أجراً من الثمر.

قَالُواْ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا

قال الإمام الهادي عليه السلام: «فالحرد: هو القطع، يقول: على قطع الثمر قادرين» انتهى، وفي (لسان العرب) يقال: «حردت من سنام البعير حرداً، إذا قطعت منه قطعة» انتهى.

وفائدة تنكير ﴿حَرْدٍ﴾: أن الذي يقدرون عليه هو حرد غير معين لا حرد جنتهم فليسوا قادرين عليه، فصار المعنى: أن لهم قوة في أبدانهم تغني عن الاستعانة بغيرهم ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي إن تهيأت أسبابه وبناء على هذه القدرة توهموا أنهم قادرون على حرد جنتهم واستغنوا عن المساكين، فذهبوا إليها وعندهم الاستعداد الكامل لقطفها.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ الضمير للجنة باعتبار ما كانت عليه أو أن الزرع باق إنما ذهب الثمر ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ غالطون غاوون ما هذه جنتنا ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ بل هي جنتنا قد ذهب ثمرها فقد حرمناه، وعند ذلك تبين أنه أمر اللّه قد أتاهم بشؤم تصرفهم وتركهم للاستثناء، والاعتراف أن الخير بيد اللّه فإن شاء نالوه وإن شاء حرموه.

﴿٢٨-٢٩﴾ ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُواْ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾ ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ خيرهم والخيرية بالنسبة إلى بقيتهم فهو أعدلهم المعتدل بالنسبة إليهم ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام: «فأخبر أنه قد كان قال لهم عند وقت ما أقسموا: سبحوا ربكم واذكروا وأثبتوا القدرة له واستثنوا فلم يفعلوا» انتهى. و(لو) حرف تحضيض ففسر ما بعدها بالأمر ﴿قَالُواْ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾ فلذلك حرمنا بالحق، والظلم: الحيف والجور ضد العدل سواء كان بين العباد أو في معاملة العبد لربه.

مِنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ

﴿٣٠-٣١﴾ ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ * قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ يلوم بعضهم بعضاً، وكل بعض يلوم بعضاً، ولعل السبب: أن سوء تصرفهم كان من بعض دون بعض وإنما عمهم الرضى أو سوء التدبير من بعضهم وحمل عليه الآخرين، فتلاوموا كما سيتلاوم أهل النار حين يرون العذاب أو حين يصيرون فيه.

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ قال الإمام الهادي: «والطاغون: فهم العتاة الباغون» انتهى المراد، والطغيان: تجاوز الحد، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١] فالطاغي: الظالم المتكبر، قال الإمام الهادي عليه السلام: «والويل: فهو الغم والطويل من الهم» انتهى.

﴿٣٢﴾ ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ راغبون إليه بالسؤال له أن يبدلنا خيراً منها فيقرب أن يفعل، ولعلهم رجوا ذلك بندمهم على ما وقع منهم، وعزمهم أن لا يعودوا لمثله، فتوقعوا أن يجيب دعاءهم.

﴿٣٣-٣٤﴾ ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ * إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ ينزله الله بالمجرمين عقوبة لهم وعبرة للآخرين، فدل ذلك على أن الله تعالى لم يهمل عباده، وأنه لابد من عقوبات المجرمين لأنهم كلهم عباده ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ فإذا علموا أنه كان ينبغي لهم تقوى الله من أجل هذه المصيبة التي نزلت بجنتهم ليسلموا العذاب بحرمانها، فكان ينبغي لهم أن يعلموا أن تقوى الله لطلب النجاة من عذاب الآخرة أهم لأنه أشد وأبقى، فكأن تقوى الله أهم للسلامة من عذاب الآخرة مع كونها مهمة للسلامة من العذاب الأدنى.

ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ إما بمعنى لو كانوا ممن يدري ويحصل له العلم، أي ممن يستعمل عقله ويعرف به الأشياء التي تعرف بـه، وإمـا بمعنى لو كانوا يعلمون أن عذاب الآخرة أكبر فيفيد أنهـم كـانوا جـاهلين بـالآخرة لإعراضهم وتكذيبهم للنـذر، وقولـه تعـالى: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ جوابـه مـا يفهم من سياق الكلام قبله أو لو كانوا يعلمون لحـذروا أسـباب العـذاب أو نحو هذا المعنى.

وحين أفاد الكلام الماضي وعيد العصاة المتمردين، جاء بعده ذكـر الوعـد على عادة القرآن الحكـيم، وهـو قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ فهي معدّة لهم يدخلهم اللّه الجنة وينالون ما أعـده لهـم ينيلـهم إيـاه ربهم الذي هو مالكهم وخـالقهم ورازقهـم والـذي كـانوا يتقونـه ويخشـونه ويرجونه ويعبدونه، وهذا المعنى فيما أعتقد أفاده قولـه تعـالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ولم يقل: عندنا، أو عند رب العالمين، والجنات: البساتين حيث يوجد الشـجر المجن للأرض والزروع كما مر، وظهر من (سـورة الـرحمن) أن لكـل واحـد أربع جنات، والنعيم: الخير الواسع مما تشتهيه الأنفس مـن اللـذات المختلفـة من مطاعم وملابس وقصور وحور وغير ذلك، وأضيفت الجنات إلى النعيم إذ هي محله.

﴿٣٥﴾ ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كما يزعم الكفار الذين نفوا الآخـرة فلا ثواب للمسلمين على قولهم، وهذا لا يليق بحكمة أحكـم الحـاكمين ولا بعزته ولا بكرمه أن يجعل المسلمين الذين أسلموا وجـوههم لله فعبـدوا اللّـه وتبرؤوا مـن الشـرك والكـبر فيردهـم أسـفل سـافلين تأكـل لحمهـم الـدود

وعظامهم الأرض كما هو شأن الموتى من المجرمين ثم لا يبعثهم ليثيب المسلمين ويظهر كرامتهم عنده بإسلامهم، بل يذرهم حشواً بين التراب كما لو كانوا مجرمين لو كان المجرمون لا يبعثون كما زعم الذين كفروا، والمجرمون: جمع مجرم، وهو فاعل الجريمة وكل المعاصي المتعمدة جرائم، لأنها استعمال في معصية اللّه بأدوات هي لله، وهو قد نهى عن استعمالها في المعصية فالمعصية تعدٍّ على اللّه في ملكه ولذلك فهي جناية وجريمة.

(٣٦) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ حيث تكذبون بآيات اللّه وتكذبون الرسل المنذرين لكم وتنكرون البعث وإذا لم يكن بد من البعث للفرق بين المسلم والمجرم، فكيف يجوز في الحكمة أن لا يرسل الله ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] وإذا علمنا هذا فكيف نكذب الرسل ونكذب بما جاؤوا به من آيات ربنا وهل هذا إلا حكم الجاهلية وإهمال العقول ومعنى ﴿مَا لَكُمْ﴾ السؤال عن شأنهم العارض لهم العادل بهم عن فطرة العقول والحامل لهم على الحكم بخلاف مقتضى عقولهم، فإنه عيب فيهم أو مرض مثل كبر أو حسد أو جنون.

(٣٧-٣٨) ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ أم أنزل اللّه لكم كتاباً يقضي بأن لكم ما أردتم فلا عقاب عليكم بما كذبتم، ولا بعث لكم إن اخترتم أن لا تبعثوا، وما تخيرتم من أباطيلكم فلكم أن تفعلوه لا حرج عليكم، فهذا سؤال آخر عن سبب جرأتهم على الحكم بالباطل إن كان كتاباً من اللّه ـ عزَّ وجل ـ بهذا الشكل الذي تأباه الحكمة والعزة لله العزيز الحكيم، ومعنى: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ إن لكم ما تخيرون محكوم به في الكتاب المذكور مسطور، وحاصله كتاب فيه إن لكم ما تخيرون، وأنتم تدرسون في هذا الكتاب وتجدون فيه أن لكم ما تخيرون.

ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٍ

﴿٣٩﴾ ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ﴾ ﴿أَمۡ﴾ كلمة إضراب إلى سؤال آخر يسأل الكفار، و(الأيمان): جمع يمين وهي الحلفة والعهد، و﴿بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ متناولة ليوم القيامة سارية المفعول فيه باق حكمها لكم يوم القيامة.

﴿إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ﴾ تفسير للمحلوف عليه مثل: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ [التوبة:٥٦] فالمعنى: بل هل لكم عهود باقية ليوم القيامة على أن لكم ما تحكمون، أي أم لكم عهود بهذا فأنتم تفعلون ما تشاءون من الجرائم لا تخافون عقاباً؛ لأنكم سوف تحكمون لأنفسكم يوم القيامة بالسلامة من العذاب ومساواة المسلمين.

﴿٤٠﴾ ﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ ﴿سَلۡهُمۡ﴾ أي اسألهم ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ الزعيم: الكفيل الضامن، أي أيهم كفيل بأن لهم ما يحكمون أو كفيل بكل ما مضى ذكره أي بأن لهم ما يحكمون وما يتخيرون، وأن المسلمين كالمجرمين، ولن يجرأ أحد على الكفالة بذلك؛ لأنهم لا يعلمون صدقه ولا يثقون به.

﴿٤١﴾ ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ﴾ ينصرونهم من دون الله إذا نزل بهم العذاب ويدفعونه ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواهم أن لهم شركاء ليدفعوا عنهم ما أنذروا.

وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ

﴿٤٢-٤٣﴾ ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ (يوم) ظرف والأرجح عندي تعلقه بما قبله أي فليأتوا بشركائهم يوم يكشف عن ساق، قال الإمام الهادي عليه السلام: ((والعرب تسمي الأمر الشديد ساقاً، تقول العرب: قامت الحرب على ساق، تريد أنها قامت على أمر شديد)) انتهى.

وفي (الكشاف): ((﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ في معنى يشتد الأمر ويتفاقم ولا كشف ثم ولا ساق، كما تقول للأقطع الشحيح: يده مغلولة ولا يد ثم ولا غل، وإنما هو مثل في البخل، وأما من شبّه فلضيق عطنه وقلة نظره في علم البيان)) انتهى.

وفي تفسير (الغريب) للإمام زيد بن علي عليهما السلام: معناه: شدة وكرب، قال الإمام زيد بن علي: ((كانت العرب إذا نزلت فيهم الحرب أو أمر عظيم الذي لا أشد منه، قالوا: كشفت الحرب عن ساق)) انتهى.

قلت: ولا يبعد تفسيره بما يفسر به التشمير، ففي الحديث عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: ((فلما كان أول ليلة من العشر الأواخر شمّر وشد المئزر وبرز من بيته..)) الخ، قال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): ((ومعنى شمر: فهو أقبل على طاعة ربه العلي الأعلى)) انتهى، وقال في (الصحاح): ((يقال: شمَّرَ عن ساقه وشمر في أمره أي خف، ورجل شمري كأنه منسوب إليه، وقد تكسر منه (الشين) وينشد:

قد شَمَّرت عن ساقِ شَمَّريٌّ)) انتهى المراد.

وعلى هذا: فهو كناية عما ينزل بالناس يوم القيامة وما يأتي به اللّه من أهوالها، وما فيها من السؤال والحساب، ونشر الصحف، وإحضار جهنم، والفضائح لأعداء اللّه، والتوبيخ لهم والتخزية، وتحقيق الحكم بالعدل، وغير ذلك مما هو مذكور في سور القرآن فيوم تنزل بالكفار تلك الشدائد الكثيرة المتواصلة العظيمة هو ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ فهو أبلغ في الوعيد من قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن:٣١] فعند ذلك فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ليدفعوا أو يشفعوا وهيهات قد ضل عنهم ما كانوا يفترون.

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ قال السيد حميدان بن يحيى القاسمي في (مجموعه) في كتاب (تنبيه أولي الألباب على تنزيه ورثة الكتاب) [ص١٧٠/خ]: «ومما يدل من كتاب اللّه تعالى على الفرق بين الاستطاعة والجبر قوله سبحانه: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ فانظر كيف فرق سبحانه بين ما يدعون إليه في الدنيا وبين ما يدعون إليه في الآخرة لكونهم مستطيعين في الدنيا وممنوعين في الآخرة» انتهى.

وفي هذا دلالة على أنه جعل السجود الثاني غير السجود الأول، وأن الأول الذي في الدنيا كانوا يطيقونه ويستطيعونه والآخر الذي في الآخرة كانوا ممنوعين منه، فقد حملها على ظاهرها ولم يتأولها وأكد ذلك قوله ممنوعين منه، فإنه يوافق الرواية فيه والحمل على الظاهر هو الأصل إذا لم يكن فيه إشكال.

بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمۡ عِندَهُمُ

قال في (الكشاف): «فإن قلت: لم يدعون إلى السجود ولا تكليف؟ قلت: لا يدعون إليه تعبداً وتكليفاً، ولكن توبيخاً وتعنيفاً على تركهم السجود في الدنيا مع إعقام أصلابهم والحيلولة بينهم وبين الاستطاعة، تحسيراً لهم وتنديماً على ما فرطوا فيه حين دُعوا إلى السجود وهم سالمون الأصلاب والمفاصل ممكنون مزاحوا العلل فيما تعبدوا به» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ (الخشوع): هيئة الذلة والتذلل، وإسناده إلى الأبصار لظهوره فيها لمن يراها في شدة خوفها، وبطلان قوة أعصابها فلا تلتفت بل تتجه إلى جهة واحدة فقط، وقوله تعالى: ﴿تَرۡهَقُهُمۡ﴾ أي تغشاهم لظهور الذلة على كل أبدانهم.

﴿٤٤﴾ ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ هذا الحديث: هو القرآن الذي هو أحسن الحديث، وأغنت الإشارة إليه عن وصفه لأن سماعهم له حين كان يتلوه عليهم رسول اللّه ﷺ يتبين به لهم أنه خارق لا يكون من بشر إيجاد مثله في الإحكام وحسن البيان وقوة الحجة وقطع المعذرة، وقوله تعالى: ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ﴾ بمعنى كِلْ أمره إليّ ودعني أتولى استدراجه للعذاب الشديد حتى يقع فيه خالداً أبداً، ذرني أعذبه فأنا أكفيكه، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُكَذِّبُ﴾ (الواو) فيه للمعية (واو المفعول معه) لأنه في قبضة اللّه وسلطانه.

﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ قال في (الكشاف): «استدرجه إلى كذا، إذا استنزله إليه درجة فدرجة حتى يورطه فيه» انتهى المراد، فالمعنى: سنقربهم إلى العذاب درجة درجة حتى نوقعهم فيه من حيث لا يعلمون،

وذلك لخذلانهم وجهلهم واستعمالهم نعم الله في معصيته، وجهلهم لأسباب العذاب، ومرور الدهر بهم فهم يقربون إلى الموت وهم غافلون.

(٤٥) ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أمهلهم زيادة في الحجة وقطعاً للمعذرة وهم مع ذلك يزدادون إثماً فكأن إمهالهم كان ليزدادوا إثماً؛ لأن الكافرين جعلوا الإمهال سبباً في زيادة الإثم، وهو سبحانه أراد ابتلاءهم في بقية أعمارهم وتمكينهم من الخير والشر وهو أعلم بما يفعلون، فكان نتيجة ذلك ازديادهم إثماً وكان الإملاء في صورة الكيد مع أنه نعمة عليهم عظيمة من حيث أنهم كانوا يستطيعون فيه أن يتوبوا فينجوا من النار ويدخلوا الجنة خالدين فيها أبداً.

﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ في تفسير (الإمام زيد بن علي عليه السلام) لهذه الجملة من (سورة الأعراف) معناه: ((شديد قوي)) وفي (تفسير الإمام الهادي عليه السلام) لهذه الآية: ((معنى أملي لهم، فهو أؤخرهم ولا أعاجلهم وأتركهم وقتاً ولا أغافصهم ثم إلي مرجعهم إن كيدي متين، فالكيد: هو الأخذ لهم والبطش بهم والانتقام منهم متين فهو قوي رصين)) انتهى.

وقال في (الكشاف): ((وسمى إنعامه وإحسانه كيداً كما سماه استدراجاً، لكونه في صورة الكيد حيث كان سبباً للتورط في الهلكة ووصفه بالمتانة لقوة أثر إحسانه في التسبيب للهلاك)) انتهى، قال في (الصحاح): ((الكيد: المكر)) انتهى، وفي (مفردات الراغب الأصفهاني): ((الكيد: ضرب من الاحتيال، وقد يكون مذموماً وممدوحاً وإن كان يستعمل في المذموم أكثر، وكذلك الاستدراج والمكر ويكون بعض ذلك محموداً، قال: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف:٧٦])) انتهى المراد.

ﭐلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ

فالراجح: أنها من المتشابه، وأن تفسير الإمام الهادي إما لأن (الكيد) يستعمل في التعذيب كما قيل، وإما أنه تأويل وهذا أرجح؛ لأنه كالتعليل لقوله تعالى: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡ﴾ فظهر: أنه جعل الإملاء كيداً كما ذكرته فيما مضى.

﴿٤٦﴾ ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾ ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا﴾ الضمير للمكذبين بهذا الحديث، و﴿أَمۡ﴾ سؤال عن علة تكذيبهم عاطفة على قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾ ﴿مَّغۡرَمٖ﴾ نقص شديد من أموالهم ثقيل عليهم، أي لا تسألهم أجراً فيثقل عليهم فيكذبوك من أجل خوف المغرم.

﴿٤٧﴾ ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ ﴿أَمۡ عِندَهُمُ﴾ أم يعلمون الغيب، فكذبوا هذا الحديث بناء على علم يقين بالواقع الذي يزعمونه وهو أنه بزعمهم كذب، والواقع أنهم لا يعلمون الغيب فتكذيبهم ليس له مستند، وإنما بعثتهم عليه دواعي الهوى والحسد والكبر والحمية.

وقوله تعالى: ﴿فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ الراجح في معناه عندي ـ والله أعلم ـ : أنه إبطال لما فرض من علمهم الغيب، وبيان لكونهم لا يعلمون الغيب؛ لأنهم لو كانوا يعلمون الغيب لاستغنوا بعلم الغيب عن الكتابة، لأن عادتهم أن يكتبوا مالهم وما عليهم لئلا ينسى أو يجهل أو يمكن فيه الجحد والإنكار، فلو كانوا يعلمون الغيب لاستوى عندهم المكتوب وغيره؛ لأنه يكون كله معلوماً لهم لاشك فيه وجحده مثل جحد الضروريات.

وعلى هذا: قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ رد وإبطال لا تفريع على المفروض المقدر، ونظيره في كونه رداً قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِ

﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [الطور:٣٨] وقوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور:٤٢] وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَ يُؤْمِنُونَ* فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ [الطور:٣٣-٣٤].

فإن قال قائل: لا يصح هذا لأنهم أميون لم يكونوا يكتبون إلا القليل؟

قلنا: إن المهم بيان حاجتهم إلى الكتابة، فهم يكتبون لأنهم يحتاجون إليها، ولا ينافي ذلك أن الكثير منهم لا يحسن الكتابة؛ لأنهم مع حاجتهم إلى الكتابة يكتبون بواسطة الكاتبين، كما قال تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة:٢٨٢] فأسند الكتابة إلى المتداينين، مع قوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة:٢٨٢] فهكذا قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ لأن من الواضح أنهم لا يكتبون كلهم، فعلم السامع بذلك قرينة حالية فهو مع القرينة الحالية مثل قوله تعالى: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ مع القرينة القولية، فالمراد: أنهم يكتبون بأقلام الكاتبين منهم، وذلك ينافي علم الغيب من حيث دلالته على الحاجة إلى الكتابة.

(٤٨) ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ هذا خطاب لرسول الله ﷺ بعد كمال الرد على المكذبين له والرامين له بالجنون، وهو إلزام له بالثبات على تبليغ الرسالة والصبر على ما يلاقي في سبيل التبليغ من الأذى والمشاق، وحكم ربه: حكمه عليه بتبليغ الرسالة وتكاليفه التي كلفه.

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ (صاحب الحوت): نبي الله يونس عليه السلام الذي التقمه الحوت بسبب استعجاله ومغادرته لقومه قبل أن يؤذن له ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ نادى ﴿أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]

مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

وهذا تذكير بذنبه في ضمن التذكير بتوبته، فليس المقصود ذم صاحب الحوت، إنما المراد لا تقع في مثل ما وقع فيه، فاحتاج إلى التوبة.

وقوله: ﴿وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ في حال شدته وكربه وغمه في بطن الحوت واهتمامه حين انتبه أنه قد عصى ربه، ونحو هذا تفسير الإمام الهادي عليه السلام، وفي (مفردات الراغب): «وكُظِم فلان: حُبِسَ نفسه، قال تعالى: ﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾» انتهى، وعلى هذا: فهو تشبيه للمكروب بالمكظوم.

﴿٤٩﴾ ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾ ﴿تَدَٰرَكَهُۥ﴾ تلافاه وأغاثه ﴿نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ هذه نعمة مخصوصة كانت سبب نجاته، فيحتمل: أنها التوبة عليه حين قال: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧] وتهيئة سلامته، ويحتمل: أنها إلهامه التسبيح هذا وهدايته له، والأول أقرب وبه يفهم الجمع بين تفسير هذه الآية وتفسير قوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤] فلولا التسبيح للبث في بطنه، ولولا النعمة لهلك بعد التسبيح إما في بطن الحوت وإما عند نبذه إي إلقائه، ونبذه بالعراء والناس يذمونه؛ لأنهم لا يعلمون توبته في بطن الحوت فيذمونه على عجلته عن قومه الذين تابوا بعده، العجلة التي كانت سبب هلاكه لو لم ينجه الله.

وهذا يناسب الآيات من (سورة الصافات): ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [آية:١٤٦-١٤٧] فهو تفسير للنعمة هنا، وفي (تفسير الإمام الهادي عليه السلام): «يقول سبحانه: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ

﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ بالإجابة له في دعائه والرحمة له عند تسبيحه ﴿لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾ يقول: لما خرج من بطن الحوت حتى ينبذ بالعراء يوم القيامة ـ قال عليه السلام ـ: فأراد الله بما ذكر من العراء عراء الأرض في يوم الدين ـ قال عليه السلام ـ: فلم يرد عراء الأرض في الدنيا ألا تسمع، كيف يقول: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٢-١٤٤] فدل سبحانه بقوله: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ على أنه لولا أن تداركه نعمة من الله لكان لابثاً في بطنه حتى ينبذ بالعراء في يوم الدين›› انتهى المراد باختصار.

وقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ..﴾ الآيتين، هما في (سورة الصافات) وفي تفسيره بعراء أرض القيامة وذمه فيها إشكال؛ لأن خطايا الأنبياء صغائر، فالأولى حمله على ذم الناس له في الدنيا لجهلهم بالحقيقة ـ والله أعلم.

(٥٠) ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ قرّبه وهيأه للإطفاء، وفي (تفسير الإمام الهادي عليه السلام): ‹‹معنى اجتباه: أي رفعه وأدناه وقربه واصطفاه›› انتهى، وفي (الكشاف) في تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الشورى:١٣] قال: ‹‹يجتلب إليه ويجمع›› انتهى، ومثله في تفسير قوله تعالى: ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص:٥٧].

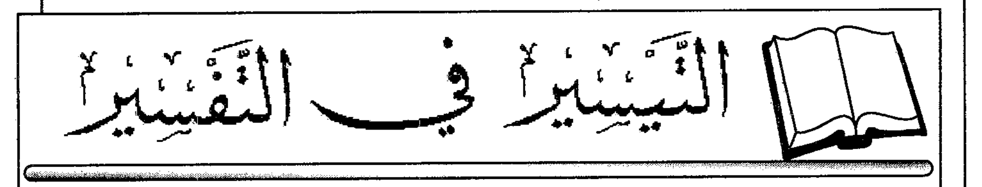
وفي قوله تعالى: ﴿رَبُّهُۥ﴾ إشارة إلى صلته بالله وكثرة ذكره له وعبادته وشكره ودعوته إليه كما هو شأن الأنبياء عليهم السلام، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ..﴾ [المؤمنون:٥٧] إلى آخر الآيات، وقد ظهر مثل هذا في غيرها ذكرته في الجزء الأول ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ زاده صلاحاً بعد تلك المصيبة وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون.

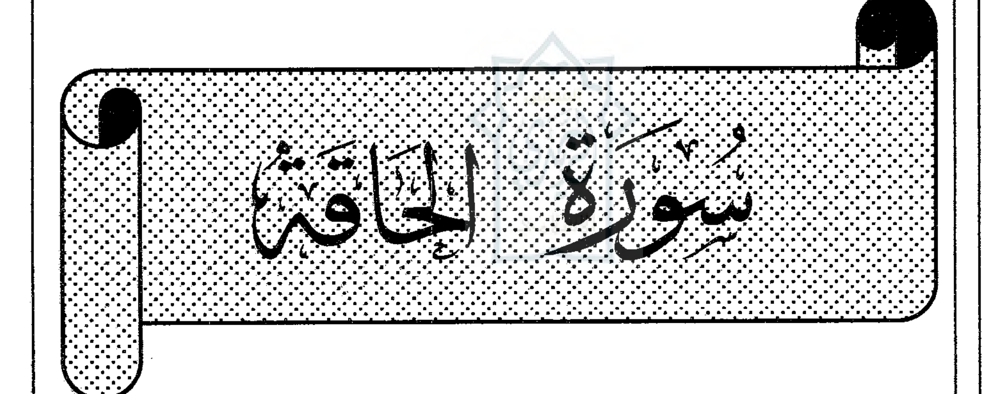
(٥١) ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾ ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي لشدة غضبهم ينظرون إليك نظر العداوة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [الحج:٧٢] فهم لغيظهم يحدون النظر إليه.

و(يزلقونك): يسقطونك، والإزلاق: الإسقاط في الزلق وهو هنا تمثيل والمقصود به الإهلاك أو نحوه، مثل قوله تعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى:١٦] وسبب هذا الغيظ: أنهم سمعوا الذكر، وعرفوا أنه ذكر أي هدى وتعليم من الله، والذكر هنا هو (القرآن) يسمعه العربي لساناً عربياً خارقاً للعادة المعهودة في حكمته وحسن بيانه، فيعلم أنه من الله، فيغيظه لكفره وتعصبه لدين آبائه الذي يؤذن القرآن العظيم بسقوطه.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾ يقول الذين كفروا: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي محمد الذي يتلو عليهم القرآن الشاهد بصدقه ونبوته يقولون: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾ دعوى مؤكدة بـ(إن) و(اللام) أي مصاب بالجنون، وهذه الدعوى لا تناسب حالهم وتغيظهم حين سمعوا الذكر، لأن المجنون لا يلتفت إلى كلامه وإن كان مما يغيظ لو كان القائل عاقلاً فلا يبالي به سامعه لأنه مجنون، فدعواهم هذه عند سماعهم للذكر وتأكيدها إنما ذلك عناد وتعمد للكذب وتمرد منهم.

(٥٢) ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ فلم يكن ينبغي أن يغضبوا منه وينسبوا الرسول ﷺ إلى الجنون لما سمعوه؛ لأنه ليس إلا هدى وإرشاداً عاماً للعالمين فهم كلهم محتاجون إليه ويهتدون به إن تعلموه واتبعوه، وما كان كذلك ينبغي للعاقل أن يفرح به، ويعلم أنه نعمة من الله ويشكره عليها ويحرص على تعلمه وحفظه والعمل به، لا أن يتغيظ منه ويدعي جنون الذي جاء به، مع أنه دليل على صدقه، وأنه رسول من الله، ومع أنه ذكر حكيم لا يصدر إلا من حكيم.


التيسير في التفسير


سورة الحاقة





سُورَةُ الحَاقَّة

آياتها ٥٢ — ترتيبها ٦٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ

﴿١-٢﴾ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ * مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ المراد بها القيامة، كما سميت ﴿**الْوَاقِعَةُ**﴾ و﴿**الْغَاشِيَةِ**﴾ و﴿**الْقَارِعَةُ**﴾ وسميت ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ إما لأنها تصيب الناس ولا تخطئ أحداً، وهذا تفسير الإمام الهادي عليه السلام، قال: «لأن العرب تقول للشيء إذا أصابه السهم: حقَّه» انتهى.

وإما لأنها تأتي الناس حقاً عليهم وصواباً وعدلاً، كقوله تعالى: ﴿**فَحَقَّ عِقَابِ**﴾ [ص:١٤] وقوله تعالى: ﴿**وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ**﴾ [الحج:١٨] فمعناها: الحاقة على العباد أو على المخلوقين أو نحو ذلك، وعبارة (الكشاف): «الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجيء...» الخ، والأظهر: اعتبار الحق في معناها.

﴿٣﴾ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ في (تفسير الإمام الهادي عليه السلام): «لأن اللّه سبحانه تبارك وتعالى لا يقول لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم في شيء: ما أدراك ما هو إلا وهو أعظم ما يكون من النازلة الصايبة» انتهى، وكذا قال في قوله تعالى: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾: «فهو تعظيم منه سبحانه لها، وإخبار بجليل ما يحق بأهلها» انتهى.

﴿٤﴾ ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ (القارعة): القيامة، والقرع: الضرب، وتسمى المصيبة قارعة، قال تعالى: ﴿**وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ**﴾ [الرعد:٣١] وأقيم الظاهر مقام المضمر؛ لإفادة أنها المصيبة العظمى، وقدم ثمود ليرتب عليه ذكر عقوبتهم العاجلة، أعني ثموداً وعاداً بسبب تكذيبهم بها.

﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن

﴿٥﴾ ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ وهي الرجفة الشديدة المتجاوزة للحد في شدتها، أو هي الصيحة، بمعنى: أنه صاح بأرضهم ملك رجفت الأرض من صيحته فأهلكتهم فكلاهما سبب.

﴿٦﴾ ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ في (تفسير الإمام الهادي عليه السلام): «والصرصر، فهي الشديدة المدمدمة المدمرة لما أتت عليه المخزية» انتهى، وعبارة (الكشاف): «والصرصر: الشديدة الصوت، لها صرصرة» انتهى، والمعنى واحد لأن شدة الصوت من شدة الريح.

و(العاتية) في (تفسير الإمام الهادي عليه السلام): «فهي الغالبة الهائلة، التي لا تذر شيئاً إلا أتت عليه وعتت، فمعناها: صعبت واشتدت به وغلبت» انتهى.

قلت: هذا حاصل المعنى في هذا الموضع في (مفردات الراغب الأصفهاني): «العتو: النبو عن الطاعة، قال: ﴿وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٢١].. ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف:٧٧]..» الخ، وعلى هذا يكون المعنى أن الريح هذه كلما رجوا أن تسكن أو تفتر ازدادت واستمرت حتى أهلكتهم، أو أنه كان يطلب منها بلسان حال القوم أن تفتر فتأبى إلا الشدة، ومثل هذا قوله: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٨] فالهرم لا يفتر عنه والضعف لا يزال به فلا تعاوده القوة في حال.

وهذا موافق لـ(تفسير الإمام الهادي عليه السلام) في حاصل معنى (عاتية) وفي تنكير (ريح) وصفاتها إشارة إلى أنها غير الريح المعهودة في شدتها، وأنها عقيم لا تفيد ما تفيده الرياح العادية.

(٧) ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا﴾ جعلها في حال أنها مسخرة لأمره منقادة لقضائه عليهم، وقوله: ﴿سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ يفيد: أنها بدأت من الصباح فما زالت عليهم حتى آخر اليوم الثامن، فكانت ثمانية أيام في ضمنها سبع ليال.

وفي تفسير ﴿حُسُومٗا﴾ قول الإمام الهادي عليه السلام: «فمعناها: دائمة متوالية لا راحة فيها ولا فترة لساعة منها، وما كان كذلك في الدوام والاستواء وقلة الغفلة والونا سمي حسوماً من الليالي والأيام» انتهى، ومثله ذكره في (الكشاف) مع ذكر احتمال معنى آخر.

والراجح تفسير الإمام الهادي عليه السلام، فقد رواه عن العرب ولا ينشغل بملاحظة الاشتقاق التي قد تؤدي إلى شيء من التغيير للأصل في معنى الكلمة، ولعلها سميت ﴿حُسُومٗا﴾ لقوة مضيها في استمرارها فهي ماضية مضاء الحسام القاطع ـ والله أعلم، وقال في (الصحاح): «وقيل في قوله تعالى: ﴿وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا﴾ أي متتابعة» انتهى، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام) لـ(غريب القرآن): «وقوله تعالى: ﴿سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا﴾ معناه: متتابعات متواليات» انتهى.

﴿فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ﴾ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾ هم عاد، وفي إقامة الظاهر مقام المضمر تعظيم للهول عليهم، حيث نزل بهم العذاب وصار رجالهم كلهم هلكى يراهم الرائي كأعجاز النخل، وفي التعبير بالمضارع في: ﴿فَتَرَى﴾ تصوير لهذه المصيبة كأنها في الحال، و﴿صَرۡعَىٰ﴾ جمع صريع، أي قد صرعته الريح.

قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ كأن القوم وهم صرعى ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ أسافل النخل وأصولها ﴿خَاوِيَةٍ﴾ أي النخل خاوية أي ساقطة، كقوله تعالى: ﴿**كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ**﴾ [القمر:٢٠] ومن شأن النخل إذا سقط أن تظهر أسافلها ومجامع عروقها العظيمة، فالتشبيه يصور القوم صرعى بادية أفخاذهم العظيمة وأعجازهم.

﴿٨﴾ ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ أي فلا ترى، فالاستفهام معناه النفي، أي لم يبق منهم أحد بل عمهم الهلاك، ولعل فائدة (اللام) الإشارة إلى إخزائهم بأنه لم يبق لهم ﴿بَاقِيَةٍ﴾ لشدة العذاب، فالكلام مسوق لبيان شدة العذاب لا لمجرد عمومه، والغضب على القوم جملتهم لا مجرد نفي الباقية - والله أعلم.

﴿٩﴾ ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ ومن قبل فرعون من المكذبين للرسل المنذرين بالحاقة كقوم إبراهيم وقوم لوط وغيرهم ممن كان بعد عاد وثمود متقدماً قبل فرعون.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ وهي التي انقلبت عن الحق إلى الباطل لما أفكت، وقد تكرر ذكرهم في القرآن الكريم، ويظهر: أنهم مكذبون معينون لما يشعر به العطف.

وقد قيل: إنهم قوم لوط، فإن كان هناك دليل غير ما يروى أن جبريل عليه السلام قلب قراهم فجعل عاليها سافلها، فلا ندري، والأقرب أن معنى قوله تعالى: ﴿**فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا**﴾ [الحجر:٧٤] هو هدم رؤوس الأبنية إلى الأرض.

وذلك لأن رواية: أن جبريل عليه السلام رفع قراهم إلى الهوى ثم أسقطها مقلوبة لا تستقيم مع بقاء آثارهم، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٣٥] قال في (المصابيح) في تفسيرها: «﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا﴾ ـ أي القرية ـ ﴿ آيَةً بَيِّنَةً﴾ أي عبرة ظاهرة لمن يعتبر هو آثار منازلهم الخربة» انتهى، ومثله في (الكشاف).

وقال في تفسير قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨]: «وإنما ذكر اللّه هذه القصة ليعتبر بها مشركوا العرب.. إلى قوله: أي تمرون على منازلهم وآثارهم..» الخ كلام (المصابيح).

فلو كان جبريل عليه السلام حمل قراهم ورفعها ثم قلبها لضاعت الدور إن كان حمل الأرض وما فيها، وإن كان حمل الدور وما فيها فذلك يؤدي إلى تغطية من فيها فلا يلحقهم المطر الذي أصابهم الذي هو عذابهم، فالأرجح: أن اللّه تعالى أرسل حاصباً من الريح أسقط أعالي بيوتهم، ورماهم هذا الحاصب بالحجارة، أو أنها أصابتهم مع ذلك رجفة مثلاً خربت دورهم وصيرت عاليها سافلها ـ والله أعلم.

فظهر: أن ﴿ٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ قرى أفكت إلى الباطل بضرب من الإفك الذي يؤفك عنه من أفك فانقلبت.

وفي تفسير الشرفي (المصابيح): «عن الهادي عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ [النجم:٥٣] المؤتفكة: المنقلبة، ومعنى ﴿ أَهْوَى﴾ فهو أهلك وأردى» انتهى، ومعنى جاءوا ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أحدثوها، وهي المنكرات التي كل منها خطأ أخطأ به صاحبه وخالف الحق.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦﴾

---

(١٠) ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ رسول في معنى الجمع، والمعنى: أن هؤلاء المذكورين جاءوا بالمعاصي والمنكرات، فأرسل الله إليهم ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء:١٦٥] فعصوا رسول ربهم بعد أن جاءوهم بالبينات فأبوا إلا التكذيب ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ ربهم المالك لهم المنعم عليهم ﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ بطشة بالغة في الشدة زائدة على بعض البطشات.

(١١) ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ﴾ ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ كثر وتجاوز الحد، كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١١-١٢] ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ﴾ أي حملنا هذا الجنس البشري بأن حملنا مع نوح أولاده المؤمنين فكانوا آباء البشر الباقين، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧] فكان حمل الآباء نعمة للذرية فاعتبر حمل الآباء حملاً للأبناء، من حيث أن وجودهم توقف على حمل الآباء في الجارية أي سفينة نوح عليه السلام التي تجري بهم في موج كالجبال.

(١٢-١٣) ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ * فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ آية ودليلاً تعرفون به الله وصدق الرسالة لرسوله نوح عليه السلام، وتعرفون به ما دلت عليه السفينة والهداية إليها، ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ أي تعي هذه التذكرة وتحفظها ولا تنساها أذن سمعت التذكرة فوعتها؛ لأنها ﴿وَٰعِيَةٌ﴾ لآيات الله حافظة لتذكيره.

قال الإمام الهادي عليه السلام في تفسيرها: «والأذن الواعية: فهي الأذن المؤمنة المصدقة بكتب ربها ورسله وآياته ونذره، المستدلة بظاهر آيات اللّه وصنعه..» الخ، والمراد: صاحب الأذن، قيل له: «أذن» كما يقال للمراقب الباحث «عين».

وقد أخرج ابن جرير الطبري في (تفسيره) عند ذكر هذه الآية: حدثنا علي بن سهل، قال: حدثنا الوليد بن مسلم، عن علي بن حوشب، قال: سمعت مكحولاً يقول: قرأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ ثم التفت إلى علي فقال: «سألت اللّه أن يجعلها أذنك» قال علي رضي الله عنه: «فما سمعت شيئاً من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فنسيته».

حدثني محمد بن خلف، قال: حدثني بشر بن آدم، قال: حدثنا عبد اللّه بن الزبير، قال: حدثني عبد اللّه بن رستم، قال: سمعت بريدة يقول: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول لعلي: «يا علي إن اللّه أمرني أن أدنيك ولا أقصيك وأن أعلمك وأن تعي وحق على اللّه أن تعي» قال: فنزلت: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾.

حدثني محمد بن خلف، قال: حدثنا الحسن بن حماد، قال: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم أبو يحيى التيمي، عن فضيل بن عبد اللّه، عن أبي داود، عن بريدة الأسلمي، قال: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول لعلي: «إن اللّه أمرني أن أعلمك وأن أدنيك، ولا أجفوك ولا أقصيك» ثم ذكر مثله، انتهى من (تفسير الطبري).

وذكر ابن كثير في (تفسيره) هاتين الروايتين رواية بريدة الأسلمي ورواية مكحول، والظاهر: أنها عن علي، بدليل قوله: قال علي رضي الله عنه: «فما سمعت..» الخ.

والدلالة في التفريع بـ(الفاء) ورواية بريدة نقلهما ابن جرير بأسانيدهما من طريق عبد الرحمن بن أبي حاتم، ولعله من (تفسيره) والتقى السندان في الرواية الأولى في علي بن حوشب، وفي الثانية في بشر بن آدم، وقال في سنده: «حدثنا عبد الله بن الزبير أبو محمد، يعني والد أبي أحمد الزبيري» انتهى.

وقد بسط في الروايات المماثلة لهما في (شواهد التنزيل) وفي تعليقه زيادات، وفيها عن علي عليه السلام، وجابر، وابن عباس، وأنس، ولا تعارض بين تفسير الآية بالعموم لكل مؤمن حافظ عامل، وبين نزولها في علي، وكونه من معناها داخلاً فيها دخولاً أولياً.

وهذه السفينة آية متوارثة في الأجيال، فقوله تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ يفيد: أنها آية للمخاطبين، وقد قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:١٥] وفي ذكر العذاب النازل بالأولين الذين كذبوا الرسل تذكير بأن الله تعالى لم يهمل عباده، وأنه لابد من الجزاء لأنه لو كان لا يجزي الظالمين لما عاقب الأولين؛ لأن الأولين والآخرين كلهم عباده، وليس غافلاً عما يعمل الظالمون، فذكر العذاب العاجل إنذار للسامعين من العاجل والآجل ولذلك اقترن بالحاقة وتهويلها ذكر ثمود وعاد.

ثم رجع الكلام إلى ذكر القيامة، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ الذي يظهر: أن هذه كناية عن الصيحة المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق:٤٢] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر:٦] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم:٢٥].

أو أنها صيحة قبلها مهلكة؛ لأن اللّه تعالى قال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨] وهذا أظهر، أي أنها الصيحة الأولى، لعطف قوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ إلى آخر الآيتين.

فأما الإمام الهادي عليه السلام وغيره من أئمتنا فقد فسروا هذه وأمثالها: بالنفخ في (الصوَر) بفتح (الواو).

قال الإمام أحمد بن سليمان في (حقائق المعرفة): «وقد اختلف في قول اللّه تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [الكهف:٩٩] فقيل معناها: ونفخ في الصوَر، وروي عن ابن عباس أنه قال: الصور: قرن ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، وعندنا أنه صوت يحدثه اللّه تعالى يفزع منه من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء اللّه.. إلى قوله عليه السلام: فصح أنه صوت يسمعه السامعون» انتهى.

(١٤) ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ في (تفسير محمد بن القاسم بن إبراهيم عليهم السلام) لـ(سورة الفجر): «ودك المدكوك: فهو تكسيره وتحطيمه ودق بعضه ببعض وتهشيمه، وذلك حين تدك الأرض بالجبال فتصير الجبال كالكثيب المنهال قال اللّه تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾» انتهى من (المصابيح).

ولا مانع من حمل قوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ على ظاهره، فمعناه: أنه يحملهما مثلاً ملك واحد أو أكثر بما جعل اللّه من القدرة لحاملهما وبأمره سبحانه له أن يحملهما ليدكهما بأي طريقة أذن اللّه بها، ومعنى ﴿دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ أنها متصلة لا تنقطع حتى تصير الجبال ﴿كَثِيبًا مَهِيلاً﴾ [المزمل:١٤] مثل كثيب الرمل المجتمع الذي ينهال من موضع إلى غيره

وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴿١٧﴾ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ

أو قد انهال إلى موضعه، ومثل هذا يمكن أن يكون في النفخة الواحدة، فيجوز أن تكون صيحة تطول حتى تهلك من في السموات والأرض إلا من شاء اللّه، أو تقصر فتهلكهم في لحظة والله على كل شيء قدير.

﴿١٥﴾ ﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ يوم إذا كانت الأهوال المذكورة ﴿وَقَعَتِ﴾ القيامة التي هي واقعة لا بد من وقوعها بأمر اللّه سبحانه، وهي ﴿الْحَاقَّةُ﴾ ولكونها معهودة بوعد اللّه تعالى متوقعة ثقلت في السموات والأرض ذكرت معرّفة بـ(ال).

﴿١٦﴾ ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ انفصل بعضها عن بعض وانفطرت، وفي (تفسير الإمام الهادي عليه السلام): «وانفطارها، فهو تقطعها لما يريد اللّه في ذلك اليوم من فواتها وتبديلها» انتهى.

و(الواهية): المسترخية الضعيفة بعد قوة تماسكها، ولذلك ـ وبإذن اللّه تعالى ـ تتشقق شقوقاً متعددة، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً﴾ [الفرقان:٢٥].

﴿١٧﴾ ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَا﴾ والملائكة على جوانبها، قال الإمام الهادي عليه السلام: «يريد سبحانه أن الملائكة عند تقطع السماء يكونون واقفين على أرجائها منتظرين لأمر اللّه فيها وفي غيرها» انتهى، ولعل ذلك بعد إحياء من مات من الصيحة الأولى.

﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ يوم القيامة حين يقع ما ذكر من أحوال الأرض والسماء، وهو تصوير لموقف السؤال كقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر:٢٢] كما ذكر اللقاء لتمثيل موقف السؤال بموقف الحضور عند الملك للمناقشة على الطاعة والمعصية ثم الجزاء وهو سبحانه أعظم وأجل من أن يحيط به عرش أو غيره لأنه ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] ولكن موقف السؤال يكون العبد فيه عند السؤال كالحاضر عند السائل وكأنه واقف بين يدي ملك الملوك فذكر العرش يفيد هذا التمثيل لما فيه من الموعظة والتخويف.

وحيث أن الكلام مسوق للتمثيل على طريق المجاز، فلا مانع مع ذلك من أن تدل الآية الكريمة على ثبوت عرش في الآخرة يحشر الناس إليه ويكون قبلة لهم كبيت الله في الدنيا إذا لم يكن على معنى إثبات محل لله يكون فيه وعليه، بل مجرد قبلة كالكعبة يتجه الناس إليه بين مقرب ومبعد ومستظل بظلاله ومحروم، وقد جاء ذكره في الروايات عن النبي ﷺ في (مجموع الإمام زيد بن علي عليهما السلام) وغيره، وهذا لأجل ذكر العدد لحملة العرش وتخصيص الثمانية، فلا يبعد هذا وإن كان ذكر الثمانية من المتشابه لعدم تحقيق هل هم ثمانية أفراد أو صفوف أو غير ذلك.

(١٨) ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ﴾ وهذا من التمثيل المناسب لحضور العرش؛ لأن الناس في موقف السؤال يشبهون رعية تعرض على ملكها، فهم كالمحضرين لديه ليسألهم عما كانوا يعملون ﴿لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ﴾ نفس ﴿خَافِيَةٞ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦] فهو الموقف الذي لا يخفى فيه صغير ولا كبير ولا عظيم ولا حقير ولا رجل ولا امرأة ولا بدوي ولا قروي.

هَاؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي

﴿١٩﴾ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَاؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ وهنا إيجاز واقتصار على بعض ما يكون في موقف العرض، وهو ما يفيد المهم الذي هو تميز السعداء والأشقياء بما يقول كل من الفريقين حين يؤتى كتابه و﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ كتاب عمله من حسنات أو سيئات يؤتاه ليقرأه، كما قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣-١٤] والمؤمن يؤتاه بيمينه المناسبة لليمن فتسليمه له بيمينه كالبشارة له باليمن والخير، فإذا استبشر به، قال: ﴿هَاؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ أي هاكم اقرأوا كتابيه يعرض كتابه ليقرؤه لسروره به، كما هو من طبيعة الإنسان إذا سر بشيء أن يخبر به، أو ليبشر به غيره من أمثاله، أو ليفخر به على أعداء اللّه أو غير ذلك.

﴿٢٠﴾ ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ تعليل لحصوله على هذه البشرى أو لسببها الذي هو التقوى والظن يستعمل في ما يقتضي الحذر فتفسيره بالخشية والخوف أقرب من تفسيره بالعلم اليقين واستعمال الظن بمعنى الخوف قريب؛ لأن الغالب عند العرب في المخوف أن يكون مظنوناً، والعلاقة هنا السببية في الأصل قبل استعماله في المخوف على الإطلاق.

ووجه هذا: أنا لم نجده في القرآن يستعمل في المتيقن غير المخوف، هذا وقد حكى في (لسان العرب) عن بعض أهل اللغة أن الظن يستعمل بمعنى العلم الاستدلالي دون الضروري، وزعم بعض المفسرين: «أن الظن بمعنى العلم، يستعمل لإفادة أن الظن كان يقوم مقام العلم في إيجاب الحذر عند العقلاء» هذا معنى كلامه.

ولا أدري كيف يفيد ذلك، مع أنه قد صار معناه: العلم، فهو كما لو قال: إني علمت، ثم لا يحسن في المدح تشبيه العلم بالظن لأنه تحقير له، فالأقرب: حمله إما على الخوف والخشية، وعليه يحمل قول الشاعر:

فقلت لهم ظنوا بألف مدجج   سراتهم في الفارسي المسرّد

لأن المقصود التخويف بألف مدجج لا الأمر باليقين؛ لأنه غير ممكن لأنه مستقبل والمخبر به واحد لا يعلم الغيب ولا حاجة إليه في الإنذار بألف مدجج، بل يكفي الخبر الجازم الموجب للخوف، وإما على اليقين الإستدلالي على أن ذلك حقيقة من معنى الظن في اللغة، كما هو ظاهر ما حكاه في (لسان العرب) حيث قال: «المحكم الظن شك ويقين، إلا أنه ليس بيقين عيان إنما هو يقين تدبر، فأما يقين العيان فلا يقال فيه: الأعلم».

ثم قال في (اللسان): «التهذيب: الظن يقين وشك» ثم قال: «وفي التنزيل: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ أي علمت، وكذلك قوله عزَّ وجل: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ [يوسف:١١٠] أي علموا يعني الرسل أن قومهم قد كذبوهم فلا يصدقونهم، وهي قراءة أبي عمرو وابن كثير ونافع وابن عامر بالتشديد، وبه قرأت عائشة وفسرته على ما ذكرناه» انتهى المراد.

وفي (تفسير الإمام الهادي عليه السلام) لقوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ أي أيقنت في الدنيا ﴿أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ في هذا اليوم فأخذت له أهبته وعملت له عمله في دار الدنيا» انتهى المراد، وبهذا قوي التفسير بيقين التدبر، وفائدة العدول إليه عن لفظ (العلم) إشعاره بالتدبر، أي النظر والاستدلال الذي يحصل به الإيمان وحسن العاقبة.

ﭐلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ

﴿٢١﴾ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾ أي هذا الذي ﴿**أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ**﴾ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾ ترتبت العيشة الراضية على إيتائه كتابه بيمينه؛ لكونه عنوانها وعلامتها، و(العيشة): حياته الآخرة، و(الراضية): المرضية لما فيها من السعادة، ويحتمل إسناد الرضى إلى الحياة كما يسند إلى النفس، فنفسه راضية بسعادتها وسلامتها من كل شر.

﴿٢٢-٢٣﴾ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ﴾ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾ هي الجنة التي وعد المتقون والعالية رفيعة القدر أو أشجارها ﴿عَالِيَةٖ﴾ كقوله تعالى: ﴿**وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ**﴾ [ق:١٠] أي طوال ويؤيد هذا عطف قوله تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ﴾ فالأشجار عالية ولكن تتدلى قطوفها حتى تؤخذ بسهولة كقوله تعالى: ﴿**وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً**﴾ [الإنسان:١٤] والقطوف: الثمار التي تؤكل.

﴿٢٤﴾ ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ أي يقال لهم هذا القول تكرمة لهم، قال الراغب في (مفرداته): «الهنيء: كل ما لا يلحق فيه مشقة ولا يعقب وخامة» انتهى، وأوضح منه هنا (تفسير الإمام الهادي عليه السلام) حيث قال: «﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾ فمعناها: سليماً من كل آفة، لا أذى فيها ولا مخافة في أكله على آكله، لا يخالف طباع آكله ولا يخالف إرادة متناوله» انتهى ﴿بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ﴾ بما قدمتم في سالف الحياة الأولى ﴿فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ أيام الدنيا الماضية الخالية الفانية، قد ذهب العناء وبقي الجزاء، وهذا يؤدي لهم ويفيدهم السرور بعملهم السالف والكرامة بإعلامهم أنه جزاء لهم بما قدموا، وهي تفيد: سروراً عظيماً.

﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾

﴿٢٥﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ يجعل في يده الشمال من وراء ظهره ﴿فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ لأنه كتاب جلب له الخوف والهم والحزن، فيتمنى أنه لم يؤته لأنه لم يجد منه مفراً ولم يتمكن من رفضه وجحده، فلم يكن منه إلا التمني للمستحيل.

﴿٢٦﴾ ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ لأنه رأى كتابه وقرأه فتذكر ما سعى، كقوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا﴾ إلى قوله: ﴿..حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣-١٤] فقد حاسب نفسه بنفسه وعرف خسرانه، ولم يبق إلا الندامة والتمني الذي لا يفيده شيئاً، ولعل هذا الكتاب كتاب يقرؤه الأمي الذي لم يكن يكتب كما يقرؤه غيره، ويمكن أنه بمنزلة أفلام التلفزيون فهو يرى نفسه يعمل ما كان يعمل، فلا يبقى مجال للتجاهل ولا للإنكار ـ والله أعلم.

﴿٢٧﴾ ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ يا ليت هذه الحالة التي هو فيها من الندم والخوف والحزن نتيجة إيتائه كتابه ﴿كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ عليه فمات ليتخلص بالموت عن العقاب المتوقع.

﴿٢٨﴾ ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ في (تفسير الإمام الهادي عليه السلام): «لم يغن عني ما كنت أجمع من المال، ومعنى يغني عني: فهو يدفع عني شيئاً مما نالني فأقر في يوم الدين بأن الذي كان فيه في الدنيا غرور» انتهى.

﴿٢٩﴾ ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ قوتي التي كنت أغلب بها، كقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ [القصص:٣٥] ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ [الإسراء:٣٣] فهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق:١٠] فهذه حاله بعدما يؤتى كتابه بشماله وينتهي حسابه، وبعد ذلك الجزاء الأوفى.

وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا

﴿٣٠-٣١﴾ ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أمر من الله للملائكة أن يأخذوا هذا الشقي فيغلوه، والغل: أن تقيد يداه إلى رقبته ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ اجعلوه صالياً للجحيم أي للنار، والصلي: مباشرة جسده للنار فلا يباشر غيرها يفصل بينه وبينها، ولعل هذا معنى الحصر الذي يفيده تقديم الجحيم.

﴿٣٢﴾ ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ سلسلة من حديد تتحول في النار كالجمر طولها سبعون ذراعاً فاسلكوه ادخلوه فيها ضيقة، وقد حكى الإمام الهادي عليه السلام الخلاف كيف يجعل فيها، ثم قال: «وأصح ذلك عندنا جعلها في أعناقهم؛ لأن الله سبحانه قد ذكر ذلك، فقال: ﴿إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر:٧١]» انتهى، وإدخاله في السلسلة هو الأصل وإدخالها في عنقه مجاز مثل أدخلت الخاتم في أصبعي، ولعل استعمال الأصل هنا جاء لكبر السلسلة؛ لأنه يؤخذ ويجعل فيها بخلاف الخاتم في الأصبع.

﴿٣٣﴾ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فاستحق العذاب بترك الإيمان وبما اكتسبه من السيئات التي اقترفها؛ لأنه لم يكن له إيمان يردعه.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ لأنه لا خير فيه ولا ميل إلى الخير؛ لأنه لا يرجو ثواباً لعدم الإيمان في قلبه، ولا يخشى عقاباً بترك الإطعام حيث يجب الإطعام للضرورة أو للرحامة أو من الزكاة أو إذا سأل المسكين؛ لقوله تعالى: ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ [البقرة:١٧٧] أو هي عامة للمسكين السائل والمسكين المحروم فتدل على وجوب إطعامه مطلقاً سأل أو لم يسأل وهذا هو الراجح، وقد دخل في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ﴾ [البقرة:١٧٧].

لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾

﴿٣٥﴾ ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يوم يؤتى كتابه بشماله ويوقن بالجزاء ويتمنى ويقول ما ذكر في الآيات الماضية و﴿هَٰهُنَا﴾ اسم للمكان الذي وقع ذلك فيه، و(الحميم) قال فيه الإمام الهادي عليه السلام: «والحميم: فهو ما كان يغتر به من البنين والعصبة والأقربين» انتهى، أي لا يدفعون عنه ولا يرحمونه.

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ فهنا دل على أن ما كان له في دنياه من الطعام الذي كان من أعظم مطالبه لا يعود له في الآخرة كما لا يكون له حميم وإنما طعامه ﴿مِنْ غِسْلِينٍ﴾ وبيّن ما هو غسلين بقوله تعالى: ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ فدل على أنه عذاب لآكله يعذب به الخاطئون، كما فسره في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٣-٤٦] والخاطئون هم المجرمون المذنبون المتعمدون.

﴿٣٨-٣٩﴾ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ (الفاء) للتفريع على ما ذكر من الوعد والوعيد لأن مدلوله يستلزم أن يتقدم الإنذار والتبشير والهداية لما ينجي من العذاب ويوصل إلى الثواب وهذا ما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ونزل به القرآن، فأقسم الله ـ جلَّ جلاله ـ أن ذلك حق من الله، وما يبصرونه: هو ما يرونه فكله آيات تدل على قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته وصدق وعده ووعيده، وما لا يبصرون من الأشياء المعلومة وغير المعلومة فيه دلالة من حيث خلقه الله وجعله خلاف المبصرات بقدرته كما خالف بين المخلوقات.

وفيه تنبيه على أن علم الإنسان بالأشياء التي لا يبصرها ولكنه يعلمها جملة أو تفصيلاً، أو يعلم أنه يجهلها من حيث يعلم كثرة المخلوقات وعدم إحاطة علمه بها، دليل على أنه يصح أن يجهل ما جاء القرآن والرسول ﷺ ببيانه والإعلام به، فليس للإنسان أن يجحده لجهله به.

ومثل هذه قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٣٦] وقد اكتشف في هذا العصر ما لم يكن معلوماً للبشر الأولين.

(٤٠) ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿إِنَّهُ﴾ أي القرآن هذا الذي يتلى بلّغه ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ تقي مطيع لله و﴿كَرِيمٍ﴾ يريد الخير والصلاح والنفع لمن أرسل لهم.

(٤١) ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ لأنه كلام اللّه الذي لا يقول مخلوق مثله لا شاعر ولا غير شاعر، ولأن الرسول ﷺ ما كان يقول الشعر ولا ينبغي له، ولكونكم لا تقبلون الحق ولا تؤمنون بآية من آيات اللّه إلا قليلاً كفرتم بالقرآن وزعمتم أنه قول شاعر.

(٤٢) ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي ما القرآن بقول كاهن، والكاهن: هو رجل تزوير وكذب يدعي العلم ببعض المغيبات وتتنزل عليه الشياطين فيوسوسون له بما استرقوه من السمع فيضيف إلى ذلك كذباً كثيراً ويصدقه الجاهلون، ويقولون: قد جربناه في بعض ما أخبر به أنه كان صدقاً وذلك ما استرقه شيطانه من السمع والفرق واضح يكفي فيه تذكر؛ لأن هذا القرآن فائق لكلام البشر على لسان الرسول الأمين الذي لم يجرب في كذب ولا تزوير.

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾

﴿٤٣﴾ ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ فكيف يشتبه كلامه بكلام الكاهن وكيف لا ينزل رب العالمين لعباده ما يهتدي به من اتبعه وينجو به من النار ويصير إلى السعادة الدائمة، فإن اللّه ربهم حكيم وليس من الحكمة أن يهمل عباده.

﴿٤٤﴾ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ﴾ أي الرسول المفهوم من السياق ﴿عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ تقوّل أي لو قال علينا مالم نقل أي لو كذب علينا كذبة واحدة.

﴿٤٥﴾-﴿٤٦﴾ ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ لقهرناه ولم يبق له قوة. ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ ﴿ٱلْوَتِينَ﴾ نياط القلب وعلائقه التي يسقط القلب بقطعها ويذهب دمه وحياته.

﴿٤٧﴾ ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ أي مانعين دافعين للقتل لأن اللّه غالب على أمره، ولأنه أظهر له المعجز وأثبت أنه رسول منه فكيف يتركه يكذب عليه سبحانه وتعالى وهو أحكم الحاكمين، بل كل ما جاء به الرسول ﷺ عن اللّه فهو من اللّه حقاً وصدقاً؛ لأنه معصوم عن الكذب اختاره اللّه للرسالة بحكمته؛ لصدقه وأمانته وكمال كفاءته وأهليته.

﴿٤٨﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي القرآن ينتفع به المتقون ويهتدون به وفي ذلك السعادة الدائمة، والمتقون: هم الذين يبعثهم الخوف من اللّه على اتقاء عذابه، بأن يطيعوه ولا يصروا على معصية، بل كلما زلوا رجعوا إلى الله.

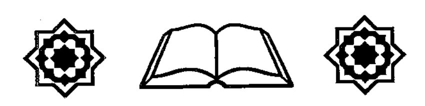
وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

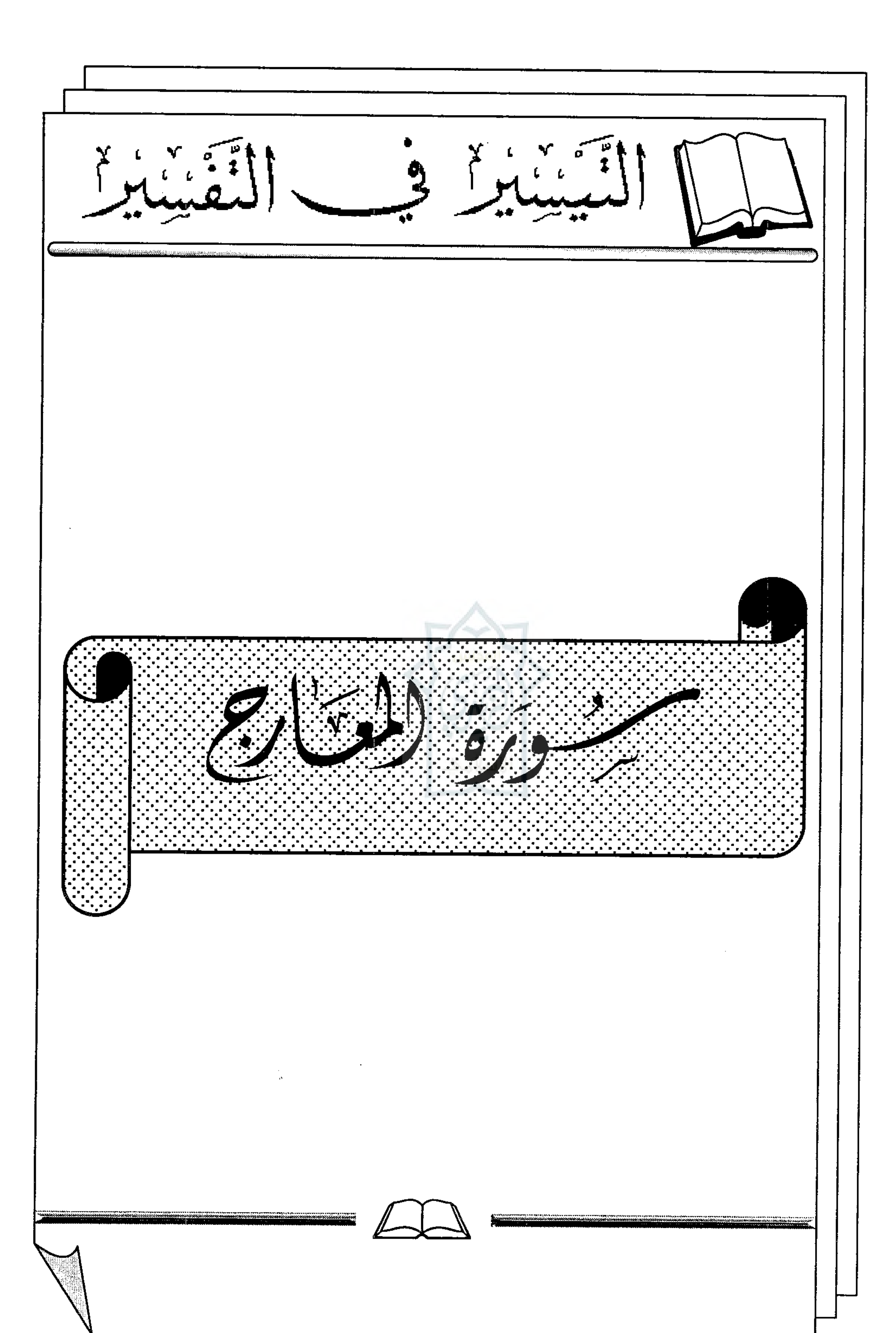
﴿٤٩﴾ ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ فليتقوا عقاب التكذيب، كقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ**﴾ [إبراهيم:٤٢] فهو تهديد للمكذبين.

﴿٥٠﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لأنه حجة عليهم وطريق سلامة لهم وسعادة لو قبلوه وآمنوا به واتبعوه، فلذلك يندمون على تفويته إذا جاء جزاؤهم على التكذيب هذا في الآخرة، فأما في الدنيا فإنهم إذا سمعوه أيقنوا انه خارق للعادة، وأنه كلام ليس من كلام البشر، وأنه حجة عليهم يهدد ما هم عليه بالبطلان والسقوط، فلذلك يكون عليهم حسرة في الدنيا.

﴿٥١﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ هذا القرآن بما فيه من الوعيد والوعد حق اليقين المتيقن المعلوم الذي لاشك فيه؛ لأنه الحق من الله أصدق القائلين.

﴿٥٢﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ سبحه عما يقول المكذبون على الله مما هو خلاف الحكمة، كقولهم: لا يبعث الله من يموت، وتكذيبهم للرسل سبحان الله عما يصفون، والتسبيح هو بذكر اسمه في التسبيح؛ ليفيد: أن المراد التسبيح بالقول، و﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ الجليل الذي لا ينبغي أن ينسب إليه ما ينافي تعظيمه.




التيسير في التفسير
سورة المعارج



سُورَةُ المَعَارِج

آياتها ٤٤ — ترتيبها ٧٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ * مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ السؤال بالعذاب: المطالبة به، وكان بعض الكافرين يطالبون بما أوعد الله به في القرآن ويستعجلون به جدالاً وتكذيباً، قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت:٥٤] وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل:٧١-٧٢] فجاء في هذه السورة ذكر حالهم عند حضور العذاب وكيف يصيرون بعد استعجالهم به وتمردهم، فأخبر سبحانه أن هذا العذاب الذي يسألونه ﴿وَاقِعٍ﴾ لا محالة ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ المكذبين بيوم الدين، المكذبين للقرآن والرسول ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ يدفعه عنهم وإن زعموا أن شركاءهم تشفع لهم فهو زعم باطل لأنه عذاب ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الغالب على أمره ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ الذي له معارج الملائكة وطرقها التي تعرج فيها بأمره.

﴿٤﴾ ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ هذا بيان للمعارج وبُعدها، وسرعة عروج الملائكة والروح فيها، فهم يصعدون في مسافة ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ في يوم واحد ومعنى ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى مصدر وحيه لهم وأوامره، قال في (الكشاف): «إلى عرشه، وحيث تهبط منه أوامره» ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ جبريل عليه السلام، واليوم المذكور: يوم منكّر لم يقل في اليوم الواحد، فالأقرب: أنه يوم القيامة.

قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ

﴿٥﴾ ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً﴾ هذا أمر من اللّه لرسوله محمد ﷺ أن يصبر على تكذيب الكفار المستعجلين للعذاب، وعلى تحمل أعباء الرسالة ﴿صَبْرًا جَمِيلاً﴾ والصبر الجميل: هو الذي يكون تحملاً قوياً، لا يصحبه تضجر ولا شكاية، أي فاصبر فالعذاب آتيهم عن قريب.

﴿٦-٨﴾ ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا * يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام: «أي يرونه باطلاً ولا يوقنون به، ومن ذلك ما تقول العرب: زعم فلان أنه يقتل فلاناً وهذا أمر بعيد منه أي لا يقدر عليه، يقول اللّه سبحانه: يرون ما يعدهم من وقوع هذا العذاب بهم محالاً لا تصح في عقولهم عندهم» انتهى باختصار.

﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ واقعاً لا محالة لاشك فيه، قال الإمام الهادي عليه السلام: «والعرب تسمي كل ما أيقنت بوقوعه قريباً» انتهى، والضمير في ﴿يَرَوْنَهُۥ﴾ ﴿وَنَرَىٰهُ﴾ الأقرب عندي ليوم كان مقداره أي ليوم القيامة، وقد وضحه بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ أو معناه: أن العذاب واقع يوم تكون السماء، والأقرب عندي الأول، قال الإمام الهادي عليه السلام: «معنى ﴿تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ فهي تذوب بعد تجسمها، وتنحل بعد عظمها حتى تعود إلى ما كانت عليه أولاً من الدخان الذي خلقت منه، والمهل فهو صفو القطران» انتهى باختصار.

وقد اختلفوا في تفسير (المهل) وذكر له (صاحب القاموس) معاني عديدة، وقال (صاحب لسان العرب) بعد ذكر بعض التفاسير للمهل: «والمهل والمهلة، ضرب من القطران ما هيّ رقيق يشبه الزيت وهو يضرب إلى الصفرة من مهاوته وهو دسيم تدهن به الإبل في الشتاء» انتهى.

يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟

﴿٩﴾ ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام: «والعهن: فهو خالص الصوف» انتهى، ولعل وجه الشبه: أن الجبال صارت بعد دكها متخلخلة متجافية كالصوف على حالته الأصلية قبل أن يغزل أو يهيأ للغزل.

﴿١٠-١٤﴾ ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ لا يسأله كما كان في الدنيا يسأله عن حاله وعن مهمات أموره، وقد مر تفسير (الحميم) والمعنى: أن كلاً مشغول بنفسه شغلاً عظيماً تنقطع به العلاقات بين ذوي الأرحام، كما بينه قوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ يرونهم بحيث يعرف القريب قريبه، فليس عدم السؤال لعدم الرؤية، بل يترك السؤال وهو يرى قريبه ويعرفه ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ يحب ويرغب ويتمنى، والمجرم: هو المسيء الظالم يود ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ﴾ يوم القيامة ﴿بِبَنِيهِ﴾ بأن يعذبوا بدلاً منه وفدية له من العذاب ﴿وَصَاحِبَتِهِۦ﴾ التي كانت قرينة حياته في الدنيا بزواج أو خلة، ﴿وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ﴾ أمه التي فصلته أي أرضعته وفصلته من الرضاع حين كبر ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ حين كانت تحضنه وتهيئ له مأواه للنوم وغيره ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كلهم ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين يفدونه كلهم في وقت واحد ويدخلون النار بدله مجتمعين على كثرتهم وبما فيهم من الأصدقاء والأصهار؛ لأنه لا يهمه إلا نجاة نفسه فهو يود لو يفتدي بالمذكورين كلهم ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ الافتداء بهم.

مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ

﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ * تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ ﴿١٥-١٨﴾ ﴿كَلَّآ﴾ زجر وردع للمجرم المتمني للافتداء، ودلالة على أنه لا تقبل منه فدية بالغة ما بلغت ﴿إِنَّهَا﴾ أي جهنم ﴿لَظَىٰ﴾ نار تلظى وتتسعر وتلتهب، أو لظى اسم علم لجهنم لأنها تتلظى وهو الأقرب ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ لفرط حرها تنزع الشوى ولا تزال تنزعه، قال الإمام الهادي عليه السلام: «والشوى: فهو الجلد، وقد قيل غير الجلد، وأحسن ما سمعنا فيه: أنه الجلد» انتهى.

﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ حريصة على من أدبر وتولى لشدة غيظها عليه ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك:٨] ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢] فكأنها تدعوه إليها، وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «وهي تنادي إليّ بأهلي» فإن كان حقيقة فظاهر، وإن كان مجازاً فهو تمثيل لقوة إعدادها وتهيئتها لأعداء الله فحيث جعلها الله كذلك فلا مطمع في الافتداء و﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ هو من أدبر عن دعوة الله في الدنيا وأعرض عنها حتى كأنه جعل الداعي خلفه ﴿وَ﴾ من ﴿تَوَلَّىٰ﴾ من انصرف عنها وذهب. وجمع فأوعى: جمع المال وبخل به، كما هو شأن من لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً كالمكذب بالدين، وهذا قاطع لأمانيهم وظنهم أن الله كما أعطاهم في الدنيا يعطيهم في الآخرة ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت:٥٠] فدل قوله تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ على ضد ما يتوهمون، هذا وفي (تفسير الإمام الهادي عليه السلام): ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ يقول: جمع الذنوب وأحصاها فأوعاها، ومعنى أوعاها فهو جمعها كلها ـ والله أعلم.

هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ

﴿١٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ فسر (الهلع): بشدة الجزع أو سرعته وسرعة المنع، وهو تفسير بما يؤدي إليه الهلع، والصواب: أنه ضعف يترتب عليه الجزع والمنع إذا لم تكن للإنسان قوة الإيمان، قال الإمام الهادي عليه السلام في (تفسيره): «﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ فهو الناس كلهم ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ يقول: طبع وفطر على الضعف والهلع وضعف البنية والجزع مما يعظم عليه ويشد أمره لديه» انتهى.

﴿٢٠﴾ ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ الجزع: ضد الصبر، فهو قول أو نحوه يبعث عليه التألم، كشق الجيب، وحلق الشعر، وخدش البشر، والصياح.. ونحو ذلك من الأفعال الاختيارية، والتروك كالإضراب عن الطعام.

﴿٢١﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ المنع: إمساك المال، والمراد حبسه عن فعل الخير، وترك إنفاقه في مرضاة الله.

﴿٢٢-٢٣﴾ ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ فإدامة الصلاة دليل على قوة الإيمان وقوي الإيمان يديم صلاته، لا يصرفه عنها مرض، ولا شغل، ولا تعب، ولا حاجة إلى النوم، فإذا كان يديم الصلاة على كل حال فهو قوي بالإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام:٩٢] وبهذه القوة يستطيع أن لا يكون ﴿جَزُوعًا﴾ ولا ﴿مَنُوعًا﴾.

﴿٢٤-٢٥﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ ﴿مَّعْلُومٌ﴾ محدود بمقداره، ومنه الزكاة بعد ما شرعت أما قبل شرعيتها بحدودها المعروفة، فهو محدود بما تستدعيه حاله وظروفه وتستدعيه حاجة السائل والمحروم، فلا يجحف بعياله ولا يضر نفسه بل ينفق العفو.

عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ

و(السائل) الذي يسأل لحاجته إلى الطعام أو نحوه ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ الذي يصبر عن السؤال مع أنه محتاج، ولذلك لا يؤبه له فيحرم للجهل بحاله، فأما السائل تكثراً مع أن عنده ما يكفيه فيوعظ ويزجر إن أصر على السؤال ويؤدب نهياً عن المنكر، هذا مع العلم بحاله، فأما لمجرد الظن فلا.. بل يعطي وعليه يحمل الحديث: «للسائل حق ولو جاء على فرس» ويحتمل: أن يعطى على كل حال، إلا أنه إذا كان غنياً أعطي قليلاً ونهي عن العودة إلى السؤال، وهذا أحوط لعموم الأدلة.

﴿٢٦﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ (يوم الدين): يوم الجزاء، وهو يوم القيامة. والتصديق به: الإقرار به عن يقين كما قال تعالى في (صفة المتقين) في (البقرة): ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [آية:٤] وقال تعالى في (صفة المؤمنين) في (سورة النمل): ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [آية:٣] وكذلك في (صفة المحسنين) في (سورة لقمان) فالتصديق بالقلب عن يقين هو الذي يفيد القوة على ترك الجزع والمنع، لأن المؤمن بالآخرة يرجو الثواب ويخاف العقاب، فأما المصدق بلسانه دون قلبه فليس المراد هنا، قال الإمام الهادي عليه السلام: «و﴿يُصَدِّقُونَ﴾ معناها: يوقنون به ويؤمنون» انتهى.

﴿٢٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ ﴿عَذَابِ رَبِّهِمْ﴾ عذاب الآخرة وعذاب الدنيا الذي ينزله الله بالمجرمين، وهذه صفة المؤمن بالآخرة يكون من خشية ربه مشفقاً، و(الإشفاق): هو ما يبعث عليه الخوف من الحذر مثلاً والتقوى وغير ذلك.

مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ

فالإشفاق أثر الخوف الذي يدل على الخوف، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون:٥٧] وقال تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الشورى:٢٢] وتفسير (الإشفاق) بالخوف من التفسير بالملزوم للتلازم بينهما، وفي (الصحاح): ((وإذا قلت أشفقت منه، فإنما تعني حذرته)).

﴿٢٨﴾ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ لأنه عذاب شديد دائم، وليس من الله ﴿دَافِعٌ﴾ ولا بد منه لمن استحقه فهو مخوف حقيق بأن يخاف، ولذلك فهم يحذرونه.

﴿٢٩-٣٠﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ لا يطلقونها فيما تشتهي ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ لا يلامون على ذلك، واللوم أن تقول لفاعل شيء أو تاركه قولاً تعيب عليه ذلك أو تنكره عليه قال: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم:٢٢] وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ كناية عن كونهم غير معاقبين على نكاح أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم.

﴿٣١﴾ ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ ﴿ٱبْتَغَىٰ﴾ طلب وأراد شيئاً ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي غير ذلك، وفي (تفسير الهادي عليه السلام): ((من ﴿ٱبْتَغَىٰ﴾ لفرجه موضعاً غير نسائه أو ما ملكت يمينه من إمائه و﴿ٱلْعَادُونَ﴾ فهم المعتدون لما جعل الله لهم إلى ما حرم عليهم)) انتهى.

والآية تعم استعمال الفرج بكل طريقة غير المذكورة، فيعم الزنا، واللواط، ونكاح اليد، والاستمتاع بالمحرمات من النساء، وبالذكور.

فأما (المتعة) فقد ذكر (صاحب الكشاف) أنها ليست من ذلك إذا صح النكاح، وقد زعم بعض الإمامية أنها زواج، والمُتَمَتَّع بها عنده زوجة، وفي ذلك نظر؛ لأن سبيل المتعة سبيل الكراء، وتسميتها زواجاً مبني على أنها إذا حلت صارت زواجاً، وهذا غير مُسَلَّم، لأنه يستلزم أن تكون الأمة زوجة؛ لأنها قد حلت لمالكها، وفي الزواج من ناحية اللغة معنى ليس مجرد الحل بل هو علاقة خاصة يحصل بها الحل، فالحل من أحكام الزواج وليس مفهومه، ولذلك لا يبطل الزواج بتحريمها لعارض كالحيض والإحرام، ومفهوم الزواج العلاقة المخصوصة معروف في الجاهلية والإسلام.

وإذا استقريت أحكام المتعة ومسائلها عند الإمامية عرفت أنها من الكراء لا من الزواج، وعمدتهم في تحليلها الروايات في حلها من حيث هي متعة.

وفي كتاب (وسائل الشيعة) [ج ٢١/ ص ١٨]: عن بكر بن محمد قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن المتعة أهي من الأربع؟ فقال: لا. وهناك عن عبيد بن زرارة عن أبيه، عن أبي عبد اللّه عليه السلام، قال: ذكرت له المتعة أهي من الأربع؟ فقال: تزوج ألفاً فإنهن مستأجَرات.

وهناك [ص ١٩ـ ٢٠]: عن ابن جريج: أنه ليس فيها وقت ولا عدد، إنما هي بمنزلة الإماء يتزوج منها ما شاء بغير ولي ولا شهود، فإذا انقضى الأجل بانت منه بغير طلاق، وهناك [ص ٢١]: عن الفضيل بن يسار أنه سأل أبا عبدالله عليه السلام عن المتعة؟ فقال: هي كبعض إمائك، وهناك [ص ٢١ـ ٢٢] عن أبي عبد الله قال ـ أي الراوي عنه ـ: قلت: جعلت فداك أهي من الأربع؟ قال: ليست من الأربع، إنما هي إجارة» انتهى.

والغرض منه بيان مفهوم المتعة عندهم، وإن كانوا قد سموها زواجاً، وفيه هناك [ص٦٠]: «عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له الرجل يتزوج المتعة وينقضي شرطها ثم يتزوجها رجل آخر حتى بانت منه، ثم يتزوجها الأول حتى بانت منه ثلاثاً، وتزوجت ثلاثة أزواج يحل للأول أن يتزوجها؟ قال: نعم كم شاء ليس هذه مثل الحرة، هذه مستأجرة وهي بمنزلة الإماء» انتهى.

(٣٢) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ الأمانات أصناف، وما أحسن كلام الهادي عليه السلام فيها حيث قال عليه السلام في تفسير هذه الآية: «والأمانات فهي صنوف، فمنها: أمانة اللّه عندهم فيما استرعاهم من حقه وقلدهم من فرضه، ومنها: ما استأمنهم اللّه عليه من أداء ما جعل في قلوب العلماء من علمه إلى من هو دونهم من خلقه، ومنها: ما استأمنهم عليه من أمواله التي قسمها بين من سمى في كتابه، فواجب على من استؤمن على شيء من أموال اللّه أن يؤديه إلى غاية الأمانة ويوفره على غاية الوفارة، ومنها: ما يستأمن الناس عليه بعضهم بعضاً من ودائعهم وأموالهم فيجب عليهم في ذلك دفعها إلى أربابها وتسليمها إلى أصحابها ومن ذلك أمانة السر الذي يسره المؤمن إلى المؤمن، فواجب عليه أن يحفظ عليه سره ولا يفشي عنه إلى غيره» انتهى.

ورعاية الأمانة: المحافظة على أدائها كما وجبت، وحفظها وتأديتها إلى أهلها، فالرعاية ضد الإهمال والإضاعة وضد الخيانة.

(٣٣) ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ القيام بها أداؤها كما علموا بدون نقص ولا تغيير ولا إخفاء قرينة حالية أو زمانية أو مكانية أو غيرها مما يفهم به المعنى، والشهادة تعم كل ما يعلم المكلف من حق لله أو للعبد فليس له أن يكتمه.

هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾

﴿٣٤﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ المحافظة عليها: العناية بحفظها لئلا تضيع أو تفوت، والحذر من فواتها عن وقتها، بدليل قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة:٢٣٨-٢٣٩] فشرع صلاة الخوف للمحافظة على الصلاة أي لئلا تؤخر عن وقتها إلى حالة الأمن وإدامة الصلاة تترتب على المحافظة عليها، فإذا حافظ العبد عليها وحفظها من الفوات عند الأسباب التي تؤدي بعض الناس إلى تركها كالمرض والتعب والحاجة إلى النوم وكثرة الشغل والخوف، فإذا حافظ عليها في الأحوال كلها أدامها، ونال الأجر العظيم بالأمرين المحافظة والإدامة، وكان بكل منهما قوياً على ترك الجزع والمنع؛ لأن ملازمة العزم عليهما تمرين للنفس على الإنقياد للحق والصبر عليه، وقوة للسيطرة على النفس بمصير ذلك عادة مستمرة.

﴿٣٥﴾ ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أهل الأعمال المذكورة يجتمع لهم نعيم الجنة وكرامتها فهم فيها ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ بما صبروا ونهوا أنفسهم عن الهوى وعملوا الصالحات.

﴿٣٦﴾ ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ في (تفسير الإمام الهادي عليه السلام): «﴿قِبَلَكَ﴾ عندك» انتهى، وفي (الصحاح): «ولي قِبَل فلان حق، أي عنده» انتهى، ومثله في (لسان العرب) وقيل في تفسيره: «نحوك» ﴿مُهْطِعِينَ﴾ في تفسيرها خلاف، قال في (لسان العرب): «هطع يهطع هطوعاً وأهطَع: أقبل على الشيء ببصره فلم يرفعه، وفي (التنزيل): ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ [إبراهيم:٤٣].

أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾

وقيل: المهطع: الذي ينظر في ذل وخشوع ـ ثم قال ـ: وأهطع أقبل مسرعاً خائفاً لا يكون إلا مع خوف، وقيل: نظر بخضوع، عن ثعلب: وقيل: مد عنقه وصوب رأسه» انتهى.

وتفسيره في هذا الموضع بالإقبال عليه بأبصارهم هو موافق لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ [القلم:٥٢].

﴿٣٧﴾ ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي عن يمينك وعن شمالك، ﴿عِزِينَ﴾ جماعات قليلات متفرقات غير مجتمعين حولك ولا متجهين لسماع قولك.

﴿٣٨-٣٩﴾ ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ يقول الهادي عليه السلام في تفسيرهما: «يقول سبحانه إعراضهم عن الحق واستغناؤهم عن الصدق إعراض من قد أمِن العذاب وأيقن بالثواب وصح عنده أنه يدخل جنة نعيم، فهو واثق بذلك طامع أن يكون كذلك، فهو معرض عما يدعا إليه لإيقانه بما يصير من الخير إليه» انتهى.

﴿كَلَّآ﴾ زجر وردع عن هذا الطمع ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ من الماء المهين، فهم أحقر من أن يدخلوا الجنة أو يكونوا أهلاً لها، وإن استكبروا في أنفسهم وظنوا أنهم أهل للكرامة من الله.

﴿٤٠﴾ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام: «يريد أفلا أقسم، فطرح الألف وهو يريدها» انتهى.

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

و(رب المشارق): رب مشارق الشمس الذي سخر الشمس لتطلع منها في الشتاء والصيف في أوقات محدودة على نظام محكم لا يتغير، فهي من أوضح الدلائل على قدرته تعالى وعلمه، وكذلك المغارب التي تغيب الشمس منها، فأقسم ـ جلَّ جلاله ـ بنفسه قسماً صادقاً مقروناً بالحجة الواضحة إنه لقادر.

﴿٤١﴾ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ﴾ أي على أن نهلكهم ونبدل ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ قوماً يقبلون الحق ويؤمنون ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ لا يفوتنا أحد من هؤلاء الكافرين الحاضرين حول الرسول وهم مصرون على كفرهم.

﴿٤٢﴾ ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ اترك هؤلاء الذين كفروا وشأنهم الذي هم فيه ﴿يَخُوضُوا۟﴾ في الكلام الباطل ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ باتباع أهوائهم في غير طائل، فهو أشبه باللعب أو يلعبوا حقيقة فذرهم ﴿حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟﴾ يوم جزائهم، فالترك هذا ليس إهمالاً لهم وإنما هو إمهال حتى يلاقوا ﴿يَوْمَهُمُ﴾ وأضيف إليهم لما يلقون فيه من العذاب، وبينه بقوله: ﴿ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ لأنه اليوم الذي يوعدونه على لسان الرسول فيكذبون به ويستعجلون به فيقولون: ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [يونس:٤٨].

﴿٤٣﴾ ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ من القبور ﴿سِرَاعًا﴾ إلى الداعي منقادين

مستسلمين أذلاء صاغرين، فهم مسرعون لا يتثاقلون مع أنهم دعو لفصل القضاء وعدل الجزاء ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ ﴿يُوفِضُونَ﴾ يسرعون، أي كأنهم في إسراع الرهبة مسرعين إسراع رغبتهم.

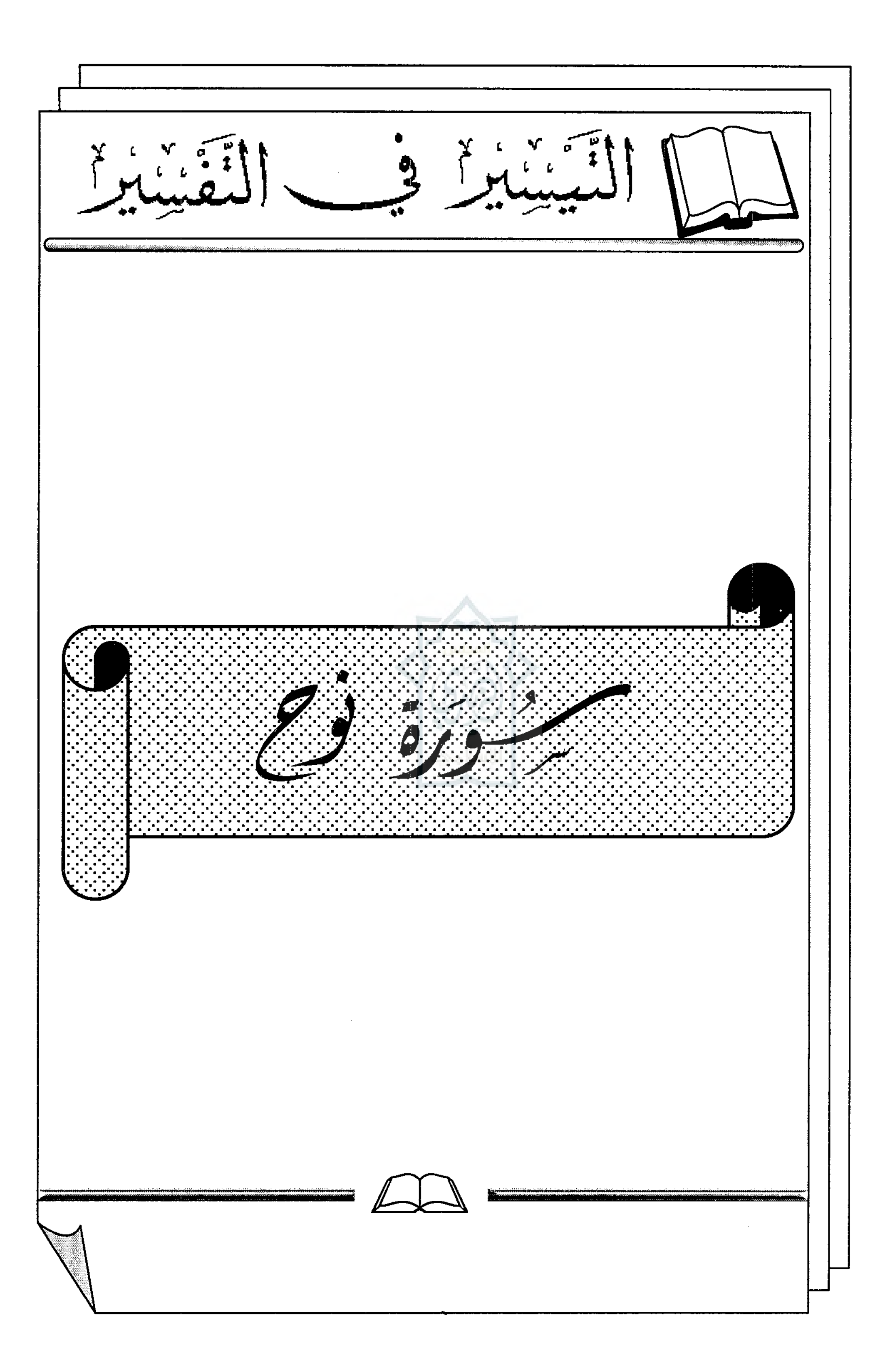
وقراءة نافع: ﴿نَصْبٍ﴾ بفتح النون وسكون الصاد، وفسره الإمام الهادي عليه السلام ولفظه: «والنصب: فهو شيء من الشعر تقوله العرب تطرب فيه أصواتها، وترفع به كلامها، وتمد حروفه وتطرب..» إلخ.

وفي (الصحاح): «وغناء النصب ضرب من الألحان..» إلخ، ومثله في (لسان العرب) وفيه بسط في تفسير (النصب) بهذا وما يوافقه أو يقاربه، وعلى قراءة ﴿نُصُبٍ﴾ بضمتين يكون معناه: ما كان المشركون ينصبونه من الحجارة ليعبدوه.

(٤٤) ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام: «معنى ﴿خَٰشِعَةً﴾ أي منكسرة غير مسرورة ولا منفتحة، قد خشعت أبصارهم لهول ما رأت عيونهم، وخشوع البصر: فهو شيء ينزل بالبصر عند انحلال القوى وضعف النفس وذهاب القوة والإيقان بالبلية» انتهى المراد.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ يتبين فيه لهم صدق الوعد وخسارتهم بكفرهم به في الدنيا واستعجالهم به فيندمون حين لا ينفع الندم، كما مر في أول السورة.




التيسير في التفسير
سورة نوح



سُورَةُ نُوحٍ

مكية — آياتها ٢٨ — ترتيبها ٧١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا﴾ تدل بما تفيده من العظمة والجلال على الحكمة في الرسالة، وعلى كرامة الرسول واستحقاقه للتأييد والنصر، وفي قصة نوح وقومه إنذار للكفار الذين كفروا بمحمد وعبرة لهم ليحذروا، وفيها تسلية لرسول الله ﷺ ليصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل، ويرجو النصر في العاقبة وإن طالت عليه المحنة.

وفي القصة مع تفصيلها الكامل دلالة على نبوته ﷺ بالنسبة إلى أهل الكتاب الذين يعلمون أنها الصدق، وإنذار قوم نوح المراد به: إنذارهم ليتقوا العذاب، وذلك بطاعة الرسول واتباعه والخروج من الشرك، وإذا لم يتقوا فقد حصل إبلاغ الحجة وقطع المعذرة.

وترتيب الكلام يفيد: أن هذا هو مقصود الإنذار أن يكون قبل إتيان العذاب لأنهم مستحقون للعذاب بشركهم، ولكن اقتضت الحكمة تقديم الإنذار، فكأنه غير متوقع منهم أن يؤمنوا ويتقوا، ولكن المقصود تقديم الإنذار قبل تعذيبهم، والعذاب الأليم الشديد فهو أليم من حيث هو عذاب ووصفه بأنه أليم يفيد شدته وزيادة ألمه.

﴿٢﴾ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ امتثل أمر ربه والمبين بيّن الإنذار لإتيانه بالحجة الدالة على صدقه في إنذاره.

وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي

﴿٣﴾ ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ تفسير لفائدة إنذاره لهم وطريق سلامتهم مما ينذرهم إن أرادوا السلامة، وذلك أن يعبدوا اللّه عبادة يقبلها وهي عبادته وحده، ولهذا ورد الأمر بها معللة في قوله: ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٥٩] فكان هذا التعليل يفيد أن المراد العبادة الخالصة لله تعالى، وقوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ بمعنى افعلوا ما يقيكم من عذابه من طاعة اللّه، ثم قال: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ ليطيعوه في التعاليم الدينية المفصلة، وفي اجتناب ما ينهاهم عنه، وفعل ما يأمرهم به ليهتدوا.

﴿٤﴾ ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فهذه فائدة عاجلة أن يغفر لهم ما قد مضى من أسباب العذاب العاجل من الشرك وغيره فيكف عنهم العذاب العاجل، وهذه مغفرة قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨] ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي أجل معين في الواقع فحقق هذه المغفرة العاجلة إبقاءَهم في الحياة الدنيا حتى الأجل المسمى.

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي موعد الهلاك الذي جعله اللّه أجلاً لهلاكهم ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ لأن الله ﴿غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف:٢١] ولا ينفع عنده الإيمان الذي لم يكن إلا عند معاينة العذاب ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فتبادرون بالطاعة قبل نزول العذاب، ولعل أصل المعنى: لو كنتم تعلمون لبادرتم، أو لعلمتم أنه ينبغي لكم أن تبادروا بالتوبة والطاعة.

لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ

﴿٥-٦﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا﴾ في هذا بيان جوابهم وبيان الشكاية منهم أي دعوت قومي إلى الله وإلى ترك الشرك وطاعة الله ورسوله، وفي الآية دلالة على شدة عنادهم، حيث جعلوا دعاءه لهم سبباً للفرار من الطاعة.

﴿٧﴾ ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ هذه الشكايات المصدرة بقوله: ﴿إِنِّي﴾ هي شكاية حاله عليه السلام لالتماس الفرج، أو للتعبير عن كونه مغلوباً بأنه قد عمل ما استطاع ولم ينفع، وقوله: ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي دعوتهم إلى طاعتك لتغفر لهم أي ليطيعوك ليعبدوك ويتقوك فتغفر لهم فحذف الوسائط ليفيد أن الغرض المغفرة وسلامتهم من العذاب.

وقوله: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ يعني: أنهم سدوا آذانهم بأصابعهم لئلا يسمعوا دعاءه ونصائحه ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ لئلا يروه ولا يراهم كاشفين احتجاباً عن كلامه ومحادثته.

وقوله: ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ أي على ما هم فيه من الشرك وغيره، وقوله: ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ يدل على أن لديهم ما يمنعهم من الانقياد فلا يرجى منهم وهو استكبارهم في أنفسهم الاستكبار المحقق.

﴿٨﴾ ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ دعاء بصوت رفيع ظاهر بين الناس.

إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟

﴿٩﴾ ﴿ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ الإعلان بالشيء ضد إخفائه وإسراره، والإسرار لقومه: أن يخص كل طائفة فيكلمها وحدها لئلا تأنف من المجاهرة علانية.

﴿١٠-١١﴾ ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أي ﴿فَقُلْتُ﴾ لقومي ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي اطلبوه أن يغفر لكم ذنوبكم، والمقصود الطلب الذي ينفع وهو دعاؤهم بعد خروجهم من الشرك والكفر والإصرار على الذنوب ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ قد مضت سنته واستمرت عادته أن يغفر الذنوب لكثير من الناس إذا تابوا من ذنوب كثيرة ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ ينزل لكم ماء السماء أي المطر، والسماء هنا بمعنى: السحاب المبسوط في السماء، وإرساله: إرسال مائه، و﴿مِّدْرَارًا﴾ كثير الدرور، وفي هذا دلالة على أن التوبة سبب للخير العاجل، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

﴿١٢﴾ ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ (الأموال) مثل: الذهب والفضة، وسائر ما يملك، و(البنين): الذكور من الأولاد.

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ وهذا تفصيل لبعض الأموال للترغيب و(الجنات): البساتين كثيرة الأشجار من الفواكه والزروع الكثيفة، والمراد بالأنهار: مجاري الماء التي يجري فيها الماء ليسقي الجنات.

كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا

﴿١٣﴾ ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ في (تفسير الإمام الهادي عليه السلام) «ومعنى ﴿وَقَارًا﴾ فهو إعزازاً وإكباراً وإجلالاً وإعظاماً» يريد عليه السلام: مالكم لا توقرون الله وتجلونه وتقدسونه وتنزهونه عما تقولون فيه وتنسبون من الكذب إليه» انتهى.

﴿١٤﴾ ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ خلقاً من بعد خلق: ماء، ثم علقة، ثم مضغة ثم عظاماً..إلخ، وهذا من دلائل قدرته وعلمه.

﴿١٥﴾ ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ والطباق: الطبقات المتطابقة طبقة فوق طبقة.

﴿١٦﴾ ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ فالقمر تنير في ظلمة الليل دون أن تبطلها فتفوت مصلحة الظلمة، والشمس تأتي بالنهار الذي فيه السعي للمعاش والحاجات والحركات الدنيوية.

﴿١٧-١٨﴾ ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بخلق أبيكم آدم منها ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ في الأرض عند الموت ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ من الأرض ﴿إِخْرَاجًا﴾ يوم القيامة.

﴿١٩﴾ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ فراشاً، مهّدها لكم وهيأها لمنافعكم في حركاتكم للمعاش وأسفاركم، فلو لم تكن مبسوطة لتعسر المشي عليها.

سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ

﴿٢٠﴾ ﴿لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ ﴿لِّتَسْلُكُوا﴾ لتسيروا فيها ﴿سُبُلًا﴾ من الأرض ﴿فِجَاجًا﴾ واسعة.

قال الإمام الهادي عليه السلام: «لأن الفج: هو الشعب العظيم من الأرض والجانب الواسع الذي يكون بين الجبال، فسمى ذلك فجاجاً» انتهى.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء:٣١] فقد ذكّرهم نوح عليه السلام آيات اللّه في أنفسهم، وفي السموات، وفي الشمس والقمر، وذكرهم خلق أبيهم من الأرض، وكونها لهم كفاتاً إذا ماتوا، وأنهم سيخرجون منها للجزاء، وذكرهم صنع اللّه ونعمته لهم في جعل الأرض بساطاً لتسهيل سيرهم في فجاجها، وهذه الجملة تذكرهم بتدبير اللّه لمعاشهم في هذه الحياة، وتدلهم أنه ربهم الذي خلقهم ورزقهم، وتذكرهم بحكمته في إحيائهم وإماتتهم، وهي أنه سيخرجهم من الأرض للحياة الآخرة، فمالهم آيسين من عظمته التي من حقها أن يعاملهم بفضله ورحمته وبعدله وحكمته.

فكأنه يقول لهم: مالكم تعبدون غيره ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦] وهو الذي خلقه ودبر له ما يحتاجه في معاشه من بسط الأرض له وإضاءتها في النهار وهو الذي دلهم على قدرته بما خلق من آياتها وآيات السموات فهم في إعراضهم عنه وعدولهم إلى عبادة غيره كأنهم لا يعقلون فهم لا يرجون عظمته وفضله ورحمته وعدله وحكمته، بل أيسوا منه وعدلوا إلى غيره لغير سبب ولا برهان كأنهم لا يعقلون.

وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ

﴿٢١﴾ ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ انتهى فيما قبل هذه الآية بيان قيام الرسول بواجبه ومبالغته في النصح والإرشاد، وبيان الآيات البينات، وابتدأ الكلام في المرسل إليهم والتقديم للدعاء عليهم.

وقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ يفيد: أنهم اتبعوا أهل المال والولد، كما هو شأن أهل الجهل أن يعظموا الأغنياء ويتبعوهم والواقع أنه لم يزدهم مالهم وولدهم ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن:١٥] فمالهم أطغاهم، وولدهم زادهم حباً للدنيا، وحرصاً على المال وبذلك ازدادوا بعداً عن اتباع الرسول وتوغلاً في التمرد الذي عاقبته الخسار، وهذا جهل على جهل أن عصوا رسولهم الذي جاءهم بالبينات، وأضافوا إلى ذلك اتباع الطغاة الخاسرين الذين يخسر من اتبعهم كما خسروا، ومع ذلك أنهم اتبعوهم بلا بينة، فتركوا اتباع الحق المصحوب بالبرهان، وعدلوا إلى الباطل بلا برهان، وإنما هو اتباع الهوى.

﴿٢٢﴾ ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ مع أنهم عصوه كادوه وكادوا من يتبعه محاربة لدينه ومحاولة لإبطال أمره، و(الكبار): العظيم، قال في (الكشاف): «والكبار أكبر من الكبير، والكبّار أكبر من الكبَار» انتهى.

﴿٢٣﴾ ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ أي قال بعضهم لبعض: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ أي اثبتوا على الشرك ولا تطيعوا نوحاً، أي لا تتركوا آلهتكم.

تَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا

ولا تتركوا ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام: «فهؤلاء كلها أصنام كانت تعبد من دون الله، فأما (سواع) و(يغوث) و(يعوق) و(نسرٌ) فكانت باليمن، وأما (ودٌّ) فكان بدومة الجندل، وأما (سواع) فكان بـ(جوف همدان) وأما (يعوق) فكان بخيوان، وأما (يغوث) فكان في حمير، وأما (نسر) فكان في مراد من مذحج» انتهى. ومعنى هذا: أن تلك الأصنام التي كانت لقوم نوح صارت للمشركين من ذريته.

﴿٢٤﴾ ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ هذا تمام الشكاية من قومه، وحاصلها: إني مغلوب، وكلامه الذي يأتي طلب أن ينتصر الله لنفسه ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ وهذا دعاؤه عليهم حين أيس منهم واشتد غضبه لله عليهم دعا عليهم أن لا يزيدهم الله إلا ضلالاً ليزدادوا إثماً وعذاباً، وزيادة الإضلال بإرسال الشياطين عليهم وخذلانهم، ونحو ذلك كبسط النعمة وغيره مما لا ينافي العدل والحكمة.

﴿٢٥﴾ ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ﴾ أي من أجل خطيئاتهم أغرقوا، وهو ذلك الغرق العام الذي أهلكهم ولم ينج منه إلا من آمن ﴿فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام: «أي صيّروا إلى النار، وجعلت لهم موضعاً وقراراً» انتهى، قال (صاحب الكشاف): «جعل دخولهم النار في الآخرة، كأنه متعقب لإغراقهم لاقترابه، ولأنه كائن لا محالة فكأنه قد كان» انتهى.

﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ يدفعون عنهم عذاب الله، لا آلهتهم التي يدعون من دون الله، ولا غيرها.

فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

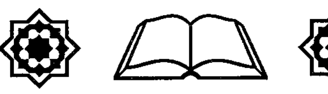
﴿٢٦﴾ ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ هذا عطف على كلام نوح السابق، وتخلل ذكر إهلاك قومه، ولعل الحكمة فيه: إفادة أن إهلاكهم بسبب خطيئاتهم لا لمجرد دعاء نوح عليه السلام و﴿دَيَّارًا﴾ بمعنى أحداً، فلا تذر أحداً منهم، أي لا تترك أحداً منهم بل أهلكهم كلهم، قال الإمام الهادي عليه السلام: «لأن ﴿دَيَّارًا﴾ مشتقة من يدور، ومعنى يدور فهو يجول في الأرض» انتهى، ثم ذكر نوح عليه السلام الغرض بدعوته على قومه، فقال:

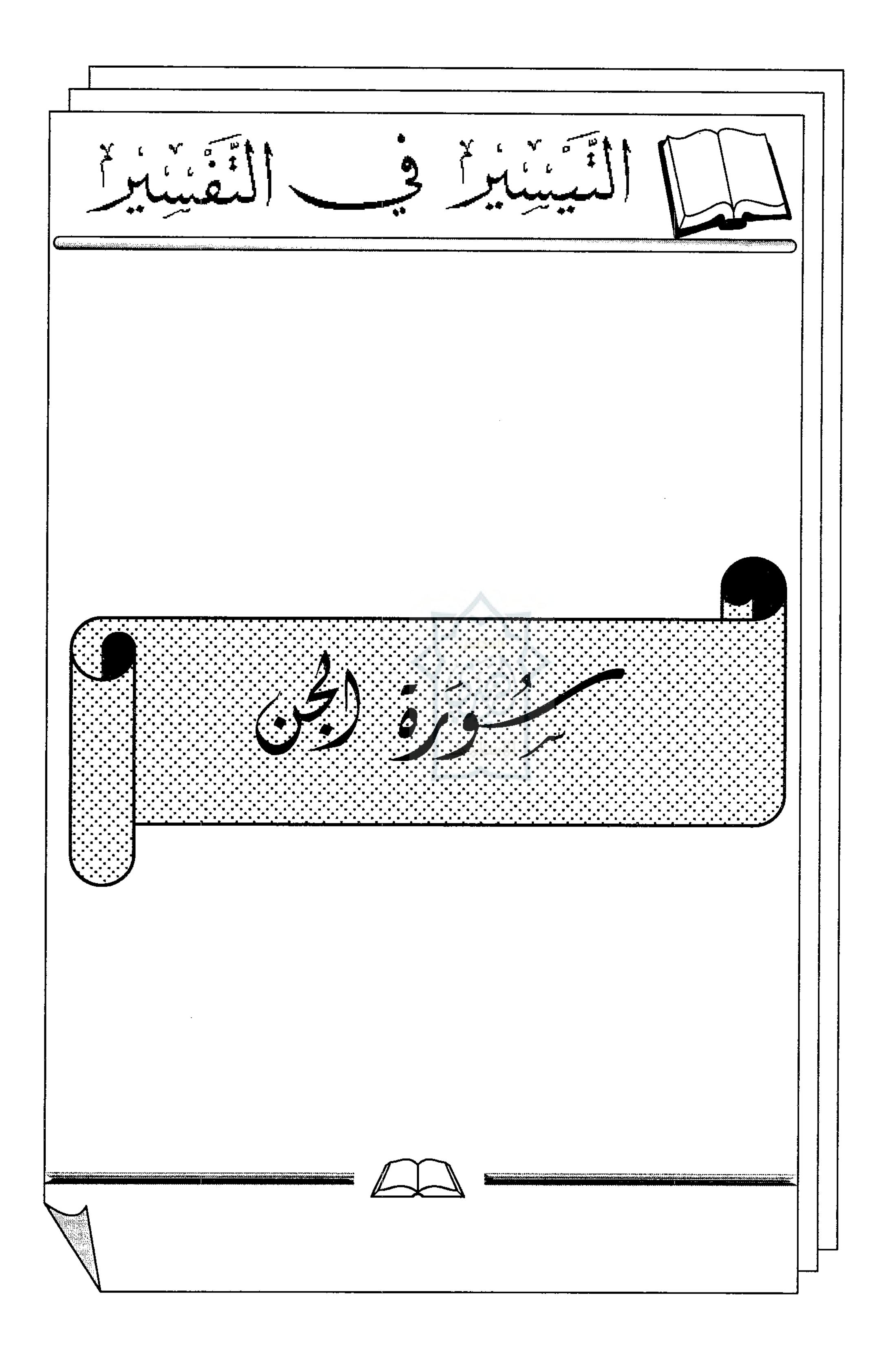
﴿٢٧﴾ ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ فبين أن دعاءه عليهم لئلا يفسدوا العباد ويتوارثوا الفساد، فالباعث على الدعاء الحرص على أن يطاع اللّه فلا يعصى، والغضب لله لا لنفسه، قال في (الكشاف): «فإن قلت: بم علم أن أولادهم يكفرون؟ وكيف وصفهم بالكفر عند الولادة؟ قلت: لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فذاقهم وأكلهم وعرف طباعهم وأحوالهم، وكان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه ويقول: إحذر هذا فإنه كذاب وإن أبي حذّرنيه، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك، وقد أخبره اللّه ـ عزَّ وجل ـ: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود:٣٦]» انتهى، والفاجر: هو الذي يفعل القبيح من الظلم والفواحش والإثم وهذا ضد البر، والكفّار: كثير الكفر، إما الجحود، وإما كفر النعمة، أو المعنيان معاً.

﴿٢٨﴾ ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ (من دخل بيتي مؤمناً): خصهم لاختصاصهم به، ثم

عم المؤمنين، ويحتمل أن قوله: (من دخل) أراد به من دخل في الماضي ومن سيدخل مؤمناً متى دخل مؤمناً، لأن هذا الموصول يستعمل مع صلته للمستقبل، مثل: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ [البقرة:١٢٦] ومثل: ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ..﴾ [مريم:٦٠] فمعناه: طلب المغفرة لمن آمن في المستقبل متى آمن ولمن قد آمن معه.

ولعله ذكر البيت لأن من دخل البيت ﴿مُؤْمِنًا﴾ يكون قد أرغم الكفار الذين يغضبون من دخوله بيت نوح، ويكون ذلك دليلاً على صدق إيمانه، وقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّالِمِينَ﴾ علّق الدعاء على الظلم؛ لأن الكفر والشرك وكل المعاصي ظلم؛ لأنها حيف وجور ضد العدل، فهي سبب استحقاقهم للعذاب، و(التبار): البوار والذهاب والفناء، والمراد: أن يزيدهم عذاباً.


التيسير في التفسير
سورة الجن



سُورَةُ الجِنّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ

---

(١) ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي أوحى اللّه إلي ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾ القراءة ﴿نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ جماعة من الجن، قال في (الكشاف): «ما بين الثلاثة إلى العشرة» ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ خارقاً في حسن نظمه وإحكامه، مخالفاً في ذلك للمعهود المألوف من الكلام، فلذلك كان عجيباً بليغاً في ذلك، وهو (القرآن الكريم).

(٢) ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ يدل على الرشد، أي على الصواب والخير ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ صدقنا بأنه كلام اللّه وأنه الحق وأذعنا له وقبلناه ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ لأن ذلك مقتضى الإيمان به؛ لأنه ينهى عن الشرك ويتوعد عليه، فلن نجعل لربنا شريكاً في الملك أو في الربوبية أو في استحقاق العبادة، ولذلك فلن نجعل له صاحبة ولا ولداً، ولا شركاء يشفعون لمعنى أنهم شركاء في الملك.

(٣) ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ ﴿تَعَالَى﴾ علا شأنه وعظم وجل، قال الإمام الهادي: «ومعنى ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي أمر ربنا وفعله، يقول: تعالى أمره وعظم شأنه» انتهى، وفي (الكشاف): «﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ عظمته، من قولك: جد فلان في عيني» انتهى، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: علا ملك ربنا وسلطانه، ويقال: جلال ربنا، ويقال: غنى ربنا، ويقال: عظمة ربنا، ويقال: أمر ربنا، ويقال: ذكر ربنا» انتهى.

شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ

وتفسيره بالملك والسلطان أو بما يفيده هو أظهر؛ لترتيب قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ ليفيد: أن كل من في السماوات والأرض عبيد لله مملوكون، ولو كان بعضهم صاحبة أو ولداً ما كان عبداً، وذلك نقص من الملك وملكه أجل وأعلا من أن ينقص أو أن يشاركه فيه صاحبة أو ولد، قال الإمام الهادي عليه السلام: ((ومعنى ﴿صَٰحِبَةً﴾ فهي الزوجة التي يسكن الزوج إليها وينتفع في كل الحالات بها)) انتهى.

وقوله: ﴿وَلَا وَلَدًا﴾ تنزيه لله سبحانه عن التبني لولد؛ لأنه غني، وليس الكلام خاصاً بنفي الولد، فهو سبحانه منزه عن أن يكون له بأي طريقة لا بالولادة ولا بالتبني المذكور، مثله في قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [يوسف:٢١].

﴿٤﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام: ((ومعنى ﴿كَانَ يَقُولُ﴾ أي لم يزل سفيهنا)) انتهى، وقوله: ﴿سَفِيهُنَا﴾ ذم لمن أهمل عقله وصار ضعيف العقل أو ناقص العقل لذلك، والمراد: السفيه منا أي الكافر، وهو عام لكل سفيه منهم، أو أرادوا إبليس ـ نعوذ بالله منه ـ وأنه ابتدأ القول الشطط فاتبعه غيره.

﴿٥﴾ ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ في الماضي قبل أن نسمع القرآن ﴿أَن لَّن تَقُولَ﴾ شياطين الجن ومن تبعهم من الإنس قولاً ﴿كَذِبًا﴾ يجمعون عليه، غفلوا عن عمل الشياطين وسعيهم في إضلال الإنس والجن، فاستبعدوا أن يتفق الفريقان على كذب، فصدقوهم ـ قبل سماع القرآن ـ في إثبات الشركاء لله تعالى أو الصاحبة والولد.

ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى

﴿٦﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ﴾ يستجيرون برجال، قال الإمام الهادي عليه السلام: «كانوا إذا نزلوا وادياً أو فضاء من الأرض في مجمعة أو سفر، قالوا عند وقت نزولهم وحطهم لرحالهم: إنا نعوذ بكبرا أهل هذا الوادي وسكانه من الجن من شر شرارهم فكانوا كذلك، فيعوذون بالجن ويتركون التعوذ بالله» انتهى ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ أي الجن زادوا الإنس ﴿رَهَقًا﴾ أي ضراً وإثماً؛ لأنهم يخوفونهم ليزدادوا لجوءاً إليهم وبعداً من التوكل وقرباً من الشرك بالذبح لهم ودعوة الناس إلى العياذ بهم.

﴿٧﴾ ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ وقالوا: إن الكفار من الإنس ﴿ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ أي المخاطبون من الجن قومهم الذين رجعوا إليهم بعد سماع القرآن ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ من قبره لحشره وجزائه ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل:٣٨] فاتفق الفريقان على القول الشطط، إثبات الولد لله ـ سبحانه ـ ونفي البعث.

﴿٨﴾ ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ أي مسسناها لنسمع ما كنا نسمع من قبل فوجدنا السماء ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾ أي قوياً يحرس السماء من الشياطين ليدفعوهم عن استماع الملائكة ﴿وَشُهُبًا﴾ نجماً مشتعلة ملتهبة يرمي الشياطين بلهبها.

﴿٩﴾ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ ﴿وَأَنَّا كُنَّا﴾ قبل بعث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ﴿نَقْعُدُ﴾ في ﴿مَقَـٰعِدَ﴾ من

ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ

السماء لنسمع ما تقوله الملائكة، فقد اختلف الحال فمن يلمس السماء ويستمع ﴿يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا﴾ معداً ليرمى به عند وصوله قبل أن يقعد فلا يتمكن من أن يقعد للاستماع، ولا ينافي هذا أن الشهب كانت ترمى من قبل؛ لأن ذلك لم يكن مستمراً كما صار الآن، فلم يكن مانعاً من القعود للسمع في كل حال كما هو الآن، أما الآن فلا يمكن الاستماع ﴿**إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ**﴾ [الصافات:١٠].

﴿١٠﴾ ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ﴿لَا نَدْرِيٓ﴾ أراد اللّه شراً ﴿بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بتشديد الحراسة والرمي بالشهب ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ بذلك، أو أنا لا ندري بسبب أنا لا نسمع ما تخبر به الملائكة من أمر اللّه وما يريد أن يقضي في أهل الأرض، وكنا قبل تشديد الحراسة ندري ببعض ما يكون بأهل الأرض لسهولة الاستماع، فالآن تعسر الاستماع فلا ندري ما يكون، قال الإمام الهادي عليه السلام: «والشر فهو العذاب والبلاء والرشد فهو الخير والرحمة» انتهى.

﴿١١﴾ ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي غير صالحين، كأنهم اعتبروا الصلاح درجة رفيعة يقصر دونها من لم يصلح ﴿طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ ألواناً مختلفة، مثل: مؤمن، ومنافق، وفاسق، وكافر، ممزقين قطعاً ومختلفين فرقاً.

﴿١٢﴾ ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ الأقرب في معنى ﴿ظَنَنَّآ﴾ أنه مثل معنى: ﴿**إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ**﴾ [الحاقة:٢٠] إما بمعنى

بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ

الخوف، وإما بمعنى اليقين الاستدلالي ﴿لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لو أراد أن يعذبنا لما أنجانا كوننا في الأرض إما في بطنها أو ظهرها ﴿وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا﴾ لو هربنا في الفضاء، ولعلهم قالوا هذا احتراساً بعد قولهم: ﴿**فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا**﴾ وقولهم: ﴿**لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ**﴾ حيث يفهم من ذلك أنهم قد صاروا يتقون مقاعد السمع خوفاً من الشهب، لئلا يوهم أنهم يعتقدون أنهم إذا نجوا من الشهب فقد أمنوا أن يصيبهم اللّه بعذاب، أو فقد فاتوا اللّه ـ عزَّ وجل.

﴿١٣﴾ ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا﴾ ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ أي لما سمعنا هدى القرآن الذي يهدي إلى الرشد ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ والإيمان بالهدى الذي في القرآن إيمان بالله ورسوله واليوم الآخر وغير ذلك.

﴿فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا﴾ أي أنه يأمن النقص من ثوابه ولا يخاف رهقاً مما يرهق أهل النار ﴿**تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ**﴾ [عبس:٤١] ﴿**وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ**﴾ [يونس:٢٧] وقال الإمام الهادي عليه السلام: ((يريد ولا يخاف من اللّه إرهاقاً بعذاب ولا حكماً عليه بإثم في شيء من الأسباب)) انتهى، فكأنه عليه السلام أراد (تقدير مضاف) أي: ولا يخاف عقاب رهق، أي عقاب ذنب يغشاه.

﴿١٤﴾ ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا﴾ ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ﴾ منا المسلمون وجوههم لله الذين يعبدونه ولا يعبدون غيره، ومنا القاسطون: الجائرون بالشرك.

ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ قال في (الصحاح): ((وإذا قلت: هو حر ـ بكسر الراء ـ وحريٌّ على فعيل ثنيت وجمعت.. إلى أن قال: ومنه اشتق التحري في الأشياء ونحوها وهو طلب ما هو أحرى بالاستعمال في غالب الظن)) انتهى، وقال في (الصحاح) أيضاً: ((ويقال: هو حري أن أفعل ـ بالفتح ـ أي خليق وجدير)) انتهى.

وفي الحديث: ((تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان)) رواه أبوطالب في (الأمالي) [ص٢٧٧] في (الباب الرابع والعشرين) فالتحري: طلب الأحرى عند الطالب أن يكون هو الصواب.

فمعنى ﴿تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ طلبوا لأنفسهم ما هو أحرى أن يكون هدى وخيراً، وفيه إشارة إلى أنهم نظروا ليعرفوا الصواب.

﴿١٥﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ ﴿ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ الجائرون، ولعلهم أرادوا المشركين لمقابلة من أسلم، فسموا الشرك قسطاً لأنه حيف وجور خلاف العدل والإنصاف، كقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] وقولهم: ﴿حَطَبًا﴾ معناه: أنها تشتعل بهم كما تشتعل النار بالحطب.

﴿١٦﴾ ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ ﴿وَ﴾ أوحي إليَّ ﴿أَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام: ((يعني بالاستقامة: استقامة بني آدم، يقول سبحانه: لو استقاموا على الطاعة لنا، والطريقة: هي الأمر الذي افترضه الله عليهم)) انتهى المراد.

تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ

قلت: جعل الضمير لبني آدم، ولعله رجح ذلك لأن بني آدم هم الذين قد ظهر انتفاعهم بالماء للشرب وإحياء الأرض لتنبت الزرع الذي تأكل منه أنعامهم وأنفسهم والمرعى لأنعامهم وغير ذلك من المأكولات للبشر والحيوان غير الجن و(الماء الغدق): الكثير.

﴿١٧﴾ ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنبتليهم أيشكرون أم يكفرون، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥] ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ الذكر إما بالقلب واللسان كما هو شأن أهل الإيمان، وهو إضافة المصدر إلى مفعوله، وإما القرآن أي الذكر الذي أنزله كما في (سورة طه): ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ [آية:٩٩-١٠٠] ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ [طه:١٢٤-١٢٦] وهذا المعنى مناسب لأول السورة، ومعنى ﴿نَسْلُكْهُ﴾ ندخله عذاباً هو عذاب جهنم، بدليل قوله: ﴿نَسْلُكْهُ﴾ والضمير عائد إلى من يعرض، ووصف العذاب بأنه صعد لأنه لهب يعلوه، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ﴾ [الزمر:١٦] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [العنكبوت:٥٥] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر:٧٢] وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف:٤١].

﴿١٨﴾ ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ ﴿وَ﴾ أوحي إلي ﴿أَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ المساجد جعلت لعبادة الله وجعلت له،

فهي له بهذا المعنى، وله كل شيء، ولكن المساجد خالصة لعبادة اللّه فأضيفت إليه هنا، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [البقرة:١١٤].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ يعم الشرك بالدعاء في المساجد وفي غيرها ولكنه فيها أقبح ولما كان المشركون يشركون في المسجد الحرام وفي البيع والكنائس نهانا ونهاهم عن ذلك.

(١٩) ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام: «يقول: إن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لَمَّا قَامَ﴾ يدعو اللّه ويوحده كاد مشركوا قريش أن يكونوا عليه لبداً، ومعنى ﴿كَادُوا﴾ أرادوا وهمّوا ولم يفعلوا إذ لم يقدروا و﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي فهم يغشونه جميعاً معاً حتى يقعوا بأنفسهم عليه ويبلغوا ما أمّلوا فيه من الهلكة» انتهى.

و﴿لِبَدًا﴾ معناه: مجتمعاً متصلاً بعضه ببعض أو متزاحماً أو متراكماً، و(لبَد) جمع (لِبْدة) بكسر اللام وسكون الباء ـ وفي (لسان العرب) عن الأزهري: «ومعنى لبَدا: يركب بعضهم بعضاً، وكل شيء ألصقته بشيء إلصاقاً شديداً فقد لبَّدتَه، ومن هذا اشتقاق اللبود التي تفرش» انتهى.

وفيه: «وتلبد الشعر والصوف والوبر: تداخل ولزق وكل شعر أو صوف ملتبد بعضه على بعض فهو لِبْد ولِبْدة والجمع: ألباد ولبود على توهم طرح (الهاء)» انتهى.

وحاصل المعنى: أنه لما قام رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم الذي هو عبد لله وحق العبودية أن يعبد ربه المالك له المنعم عليه غضب الكفار وأقبلوا عليه منكرين لدعائه ربه لإخلاصه له ورفضه للشرك الذي هو دينهم.

لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ

﴿٢٠﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ ﴿قَالَ﴾ في قراءة، و﴿قُلْ﴾ في قراءة، فأما الأمر فمعناه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين غضبوا من قيامك داعياً لربك ﴿إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى﴾ أي أدعوه ولا أدعو غيره ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ ولا بد أنه ﷺ قد امتثل وقال كما أمر، وهو مصداق ﴿قَالَ﴾ الذي في (قراءة نافع)، وفي قوله: ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ يدخل فيه أنه لا يطيعهم، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١] وحاصل الجواب: المصارحة بأنه يخلص الدعاء لله ويرفض الشرك، ولعل هذا كان من أول أعمال الرسالة.

﴿٢١﴾ ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ لعله أمر بهذا القول لبيان: أنه لا يدّعي ذلك، كقوله: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ [الأنعام:٥٠].

﴿٢٢﴾ ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ وهذا جواب عنهم آخر أو جزء من الجواب، ومعناه: أني لا أتحول عن ديني ولا أطيعكم لأني لو عصيت ربي عذبني؛ لأنه ﴿لَن يُجِيرَنِى﴾ منه يوم القيامة ﴿أَحَدٌ﴾ من شركائكم ولا غيرهم ﴿وَلَنْ أَجِدَ﴾ من دون اللّه ملجأ: مكاناً أنجو من اللّه فيه، كما يعتصم من المخلوقين بالدخول في مخبأ أو الذهاب إلى مكان يجهلون كونه فيه أو يصعد جبلاً شامخاً يصعب عليهم طلوعه فيتركونه أو نحو ذلك، أما اللّه سبحانه فلا عاصم منه.

﴿٢٣﴾ ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي ﴿لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ ينجيني من اللّه إلا

فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ

بلاغاً من اللّه أرسلني به وهو القرآن، قال تعالى: ﴿هَذَا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ [إبراهيم:٥٢] وقال تعالى: ﴿بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف:٣٥] ورسالاته كلها، فذلك هو الذي ينجيني بأن أتمسك به وأبلغه لا رَفْضُه واطراحه كما يريد الكافرون ولا شركاؤهم ولا غير ذلك.

وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بمعنى: أني أبلغكم عن اللّه ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ﴾ برفض ما بلغته أو ترك ما جئت به أو خالفه فإن له نار جهنم وهذا مناسب لقوله تعالى:

﴿٢٤﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟﴾ هذه غاية لعنادهم الذي دل عليه السياق من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿...خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ فتكرار الاحتجاج عليهم والرد بعد الرد والإنذار بعذاب نار جهنم، يفيد: أنهم مستمرون في تمردهم وعنادهم، فقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟﴾ يفيد: استمرارهم في عنادهم حتى يروا ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ من القيامة أو العذاب العاجل ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ يومئذ ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ هم أم رسول اللّه ﷺ، ويتبين: أنه أعز ناصراً وأكثر عدداً؛ لأن ﴿اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم:٤].

﴿٢٥﴾ ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنْ أَدْرِىٓ﴾ أي لا أدري ﴿أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ من البعث والجزاء ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ مدة وأجلاً متأخراً، وذلك لأني لا أعلم الغيب، وهذا من الرد على جدالهم في الآخرة، وقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:٤٨] أو نحوه.

أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾

﴿٢٦-٢٧﴾ ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا﴾ ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ أي هو أي ربي عالم الغيب، أو قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ نعت لقوله: ﴿رَبِّي﴾ ﴿فَلَا يُظۡهِرُ﴾ فلا يطلع على غيبه أحداً، ولذلك فلا أعلم الغيب إلا ما أرسلت به.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ استثناء لمن ارتضاه اللّه للرسالة؛ لأنه زكي أمين على الرسالة يبلغها ولا يقصر في تبليغها كما أمره الله.

﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا﴾ ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ أي فإن اللّه ﴿يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا﴾ من الملائكة وهم الحفظة يكتبون عمله وتبليغه للرسالة كما يكتبون أعمال سائر المكلفين، وهذا تحقيق لعبودية الرسول، وتعظيم لشأن ما أرسل به، وتكريم له في النهاية حين يقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة:١٩] وفيه إشارة إلى أن المستثنى من علم الغيب هو ما علمه اللّه ليبلغه إلى من أرسل إليهم، كالقيامة، والجنة، والنار، والملائكة.. وغير ذلك.

قال الإمام الهادي عليه السلام ـ ونعم ما قال ـ: «وقد يمكن ويكون ـ والله أعلم وأحكم ـ أن يكون معنى قوله: ﴿يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا﴾ فهو ما جعل من اللّه مع من ارتضى من التوفيق والتسديد والمعونة والتأييد ما حفظه اللّه به من الزلل والخطأ وغير ذلك من الأعداء..» إلخ.

قلت: ويمكن أن الرصد حرس يحفظونه لتبليغ الرسالة، ويدفعون عنه من يحاول منعه مع كتابتهم لعمله وإحصائهم لما يصدر عنه إذا جعلنا الرصد حقيقة، فأما المجاز على كلام الإمام الهادي عليه السلام فهو واضح في تأدية هذا المعنى.

(٢٨) ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ أي ليبلغوا الغيب الذي أرسلوا به، فإذا أبلغوا علم أن قد أبلغوا وأعد لهم ثواب ذلك ولمن اتبعهم، وتمت حجته على من عصاهم، وأعدّ لهم عذابه لأنه قد هلك من هلك عن بينة وحي من حي عن بينة.

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ علمه كله لم يخف عليه منه شيء فاختباره لعباده ليس لجهل بما يكون منهم ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ من أعمال الرسل والمرسل إليهم وغيرها أحصاها ﴿عَدَدَۢا﴾ لإحاطة علمه بالجمل والتفاصيل والأعداد.

وفي الآية دلالة على أن الناس لا يعلمون من الغيب إلا ما بلغتهم الرسل، ولا يعلم الرسل منه إلا ما أرسلهم اللّه به فعلمهم ليبلغوه، فصارت دعوى من يدعي علم الغيب لبعض الأئمة أو الشيوخ دعوى مردودة، ومن روى في ذلك رواية غير متواترة ولا دل القرآن على قبولها فهي مردودة وزعمه أنها في الفضائل لا يترتب عليها عمل فلا يشترط في قبولها الصحة زعم مردود؛ لأنها مخالفة للقرآن لا يخصص بها، فكيف صح العدول عن القرآن من أجلها؟!

مع أن قوله: لا يترتب عليها عمل، مردود، فقد ترتب عليها دعاؤهم للأئمة وخوفهم ورجاؤهم ومراقبتهم في الأعمال، وترتب عليها الحكم

بخلاف حكم القرآن، وذلك أنهم جوّزوا للأئمة الإلقاء بأنفسهم إلى التهلكة بأكل الطعام المسموم مثلاً وهم يعلمون أنه مسموم، فأثبتوا حكماً مخالفاً لحكم القرآن؛ لأن اللّه تعالى يقول: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥] وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩].

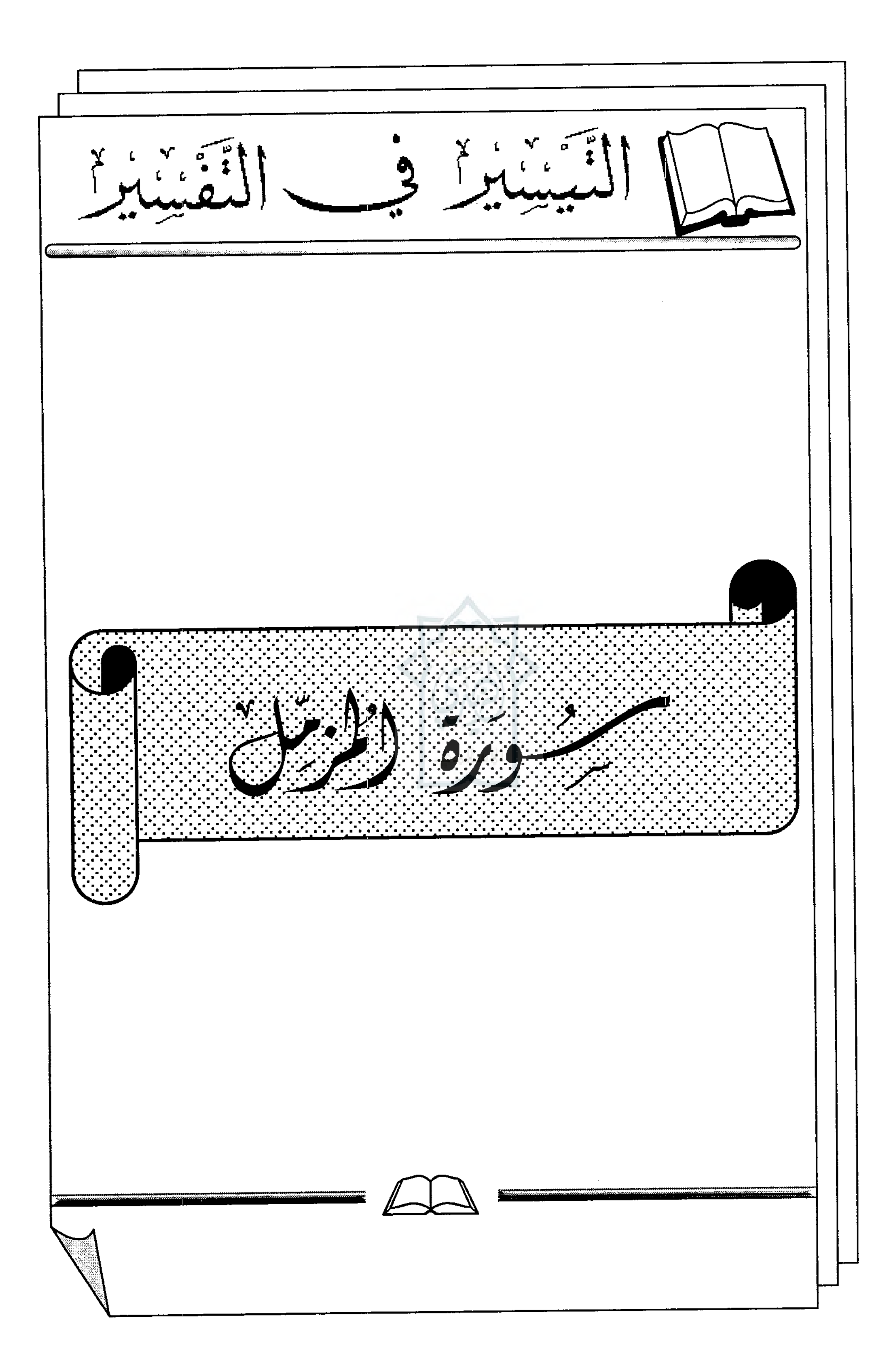
فقالوا: قد جاز هذا للأئمة، وتجويزه للأئمة مترتب على دعوى أنهم يعلمونه، ودعوى أنهم يعلمونه مترتب على تلك الروايات التي هي غير صحيحة، ولا يصح أن يبنى عليها حكم شرعي، فقد خالفوا القرآن لأجل تلك الرواية.

ولو أجابوا: بأنهم لا يدعون للأئمة أنهم يعلمون ذلك بالإلهام، وأنهم إنما أثبتوه على أنه علم ورثوه عن آبائهم عن النبي ﷺ، وهذا لا خلاف في أنه قد يقع مثله من علم بعض الحوادث بهذه الطريقة.

فالجواب: أنه دعوى بلا دليل؛ لأن عمدتهم في ذلك روايات غير صحيحة مؤدية إلى مخالفة القرآن كما بينا فتبطل، لأن القرآن لا يخصص بالتجويز والاحتمال، بل يدفع به التجويز والاحتمال والروايات الضعيفة؛ لأنه الحاكم بين الناس فيما اختلفوا فيه لقول اللّه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣].

والمراد أنهم خالفوا قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩] وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥] فأما مخالفتهم لآيات نفي علم الغيب فإنما هو بإثبات علم الغيب بواسطة الإلهام دون التبليغ من الرسول ﷺ ووصوله إليهم بالروايات من آبائهم عليهم السلام.




التيسير في التفسير
سورة المزمل



سُورَةُ المُزَّمِّل

آياتها ٢٠ — ترتيبها ٧٣

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ

(١-٢) ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ هذا نداء من اللّه لنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ومعنى ﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ الملتحف بلحافه المتدثر في مضجعه، و﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ و﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ معناهما سواء، كذا قال الإمام الهادي عليه السلام.

قلت: وهو من التطبيق على الواقع؛ لأن ﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ الملتحف بلحافه ولو لم يكن مضطجعاً، كما في قول امرئ القيس:

كأن أبانا في عرانين وبله ... كبير أناس في بجاد مزمّل

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ قم مصلياً الليل، أي الليل كله ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ فأمر أن يستوعب بقيامه الليل إلا قليلاً؛ ليقرأ القرآن في صلاته كله، وكان قليلاً يمكن أن يقرأه كله في صلاته لأن بقيته لما ينزل في ذلك الوقت، أي في أول النبوة.

(٣-٤) ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا * أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بيان لقوله: ﴿اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ لأن القليل غير محدود، فحدد تعالى وقت القيام بأنه نصف الليل أو أقل منه قليلاً أو أكثر منه، فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم مخير بين الثلاثة الأوقات، أو هو على حسب حاله في إتمام القرآن إن أتمه في النصف أو قبله بقليل أو بعده بقليل فقد امتثل، و(الترتيل) التفصيل والتأني بالتلاوة، وفي الحديث: «يرتل الأذان، ويحدر الإقامة» وقال الإمام الهادي صلى الله عليه وآله وسلم في تفسيره: «أي بيّنه تبييناً» انتهى.

نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلاً ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلاً ﴿٧﴾ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلاً ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ

وفي (الصحاح): «الترتيل في القراءة الترسل فيها والتبيين بغير بغي ـ ثم قال ـ: ورجل رتل مثال تعِب بيّن الرَّتَل أي مفلج الأسنان» انتهى.

وفي (الكشاف): «ترتيل القرآن: قراءته على ترسّل وتؤده بتبيين الحروف وإشباع الحركات، حتى يجيء المتلوّ منه شبيهاً بالثغر المرتل وهو المفلج المشبّه بنور الأقحوان، وأن لا يهذّه هذاً ولا يسرده سرداً» انتهى، قال في (الصحاح): «ورجل مفلج الثنايا أي منفرجها، وهو خلاف المتراص الأسنان» انتهى.

﴿٥﴾ ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلاً ثَقِيلاً﴾ فأمر بالقيام استعداداً لما سيلقى عليه من القرآن لثقله بما فيه من التكاليف الشاقة، كالجهاد، ومفارقة القرابة الكفار، والهجرة من الوطن والحج.. وغير ذلك كترك الخمر على الذين كانوا تعودوه، والاستعداد بالقيام إما بأنه سبب للبركة وزيادة نور القلب وصلاح النفس حتى تهون عليها الصعاب، وإما بتمرين النفس على تحمل المشاق في طاعة الله، وإما لذلك كله ولغيره من فوائد القيام.

﴿٦﴾ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلاً﴾ قال في (الصحاح): «والناشيء: الحدث الذي قد جاوز حد الصغر والجارية ناشئة أيضاً». انتهى، وفي (مفردات الراغب): «الناشيء: الشاب» انتهى.

وفي (نهاية ابن الأثير): ومنه نشأ الصبي ينشا نشأ فهو ناشيء إذا كبر وشبّ ولم يتكامل، ومنه الحديث: « نَشَأ يتخذون القرآن مزامير» يروى بفتح الشين جمع (ناشيء) كخادم وخدم، يريد جماعة أحداثاً» انتهى.

وفي الحديث الشريف: «سبعة تحت ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله شاب نشأ في عبادة الله عز وجل..» الحديث رواه الإمام زيد بن علي في (المجموع) والإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام)، فالأقرب في ﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾: أنها أوله حين يستتم ظلامه، كأنه شبّ وقوي فاشتدت وطأته على الناس ودعتهم إلى الراحة عن الأعمال والنوم مع تعب أعمال النهار، ففي هذه الحالة يتهيأ فراغ البال للعبادة وتدبر آيات القرآن؛ لأنه في هذا الوقت يخلو للعبادة ولا يكون مظنة أن يأتيه من الكفار من يشغله ويشوش عليه ذهنه بالأذية والتكذيب، فكانت ناشئة الليل ﴿أَقْوَمُ قِيلاً﴾ تستقيم فيها التلاوة وتبعد عن السهو والغلط، وهي أفضل من غيرها في هذا المعنى.

فإن قيل: إن الناس في تلك الساعة يميلون إلى النوم، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الناس، فكيف لا يميل إلى النوم ويشغله النعاس عن إتقان القراءة وتدبر القرآن؟

والجواب: أن الفرق بينه وبين أهل مكة في ذاك الوقت فرق ظاهر، فهم مقبلون على أعمال الدنيا غافلون عن الله، أما رسول الله فهو شديد الرغبة في العبادة، شديد الخوف من الله، عالي الهمة، قلبه معلق بذكر الله، فحين قد أمر بقيام الليل فهو مشمر لطاعة الله بقلبه وبدنه، فهو بعيد عن النوم مع أنه ليس يتعبه الكد في أعمال الدنيا، ولا ممن يكثر الأكل فهو مخالف لهم في كل معنى.

فإن قيل: فما فائدة الترغيب في تلك الساعة مع وجوب قيام نحو نصف الليل أو النصف أو أكثر؟

قلت: ليزيد اهتمامه بها واستعداده لها، كما فضلت العشر الأواخر من شهر رمضان مع فضله كله، وذلك عند حدوث الأعذار التي ترخص في ترك القيام مثل المرض الخفيف الذي يستطيع معه قيام ناشئة الليل.

إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا

ويحتمل: أن ﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ تمتد إلى النصف ولا تختص وقت العشاء، وهذا أقرب لأنه لا دليل على تحديدها بساعة أو ساعتين، وعلى هذا: فهي معظم وقت القيام.

فإن قيل: فالتفضيل في قوله تعالى: ﴿هِيَ أَشَدُّ﴾ تفضيل على أي وقت؟
قلت: يحتمل أنه تفضيل على وقت صلاة النهار أو صلاة الظهر؛ لأنها وإن كانت في وقت راحة من نصب الأعمال فليست مثل ناشئة الليل.

﴿٧﴾ ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ فراغاً كبيراً تقضي فيه أعمالك، وقال الإمام الهادي عليه السلام: «يريد سبحانه بقوله: ﴿سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أي فراغاً كبيراً ووقتاً يصلح لما تريد أن تشتغل به عن فرض صلاة ليلك في أوله حتى لا تؤخرها إلى آخره» انتهى المراد، قلت: ولعل من أعظم شغله تبليغ الرسالة وما يتبعه من الحركات.

﴿٨﴾ ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي في الركوع والسجود في صلاة الليل والتشهد والدعاء، وتعليق الذكر بالاسم يدل على أن المراد: الذكر بالقول.

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام: «ومعنى ﴿تَبَتَّلْ﴾ فهو: تفرغ له وانقطع إليه واستسلم بكليتك في يديه، وتفرغ لعبادته ونفاذ أمره، وفي ذلك ما تقول العرب: فلان متبتل، تريد: أي متفرغ لعبادة اللّه لا يشرك في خدمته مع اللّه أحداً لا نفساً ولا والداً ولا ولداً ﴿تَبْتِيلًا﴾ فمعناه: انقطع إليه يا محمد بكليتك انقطاعاً باتاً ثابتاً» انتهى.

﴿٩﴾ ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ المالك لهما المتولي لاطلاع الشمس والقمر والنجوم من المشرق

وأفولها من المغرب، وفي ذلك الآيات العظيمة الدالة على قدرته وعلمه وفضله على عباده ونعمته ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا هو، فهو المستحق للعبادة لأنه المالك المنعم ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ تتكل عليه، قال الإمام الهادي عليه السلام: «يقول: فاجعله كافياً لأن الوكيل في لسان العرب: هو الكافي، فقال سبحانه: اجعل ربك لك كافياً، واتكل عليه معيناً وعاضداً» انتهى.

قلت: يعني أنه يكفيه مهماته التي لا يستطيعها ولم يكلف بها، مثل دفع المكذبين له وحمايته، ومثل إعانته على تبليغ الرسالة، وتيسير أسباب ذلك وتيسير الأنصار وغير ذلك، وفي هذا تشجيع له على القيام بمهماته التي كلف بها.

(١٠) ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ مما يؤذيك من تكذيبهم لك وغيره، فلا تعجل على مقاومة متكلم أو ترد عليه بمثل كلامه، أو تعجل على قتالهم قبل أوانه، أو على مهاجرتهم قبل أن يؤذن لك ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ بالإعراض عنهم وترك مجالستهم، إلا حال التبليغ في محله، مع المداراة بالكلمة الطيبة، وترك الذم والسباب حال غيابهم.

(١١) ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾ ﴿ذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ خلني وإياهم، أي دعني أنفرد بعقابهم فأنا أكفيكهم ﴿أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ أهل المال الواسع والنعم الوافرة التي وجب عليهم شكرها فكفروا واستكبروا ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾ أي قليلاً من الوقت حتى تتم الحجة عليهم ويسلم من كان يسلم في مدة الإمهال حتى يأذن الله بقتال الكافرين المحاربين للدين ثم يصيرون إلى ما أعد لهم في الآخرة، وبينه بقوله تعالى:

وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ

﴿١٢-١٣﴾ ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿أَنكَالاً﴾ أغلالاً وقيوداً يعذبون بها ﴿وَجَحِيمًا﴾ ناراً عظيمة، قال في (الصحاح): «الجحيم: اسم من أسماء النار وكل نار عظيمة في مهواة فهي جحيم، من قوله تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٩٧]» انتهى.

قلت: الاسم يحلى بـ(أل) كما قال، وهنا المراد ـ والله أعلم ـ: نار موصوفة كأن الكفار في أول الإسلام لم يعرفوا اسمها، فذكرها بوصفها ليفهموا ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ يبقى في حلق آكله لا ينزل إلا بعد شدة من الاغتصاص به ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ عذاباً شديداً كلمة جامعة لأنواع العذاب نعوذ بالله منه.

﴿١٤﴾ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً﴾ تكون الأنكال والجحيم والطعام ذو الغصة والعذاب الأليم يوم القيامة الذي هو يوم ترجف الأرض والجبال ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ صارت من الرجفة كالرمل، قال الإمام الهادي عليه السلام: «يقول: صارت الجبال بعد ما هي عليه من انعقادها ويبس صخرها وحجارتها ﴿كَثِيبًا مَّهِيلاً﴾ والكثيب: فهو الرمل، والمهيل: فهو المنهال الذي لا يمسك بعضه بعضاً» انتهى.

﴿١٥﴾ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾ شاهداً عليكم بكفركم إن كفرتم وعصيانكم إن عصيتم يشهد عليكم يوم القيامة، فإذا عصيتم وكفرتم أخذناكم أخذاً وبيلاً، كما أرسلنا إلى فرعون موسى وهارون.

فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن

﴿١٦﴾ ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أي أخذنا فرعون ﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾ ثقيلاً غليظاً؛ ولأنه هلاك صار به إلى العذاب الدائم، فهو وخيم لسوء عاقبته فيمكن تفسير الوبيل: بسيء العاقبة، كقوله تعالى: ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ [التغابن:٥] أي وخاومته وسوء عاقبته.

﴿١٧﴾ ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ أي أرسلنا إليكم رسولاً ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ يوم القيامة ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾ بالرسول وما جاء به من الآيات، فاليوم الذي ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ تشيب منه رؤوس الولدان ويصيرون في هرم الكبار، وهذا في أول أهوال ذلك اليوم لشدة أهواله وعظم زلزاله لا يكون لكم فيه قوة ولا ناصر، وهو يوم لا يتقى هوله إلا بالإيمان والتقوى، فإذا صرتم في ذلك اليوم على كفركم، فكيف تتقونه وقد فات أوان التقوى والإيمان النافعين؟!!

﴿١٨﴾ ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ تنشق السماء بسبب ذلك اليوم، كأنه آلة لانفطارها يشقها بنفسه أو في ذلك اليوم ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ لا بدَّ من وقوعه ووقوع ما وعد الله بوقوعه فيه؛ لأنه وعد صادق وعد أصدق القائلين وأحكم الحاكمين.

﴿١٩﴾ ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ هذه الآيات تذكرة لمن يتذكر، وتنبيه لمن ينتبه ويستعمل عقله ويتفكر فينتبه من غفلته.

ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿٢٠﴾

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ فمن شاء من المكلفين المخاطبين بهذا في الحال والمستقبل في هذه الحياة الدنيا اتخذ لنفسه سبيلاً يقربه إلى ربه، وطريقاً يبلغه رحمة الله ورضوانه والنجاة من عذابه، فلا مفر منه إلا إليه بالإيمان والتقوى في هذه الحياة الدنيا، كقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات:٥٠] وفيها دلالة على بطلان القول بالجبر.

﴿٢٠﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ إن ربك يعلم أنك تقوم كما أمرت أو هو في الواقع زائد على ما يكفي من المأمور به في بعض الحالات في توفير الزيادة على النصف حتى يقارب القيام ثلثي الليل.

ولعله ﷺ صار إلى هذا الوقت في آخر مدة العمل بهذا التكليف الذي هو إيجاب ترتيل القرآن كله فهو يزداد وينمو بسبب تنزيله شيئاً فشيئاً، فلعله كان قد كثر حتى احتاج إلى الزيادة إلى قريب من ثلثي الليل ليتم القرآن كله، أي الذي قد نزل عليه.

﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ ولعل الطائفة: علي عليه السلام، وخديجة عليها السلام، فهما مظنة ذلك، وفي (شواهد التنزيل) للحاكم الحسكاني بسنده عن ابن عباس قال: «علي، وأبو ذر» وفي رواية أخرى في (شواهد التنزيل) بإسناده عن ابن عباس في هذه الآية: «فأول من صلى مع رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، وأول من قام الليل معه علي..» إلخ.

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي لن تحصوا القرآن المأمور به في القيام كل ليلة، فالقرآن ينمو ويزداد ويكثر حتى لا يتسع له وقت القيام من الليل؛ لأن الليل محدود بتقدير الله له وللنهار، فالليل لن يتسع تبعاً لكثرة القرآن بل يبقى على حده ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أسقط عنكم القيام المشتمل على ترتيل القرآن كله.

﴿فَٱقۡرَءُواْ﴾ بدلاً من ذلك ﴿مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ من قليل أو كثير، قال الإمام الهادي عليه السلام: «فجعل قليل القرآن مجزئاً لمن كان لصلاته مؤدياً» انتهى، ويفهم من كلامه عليه السلام أن ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ للبيان مثلها في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ [يونس:٦١] وعلى هذا فلا بد من قراءة ما يسمى قرآناً، والظاهر: أن السورة تسمى قرآناً لأنها معجزة، فتجزي مع (الفاتحة) سورة ولو من قصار السورة، فالقارئ المصلي مخيّر فيما تيسر له إذا كانت عدة سور متيسرة له.

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ هذا تعليل للتيسير بقراءة ما تيسر؛ لأنه كان يكفي في التخفيف مع كثرة القرآن قراءة ما أمكن إلى نحو نصف الليل، ولكن الله سبحانه رخص بإجزاء ما تيسر، لعلمه بما سيكون من ضعف المصلين بسبب المرض أو الضرب في الأرض أو القتال في سبيل الله.

وفيه فائدة: أن العلة لا تخصص الحكم العام ولا تقيد المطلق، وفيه: دلالة على إباحة الضرب في الأرض لحاجة الإنسان يبتغي نيلها بالسفر كطلب العلم وهو أهم المطالب.

وفي ذلك: دلالة على أن حديث: «لا تشد الرجال إلاَّ إلى ثلاثة مساجد» الحصر فيه إضافي بالنسبة للصلاة أي لا تشد الرحال للصلاة في مكان لفضله إلا إلى الثلاثة المساجد، وليس هذا من العموم والخصوص؛ لأن قرائن إرادة الحصر الإضافي كثيرة مقارنة للكلام حيث كانوا يشدونها للحاجات، وخلقت لذلك الإبل كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ..﴾ الآية [النحل:٥-٧] وقوله تعالى: ﴿خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ..﴾ [يس:٧١-٧٢] وآيات عديدة، وقد كتبت في هذا رسالة مستقلة بعنوان (مسألة شد الرحال) وفي الإتيان بلفظ الجمع: مرضى وآخرون وآخرون مكرراً ما يشعر بأن الأصل في الصلاة الجماعة، وخصوصاً بعد قوله تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ هكذا يحوَّل اهتمامهم الذي كان للواجب المنسوخ إلى الاهتمام بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ففي آيات الصدقة عند مناجاتهم لرسول الله ﷺ: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [المجادلة:١٣] وفي (سورة النساء): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [آية:٧٧] وذلك تقوية للهمم لأهمية الصلاة والزكاة، واحتياج المكلف إلى عناية تامة لإقامة الصلاة، بالمحافظة على أوقاتها وطهارتها وشروطها وفروضها وإخلاصها وخشوعها، في حالات المكلف المختلفة في تعبه وفتوره ونشاطه وقوته وضعفه وصحته ومرضه، وإنما يختلف التكليف فتصير إقامة الصلاة في السفر والمرض بإتمام الواجب فيهما في وقت الصلاة فيهما، وكذلك الزكاة يحتاج المكلف فيها إلى عناية تامة؛ لئلا ينقص منها شيئاً، والتقصير فيها يكون لأسباب مرجعها إلى الشح والتسهيل وقلة المبالاة بأمر الله.

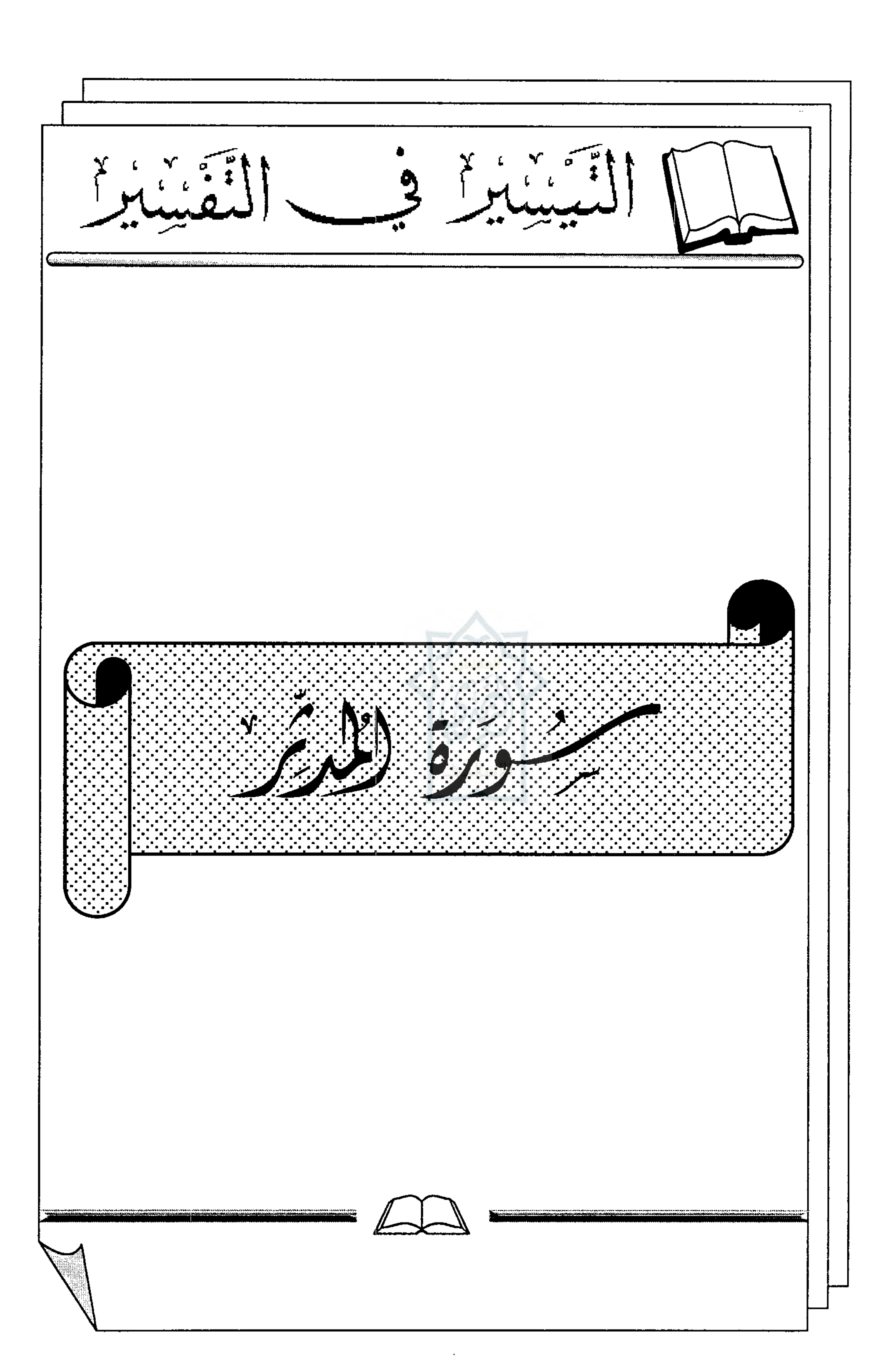
﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ هذا في الإنفاق غير الزكاة كالإنفاق في سبيل الله، قال الإمام الهادي عليه السلام: «فشبهه بالسلف الذي لابد من قضائه وتسليم مثله إلى صاحبه وإعطائه، فعلى هذا المعنى: جاز أن يسمى ما تقرب به إليه سلفاً إذ كان بالمجازاة لهم عليه مرصداً ومضاعفاً» انتهى المراد.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ وهذا فتح لباب التطوع وترغيب في الاستكثار منه، وهو ترغيب عظيم حيث جعل المنفَق تقديماً لنفس المنفِق.

وقوله: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ يظهر منه: أنه سبحانه يربي الصدقة، كما جاء في الحديث: «فيربيها حتى تصير اللقمة مثل أحد» ولفظه: «فيربيها كما يربي أحدكم فُلُوَّه أو فصيله، حتى تصير اللقمة مثل أحد» انتهى.

وهو في (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام) في (باب صدقة السر) بل وفي القرآن الكريم: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة:٢٧٦] وهذا ممكن في العقل لأن اللّه سبحانه قادر على أن يكثّر فوائد الصدقة وآثارها ويسلسلها حتى تعظم بعظم فوائدها وكثرتها وآثارها وتسلسل الفوائد والآثار، مثاله إطعام بعض سلفنا ـ رحمه الله ـ لطالب لم يتمكن من البقاء على طلب العلم والاستمرار عليه إلا بذلك الإطعام، فاستمر الطالب على طلب العلم حتى صار عالماً كبيراً مؤلفاً في العلم لكتب نافعة انتفع بها الطلاب في عصره وبعده إلى يومنا هذا، بل وصار ذلك الطالب مع علمه إماماً هادياً مجاهداً في سبيل اللّه، دفع الفساد، وأحيا الدين، ونشر العدل والعلم، وبقي أثره إلى هذا الزمان، وهو الإمام القاسم بن محمد عليه السلام فحسنات ذلك المطعم الذي كان يطعمه كيف تكون قد صارت لما ترتب عليها مع كون المطعم كان يطعم لهذا الغرض أعني للمعاونة على طلب العلم وما يترتب عليه، وكان المطعم من أهل العلم والدين والفضل مظنة صدق النية والإخلاص فكيف تكون تلك النفقة في عظمها، وبالأولى نفقة رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه في سبيل اللّه، فكم يترتب عليها من المصالح الدينية مع تتابع الأجيال وتسلسل الفوائد فيها، وهذا مرادنا بتعظيم الحسنة وتربيتها.

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ اسألوه غفران ذنوبكم، والطلب للغفران المقبول ما كان بالقلب واللسان مع الإقلاع عن المعاصي والعزم على الطاعة، فأما باللسان وحده ومع الإصرار فلا يفيد شيئاً؛ لقول اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] ولعل هذا المعنى فائدة الأمر بالاستغفار في هذا السياق، فكأنه يقول: وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا واستغفروا اللّه ليغفر لكم ويقبل ما تقدمون من خير.



التيسير في التفسير
سورة المدثر



سُورَةُ المُدَّثِّر

ترتيبها ٧٤ — آياتها ٥٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ

﴿١-٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ النداء هذا لرسول الله محمد بن عبد اللّه بن عبدالمطلب بن هاشم الهاشمي القرشي، نزل عليه القرآن أولاً بـ(مكة) في بلده الأول.

قال الإمام الهادي صلى الله عليه وآله وسلم: «و﴿الْمُدَّثِّرُ﴾ هو الملتحف، والالتحاف: فهو طرح الثياب على الإنسان عند اضطجاعه. قال عليه السلام: وسبب تدثر رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: أن الوليد بن المغيرة المخزومي لعنه اللّه جمع قريشاً في دار الندوة، ثم قال: يا معشر قريش إن هذا الإنسان قد ادعى ما ادعى والعرب تفد عليكم وتأتي بلدكم فلا يزال السائل يسأل عنه بعضكم فيقول شيئاً ويسأل آخر فيقول له شيئاً آخر، فاشتوروا وأجمعوا له أمركم وكلمتكم حتى يكون قولكم فيه قولاً واحداً فما تقولون إنه؟ فقال بعضهم: مجنون، فعبس في وجهه ـ ثم قال ـ : ليس هذا بقول وليس هو وأبيكم بمجنون. فقال بعضهم: شاعر، فقطب في وجهه أيضاً، وقال: ليس هذا شاعراً، قد سمعنا الشعر وقلناه فليس هذا على مجراه. فقالوا: كاهن. قال: ولا بكاهن ليس يغبا على العرب الكاهن. فقال بعضهم: ساحر. فقال لهم: وما الساحر وما يعمل؟ فقالوا: يفعل فعلاً يفرق به بين المرء وزوجته [كذا] ويحبب المبغض ويبغض الحبيب. فقال: هذا إذاً، قد والله يفعل محمد ذلك، فأجمعوا كلمتكم على أنه ساحر فخرجت قريش من (دار الندوة) فلم يلق أحد منهم رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم

إلا قال: ياساحر، فاشتد ذلك عليه ﷺ، فخرج حتى أتى منزله فطرح نفسه وتدثر بلحافه من شدة الغم وما نزل به لقولهم من الهم، فأنزل اللّه تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ * قُمۡ فَأَنذِرۡ ..﴾» انتهى.

﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ معناها على رواية الإمام الهادي عليه السلام: الأمر بالنهوض إلى قومه وعشيرته لينذرهم، ولا يحمله تكذيبهم له على تركهم فهو أمر له بالثبات على موقفه، والإنذار: تبليغهم أن اللّه سيعذبهم في نار جهنم خالدين فيها أبداً، ولا نجاة لهم إلا بالإيمان ورفض الشرك وتقوى الله.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ عظم ربك بعبادته وحده وبتكبيره بأن تقول: «اللّه أكبر» ولعل المراد: تكبير الصلاة، ولذلك أتبعه بقوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام: «﴿وَثِيَابَكَ﴾ فهي هذه الثياب الملبوسة المعروفة باسمها المفهومة بذكرها» انتهى، قلت: وهذا يفيد: أنه المعنى الحقيقي فلا يعدل عنه إلاَّ لقرينة صارفة.

﴿٥-٧﴾ ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ * وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام: «﴿وَٱلرُّجۡزَ﴾ هو كل نجس معلوم من وثن أو صنم أو شيء محرم مفهوم..» إلخ كلامه في هذا المعنى.

وقال الجوهري في (الصحاح): «الرجز: القذر مثل الرجس» انتهى، وهو موافق لكلام الإمام الهادي عليه السلام وهو على قراءة نافع بكسر الراء.

فأما ﴿ٱلرُّجۡزَ﴾ بضم الراء فقيل معناه: العمل المؤدي إلى العذاب، وأن الرجز هو العذاب، والمراد اهجر ما يؤدي إلى العذاب، والمعاني متفقة على هجر الرجس من الأوثان وسيئات الجاهلية.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ ﴿وَلَا تَمْنُن﴾ نهي عن المنّ بما أعطى أو فعل من الإحسان، كما قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ وقوله تعالى: ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ فسره (صاحب الكشاف) بمعنى: ((تراه كثيراً أو طالباً للكثير)) وقوله بمعنى تراه كثيراً مشكل إذا لم يثبت استعمال استكثر مثل استعظم واستكبر؛ لأن الأقرب في هذا المعنى: أنه سماعي لا يثبت بالقياس وهو - أيضاً - مشكل من حيث أنه لا يليق برسول الله ﷺ؛ لأنه لا يراه كثيراً إلا وهو كثير في الواقع، وهذا صواب يبعد أن ينهى عنه، فأما استكثار القليل فإنما هو شأن البخلاء.

ولم يذكر (صاحب لسان العرب) لاستكثر إلا إرادة الكثير من الماء في قول القائل: استكثره إياه إذا أراد لنفسه كثيراً ليشرب منه، والرغبة في الكثير في قول القائل: استكثر من الشيء، والإكثار فسماعي وهو الذي ذكره الإمام الهادي عليه السلام في تفسير ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ فقال عليه السلام: ((ومعنى تستكثر فهو تكثر قول ذلك وذِكْره وتعريفهم به)) انتهى المراد.

وقد يُشكل بأن المن مذموم قليله وكثيره فما فائدة التقييد؟

والجواب: إنه ليس تقييداً، بل القليل مسكوت عنه، ولعله ذكر لكونه كان عادة بعض الجاهلين، فكأنه قيل: لا تفعل كما يفعلون، وقد جاء في الحديث مثله: روى الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام) عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: ((تحرم الجنة على ثلاثة: مدمن الخمر، والمنان، والقتات)) وهو النمام، انتهى. ورواه أبو طالب عليه السلام في (الأمالي) في (باب التحذير من شرب الخمر) بسند صحيح عن علي عليه السلام قال: قال ﷺ: ((تحرم الجنة على ثلاثة: المنان والعياب والنمام، وعلى مدمن الخمر)) انتهى، فقال: ((المنان)) وهو يفيد التكثير، وليس معناه إباحة القليل.

﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ﴿١٠﴾ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴿١١﴾ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودٗا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ على ما كلفك من تبليغ الرسالة وغيره، وعلى بلائه فيما ابتلاك به، وعلى أذى الكفار المكذبين لك حتى يحكم الله.

﴿٨-١٠﴾ ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ * فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ فسر ﴿ٱلنَّاقُورِ﴾ بالنفخ في الصور، فظهر: أنه صوت، وفسره الإمام الهادي عليه السلام: «بعلامة يحشر الناس إليها من نور يسطع، أو صوت ملائكة يدعون الناس ويكبرون ويهللون ويحمدون» انتهى.

وقد ذكر اللّه الداعي في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ [القمر:٦] وذكر الصيحة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق:٤٢] ولعلهما شيء واحد في أول يوم القيامة يسمعه أهل القبور فيخرجون.

﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ يوم ينقر في الناقور ﴿يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾ لما فيه من الأهوال والحساب العسير والجزاء ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ الكافرين بنعم اللّه الجاحدين بما جاء به الرسول من آيات اللّه، فهو عسير عليهم. وقوله: ﴿غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ تأكيد ونفي لأن يقترن بعسره يسر، فليس كعسر الدنيا الذي يكون معه يسر، أو هو تعريض بالكافرين الذين يكذبون النذير ولا يبالون، بل كأنه ينذرهم شيئاً يسيراً لا حاجة إلى الحذر منه.

﴿١١-١٤﴾ ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا * وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا * وَبَنِينَ شُهُودٗا * وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾ ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾ من الكافرين الذين يوم القيامة عسير عليهم، خلقه اللّه ﴿وَحِيدٗا﴾ فرداً، ولعله كان قد مات أبوه ولم يكن له إخوة فكان فريداً بهذا المعنى، وقد مر مثله: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ [القلم:٤٤] .

عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ

﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالاً مَّمْدُودًا﴾ كثيراً واسعاً ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ حضوراً لديه غير غائبين عنه، يقال: شاهد للحاضر في البلد فهم شهود بمكة ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾ بسطت له النعمة ووفرت له أسباب الرفاهية فأشبه من يمهد له مكانه بالفراش الوثير.

﴿١٥-١٦﴾ ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ ﴿ثُمَّ﴾ بعد الإنعام عليه بالمال والولد والتمهيد البليغ بعد ذلك ﴿يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ له، ولعل هذا الطمع الفارغ طمعه في المستقبل من عمره أن يزيده اللّه في هذه الحياة من توفير النعم وفي الآخرة إن رجع إلى ربه، كقوله: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت:٥٠] ﴿كَلَّآ﴾ زجر عن هذا الطمع ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ لأنه كافر بنعمة اللّه معاند لآيات اللّه يكذب بها ويجادل فيها معاندة وتمرداً بعدما تبين له أن القرآن كلام خارق للعادة لا يأتون بسورة من مثله، فلا يزاد مثل ما مضى بل ينقص.

﴿١٧-١٩﴾ ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا * إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ ﴿سَأُرْهِقُهُۥ﴾ سأغشيه ناراً ذات لهب تغشاه، ويصعد لهبها حتى يكون فوقه كالظلة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٥٥] وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر:١٦].

و﴿صَعُودًا﴾ مبالغة في الصعود، مثل: ضروب، أي أجعل النار تغشاه وتصاعد عليه، وهذا أظهر في الوعيد إن أريد في الآخرة ﴿سَأُرْهِقُهُۥ﴾ فأما

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩﴾

إن كان المراد في الدنيا فلا إشكال في تفسيره بإرهاقه المشاق والعناء، كما يكلف الصاعد في الجبل، ولعل هذا أقرب، أعني: حمل هذا الوعيد على العذاب العاجل، لأن الوعيد بالعذاب الآجل يأتي قريباً في قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾.

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ﴿فَكَّرَ﴾ فيما يجادل به في دفع رسالة رسول الله ﷺ ﴿وَقَدَّرَ﴾ هيأ كلاماً مخصوصاً حدَّده للجدل وانتخبه بالكم والكيف ﴿فَقُتِلَ﴾ لعن ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ وجملة لعن كيف قدر تعجيب من باطله الذي تخيره من بين ألوان التكذيب، ثم كرر اللعن والتعجيب منه:

﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ ۝٢٠-٢٣ ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ولعل وجه التعجيب منه: أنه أمعن في الباطل وتوغل فيه ليدفع النبوة، ولا يستطيع ذلك ولا صلاح له في هذا الجدال؛ لأن ثبوت النبوة لا يضر من آمن بها، بل هي صلاح للبشر ونور وهدى، وإنقاذ من جهالات الجاهلية التي ما زالوا فيها، فالذي يبالغ في مدافعة النصح ومجادلة النذير بالعذاب الشديد ليبطل إنذاره، إنما يسعى في مضرة نفسه وبقائه على باطله، وعاقبة ذلك أن يصير في العذاب الذي أنذره النذير، فما مثله إلا كالأعمى يرشده البصير إلى الطريق فيأبى إلا المشي على غير هدى، فيتيه ويتخبط وهذا لاشك أنه شيء عجيب.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ بعد أن هيأ الجدل في نفسه نظر إلى أصحابه المنتظرين لما يقوله لهم ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ تضجراً منهم لما يقولون ويعرضون عليه من الجدل

الذي تمجه الأسماع ولا يسوغ إلا لديهم، وهم يريدون كلاماً يجيبون به من سأل عن محمد ممن يصل إلى مكة ونحوهم من العامة فـ﴿عَبَسَ﴾ قطب بين عينيه ﴿وَبَسَرَ﴾ نفر فيهم ودفعهم ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الحق ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ عن قبول الحق.

﴿٢٤-٢٥﴾ ﴿فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ ﴿فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ﴾ القرآن ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ ﴿فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ..﴾ إلخ، تفسير لإدباره واستكباره، فهو إدبار واستكبار جديد، مع أنه مدبر مستكبر في نفسه من قبل، ومعنى ﴿سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ سحر يحكى وينقل ويتعلم، أي تعلمه النبي ﷺ.

وقوله: ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ تكذيب من هذا الكافر ـ لعنه اللّه ـ يزعم فيه أنه ليس قول اللّه تعالى، وكذب عدو اللّه لأنه لو كان قول البشر لجاءوا بسورة من مثله كما عجّزهم في مواضع عديدة من القرآن، ففي (سورة والطور): ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَ يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [آية:٣٣-٣٤].

وفي (سورة هود): ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آية:١٣-١٤].

وفي (سورة يونس): ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آية:٣٧-٣٨].

عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗاۙ وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن

وفي (سورة البقرة): ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ..﴾ الآية [آية:٢٢-٢٣].

وفي (سورة الإسراء) قال: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [آية:٨٨] فكيف استمر الجاحدون على كفرهم، مع أنهم لم يأتوا بسورة مثله، وبعد نحو ثلاث عشرة سنة وهم في عنادهم ولجاجهم بعد ذلك صاروا إلى الحرب بينهم وبينه، فلو كانوا يستطيعون أن يأتوا بسورة مثله لما تأخروا يوماً واحداً عن ذلك؛ لشدة غيظهم من رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وعداوتهم له، وتعصبهم لدينهم، وحرصهم على إبطال رسالة رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿٢٦-٢٨﴾ ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾ ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ﴾ وعيد من اللّه أنه سيصلي هذا الكافر نار جهنم، و﴿سَقَرَ﴾ اسم من أسماء جهنم، وصليها: مباشرة جسمه للنار، ليس بينه وبينها حائل ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ تعظيم لشأنها، وبيان لعظم هولها وشدة عذابها ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾ ﴿لَا تُبۡقِي﴾ على أحد من أهلها أي لا ترحمه فتخفف عنه ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ أحداً منهم، أي لا تترك أحداً، بل تعذبهم كلهم.

يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا

﴿٢٩-٣١﴾ ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ * وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾.

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): ((معناه: مغيرة للجلد)) انتهى، وفي (تفسير الإمام الهادي عليه السلام): ((واللواحة: فهي المحرقة المغيّرة التي قد غيّرت أبدانهم ببلائها..)) إلخ، و(البشر) يحتمل: جمع البشرة أي الجلد، ويحتمل: الناس، كقوله تعالى: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ وهذا الذي ذكره الإمام الهادي عليه السلام، وعليه يعم التغيير ما تحت الجلد، كقوله تعالى: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج:١٦] وهو أرجح، إلا أن يقال: أن اللوح في اللغة يخص تغيير الجلد أما تغيير سواه فلا يسمى لوحاً، ولكن قال في (الصحاح): ((لاحه السفر: غيّره)) ولم يقل: غيّر جلده أو لونه، وفي (مفردات الراغب الأصفهاني): ((لاحه الحرّ: غيّره)) انتهى، وفي (لسان العرب): ((ولاحه العطش لوحاً ولوّحه، غيّره وأضمره وكذلك السفر والبرد والسقم والحزن، وأنشد:

ولم يلحها حزن على ابْنِمِ ... ولا أخٍ ولا أبٍ فتسْهُمِ))

انتهى المراد، فظهر: أنه غير خاص بتغيير الجلد.

﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ خزنة يعملون ما أمرهم اللّه به من تعذيب أهلها وتدبير أمرها، كفتح أبوابها حين يأتي الذين يعذبون فيها، وإغلاق أبوابها بعد مصيرهم فيها، وهذه الآية كانت من المتشابه حيث لم يأت فيها تمييز العدد، فكانت فتنة للكافرين والذين في قلوبهم مرض، وقد بين اللّه أنهم من الملائكة، فقال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لأنهم مكذبون بالنار على الإطلاق، فازدادوا تكذيباً بذكر عدد خزنتها.

وقال في (الكشاف): «وروي أنه لما نزل: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدُّهْم أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة الجمحي ـ وكان شديد البطش ـ: أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين، فأنزل اللّه: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗ﴾» انتهى، وهذا الكلام الذي ذكره عن أبي جهل ـ لعنه الله ـ رواه الطبري في (تفسيره) بإسناده عن ابن عباس.

﴿لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ لتصديق القرآن بما عندهم في الكتاب ومطابقة القرآن لما عندهم من العدة للخزنة، مع أن رسول اللّه ﷺ لم يقرا كتاباً ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ لأنهم يقولون آمنا به كل من عند ربنا، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً.

﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ ولئلا يرتابوا بالشك في صدق الرسول ﷺ بعد إيقانهم وإيمانهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات:١٥] وذلك بتأكيد الدلائل لهم.

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ (اللام) قيل فيها: (لام العاقبة) كقوله تعالى: **﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾** [القصص:٨] وقال (صاحب الكشاف): «أفادت (اللام) معنى العلة والسبب، ولا يجب في العلة أن تكون غرضاً، ألا ترى إلى قولك: خرجت من البلد لمخافة الشر، فقد جعلت المخافة علة لخروجك، وما هي بغرضك» انتهى.

قلت: من فوائد هذا التعليل: الدلالة على أن اللّه سبحانه عالم بأنهم سيقولون ذلك من قبل أن ينزل قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ ومنها: الدلالة على أنه لا يبالي بهم، لأنه غني عنهم ولا يضره فسادهم ولا ينقصون عليه من ملكه، ومنها: الدلالة على أنهم بمعاصيهم الماضية وتمردهم عن الإيمان بالرسول ﷺ يستحقون أن يبتلوا بما يجعلونه سبباً لكلامهم الباطل بعد سماعهم له، كقوله تعالى في (أصحاب السبت): **﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾** [الأعراف:١٦٣]فالابتلاء بهذا عقوبة لهم بما كانوا يفسقون، وقد بسط الإمام أحمد بن سليمان في (حقائق المعرفة) في إثبات هذا في (فصل الكلام في الهداية والإضلال).

وأما قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ فقال الإمام الهادي عليه السلام في تفسيره: «فأرادوا عليهم لعنة اللّه بقولهم هذا: أن الذي أراد اللّه بذكر ما ذكر من عدة هذه الخزنة وما شرح من أمرهم مثل مضروب، وأنه ليس بحق كائن ولا أمر مجعول بائن» انتهى.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ كلاً بما يستحق، فليس الإضلال خلق الضلال، وإنما هو ابتلاء لمن زاغ عن الحق يضل باختياره من أجل ذلك الابتلاء، وقد يكون الابتلاء الواحد سبباً لضلال الفاجر وهدى المؤمن؛ لأن الفاجر يختار الضلال بسببه، والمؤمن يختار الهدى بسببه.

لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٍ

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ جنوده من الملائكة أو جنود السماوات والأرض، فهو العالم بهم على التفصيل والإحاطة ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي تلك الكلمة العظيمة، وهي قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ فهي تذكرة وتنبيه للبشر أي للناس ليتقوها.

﴿٣٢-٣٥﴾ ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ * وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ ﴿كَلَّا﴾ حرف زجر وردع عن قول الكافرين والمنافقين ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾ قسم بالقمر بآية اللّه التي تدل على قدرته وعلمه لما فيها من أثر التدبير المحكم ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ عطف على القمر لما فيه من دلالة القدرة التي بها أدبر الليل بعد استمراره ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ كذلك عطف على المقسم به داخل في القسم ومعنى ﴿أَسْفَرَ﴾ أضاء وانتشر نوره، وهو دليل على قدرة اللّه تعالى، فلا وجه لإنكار الكفار للآخرة والجنة والنار، وقولهم: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ الضمير إما لصفة ﴿سَقَرُ﴾ لعظم معناها من حيث هي نذير للبشر للناس كلهم تنذرهم أمراً عظيماً، وإما لسقر لأنها إحدى الآيات الكبر.

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ * لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ نذيراً للناس أجمعين، ونصب (نذير) قال في (الكشاف): «تمييز من إحدى على معنى: أنها لإحدى الدواهي إنذاراً، كما تقول: هي إحدى النساء عفافاً، وقيل: هي حال» انتهى.

يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ

وهذا على أن الضمير لصفة ﴿سَقَرُ﴾ في إنها لإحدى، فأما على أن الضمير لسقر نفسها، فيحتمل: أنه في حكم المفعول المطلق منصوباً بما يدل عليه الكلام، مثل وعد اللّه بعد الوعد لأن ذكرها إنذاراً، فكأنه قيل: أنذركم سقر إنذاراً للبشر، وقام (نذير) مقام (إنذار) مثل قوله: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح:١٧] وفي كتاب (إعراب القرآن) ذكر فيه عشرة أقوال للنحاة.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ ﴿أَن يَتَقَدَّمَ﴾ إلى الإيمان والتقوى والفرار من النار ﴿أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ عن المبادرة إلى طلب النجاة، فهي تذكرة ﴿لِمَن شَآءَ﴾ أن ينتفع بها وحجة على من فرط في نفسه.

﴿٣٨﴾ ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام: «فمعنى ﴿رَهِينَةٌ﴾ أي مأخوذة مرتهنة، ومعنى مرتهنة: أي محبوسة محاسبة» انتهى، فالنفس رهن عند اللّه كالرهن في الدَّين حتى تحاسب فيفكها الحساب؛ لأن صاحبها أعد لنفسه ما يخلصها، أو يغلق الرهن لأن صاحبها أوجب عليها ذلك فتصير إلى النار.

﴿٣٩﴾ ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾ فإنهم وإن ارتهنوا بما كسبوا فلا يضرهم ذلك، وأصحاب اليمين: أهل التقوى الذين هم أهل اليُمن والخير والسعادة.

﴿٤٠-٤١﴾ ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ قوله: ﴿فِي جَنَّٰتٖ﴾ إما حال من أصحاب اليمين، فالمعنى: استثناء (أصحاب اليمين) حال كونهم في الجنات، فهم حينئذ غير مرتهنين بخلاف (أصحاب النار) وإما خبر مبتدأ محذوف، أي هم في جنات ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يسأل بعضهم

ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ

بعضاً ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ولعل تساؤلهم عن المجرمين تساؤل عن أسباب عذابهم بالنظر إلى أنواع المعاصي، وبالنظر إلى الأشخاص الذين يعرفون، كأن يقول بعضهم: ما أهلك فلاناً؟ فيقول آخر: تكذيبه بآيات اللّه، ويقول آخر: ما أهلك فلاناً؟ فيجاب: الكبر، ويقول قائل: ما أهلك فلاناً؟ فيقول مجيب عنه: الحسد، ثم يجمع رأيهم على أن يسألوا المجرمين أنفسهم ليجيبوا فيقولون للمجرمين:

﴿٤٢﴾ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ ما أدخلكم في سقر ليجيب المجرمون مقرين على أنفسهم، ليكون ذلك أوقع في نفوس المؤمنين، حيث يذكرون نجاتهم من ذلك العذاب كما في (سورة الصافات): ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ..﴾ إلى قوله: ﴿..قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ الآيات [٥٢-٥٥].

﴿٤٣-٤٤﴾ ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ لعدم رجاء الثواب وعدم خوف العقاب، وذلك لعدم الإيمان.

﴿٤٥﴾ ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ ﴿ٱلْخَآئِضِينَ﴾ فيما لا يرضي اللّه الخائضين في الباطل، مثل التكذيب للرسل، والجدال في آيات اللّه.

﴿٤٦﴾ ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ (يوم الدين) يوم يجزى الناس بأعمالهم، كنا نقول لمن أخبر به: هذا كذب، فكان التكذيب سبباً لوقوعهم في العذاب، كما أن الإيمان كان سبباً لنجاة المؤمنين.

(٤٧) ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ عند الموت فتيقنا أن يوم الدين آت، أو حتى أتانا الموت أي جاءنا من حيث لا نطلبه.

(٤٨) ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام: «يقول - جلَّ جلاله -: إنهم لو شُفِعَ فيهم لم تكن تنفعهم شفاعة الشافعين، وإنما هذا تمثيل من اللّه، وإعلام لعباده بكفرهم وعظيم جرمهم، وذلك أن الشفاعة تنفع في موضع الأمر اليسير، ولا تنفع في الموضع الذي فيه حكم من اللّه عليهم بالعقوبة، لا أن أحداً من الأنبياء والمرسلين، ولا الملائكة المقربين صلوات اللّه عليهم يشفع لأحد من أهل الوعيد، حاشَ لله أن يكونوا كذلك، أو يفعلوا شيئاً من ذلك» انتهى. قلت: يعني أن الشفاعة لهم لا تكون، فنفي النفع المراد به نفي الشفاعة، كقول الشاعر:

على لا حبٍ لا يهتدى بمنارِهِ

أي لا منار له فيهتدى به، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء:٢٨] وقوله تعالى حاكياً في (سورة الشعراء): ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ [آية:١٠٠] وفائدة نفي النفع: أن الوعيد فيه يقطع الأماني، فلو قدرنا الشفاعة فهي لا تنفع، وفيه: دلالة على أن اللّه له الحكم وحده يوم القيامة فسواء شفع شافع لو فرض وقدر أو لم يشفع.

وبذلك يرد أماني المشركين الذين يقولون: ﴿هَـؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨] وهذا في الرد عليهم مثل قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم:٢٦] فبين: أن الملك له وحده، وليس لهم من الأمر شيء، وتفسير الإمام الهادي عليه السلام هنا أظهر من تفسير من قال: إن هناك شفاعة أي لغيرهم، فما تنفعهم لأنهم محرومون منها؛ لأن معنى هذا لا تنفعهم شفاعة الشافعين لغيرهم، وهذا ضعيف عند من يفهم.

حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْأَخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ

﴿٤٩﴾ ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ رجع.. الكلام في الكفار في الدنيا الذين تتلى عليهم آيات القرآن التي هي تذكرة وتنبيه من الغفلة فيعرضون عنها، ولا يفكرون في عواقب الإنذار.

﴿٥٠﴾ ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في إعراضهم ونفارهم عن التذكرة ﴿حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ أي حمير أفزعت بسبب مفزع شديد، كأنه طلب نفارها وقصد تنفيرها.

﴿٥١﴾ ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ هربت من قسورة، قال الإمام الهادي عليه السلام: ((ومعنى ﴿قَسْوَرَةٍ﴾ فهو الأسد)) وهذا يدل على أنهم نافرون نفاراً باقياً في أنفسهم، كنفار الحمير من الأسد؛ لأنها تخاف أن يأكلها فإذا رأته فرت منه، وبقي الخوف في أنفسها حتى تنساه، فكلما رأته فرت منه.

﴿٥٢﴾ ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ يريد أن ينزل الله عليه كتباً منشرة تقرأ، ويكونَ هو النبي المأمور بتليغ ما فيها، قال الإمام الهادي عليه السلام: ((فأخبر سبحانه أن جميع الفاسقين المكذبين إنما كذبوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حسداً منهم له على ما آتاه ربه، فكلهم يطلب ويتمنى أن يكون نبيئاً مرسلاً، وليس ذلك لهم ولا كرامة، بل لله الأمر والقدرة والعظمة والعزة يعطي من يشاء نعمته ويؤتيه كرامته)) انتهى.

وفائدة التعبير بقوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا﴾ دون أن يكون رسولاً الدلالة على أن غرضه الشرف بما يؤتى والعلو والفخر، لا أنه يريد أن يكون هو المكلف بتبليغ الرسالة، وتحمل أعبائها وإصلاح العالم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فليس هذا غرضه فلم يناسب التعبير بالرسالة؛ لأنه قد يوهم خلاف غرض كل منهم.

﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴿٥٦﴾

﴿٥٣﴾ ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ لجهلهم وعدم إيمانهم بها، فلذلك يعرضون وينفرون من الحق، وينقادون للحسد، و﴿يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ لا أنهم أهل لما يتمنونه وقوله: ﴿كَلَّا﴾ زجر وردع عن هذا التمني، أو عن الإعراض عن التذكرة.

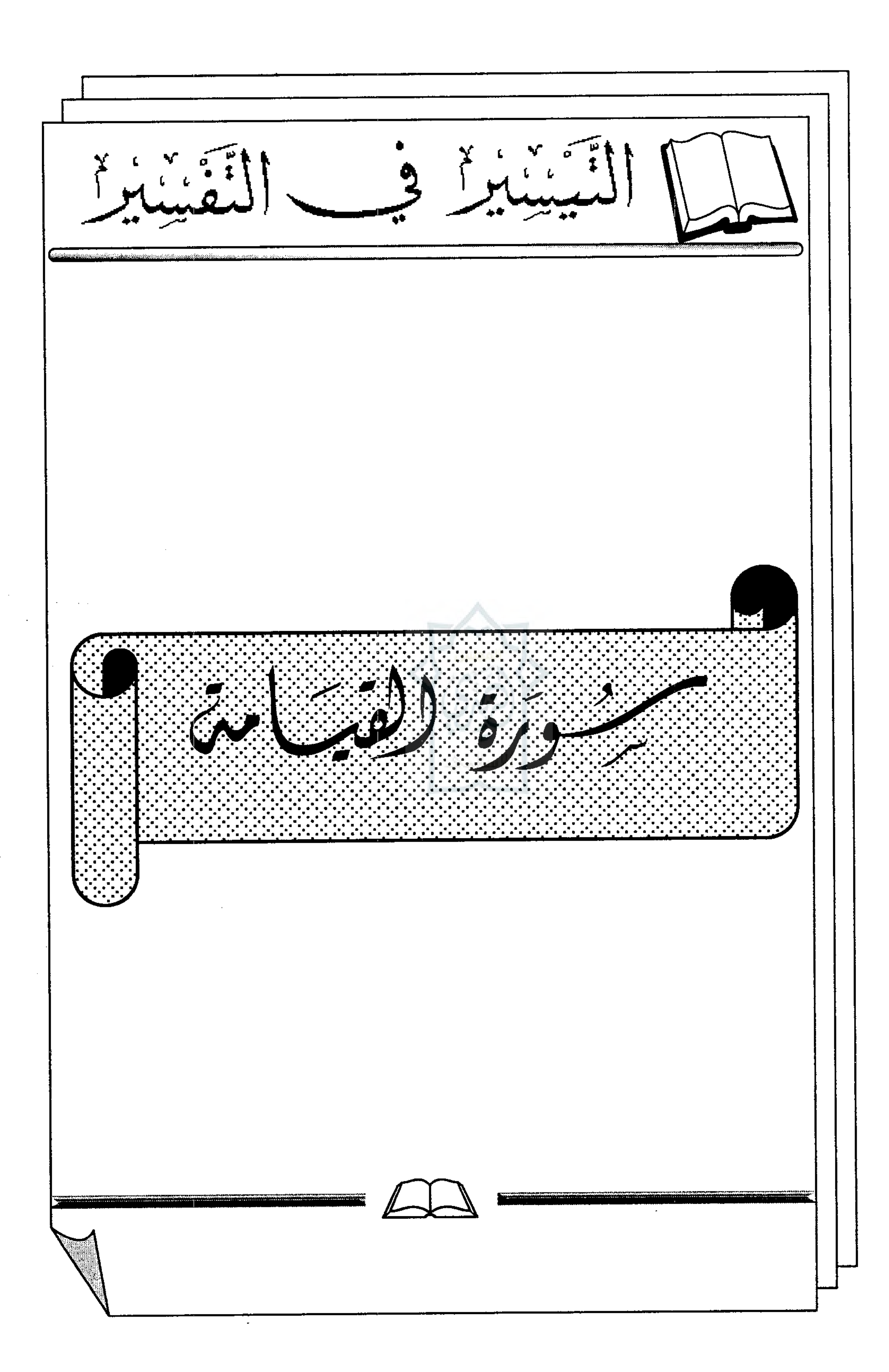
﴿٥٤﴾ ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾ زجر وردع عن إعراضهم عن التذكرة؛ لأنه تذكرة قامت بها الحجة عليهم.

﴿٥٥﴾ ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي ذكر اللّه وخافه وخشيه واتقاه، لينفع نفسه، وتذكير الضمير في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ لأنه عبارة عن القرآن، والسياق في الآيات رد على من قال: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ ومن كان على طريقته.

﴿٥٦﴾ ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ﴾ اللّه وتخشونه وتتقونه كما هو شأن الذاكرين اللّه، هذا على قراءة ﴿تذْكُرُونَ﴾ بالتاء ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ لأنكم مصرون على الكفر متمردون نافرون معرضون عن النظر واستماع الموعظة، فبينكم وبين الذكر مراحل، ولن يكون منكم إلا أن يشاء اللّه مصرف القلوب، هذا وأما الإمام الهادي عليه السلام فجعل الخطاب لغيرهم، فقال عليه السلام: «يقول سبحانه: إنكم لم تكونوا تقدرون على التذكرة والتفكرة والتمييز بين الحق والباطل لو أن اللّه لم يشأ أن يجعل فيكم استطاعة تنالون بها الفكرة والتمييز، وعقولاً تصلون بها إلى التذكرة، ولكنه شاء ذلك لكم فركبه وجعله بمنّه فيكم» انتهى.

﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ هو أهل أن يتقى ويحق له أن يتقى؛ لأن بطشه شديد وهو على كل شيء شهيد، وهو أهل لأن يغفر لمن اتقاه.




التيسير في التفسير
سورة القيامة



سورة القيامة

مكية ٧٥ — آياتها ٤٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام: ((معناها: ألا أقسم بيوم القيامة. قال: وإنَّما معناه إيجاب قسم)) انتهى، قلت: يعني: أنه مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ [الشرح:١] أي شرحنا.

وقال (صاحب الكشاف): ((والمعنى في ذلك: أنه لا يقسم بالشيء إلا إعظاماً له، يدلك عليه قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٥-٧٦] فكأنه بإدخال (حرف النفي) يقول: إن إعظامي له بإقسامي به كلا إعظام، يعني أنه يستاهل فوق ذلك)) انتهى، وفيه مشكلتان:

الأولى: أن حاصله: أن هذا نفي للقسم، لأنه يستاهل قسماً أعظم فيلزم أن قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة:٧٥] ليس قسماً، مع أنه قسم بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

المشكلة *الثانية*: أن كلامه وإن استقام في يوم القيامة وغيرها من المخلوقات، فلا يستقيم له في القسم بالله ـ عزَّ وجل ـ لأنه لا شيء أعظم منه سبحانه وتعالى، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج:٤٠] فالأرجح قول الإمام الهادي عليه السلام.

﴿٢﴾ ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام: ((هو أيضاً قسم طرحت منه الألف، كان معناها: أوَ لا أقسم بالنفس اللوامة، والنفس اللوّامة: فهي نفوس المتقين اللوامة، فهي النادمة المتحسرة التي تلوم صاحبها)) انتهى المراد.

يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ

وجواب القسم دل عليه السياق وهو: ليجزين الله كل نفس ما كسبت، أو لينتقمن من أعدائه.. أو نحو ذلك، لأن ذكر القيامة يشير إلى ما يكون فيها والجزاء من أهم ما يكون فيها.

﴿٣-٤﴾ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ * بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ فنبعثه فنجازيه ﴿بَلَىٰ﴾ سنجمعها ﴿قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ قال في (الكشاف): «أي أصابعه التي هي أطرافه وآخر ما يتم به خلقه» انتهى.

قلت: يعني فهو كناية عن إعادته خلقاً جديداً، وقال الإمام الهادي: «والبنان: فهو الخلق والجعل و﴿نُّسَوِّيَ﴾ فهو نجعل ونحيي ونرد إلى القوة كل ما قد بلي من عظم أو لحم حتى نرد بنانه إلى الاستواء بعد ما كان عليه من الخراب» انتهى.

قلت: في (لسان العرب) ما لفظه: «وقوله تعالى: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢] قال أبو إسحاق: البنان هاهنا جميع أعضاء البدن، وحكى الأزهري عن الزجاج، قال: واحد البنان: بنانة، قال: ومعناه هاهنا: الأصابع وغيرها من جميع الأعضاء» انتهى المراد. وحاصل المعنى: نجمع عظامه، قادرين على تسوية خلقه وإعادة جسمه كما كان.

﴿٥-٦﴾ ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ * يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ﴿يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أن يفجر في مستقبل أوقاته، ومعنى (يفجر) يسيء ويعصي إتباعاً لهوى نفسه، فهو يجادل في القيامة ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ﴾ متى ﴿يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:٤٨].

يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾

فـ﴿أَمَامَهُۥ﴾ اسم لما قبله من الزمان في هذه الحياة و﴿أَيَّانَ﴾ بمعنى (متى) فجداله في القيامة إنما هو اتباع لهوى نفسه، لا لمصلحة تعود على البشر؛ لأنهم إذا جحدوا تجرؤوا على الفجور.

﴿٧-١٠﴾ ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ * وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ * وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ * يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ ﴿بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ شخص وحار من فزع يوم القيامة، قال في (الصحاح): «يقال: شخَص بصره فهو شاخص، إذا فتح عينيه وجعل لا يطرف» انتهى، قلت: لعل المعنى أن بصره يصير مثل بصر المحتضر ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ ذهب وتلف وتهدم ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ قيل: يجمعان في التلف والذهاب.

والأرجح عندي ـ والله أعلم ـ : يجمعان للتلف بأن يصطدما، فعندما يعاين الإنسان أهوال القيامة ويوقن بها يقول: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ وقد كان ينبغي له أن يسأل أين المفر في هذه الدنيا حين جاءه النذير، فعند ذلك لو كان كذلك يقال له: المفر تقوى اللّه وطاعته، والإيمان به وبرسله، ففي قول اللّه تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إشارة إلى أن سؤاله بعدما فات الأوان، فهو في غير وقته الذي كان ينفع فيه؛ لأن قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بعد قوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ﴾ تجديد لذكر الوقت.

﴿١١﴾ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ ﴿كَلَّا﴾ زجر عن السؤال أين المفر؟ إنكار لطمعه في المفر ﴿لَا وَزَرَ﴾ لا منجا ولا مهرب.

﴿١٢﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ مستقر العباد، صائرين إلى اللّه ليسألهم ويحاسبهم، فمستقرهم في الموقف إليه وحده، ليحكم فيهم بما يشاء،

وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾

ويجزي كل نفس بما تسعى، وفي هذا قطع لأطماع المشركين الذين يقولون: إن آلهتهم تشفع لهم، فبيّن: أنهم لا يصيرون إليها لتدفع عنهم، إنما يصيرون إلى اللّه وحده، ويقفون ويستقرون للسؤال والحساب لا يجدون مفراً ولا ناصراً.

﴿١٣﴾ ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (النبأ): الخبر ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ من أعماله في حياته الدنيا ﴿وَ﴾ ما ﴿أَخَّرَ﴾ فيها، أي لا ينسى عمل من أعماله ولو تقادم عهده في حياته، ولا يترك شيء من عمله إلا أخبر به، ولعل إخباره باطلاعه على كتابه، ولا يبعد أنه يرى نفسه في كتابه كما في (التلفزيون) و(السينما) فيتذكر بمشاهدة صورته وصورة أعماله في الدنيا ويعلم ذلك يقيناً، لأنه يتذكره بالمشاهدة.

ويحتمل قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ من الطاعات والمعاصي ﴿وَأَخَّرَ﴾ وما أخر من الطاعات والمعاصي، فيدخل العصيان بترك الواجب، ويمكن أن يعرض ذلك كله، ويتذكر ما ترك بمشاهدة ظروفه في الكتاب كأن يرى نفسه متكئاً في وقت الصلاة ويمر الوقت وهو على أحواله المخالفة للصلاة، وهذا أظهر لعموم قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾.

﴿١٤﴾ ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ الإنسان على نفسه حجة بيّنة؛ لأن جوارحه تنطق بما قدم، فكأنه قيل: بل هو شاهد على نفسه، وتظهر فائدة الإضراب بقوله تعالى: ﴿بَلِ﴾ إذا فهمنا أن الإنسان ينبأ بما قدم وأخر احتجاجاً وتقدمه للجزاء.

﴿١٥﴾ ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ ﴿وَلَوْ﴾ طرح اعتذاراته التي لا تصح عذراً نافعاً وجاء بها يدافع عن نفسه، فشهادته على نفسه بنطق جوارحه لا تبطل بتلك المعاذير لو جاء بها.

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾

ولعل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ جاء على طريقة الفرض والتقدير، ولن يكون منه إلقاء المعاذير، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات:٣٦].

﴿١٦﴾ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه:١١٤] والمراد: إذا أوحي إليك قرآن فانتظر تمامه، وتأن حتى ينتهي وحيه، ثم اقرأه ولا تعجل بقراءته قبل تمام وحيه، أي لا تسارع إلى التلاوة في خلال وحيه إليك وانتظر تمام الوحي، وليكن المهم عندك إحرازه في قلبك بدون تحريك للسانك.

﴿١٧-١٨﴾ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ إن علينا أن تجمعه في قلبك وتقرأه بلسانك، فلا تعجل به خوفاً أن تنساه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ أتممنا قراءته، أي قرأ جبريل عليه السلام ما أنزل به في تلك المرة ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي قراءتنا، فالقرآن مصدر هنا أي فاقرأ كما قرأناه، فالإتباع هنا خاص باللفظ.

﴿١٩﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ علينا أن تبينه للناس لأنا أنزلناه إليك لتبيينه للناس، وهذا يتوقف على جمعك له في صدرك وإتقان قراءتك له كما أنزل، فلا تخف أن تنسى شيئاً قبل تبليغه أو عند نزوله قبل حفظه، فإنك لابد أن تحفظه وتقرأه وتتمكن من تبيينه للناس، فكان صلى الله عليه وآله وسلم مبيناً للقرآن من خلال إرشاداته، ومن خلال حركته وسيرته، وجميع مواقفه في الحياة، إذ أن ذلك كله كان من منطلق قرآني بحت، فكانت حياته ومواقفه وكلامه كلها بياناً للقرآن الكريم.

﴿٢٠-٢١﴾ ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ هذا راجع إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ وهو التفات إلى من كان الكلام فيهم، كأنه تعالى

يقول: ﴿كَلَّا﴾ لا تلقوا المعاذير فليست صدقاً وإن زعمتم أنها صدق لا تزعموا أنكم مستعدون لذلك، فلستم كذلك ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ ونظيره الإضراب في قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الأعلى:١٦] بعد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا﴾ [الأعلى:١٣] و﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ هي الحياة الدنيا، و﴿ٱلْأَخِرَةَ﴾ الحياة الآخرة عند البعث من القبور.

(٢٢) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ حسنة مشرقة لسرورها واطمأنانها واستبشارها والمراد أهل الوجوه، والوجوه: كناية عن أهلها؛ لأن سرور الإنسان يظهر في وجهه، ولأن بياض الوجوه علامة سعادتهم، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ..﴾ فأسند إليها الظن؛ لأن المراد أهلها.

(٢٣) ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام: «ومعنى ﴿نَاظِرَةٌ﴾ أي راجية لثوابه منتظرة كذلك، تقول العرب: ما أنظر إلا إلى الله وإليك ليست تريد بذلك النظر بـ(العين) وإنما تريد فضله وعطاءه» انتهى المراد.

قلت: ويناسب هذا قوله تعالى في أعدائه: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ فقابل رجاء المؤمنين بظن الفجار، ويناسبه ـ أيضاً ـ أن المؤمنين يتوقعون الخير من ربهم وحده دون غيره، فهو أنسب للحصر بتقديم ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ على ﴿نَاظِرَةٌ﴾ أما الكفار فيقولون: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ [الأعراف:٥٣].

وقد زعم بعض المخالفين أن تفسير الآية بـ(الانتظار) لا يصح؛ لأنه يدل على الافتقار وضعف الحال؟

والجواب: أن هذا غير صحيح، وإنما هذا في موقف الحساب قبل دخول الجنة، فهم يرجون من الله أن يدخلهم الجنة، وليس في هذا ضعف حال

لأنهم في موقف الحساب آمنون سعداء بأمنهم من النار ورؤيتهم أعداء اللّه في سوء الحال، وسعداء بظهور علامات الخير من بياض الوجوه وتيسير الحساب وغير ذلك، وإنما يدل الانتظار في الدنيا على ضعف الحال؛ لأن الدنيا ينظر الضعيف فيها إلى القوي، فضعف الحال فيها يقارن الانتظار، أما انتظار العبد للخير من ربه الذي بيده الخير فهو ضروري لكل مؤمن، ولا يدل على ضعف الحال الذي كان في الدنيا؛ لأن انتظار دخول الجنة لا يستلزم أن يكون المؤمن في موقف الحساب في شدة أو في حال ضعيفة.

يؤكد هذا أن نظر الوجوه لو كان معناه: توجيهها إلى اللّه لرؤيته، للزم أنه سبحانه في جهة مخصوصة توجّه الوجوه إليها، وهذا يستلزم التشبيه من حيث استلزامه تحديد المنظور إليه بالجهة التي اختصت بالنظر إليها.

وبهذا يظهر: أن الآية من المتشابه، وأن الواجب الإيمان بأنها من اللّه سواء قلنا بإمكان تفسيرها بالانتظار أم تعذر علينا تفسيرها ووقفنا متمسكين بالمحكم الموافق للعقول، وهو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] وقوله تعالى: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام:١٠٣].

ونضيف: أن النظر في الآية أضيف إلى (الوجوه) لا إلى (الأعين) فإذا جاز إسناد الظن إلى الوجوه؛ لأن المراد أهلها جاز إسناد الرجاء إلى الوجوه لأن المراد أهلها.

ونضيف: أن الرؤية لم تذكر في الآية، ولا يصح أن يكون النظر كناية عنها إلا حيث تكون الرؤية بواسطة النظر أي توجيه (العين) إلى جهة مخصوصة ولا يصح هذا في الآية كما قدمنا، ونضيف: أن (العين) لم تذكر فلا يصح الاستدلال بها على الرؤية بـ(العين).

وإذا ادعوا أن النظر كناية عن الرؤية؟

قلنا: ما المانع أن يكون كناية عن القرب الذي هو علو المكانة وارتفاع الدرجة، فيكون المعنى أنهم مقربون، كما كنى عن الطرد والإبعاد بالحجب في قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] والحجب: منع الزائر من الوصول إلى الملك، كما قال الشاعر:

لهم حجاب ولنا أنفس   تمنعنا الذل عزيزات

وكما قال الشاعر:

له حاجب عن كل أمر يشينه   وليس له عن طالب العرف حاجب

والحاجب: هو الخادم الذي يكون على باب الملك يمنع الناس من الدخول إليه إلا بإذنه، فأما من ظن أن معنى: ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] أنهم لا يرونه، فهو ظن غير مصيب؛ لأنه لو كان هذا هو المراد لكان التعبير: إن ربهم عنهم محجوب لا يكشف لهم الحجاب كما يكشفه للمؤمنين في زعم المشبهين لله سبحانه وتعالى.

(٢٤) ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ وهي وجوه أعداء اللّه تكون يوم القيامة ﴿بَاسِرَةٌ﴾ قال في تفسير (الغريب) للإمام زيد بن علي عليه السلام: «معناه: كالحة عابسة» انتهى.

وفي (الكشاف): «الباسر: الشديد العبوس» وفي (لسان العرب): «وبسر يبسر بسراً وبسوراً: عبس ـ ثم قال ـ: وفي (التنزيل العزيز): ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ وفيه: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ قال أبو إسحاق: بسر أي نظر بكراهة شديدة، وقوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ أي مقطبة قد أيقنت أن العذاب نازل بها» انتهى.

كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾

وفي (الصحاح): «وبسر الرجل وجهه بسوراً، أي كَلَحَ» انتهى، وفي (لسان العرب): «الكلوح: تكشير في عبوس. قال ابن سيده: الكلوح والكلاح بدو الأسنان عند العبوس» انتهى. ثم قال: «وفي (التنزيل): ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٤] قال أبو إسحاق: الكالح: الذي قد قلصت شفته عن أسنانه، نحو ما ترى من رؤوس الغنم إذا برزت الأسنان» انتهى.

قلت: وهذا يحصل من الخوف، وفي (قصيدة عنترة):

لما رآني قد نزلت أريده أبدى نواجذه لغير تبسّم

ويمكن تفسيره: بالمنع، على معنى: أن الذي منع نفسه رحمة الله عابس كالح يومئذ؛ لعلمه بسوء مصيره، فهو من التطبيق على الأمر الواقع الذي سيق له الكلام.

﴿٢٥﴾ ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ تتوقع أن يفعل بها في الحال ﴿فَاقِرَةٌ﴾ داهية دهياء ومصيبة عظمى، وأصل الفاقرة التي تصيب فقار الظهر أو تكسره، كقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف:٥٣] ولا ينافي هذا الظن أنهم موقنون بالعذاب.

﴿٢٦-٢٧﴾ ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ * وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ زجر عن حب العاجلة وترك الآخرة ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ النفس عند قرب الموت وخروج النفس بلغت ﴿ٱلتَّرَاقِىَ﴾ العظام التي في أعلا الصدر إلى الرقب المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ من هو بصير بالرقية ليرقي هذا المريض أو من يرقي هذا المريض.

وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ

قال الإمام الهادي عليه السلام: ‹‹أراد بذلك: الدليل على جهل الخلق بأمر اللّه، وقلة علمهم باقتضاء أجل صاحبهم، ويتوهمون أن ذا غير الموت›› انتهى.

﴿٢٨﴾ ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ﴾ فراق الروح للجسد، أي ظن أنه الموت أو فراق الإنسان لأهله، وفاعل ﴿ظَنَّ﴾ إما المريض المشرف على الموت، وإما القائل: ﴿مَنۡۜ رَاقٖ﴾.

﴿٢٩﴾ ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ بقيت الساق منضمة إلى الساق الأخرى لموتهما لا يفترقان بمشي ولا حركة، ويحتمل: انضمت الساق إلى الساق من وجع الموت، ولكن يشكل على هذا تقدم ﴿بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ فإن النفس إذا بلغت التراقي كان الساقان قد ماتا وذهبت حركتهما.

﴿٣٠﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾ أي سوق الميت إلى اللّه؛ لأنه راحل إلى الآخرة، وحضور موقف الحساب والجزاء، يساق إلى الآخرة وإلى لقاء ربه سوقاً، والحصر فيه بتقديم: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ لأنه يرجع إلى ربه لا إلى غيره ممن كان يظن الجاهلون أنهم شفعاؤهم عند اللّه، وهو جهل بالحقيقة لأن الأمر يومئذ لله وحده.

﴿٣١﴾ ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ بعد هذه المواعظ القوية التأثير والآيات الدالة على الآخرة من كلام أصدق القائلين، لا صدق المكذب للرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي ذكر في أول السورة، ولا صلى لربه الذي خلقه لعبادته.

﴿٣٢﴾ ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ﴿كَذَّبَ﴾ الرسول والقرآن ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن سماع كلام اللّه ورسوله، وانصرف وذهب.

(٣٣) ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ من ملاله لما سمع من كلام اللّه ورسوله، قال الإمام الهادي عليه السلام: «والتمطي: فهو مدّ اليدين والتلوي والتلفت بالمنكبين والتثني، ولا يقع هذا إلا بالمالّ لما هو فيه من الضجر» انتهى المراد.

ويدل على هذا قول الشاعر يصف مصلوباً:

أو قائم من نعاس فيه لوثبة   مواصل لتَمَطِّيه من الكسل

وفي (لسان العرب): «ومطى الشيء مطواً: مده. ثم قال: وتمطى الرجل تمدد. ثم قال: وتمطى النهار امتد، وقيل: كلما امتد وطال: فقد تمطى».

قلت: ويشهد لهذا قول امرئ القيس يصف ليلاً بالطول:

فقلت له لما تمطى بصلبه   وأردف أعجازاً وناءَ بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي   بصبح وما الاصباح منك بأمثل

ويشهد للتمطي من الضجر، قول الشاعر:

شممتها إذ كرهت شَمِيمي   فهي تمطى كمطا المحموم

ذكره في (لسان العرب) استشهاداً لاستعمال (مطا) بمعنى (تمطى).

(٣٤-٣٥) ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ خطاب لهذا المكذب المتضجر من سماع كلام اللّه ورسوله. قال الإمام الهادي عليه السلام: «ومعنى ﴿أَوْلَىٰ﴾ هو كِيْدَ لك، ومعنى كيد لك: أي كاد أخذ ربك أن ينزل بك» انتهى المراد.

وقال في (الصحاح): «وقولهم: أولى لك، تهدّد ووعيد، قال الشاعر:

فأولى ثم أولى ثم أولى   وهل للدَّرّ يحلَب من مَردّ

قال الأصمعي: معناه: قاربه ما يهلكه أي نزل به، وأنشد:

فعادَى بين هاديتين منها   وأولى أن يزيد على الثلاث

أي قارب أن يزيد، قال ثعلب: «ولم يقل أحد في (أولى) أحسن مما قال الأصمعي» انتهى.

نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

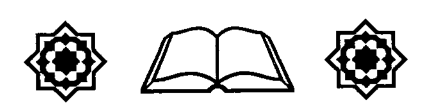
﴿٣٦﴾ ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: مهمل لايؤمر ولاينهى ولايحاسب ولايعذب» انتهى، وهذا مناسب لسياق السورة؛ لأن المكذبين بالقيامة والرسول والقرآن كأنهم يحسبون أن الله يتركهم هملاً.

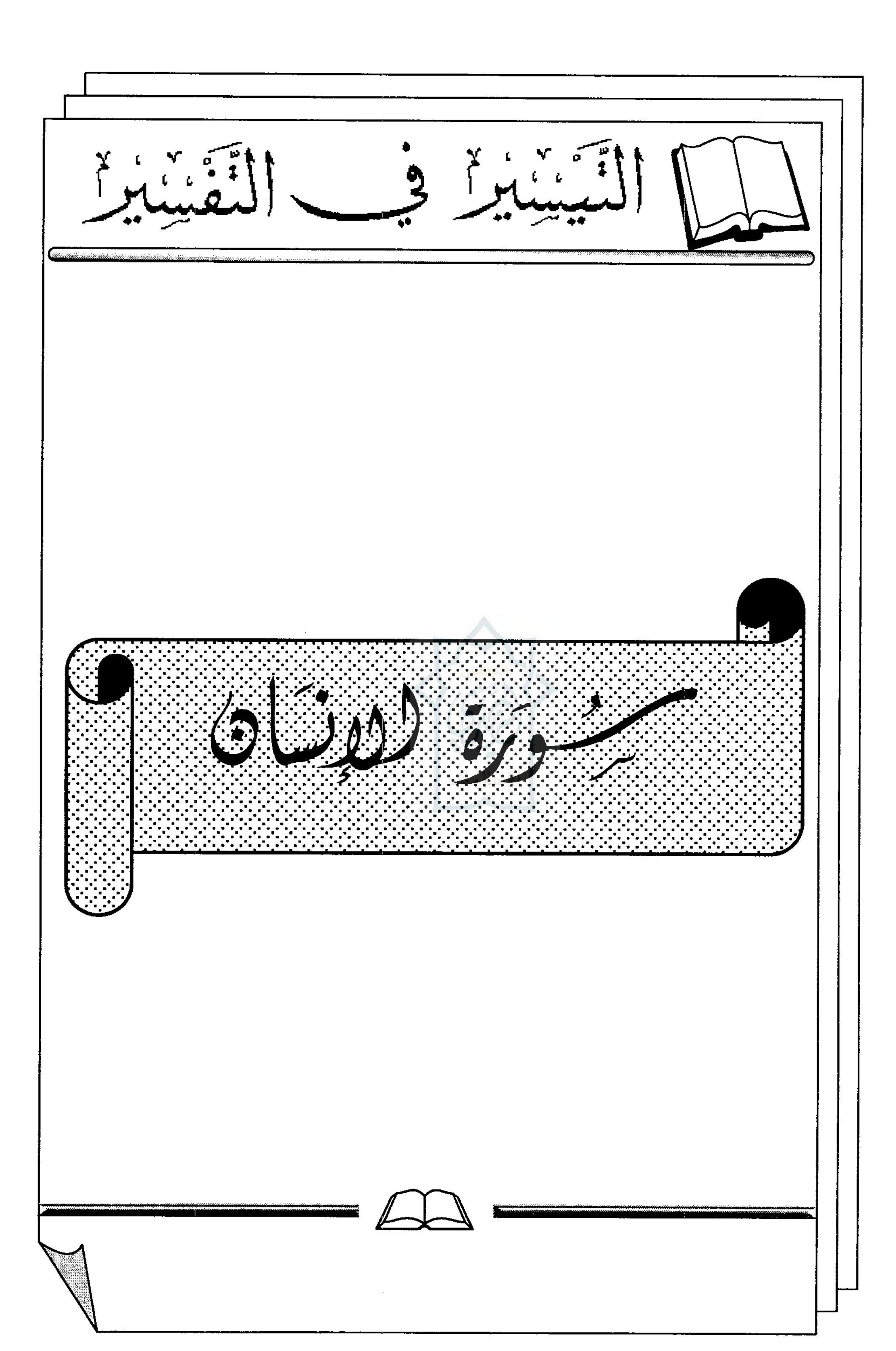
﴿٣٧﴾ ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ ألم يكن ماء من مني تمنى، أي تراق وتصب في الأرحام.

﴿٣٨﴾ ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ دماً جامداً ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي خلقه في بطن أمه ﴿خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر:٦] ﴿فَسَوَّىٰ﴾ ما خلق أي أتقن صنعه وجعله سوياً محكم الصنعة.

﴿٣٩﴾ ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ ﴿مِنْهُ﴾ أي من المني ﴿الزَّوْجَيْنِ﴾ الصنفين الذكر والأنثى، وهذا من أعظم الدلائل على قدرة الخالق وعلمه، وأنه كما قدر على خلقه قادر على إعادته.

﴿٤٠﴾ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾ الخالق المسوي الجاعل من المني الزوجين ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ بلى إنه على كل شيء قدير، فكيف يحسب الإنسان ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾؟!!




التيسير في التفسير
سورة الإنسان



سورة الإنسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾ يعلم أنه ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا﴾ يذكر، وذلك حين كانت الأرض موجودة، والسماء والشمس والقمر، وكثير من المخلوقات دون الإنسان، والواحد منا يعلم أنه لم يكن شيئاً يذكر قبل أن حملته أمه.

فالسؤال بقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ معناه التقرير للإنسان على ما هو يعلمه، ولذلك قال الإمام الهادي عليه السلام: «فمعنى ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ أي قد أتى» انتهى، و﴿ٱلدَّهْرِ﴾ الزمان الطويل من يوم خلق اللّه السماوات والأرض، أو من أول مخلوق خلقه اللّه وكائن كونه، ومعنى ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ أنه لم يكن قد خلق فلم يكن يذكر.

فالحاصل: أنه قد أتى عليه حين من الدهر قبل أن يخلق ثم خلقه اللّه، فهذا دليل على الخالق القادر العالم لأنه خلقه بعد أن لم يكن.

﴿٢﴾ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ هي المني ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أخلاط مختلطة أي مؤلفة من أجزاء مضموم بعضها إلى بعض، قال الراغب الأصفهاني: «﴿أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ أخلاط من الدم» وقال في (الصحاح): «مشجت بينهما مشيجاً: خلطت، والشيء مشيج، والجمع: أمشاج، مثل: يتيم وأيتام، ويقال: نطفة أمشاج لماء الرجل يختلط بماء المرأة ودمها».

وقال في (لسان العرب): «المشْج والمَشِج والمشَج والمشيج، كل لونين اختلطا ـ ثم قال ـ : المشيج المختلط من كل شيء مخلوط، وفي حديث علي رضي الله عنه: ‹ومحط الأمشاج من مسارب الأصلاب› يريد المني الذي يتولد منه الإنسان» انتهى، ومثله في (نهاية ابن الأثير).

والذي يظهر: أن المعنى: أخلاط مؤلفة، فأما ما هي الأخلاط فمرجعه إلى الاستدلال والنظر، وفي (تفسير سيد قطب): «والأمشاج: الأخلاط، وربما كانت هذه إشارة إلى تكون النطفة من خلية الذكر وبويضة الأنثى بعد التلقيح، وربما كانت هذه الأخلاط تعني الوراثات الكامنة في النطفة والتي يمثّلها ما يسمونه علمياً (الجينات) وهي وحدات الوراثة الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولاً ولصفات الجنين العائلية أخيراً، وإليها يعزى سير النطفة في رحلتها لتكوين جنين الإنسان لا جنين أي حيوان آخر، كما تعزى إليها وراثة الصفات الخاصة في الأسرة، ولعلها هي هذه الأمشاج المختلطة من وراثات شتى» انتهى.

ففي خلق الإنسان منها بيان لقدرة الله على إعادته بعد الموت، وفي هذا البيان ابتلاء للإنسان أيؤمن أم يكفر؟! وابتلاء له أيشكر أم يكفر النعمة؟! ولذلك قال تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عبس:١٧-١٩] وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢] فقد احتج عليه بخلقه من النطفة، وكان خلقه من النطفة اختباراً من حيث هي دليل واضح يمتحن به من يستعمل عقله ومن يكابر ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ وفي هذا دليل واضح على قدرة الله وعلمه، حيث صار سميعاً بصيراً بعد أن كان نطفة، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا﴾ إشارة أن ذلك كان بقدرة الله وعلمه وحكمته وعظمته وجلاله، كما في الآيتين بعدها.

ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾

﴿٣﴾ ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ﴿هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ الذي هو سبيل اللّه وطريق الحق، أي بيناه له بالعقل والسمع والبصر والرسول والكتاب ﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾ لنعمة الهدى وسائر النعم ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ في حال هذا البيان لنعم اللّه كلها، قال الإمام الهادي عليه السلام: «والشاكر: العارف بفضل ما أولي الذاكر له بلسانه وقلبه، والكفور: فهو المعرض عن حمد من أولاه الجميل الذي ليس بشاكر ولا ذاكر» انتهى، وله كلام آخر يجعل الفاسق كافر نعمة.

﴿٤﴾ ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أعددنا و(الكافرين) هنا: من كفر نعمة اللّه و(السلاسل) من الحديد و(الأغلال) قيود من الحديد، والأغلال تغل بها أيديهم وأعناقهم فتجمع اليدان والعنق في قيد قصير نعوذ بالله، و(السعير) النار المسعرة الشديدة التوقد.

﴿٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ هذا وعد للأبرار وهم المؤمنون العاملون بطاعة اللّه، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ..﴾ إلى آخر الآية [البقرة:١٧٧] و(الكأس) هنا كما في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: من خمر» انتهى.

وقد كثر استعماله في الكوب الذي فيه خمر، وإطلاقه على الخمر نفسها كناية، وأصله الكوب من الزجاج، أو أصله الكوب بما فيه من الخمر، ثم يستعمل في أحدهما وحده، قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَعِينٍ ❁ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِلشَّٰرِبِينَ﴾ [الصافات:٤٥-٤٦].

عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴿٧﴾ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا

وقوله تعالى: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ دليل أن المراد: الشراب، أو جملة الكوب والشراب، والمزاج: ما يمزج به أي يخلط به، و(الكافور) نوع من الأطياب أبيض اللون قوي الرائحة بارد، وقال الإمام الهادي عليه السلام: «ومعنى ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ فهو إخبار من الله أن طعم ما يشرب من تلك المياه يوجد كالمخلوط بالكافور، وهو أطيب ما يكون طعماً ورائحة» انتهى.

﴿٦﴾ ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾ (العين) ما يخرج من الأرض أو الأحجار من الماء ونحوه، وهو يدل على توفر هذا الشراب وكثرته، خلاف خمر الدنيا التي تعز على أهلها ويتلفون فيها أموالهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾ فهو يدل على غزارتها وتوقفها على اختيارهم، إن شاءوا فتحوا لها فانفجرت، وإن شاءوا أغلقوا.

و﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ هنا: أولياؤه المتقون، كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا.﴾ إلى آخر الآيات في (سورة الفرقان) فهم عباده الذين تعبدوا له في الدنيا وحققوا في سلوكهم معنى العبودية، وقد أقيم عباد الله مقام الضمير إن كان المعنى يشربون أي الأبرار وهو الراجح، وفائدة ذلك الإشارة إلى سبب هذه النعمة.

﴿٧﴾ ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ وهذا من صفة ﴿عِبَادُ اللَّهِ﴾ والنذر: المنذور به، وهو ما أوجبه العبد لله على نفسه من عمل أو نفقة ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ أي يخافون يوم القيامة ومعنى ﴿كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ كان شره كثيراً منتشراً شائعاً.

وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): «معناه: فاش» انتهى، وقال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «ولا تجوز صلاة الصبح حتى يعترض الفجر ويتبين وينتشر نوره وضوءه في الأفق، فإذا انتشر وأنار واستطار في الأفق واستضاء لذوي الأبصار وجبت الصلاة..» إلخ، فقال: «واستطار» والمعنى: انتشر، وفي (مفردات الراغب الأصبهاني): «وفجر مستطير: أي فاش، قال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾» انتهى. واسْتَطَارَهُ شر يوم القيامة لكثرة أهواله وشدة زلزاله وكثرة أهل النار.

﴿٨﴾ ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ على حب الطعام وشهوته بسبب أن هؤلاء الأبرار جائعون، لكنهم آثروا على أنفسهم ﴿مِسْكِينًا﴾ محتاجاً شديد الفقر ﴿وَيَتِيمًا﴾ صغيراً لم يبلغ وقد مات أبوه ﴿وَأَسِيرًا﴾ مقيداً من الأعداء قد أخذه المسلمون في الحرب، قال الإمام الهادي عليه السلام: «والأسير: كل مأسور قد أوثق أسره، واشتد عليه بالأسر حاله وأمره، ممن لا يقدر على ماله وأهله من الأسارى الذين أسرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الكفرة الفاجرين، وكذلك من أسرته الأئمة الهادون من متأول فاجر أو جاحد كافر» انتهى المراد.

وذكر الإمام الهادي عليه السلام في كتاب (الأحكام) في أوله، وفي (التفسير) أن هذه الآيات من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ نزلت في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام.

وفي (الدر المنثور) للسيوطي ـ من كبار علماء أهل السنة ـ عند ذكر هذه الآيات: «وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ..﴾ الآية. قال: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب، وفاطمة بنت محمد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم» انتهى.

وفي (شواهد التنزيل) رواية نحو هذا عن ابن عباس من طرق، وعن علي عليه السلام، وعن زيد بن أرقم فطالعه، وفي كتاب (مناقب أمير المؤمنين عليه السلام) لمحمد بن سليمان الكوفي رواية ذلك عن علي عليه السلام من طريق زيد بن أرقم [ج١/ ص١٦٤].

وأورد الحاكم الحسكاني روايات عن ابن عباس وغيره من المفسرين حاصلها: أن (سورة هل أتى على الإنسان) مدنية، وقد اعترض بعض المفسرين على هذا القول، ورجح أنها (مكية) لما فيها من صور النعيم وطول وصف النعيم وتفصيله، وما فيها من صور العذاب الغليظ، وما فيها من توجيه رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم إلى الصبر لحكم ربه وعدم إطاعة آثم منهم أو كفور؟

والجواب: أن كثيراً من السور يقال: (مكية) أو (مدنية) وليست كلها مكية أو مدنية، فلو فرضنا أن السورة (مكية) باعتبار الأربع الآيات في أولها، ومن قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ..﴾ إلى آخر السورة فلا نسلم أن الآيات في وسطها (مكية) لكثرة الروايات في نزولها في أهل البيت عليهم السلام، كما يعرفه الباحث المتطلع، مع الروايات أنها (مدنية) وهو جمع بين القولين.

وأما ما فيها من صور النعيم فإنه مناسب للترغيب في الإنفاق والإيثار على النفس؛ لأنه أمر ثقيل على النفس، فالترغيب المفصل يعين عليه،

وكانت الحاجة في المدينة إلى الإنفاق ظاهرة، وخصوصاً إطعام اليتيم مع تعدد اليتامى أبناء الشهداء، وإطعام الأسير مع أنه لا يعرف هذا إلا بالمدينة، وإطعامه يعين على إبقائه حتى يفدي دون أن يقتل بالجوع أو يطلق بلا فدية، وإطعام المسكين فقد كثر المساكين بالمدينة كأهل الصفة فكانت الحاجة إلى إطعامهم، ومصلحة ذلك في الإسلام تستدعي البسط في الترغيب والبسط في الترغيب لمن قد آمن هو أنفع من ترغيب الكفار الذين لا يؤمنون بالجنة، فمظنته المدنية لكثرة من قد آمن، أما الكفار فإنما المهم في حقهم الترهيب.

وترى (سورة الهمزة) و(سورة التكاثر) و(سورة أرأيت) كلها ترهيب خالص وهن (مكيات) إلا ما قيل في آخر (أرأيت) فأما ذكر (الآنية) فلا يدل على أنها (مكية) لأن الترغيب صالح للمدينة وغيرها وكذا (الحرير) ويكفي في معرفته السماع به وإن كان عزيزاً لا يوجد عندهم فهو أبلغ في الترغيب.

فأما صور العذاب الغليظ فهي في أولها، ولا يبعد أنه (مكي) ولا وجه لجعله لا يصلح (للمدينة) ففيها وحولها من يحتاج إلى الترهيب، وموافقته لترهيب كفار مكة لا دلالة فيه على ذلك؛ لأنه ترهيب للبشر أينما كانوا صالح لكل بلد.

وقد جاء في (سورة محمد) ﷺ الترغيب المفصل في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [محمد:١٥] وهي (مدنية) بدليل الأمر بالقتال، وبدليل قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد:١٣] وغير ذلك، وكذا في (سورة الرحمن) ترغيب طويل مفصل وهي (مدنية)

وفي (سورة الحج) ترهيب بالمقامع من حديد، وهي (مدنية) فلا وجه لما طول به المعارض لنزول الآيات في أهل البيت، فقد ظهر انحرافه عن الاعتراف بالآيات النازلة فيهم المشهور نزولها فيهم، والظاهر من لفظها كـ(آية التطهير) و(آية المباهلة) و(آية المودة).

(٩-١٠) ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ ﴿لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ تقرباً إليه وتوسلاً إلى رضاه ورحمته، لأن الراضي عنك يقبل إليك بوجهه، والمحب لك يقبل إليك بوجهه فهو من المجاز، كما أن الساخط يعرض عنك ولا ينظر إليك، فعبر عن السخط بترك النظر في قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:٧٧] وقال أولاد يعقوب: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا..﴾ إلى قولهم: ﴿..يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف:٨-٩] كان يعقوب عليه السلام يكثر الإقبال على يوسف وأخيه لحبهما، فقالوا: ﴿اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف:٩] ليقبل إليكم بوجهه ولا يقبل إلى غيركم، وقد غلطوا في التوسل إلى إقباله بظلم يوسف، ولكنهم أرادوا أن لا يبقى معارض لهم في وجه أبيهم، أي في إقباله ونظره.

﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ ﴿جَزَآءً﴾ بخدمة أو عطاء متى تمكنتم ﴿وَلَا شُكُورًا﴾ بإظهار نعمتنا عند الناس بالثناء مثلاً، وهذا تعبير عن خلوص نيتهم في التقرب إلى الله، فأما هل قالوا ذلك بألسنتهم أو أضمروه في قلوبهم من دون أن ينطقوا به؟ فالله أعلم، وقد يمكن أنهم تكلموا بذلك لمن خافوا منه الثناء في الناس والمكافأة بأي وسيلة لئلا يقع منه ذلك، وهذا هو ظاهر الخطاب بقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ﴾ ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ﴾.

وفي تفسير (الغريب) للإمام زيد بن علي عليه السلام: «أما إنهم لم يتكلموا به ولكن علم الله تعالى ما في قلوبهم فأثنى عليهم ليرغب فيه راغب» انتهى، ومثله روي عن غيره من المفسرين، ويرجحه قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ فالأقرب: أنه حكاية للسان حالهم، وقد كان والدي رحمه الله إذا قرأ هذه السورة في الصلاة يبكي إذا بلغ عند هذه الآية؛ لأنه يتذكر أنهم خافوا وهم أهل الطهارة والعصمة يوم القيامة العبوس القمطرير، فكيف لا نخافه نحن وقد وصفه الله هذا الوصف.

ومعنى ﴿عَبُوسًا﴾ كثير العبوس، وهو تمثيل لشدته وتشبيه له بالغضبان المقطب لوجهه الداهية، أو المراد: وصف أهله الخائفين بالعبوس الشديد فهو مثل: ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة:٢١].

وفي (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «والقمطرير: الطويل» انتهى، ولعله يعني: أنه لطوله تضاعفت شدته وتراكمت أهواله، فهو كتفسير الإمام الهادي عليه السلام، حيث قال: «والقمطرير: فهو المتضاعف الشدة، الصعب الأمر، الذي ليس بعد شدته شدة، المتراكبة شدته شيئاً فوق شيء» انتهى.

وفي (الصحاح): «يوم قماطر، ويوم قمطرير: أي شديد، قال الشاعر:

بني عمنا هل تذكرون بلاءنا عليكم إذا ماكان يوم قماطر

بضم القاف، واقمطرّ يومنا: اشتد. أبو عبيد: المقْمَطِرّ: المجتمع» انتهى المراد، وأنشد الزمخشري في (الكشاف):

«واصطليت الحروب في كل يوم باسل الشرّ قمطرير الصباح»

انتهى، قلت: يعني شديد البأس صباحُه.

وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ

﴿١١﴾ ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾ (وقاهم): أنجاهم من ﴿شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ الذي هو يوم القيامة العبوس القمطرير، ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ﴾ جعلها في أجسادهم أي جمالاً وبهجة وحسناً يؤدي إليه سرورهم واستبشارهم فاجتمع لهم نضرة الوجوه والأبدان وسرور القلوب، والتعبير بقوله تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ﴾ يشعر: بأنه جعل لهم ذلك يوم يلقونه، كقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ﴾ [الأحزاب:٤٤] فهو تقدمة لكرامتهم وعنوان لها.

﴿١٢﴾ ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا﴾ ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ في الدنيا على ما ابتلاهم به، وعلى التكاليف الشاقة، وعلى الإيثار على أنفسهم فهو صبر كان قرين حياتهم الدنيا التي طالما لاقوا فيها العناء والأذى والمنغصات من الفتن التي مالت بالناس، مع حرصهم على قوة الدين والمنغصات الأخرى من تخاذل الناس عن نصرتهم، وتثاقل الناس عن طاعتهم، حتى قال أمير المؤمنين عليه السلام كما في (نهج البلاغة): «لقد ملأتم صدري قيحاً» فجزاهم الله الجنة بما فيها من النعيم.

وقوله تعالى: ﴿وَحَرِيرٗا﴾ ابتداء لوصف ما في الجنة، ولعل (الحرير) هنا فراشهم ونحوه، أما (اللباس) فيأتي في قوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ..﴾ الآية.

﴿١٣﴾ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا﴾ الاتكاء: الميل بالبدن معتمداً على المرفق، أو هو أعم من أن يكون على المرفق بأن يكون على اليد أو على الجنب، قال الإمام الهادي عليه السلام: «والاتكاء: فهو الميلان يميناً ويساراً» وقال عليه السلام: «والاتكاء: فهو ضرب من الاضطجاع، وهو ما كان من الاتكاء على جانب».

و﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ قال فيها الإمام الهادي عليه السلام: «و﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ فهي الأرائك المعروفة التي تضرب في صدور البيوت، يرقد فيها ويتكأ عليها ويرخى جوانبها على من فيها من أهلها وتذال جوانبها وأغشيتها، وهي تكون كلها من الحرير..» إلى أن قال عليه السلام: «..وقد قال غيرنا: أن ﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ هي الأسرة، وليس بمعروف في اللغة ولله الحمد» انتهى.

قلت: فعلى هذا تكون ﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ فوق السرر، فلا تعارض بين التفسيرين في الواقع إلا في مفهوم ﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ وفي (لسان العرب): «قال المفسرون: ﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ السرر في الحجال.

وقال الزجاج: ﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ الفرش في الحجال.

وقيل: هي الأسرة. وهي في الحقيقة الفرش كانت في الحجال أو في غير الحجال. وقيل: الأريكة: سرير منجد مزين في قبة أو بيت فإذا لم يكن فيه سرير فهو حجلة» انتهى.

قلت: هذا القيل لـ(صاحب الصحاح) قال فيها: «والنجد: ما ينجّد به البيت من المتاع أي يزيّن، والتنجيد: التزيين، قال ذو الرمة:

حتى كأنّ رياضَ القفِّ ألبَسَها ... مِن وَشْيِ عبقر تجليل وتنجيد»

انتهى باختصار، وقول الإمام الهادي عليه السلام: «ويُرخَى جوانبها على من فيها من أهلها..» إلخ، لعله يعني: عند النوم للتدثر، وهذا في الدنيا، وذكر الاتكاء يدل على راحتهم فلا سفر شاق ولا مزاولة أعمال، ولا حاجة للذهاب لتحضير الحاجات، بل لهم خدم يأتونهم بما طلبوا، ولا ينافي هذا تنقلهم في بعض الحال، وتجولهم في الجنات للتزاور أو الانتقال من قصر إلى قصر أو نحو ذلك، والروايات في هذا تفيده.

ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ يدل على أنه لا يؤذيهم حر شمس ولا برد ولا ينافي هذا وجود شمس، و(الزمهرير) البرد الشديد كما أفاده الإمام الهادي عليه السلام.

﴿١٤﴾ ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ ظلال الجنة: ظلال شجرها الكبار الباسقة، وعلى هذا يكون كظلال السحاب فلا يرون شمساً لدنوّ ظلالها عليهم ففي الكلام دلالة على سلامتهم من الحر والقرّ، وعلى عظم أشجار تظلهم، وقد روي في قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة:٣٠] «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام» أو كما قال، والظاهر من هذه الآية: أن هناك شمساً تحجبها الشجر.

﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أي ذللت ثمارها التي تقطف، أي سهّل تناولها وقطعها تسهيلاً، فلا يجد القاطف لها أي مشقة في قطفها لقربها وسهولة قطفها، قال تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:٢٢-٢٣]. وقال الإمام الهادي عليه السلام: «ولا أحسب ـ والله أعلم ـ أن الله عنى بهذا الظلال في هذا الموضع إلا ظلال الأشجار الدانية والثمار المتهدلة» انتهى.

قلت: فيكون المعنى: أنهم إذا خرجوا من الدور أو من الغرف أظلتهم الشجر للدلالة على دوام ظل الشجر وعمومه حيث كانوا خارج القصور، كما قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد:٣٥] فالمعنى: متكئين على الأرائك في حال ودانية عليهم ظلالها في حال، أما دنو القطوف فيحتمل: أنها تثقل عند كمالها ونضجها حتى تميل بالغصون إلى أسفل، وبذلك تقرب من قاطفها، كما يشير إليه قول الإمام الهادي عليه السلام: «والثمار المتهدلة».

ويدل عليه وصفها في سورتين بأنها ﴿دَانِيَةٌ﴾ بالجملة الإسمية الدالة على الاستمرار، ويحتمل: أنها تدنو لقاطفها وتدلّى إليه كما روي، والأولى - إن صح الحديث - الجمع بين الأمرين، فهي دانية بتهدّلها بعض الدنو.

وفائدة وصفها به: أن لا يتوهم من علو الشجر وارتفاعها بُعد الثمر كما في الدنيا، بل تدنو عند القطف مساعدة لقاطفها - والله أعلم - لأنها قد ﴿ذُلِّلَتْ﴾ فلا تصعب بل تنقاد لأمره.

(١٥) ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ يجاء بالآنية تعرض عليهم ليأكلوا مما فيها أو يشربوا و(الآنية) الأوعية من الصحاف وغيرها، وفي هذا دلالة على الثروة العظيمة وزيادة النعيم حيث آنيتهم ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ دلالة على تكريمهم حيث يطاف بها عليهم كالأضياف، والأكواب التي يشرب بها معروفة، لكنها في الدنيا تكون من الزجاج أو نحوه، أما في الجنة فلها نسبتان نسبة إلى (الفضة) ونسبة إلى (القوارير) أي الزجاج، فله قوة الفضة ومرونتها، وله صفاء الزجاج وشفافيته.

(١٦) ﴿قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ قدروا هذه الآنية تقديراً حسناً جميلاً، وتقدير الآنية: إما تقدير كبرها وصغرها وشكلها على ما يطابق أغراضهم؛ لأن هذا زيادة في حسن الآنية، والمقدرون لها إما الولدان وإما أهل الجنة، أي يأمرون بصنعتها كما يشاءون، أو يطلبون وجودها كما يرغبون، وإما تقدير إحضارها لدى أهل الجنة، والتقدير إما من أهل الجنة وإما من الولدان، والأول أرجح عندي: أن تقدير الآنية طلب أن تكون في كبرها وصغرها وهيئاتها كما يشاءون.

كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ

﴿١٧﴾ ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً﴾ والأقرب: أنه كأس خمر مزجت بالزنجبيل فطابت رائحته وطعمه، ولا شك أنه زنجبيل أفضل من زنجبيل الدنيا، وزنجبيل الدنيا متفاضل فزنجبيل هذه البلاد الرطب يكون لذيذاً جداً، ولا موجب للتأويل وحمله على طعم الزنجبيل ورائحته دون وجود الزنجبيل وكذلك الكافور.

﴿١٨﴾ ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً﴾ تبيين للكأس أي لما في الكأس كقوله تعالى: ﴿وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ [الواقعة:١٨] وفي قوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ إشارة إلى زيادة حسن هذه العين، من حيث أنها لكونها في الجنة تكون أحسن مما في الدنيا وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا﴾ تفيد: أن الشراب هنيء لذيذ من حيث أنه في الجنة، قال الإمام الهادي عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿سَلْسَبِيلاً﴾: «هو اسم لتلك العين، ومعناه: العذب الطيب السلس المدخل المري الغذاء» انتهى.

﴿١٩﴾ ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ (الولدان): هم الخدم، وقوله تعالى: ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ الأقرب عندي في معناه: أنهم لا يمرضون ولا يلحقهم تنغيص، فهم نظاف مما قد يكون في الخدم من الزكام والسعال والبخر، سليمون من المرض الذي يمنعهم من الخدمة أو يثقلها عليهم، سليمون من القلق والنزق، فهم يخدمون بنشاط وحسن أخلاق وطيب نفوس، واستعمال (مخلد) بمعنى المحفوظ من الآفات والمصائب ظاهر في قول امرئ القيس:

ألا عم صباحاً أي الطلل البالي ... وهل يعمن من كان في العصر الخالي

وهل يعمن إلا سعيد مخلد ... قليل هموم ما يبيت بأوجال

نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ

وهذا من المجاز، كأن الخلود لا يكون إلا بالسلامة من الآفات، وكأن الآفات هي التي تهلك الإنسان، فاستعمل الخلود في لازمه الذي هو السلامة من الآفات، ولعل منه قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ [ق:٣٤] وأما الراغب الأصفهاني فقال: «الخلود: هو تبرئ الشيء من اعتراض الفساد وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد تصفه العرب بالخلود..» إلخ.

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ إذا رآهم الرائي أي شخص كان، أو المراد رسول الله ﷺ ﴿حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ لقوة مشابهتهم للؤلؤ في صفائه وبياضه وجماله يحسبهم لؤلؤاً، إما في أول خاطر قبل التحقق في الرؤية، أو يحسبهم خلقوا من لؤلؤ منثور، والمنثور: الذي نثر من صدفه فهو في غاية الجمال لنظافته وجدته، أو أن الخدم المتفرقون في المكان شبهوا باللؤلؤ المنثور المتبدد، وفي هذه الآية ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ وفي التي قبلها ﴿وَيُطَافُ﴾ لأن الأولى لذكر ما يطوفون به لا للخدم، والثانية لوصف الخدم.

﴿٢٠﴾ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ ﴿ثَمَّ﴾ أي هناك في الجنة إذا رأيت رأيت قصوراً من ذهب وفضة، وآنية من ذهب وفضة، ولباساً من الحرير، وممالك كبيرة، وخدماً، وأشياء يعرف بها تعظيم أهلها وتكريمهم، وأنهم ملوك لما تحتهم من الممالك والخدم.

﴿٢١﴾ ﴿عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ ﴿عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ وفي

(سورة الكهف): ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [آية:٣١] وكلاهما من الحرير، قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج:٢٣] وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام) لقوله تعالى: ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن:٥٤]: «والاستبرق ليس في صفاقة الديباج، ولا خفة الفريد» انتهى.

وقد اختلفت أقوال المفسرين في تفسيرها، فبعضهم فرق بينهما باللون، وبعضهم بالصفاقة والرقة، ولكن يظهر اتفاقهم على: أنهما من الحرير، ويمكن أن السندس كله أخضر، وأما الإستبرق فبعضه أخضر وبعضه أحمر - والله أعلم.

قال الإمام الهادي عليه السلام: «والسندس والإستبرق: فهو من الحرير والديباج، غير أن السندس أخضر والإستبرق أحمر» انتهى، وفي (تفسير الشرفي) لـ(سورة الكهف): ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [آية:٣١]: «والمراد منه سندس الآخرة وإستبرق الآخرة، والأول: هو الديباج الرقيق، وهو [من] الحرير، والثاني: هو الديباج الصفيق» انتهى، وعبارة سيد قطب: «والسندس: الحرير الرقيق، والاستبرق: ما غلظ منه» انتهى، وقال (صاحب القاموس) في السندس: «معرب بلا خلاف».

﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ ﴿حُلُّوٓاْ﴾ جعل لهم حلية يلبسونها زينة لهم و﴿أَسَاوِرَ﴾ جمع سوار وهو من الحلية الذي يلبس على المعصم أي مكان الساعة من اليد في هذا الزمان، وقد جاء في السابقين في (سورة فاطر): ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [آية:٣٣] وفي (سورة الحج) عموم للذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [آية:٢٣].

فيحمل: على أن لهم أساور منوعة ذهب وفضة، ولكل منهما حسنه، ولعل الذهب لا يكون أعز من الفضة لكثرتهما وسهولة حصولهما، ولعله السر في ذكر الفضة وحدها أنها هناك تبلغ درجة الذهب.

سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ﴿٢٣﴾ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ﴿٢٤﴾ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ

وفائدة أخرى: أن لا يوهم أنهم يجمعون بينهما في اللبس، بل يلبسون الفضة وحدها، والذهب وحده؛ لأنه أوفق لجمالهم ونضارة أجسادهم، وأما اللؤلؤ: فهو من الحلية ـ والله أعلم ـ بموضعه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾ وفي (الحج): ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾ وكذا في (فاطر) دون (يتحلون) كما قيل في اللباس ﴿يَلۡبَسُونَ﴾ ﴿وَلِبَاسُهُمۡ﴾ و﴿عَـٰلِيَهُمۡ﴾ وخصت الحلية بهذا الفعل المغير الصيغة لأمر ما؛ لأنها تفيد: أن غيرهم حلاّهم ويحلّيهم، ولعلهم الخدم بأمر اللّه تعالى.

﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا﴾ هذا الشراب لا يتعين أنه الخمر، وقد قال تعالى في العسل: ﴿شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ [النحل:٦٩] وقال في اللبن: ﴿لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ [النحل:٦٦] فالشراب يكون ﴿مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ و﴿مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ﴾ و﴿مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ و﴿مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى﴾ [محمد:١٥] وطهارته: نظافته الكاملة، وإسناد السقي إلى ربهم، إما للدلالة على رحمته لهم وكرامتهم عنده، وإما لأن من الشراب الخمر الذي يشرب في الدنيا مع تحريم اللّه له فيشربونه دون أن يسقيهم إياه، أما في الجنة فهو الذي يسقي عباده الخمر وغيره يقول لهم:

﴿٢٢﴾ ﴿إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾ ﴿إِنَّ هَـٰذَا﴾ أي نعيم الجنة وملكها وشرابها ولباسها وحليها ﴿كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾ وفي هذا القول تكرمة لهم عظيمة، ولذّة تصغر عندها لذات أخر، ومن كرم اللّه يشكرهم على عبادتهم له وصبرهم، وهم عبدوه شكراً له على نعمه التي ابتدأهم بها تفضلاً.

وفي قوله تعالى: ﴿كَانَ﴾ ﴿وَكَانَ﴾ أفادت أن هذا معدّ لهم من حين كانوا في سعيهم للآخرة وهم في الدنيا، وما أحسن هذه الآية التي ختمت ذكر ما أعد اللّه للأبرار.

(٢٣) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلاً﴾ هذا تصديق للقرآن والرسول وتحقيق للوعيد للكافرين والوعد للأبرار في هذه السورة وسائر السور، وقوله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا﴾ عبارة العظمة تشير إلى عظمته وجلاله، بما تفيده أسماؤه الحسنى من كونه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠] و﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩] وأنه ﴿الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحج:٦٤] وأنه ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:٦] وأنه ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣] ..إلى آخرها.

فإذا عرفنا أنه تعالى هو الذي أنزل القرآن، بما دل عليه في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة:٢٣] وغيرها علمنا أن هذا القرآن صدق وحق؛ لأنه كلام أصدق القائلين وأحكم الحاكمين وأن وعده ووعيده لا يتخلف؛ لأنه خبر عن الواقع لعلمه بما سيكون، فلو تخلف كان كذباً سبحانه وتعالى علواً كبيراً.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْكَ﴾ أي يا محمد، تصديق لكونه رسولاً من اللّه أرسله بهذا القرآن، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلاً﴾ تأكيد وتحقيق لتنزيله مفرقاً على رسول اللّه ﷺ.

(٢٤) ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ تفريع على قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ اي لأن ربك أنزل القرآن وأرسلك به وجعله مصدقاً لك ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على تحمل الرسالة والقيام بما كلفك ربك فيها وحكم به عليك من تبليغ الرسالة والثبات عليه وغيره، والصبر: هو حبس النفس على ما يشق عليها.

وَأَصِيلاً ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ الضمير للكافرين في أول السورة والآثم: الظالم، والكفور: كثير الكفر لنعم اللّه والكفر بآيات اللّه، أي لا توافقهم على ما طلبوا منك مما هو مخالفة لحكم ربك من التقصير في التبليغ لرسالات ربك، وإعلان توحيده، ونفي شركائهم، والإنذار لهم.. وغير ذلك مما يسوءهم ويبعثهم على نهيك والإرجاف عليك والتخويف لك، وفي هذا إلزام له ﷺ بالتوكل على اللّه في التبليغ، وأن لا تمنعه مخافة.

﴿٢٥﴾ ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ ﴿ٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ ولعل المراد به: قراءة ما فيه اسمه تعالى، واسمه هنا ينصرف إلى الجلالة، والرحمن الرحيم؛ لأنه الذي يقع في الصلاة ﴿بُكْرَةً﴾ وهي صلاة الفجر ﴿وَأَصِيلاً﴾ وهي صلاة الظهر والعصر. والبكرة: أول الغداة، والأصيل: آخر اليوم، وكان الكفار يأنفون من ذكر اللّه وحده، ويكفرون بالرحمن، ويكرهون إخلاص العبادة له، فأمره اللّه أن يفعل ذلك، وعطف الأمر به على قوله: ﴿وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ فأفاد أن لا يمنعه عن ذلك نهيهم كما في (سورة اقرأ).

﴿٢٦﴾ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ ولعل هذا في صلاة المغرب والعشاء، فتكون الآيتان قد جمعتا الخمس الصلوات.

قال الإمام الهادي عليه السلام: «فكان أمره له بالتسبيح في الصلاة فرضاً، وما كان في غير الصلاة فهو نافلة ووسيلة إلى اللّه وخير وفضيلة» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿لَيْلاً طَوِيلاً﴾ يشير إلى اتساع الليل للصلاة والتسبيح وللنوم.

وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلاً ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿٢٧﴾ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً﴾ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى الموجودين في وقت نزول القرآن الكفار ونحوهم ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ الحياة الدنيا وأغراضها فيختارونها ﴿وَيَذَرُونَ﴾ يتركون ولا يستعدون لليوم الثقيل الذي هو يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَرَآءَهُمْ﴾ إما تشبيه ليوم القيامة بالطالب لهم الذي يريد أن يلحقهم، ومن عادة الطالب العدو المطارد أن يكون وراء المطلوب، فاستعمل له وراء وهذا هو الظاهر، وإما أن يكون بمعنى أمامهم كما قيل ـ والله أعلم.

﴿٢٨﴾ ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ﴾ فكيف لا نقدر على إعادتهم لليوم الثقيل الذي هم به مكذبون ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ قوينا تركيبهم، وربط مفاصلهم، قال في (الصحاح): «أسر قَتَبهُ يأسِره أسْراً، شدَّه بالإسار وهو القِدّ» انتهى، قال: «والقد: سير يقد من جلد غير مدبوغ» انتهى.

فلعل قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ إشارة إلى شد مفاصل الإنسان وأعضائه بالأعصاب المتينة، وهذا دليل على قدرة الله تعالى على إعادتهم وذكر لنعمته عليهم ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ أهلكناهم وأتينا بناس آخرين يقومون مقامهم، بحيث يكونون بدلاً منهم، وأناس آخرين، وأناس آخرين، وذلك لقدرة الله تعالى على كل شيء، وكونه لا يعسر عليه، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم:٢٠] وفي هذا تنبيه على قدرته تعالى على إعادتهم.

كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾

﴿٢٩﴾ ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ ﴿هَـٰذِهِۦ﴾ الآيات وما فيها من الوعد والوعيد، والدلالة على قدرة الله تعالى على إعادة الإنسان يوم القيامة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ وتنبيه لمن يتفكر حتى يعلم الحق ويؤمن به ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ والسبيل إلى الله: هو السبيل المقرب إليه، وهو سبيل الرسول الذي سار فيه، وأشار إلى قوله: ﴿يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ [الفرقان:٢٧] فعلى العاقل أن يبحث عن ذلك السبيل ليسير فيه وهو الصراط المستقيم.

﴿٣٠﴾ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ أن تتخذوا إلى ربكم سبيلاً لأنكم تحبون العاجلة وتصرفكم الذنوب بإفسادها للقلوب، فأنتم مشغولون بدنياكم فلا تشاءون ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ هدايتكم بأن تتعرضوا لهدايته بالتوبة والدعاء، فالآية بعث على طلب الهداية والتوفيق، والتعرض لها بالتخلص من الذنوب وصلاح النية.

فإن قيل: إذا كان هذا هو التسبيب فما هو المسبَّب؟

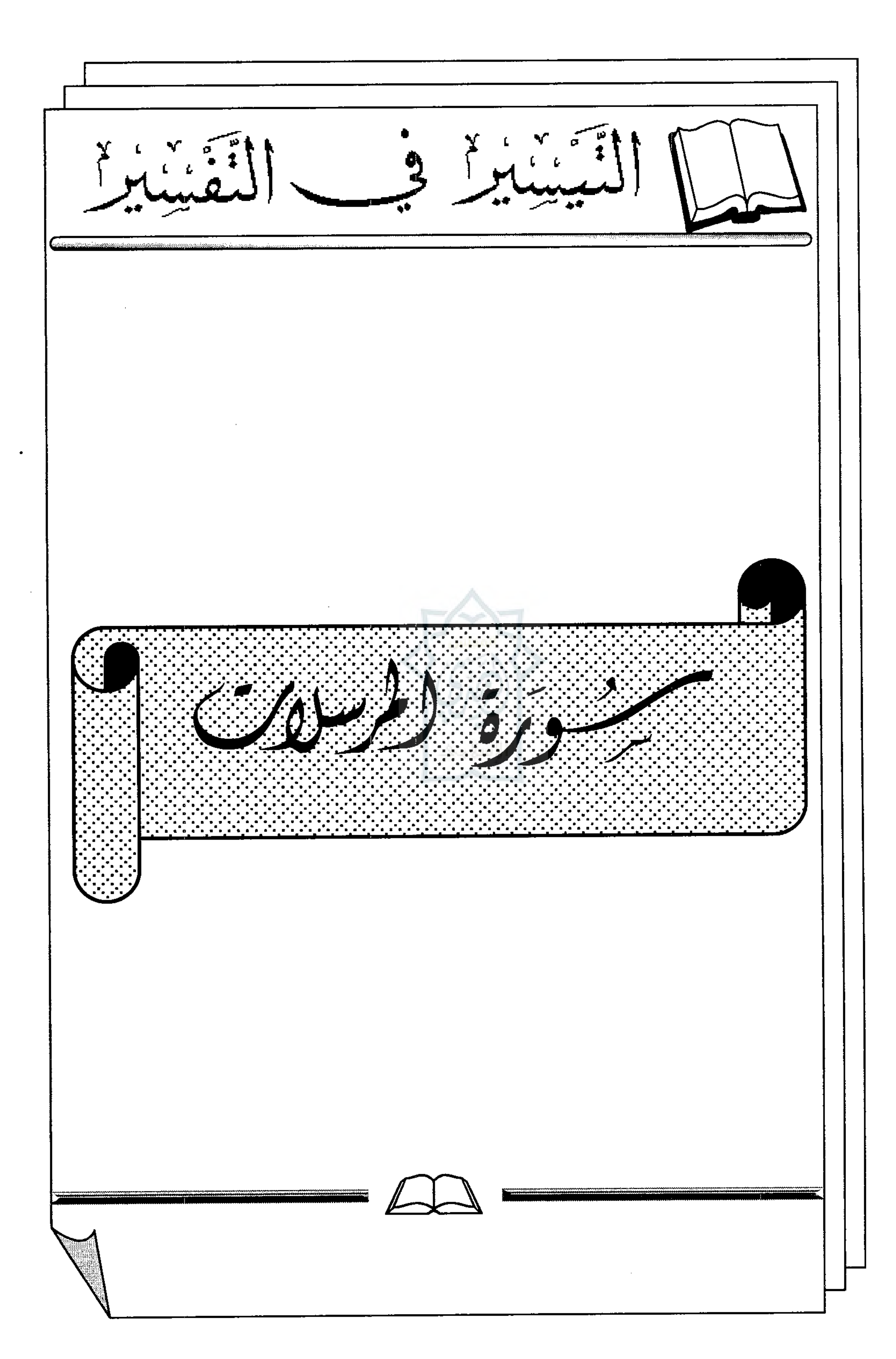
فالجواب: أن الإنسان إذا أصر على العصيان تعرض للخذلان، وإذا تاب وأصلح تعرض للتوفيق وحسن الخاتمة، والسبيل إليه هي الخاتمة الحسنة؛ لأنها هي التي تنفع ويصير صاحبها ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٥] فأما البداية فهي سبب لها، أو نقول: إن السبيل إلى الله: هي طاعة الله المستمرة حتى الممات، والتسبيب للاستمرار هو بأسباب التوفيق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ فهو يعلم من هو أهل للهداية وتقتضي الحكمة هدايته، ومن هو أهل للخذلان وتقتضي الحكمة خذلانه ﴿حَكِيمًا﴾ يفعل ما هو الصواب ويقتضيه كرمه وعلمه وغناه وعزته ورحمته وعدله ويتقن أفعاله ويحسن تصرفاته ولا يكون فيها نقص ولا ما يعاب، وتقتضي حكمته الرحمة في المحل اللائق بها، والتعذيب في المحل اللائق بهن لأنه يضع الأمور مواضعها اللائقة بها، وقد قال تعالى: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦] فدل على أنه يعذبهم لعزته وحكمته.

(٣١) ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ بهدايته لأسبابها، أي النجاة من العذاب ودخول الجنة، قال تعالى: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ [الأنعام:١٦] أو ﴿فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ في أسباب رحمته بالهداية لها والذين يشاؤهم المتقون.

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ الظالمون: هم المجرمون الفجار، المتعدون لحدود الله، المصرون الذين ماتوا قبل أن يتوبوا، وفي قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ﴾ بالفعل الماضي و﴿يُدْخِلُ﴾ بالفعل المضارع ما يشير إلى أن العذاب قد أعد عند خلق النار إن كانت قد خلقت، أو حين قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [هود:١١٩] وهي كلمة العذاب، ثم خلق الإنسان فهو يختار أسبابها ويوقع نفسه فيها، كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إني آخذ بحجزكم أن تقعوا في النار وأنتم تتهافتون فيها تهافت الفراش» أو كما قال.

فالإعداد من الله والظالمون هم أدخلوا أنفسهم بارتكاب أسبابها، وفي مقابلة ﴿مَن يَشَآءُ﴾ بـ(الظالمين) دلالة على أن من يشاء إدخالهم في رحمته هم المتقون، وهذا لأنه حكيم في رحمته؛ لأنها ليست رحمة الرقة التي تكون في المخلوق فتغلبه على خلاف الحكمة والصواب، ولذلك لا يرحم الظالمين بل أعد لهم عذاباً أليماً كما تقتضيه عزته وحكمته وصدق وعده ووعيده.


التيسير في التفسير
سورة المرسلات



سورة المرسلات

ترتيبها ٧٧ — آياتها ٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ هذا قسم بالمرسلات عرفاً؛ لأنها من آيات الله ونعمته، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف:٥٧] ﴿عُرْفًا﴾ معروفة مألوفة لنفعها واعتياد الناس لها.

﴿٢﴾ ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ عطف على المقسم به الأول، والرياح العاصفات: الشديدة التي يخشى أن تكسر وتدمر ولو بعض التدمير، تدل على قدرة الله وعلمه، وأنه يصيب بالعقوبات من يشاء كما أصاب بها عاداً.

﴿٣﴾ ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾ التي تنشر وتحيي الأرض بعد موتها، وهي السحاب الممطرات التي تحيي الأرض بإرسالها ماءها، فهي من آيات الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ..﴾ الآية [البقرة:١٦٤] فأقسم تعالى بها لما فيها من الدلالة عليه سبحانه، وعلى أنه المنعم المستحق للعبادة.

﴿٤﴾ ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ الفارقات بين الحق والباطل، وبين طريق الهدى ومتاهات الضلال، وبين دين الحق ودين الباطل، وهي آيات الله التي يفرق بها المؤمنون بين الهدى والضلال، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران:٤] أي ما يفرق بين الحق والباطل، وسمى القرآن فرقاناً، فقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان:١] وسماه نوراً فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

وجعل آيات اللّه فارقة باسم الفاعل كجعل القرآن هادياً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩] وهذا القسم بالآيات كلها بعد القسم ببعضها ناسبه عطفه بـ(الفاء) لأنها كلها تفرق بين الحق والباطل، فكلها نعم من اللّه، ودليل على الله.

﴿٥-٦﴾ ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ قد فسر الملقيات ذكراً بالملائكة عليهم السلام وهو قريب من جهة المعنى، لكن استبعدت التعبير عنهم بالتأنيث، وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ [الصافات:١] محمول على الصفوف الصافات؛ لأن اللّه تعالى ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصافات:١٦٥] وقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦] وغيرها، ووجه استبعاد التأنيث: أن الجاهلية كانوا يسمونهم تسمية الأنثى، ورد اللّه عليهم ذلك في القرآن.

ويمكن أن يجاب عن هذا: بأن التأنيث في قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ ليس تأنيث الأفراد، بل هو تأنيث الجماعات، مثل: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ [الصافات:١] وأكثر ما فيه أنه يستلزم كثرة الملائكة الملقين للذكر ولا مانع من ذلك، وإن كان جبريل عليه السلام أشهرهم في هذا، وقد قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ..﴾ الآية [النحل:٢] وحمله على أن الملقيات: هم الملائكة، هو الموافق لقوله تعالى: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ فهو تفسير للذكر، وهو القرآن وغيره من كتب اللّه، أو من الوحي كله، فما بقي إلا أن (الملقيات ذكراً) هم الملائكة ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ العذر: ما يعذر به من قدم الإخبار بإيقاعه الشر ليتأهب له السامع، وهو هنا بمعنى التقديم فقط الذي هو الوعيد،

يقال: «من أنذر فقد أعذر» والنذر: القول المبلغ للمخوف المحذر منه يستعمل في الكلام نفسه، قال تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٣٥-٣٦].

وقال (صاحب الصحاح): «الإنذار: الإبلاغ ولا يكون إلا في المخوف والإسم النذر، ومنه قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر:١٦] أي إنذاري ، والنذير: المنذر، والنذير: الإنذار» انتهى، فلم يذكر (النذر) جمع (نذير) ولكنه وقع في كلام الإمام الهادي عليه السلام وتفسيره، وهو عربي عليم باللسان العربي، ونظيره (سرر) و(قضب) ولكن استعماله بمعنى الإسم ظاهر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ [القمر:٣٦] وفي قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر:٣٣] لأن التكذيب يعدى إلى الرسل بدون (باء) نحو: ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ [سبأ:٤٥] ويعدى بـ(الباء) إلى الآيات نحو: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ [القمر:٤٢].

فإن قيل: قد فسرتم (العذر) بالتقديم للوعيد، فكيف عطف عليه (النذر) والكل (نذر)؟

قلت: للإنذار اعتباران مختلفان، فإنذار لمن يفيده، وإنذار لمن لا ينتفع به، فإنذار من لا ينتفع به يسمى إعذاراً؛ لأنه حجة عليه وموجب لتعذيبه، فأشبه إعذار من قدم الوعيد بالبطش الذي يدفع عنه اللوم، فسمى الوعيد عذراً بمعنى حجة عليه لتعذيبه، أما إنذار من ينتفع به فهو الإنذار النافع، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ [فاطر:١٨] ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس:١١] فخص الإنذار النافع باسم الإنذار لحصول المقصود الأصلي به والذي ينبغي أن يكون عنده، أما من لم ينتفع بالإنذار فقد صار في حقه كلا إنذار باعتبار إهماله له، فكان إنذاره أحق باسم الإعذار ـ والله أعلم.

﴿لَوَٰقِعٞ ٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ١١ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ١٣﴾

فحاصل القسم من أول السورة: القسم بآيات الله الدالة على قدرته على النشأة الآخرة، وبآيات الله التي يفرق بها بين الحق والباطل، ومن الحق: وعد الله ووعيده، وصدق رسله وغير ذلك، ومن الباطل: جحد الكفار لذلك، وبالملائكة الذين ينزلهم الله لإلقاء الذكر إلى رسله والإعذار والإنذار، وجواب القسم قوله سبحانه:

٧ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ وهو البعث والجزاء، وما وعد الله به في الآخرة، ومناسبة القسم لهذا الجواب ظاهرة، أما القسم بدلائل قدرته تعالى من الرياح وإرسالها من الجهات الأربع، والرياح العاصفات، والسحاب المطرات فواضح، وأما القسم بآيات الله العام لها، فلأنها قسمان: آيات عقلية كالتي ذكرها ودلالتها عقلية كما ذكرت، وآيات سمعية وهي تدل على البعث بما فيها من الوعد بالبعث، وبما فيها من دلائل عقلية تدل على صدق الوعد والوعيد، نحو: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الأنبياء:١٦] وبما فيها من ذكر دلائل قدرته تعالى، وإحاطة علمه بكل شيء، وغير ذلك كثير كثير لأهمية الإنذار والتبشير، فمناسبة القسم بآيات الله على وقوع الموعود به ظاهرة.

وأما القسم بالملائكة فمرتب على القسم بآيات الله الدالة على نزول الوحي من الله، وتنزيل الملائكة به ومناسبته، من حيث أن الملائكة لا تتنزل بالإنذار والإعذار، إلا لأنه أمر عظيم من الله سبحانه نزلها به، فهو صدق وحق لا يخالطه كذب ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، نزلت بها

الرسل الأمناء الكرام بخلاف الكهانة التي توحيها الشياطين وكون الملائكة لا تتنزل إلا بالحق أمر مستقر في أذهان البشرية، ولهذا قالوا: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر:٧].

(٨) ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ محيت، أي محقت وذهب نورها عند انتثارها.

(٩) ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾ شقت عند وقت تمزقها وطيها.

(١٠) ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ﴾ بالرجفة التي تدكها، قال في (الكشاف): «كالحب إذا نسف بالمنسف» انتهى.

(١١) ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ﴾ هذه الظروف ﴿فَإِذَا﴾ ﴿وَإِذَا﴾ ﴿وَإِذَا﴾ ﴿وَإِذَا﴾ تفريع على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ فجوابها يدل عليه السياق، أي جاء الموعود به، كما في (سورة الحاقة): ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة:١٥].

وقوله تعالى: ﴿أُقِّتَتۡ﴾ أي جاء وقتها لتأدية ما يكون منها ولها، حيث تشهد على من جاءتهم من الأمم وشاهدت أعمالهم، وحيث تسأل ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٩] وحيث يفصل بينهم وبين المكذبين ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل:٣٩] وحيث يسألون وتسأل أممهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦] وحيث ينصر الله الرسل والذين آمنوا وغير ذلك، فقد بلغت الرسل ميقات ما وعدت به، ثم عظم الله هذا الميقات الموعود به، فقال تعالى:

(١٢) ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾ أي ﴿أُجِّلَتۡ﴾ ليوم، أيّ يوم، أي ليوم عظيم أجلت جعل إجلالها ليحصل ما سيكون منها وغير ذلك كما ذكرنا، والتأجيل: جعل الأجل لذلك، وهو خلاف التعجيل فالتأجيل في هذه الدنيا عند نزول القرآن والوعد بالآخرة والفصل فيها، وأما التأقيت فيوم القيامة كما مر، ثم فسر تعالى اليوم الذي عظمه بقوله: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ﴾ فقال تعالى:

وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٨﴾

﴿١٣﴾ ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ﴾ يوم قطع الخلاف الذي كان بين المختلفين، والحكم بينهم، والتمييز بين أهل الحق وأهل الباطل تمييزاً عظيماً بضروب من التمييز الفاصل بين الفريقين، وإكرام أولياء اللّه، وإهانة أعداء اللّه ﴿ٱلۡفَصۡلِ﴾ الذي يبقى أبداً، وعظم اللّه هذا اليوم العظيم مرة أخرى، فقال تعالى:

﴿١٤﴾ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ وهو حقيق بالتعظيم، كما بينه تعالى في سائر القرآن مفصلاً، وكما يأتي في هذه السورة، وكما مر فيها.

﴿١٥﴾ ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ هذا وعيد للمكذبين، والويل، والثبور، والشقاء، وسوء المصير، وشر المنقلب معانيها متوافقة.

وقوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ أي يوم إذ يفصل اللّه بين العباد، والمكذبون: الذين يكذبون بيوم الفصل، يكذبون الرسل المنذرين به، ويكذبون وعد اللّه به، زاعمين أن الوعد ليس من الله.

﴿١٦-١٨﴾ ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ * كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ هذا احتجاج على المكذبين لأن اللّه قد أهلك المكذبين الأولين ويهلك المكذبين الآخرين في وقت نزول القرآن بتعجيل هلاك بعضهم بضروب من المصائب وقعت لهم، وهكذا يفعل اللّه بالمجرمين أهل الجرائم يعذبهم، فلو كان الوعد بالآخرة غير صادق لما عذب المكذبين، ولو كان يهمل عباده ولا يجازي لما عذب في الدنيا عذاباً عاجلاً، ثم أكد الوعيد به، فقال تعالى:

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ

﴿١٩﴾ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ كالنتيجة للدلالة عليه بقوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ﴾.

﴿٢٠-٢١﴾ ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ وهـذا احتجاج آخر على المكذبين؛ لأنهم يعتمدون في تكذيبهم على استبعاد إحياء من كان عظاماً ورفاتاً، فجمع هنا دليلين على قدرته تعالى، وإبطال استبعادهم، وهما ما قد فصله تعالى في (سورة الحج) في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ [آية:٥] ولكنه أوجزهما هنا وساقهما مساق دليل واحد.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ جواب وحده، كقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً..﴾ الآية [القيامة:٣٦-٣٧]، وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ دليل آخر باعتبار حفظ الماء المهين الذي شأنه أن ينزلق لولا حفظه له، بجعل مقره مكيناً يصلح لحفظه من الانزلاق، إلا أن يأذن الله به، فقد تكون المرأة خائفة من الحمل كارهة له تود لو يخرج ولكن يبقى في بطنها على كرهها لبقائه، وذلك لأن الله جعل مقره ينغلق عليه حتى كأن عليه قفلاً أقفل مجراه الذي دخل منه.

قال الإمام الهادي عليه السلام: «والمهين: فهو القليل اليسير الذليل الضعيف الحقير» انتهى، والقرار يصلح أن يكون مصدر (قرّ) أي استقر أي في حال استقرار ﴿مَّكِينٍ﴾ أي مكين صاحبه مثل: ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة:٢١] والأقرب عندي: أن القرار هو المستقر ـ بفتح القاف ـ كقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا﴾ [النمل:٦١].

والمستقر هذا: هو الرحم الذي يحفظ الماء ويربيه حتى يتم خلقه، ومعنى ﴿مَّكِينٍ﴾ أن له مكانة في المرأة يتمكن بها من حفظ الجنين وتربيته وتنميته ومكانته، بما جعل اللّه له من الصلاحية لذلك في نفسه، ومن العلاقة بمصادر غذاء الجنين ومواد نموه وتمامه وأسباب حياته، ومن المحل المناسب للحمل وإطاقته.. وغير ذلك.

(٢٢) ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ وهو إخراجه بقدر اللّه وتحديده لموعده و﴿مَّعْلُومٍ﴾ قد علمه اللّه بموعده المحدد، وخروجه بتقدير اللّه تعالى آية؛ لأن الأم تعجز عن إخراجه، والطفل عاجز عن الخروج لضعفه وجهله، فلم يخرج إلا لأن اللّه أخرجه، وفي تحديد مدة الحمل إلى تمام خلق الجنين وتحمله للعيش بعد خروجه من الأم آية.

(٢٣) ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ﴾ ﴿فَقَدَرْنَا﴾ على إخراجكم أحياء قد تم خلقكم ذوي أسماع وأبصار وأعضاء تامة مقدرة تقديراً حكيماً، وهذا على قراءة ﴿فَقَدَرْنَا﴾ بالتخفيف.

فأما على قراءتها بالتشديد: فهو تقدير خلق الجنين، وتقدير أعضائه، وإتقان صنعه، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس:١٩].

﴿فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ﴾ مدح وتعظيم لله في قدرته وتعظيم لقدرته، أما مدحه في قدرته فلأنه يحكم مصنوعاته ولا يفعل ما يخالف الحكمة، بل لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة، وأما تعظيم القدرة فلما دلت عليه الآيات من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم﴾ فثبت بذلك أنه تعالى قادر على بعثهم يوم الدين كما خلقهم أول مرة.

لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ

﴿٢٤﴾ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ المكذبين بيوم الدين، وهذا نتيجة أو كالنتيجة للبرهان؛ لأنهم كذبوا بيوم الدين استبعاداً للقدرة عليه.

﴿٢٥﴾ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ ﴿كِفَاتًا﴾ مصدر (كفَتَ) قال الإمام الهادي عليه السلام: «ومعنى ﴿كِفَاتًا﴾ أي ضامة جامعة لكم إخباراً بما فيها من منازلها وبيوتها ودورها التي تكتفتون فيها وتأوون وتغلقونها عليكم، تضمكم وتجمعكم وتكفتكم، أي تجمعكم ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ وكفتها لهم أمواتاً: فهو ضمها لأبدانهم في حفرها التي هي قبورهم» انتهى المراد.

وبه ظهر أن كفت الشيء: ضمه أو جمعه لحفظه، وهو مناسب لما في لغتنا من معنى كفت الشيء في المكفَت، وأن معنى جعل الأرض كفاتاً لنا: جعلها مُعَدَّة مهيَّأة ليكون لنا منها وفيها مساكن تكفتنا من الحر أو البرد أو المطر أو النَّدا الخفيف الذي نسميه الطل، وغير ذلك من فوائد المساكن التي لا تخفى.

﴿٢٦﴾ ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ كفاتاً أحياء وأمواتاً، أي تكفت أحياء وأمواتاً، وهذه دلالة على قدرة اللّه ونعمته علينا، ويمكن أن اللّه سمى الأرض ﴿كِفَاتًا﴾ تشبيهاً لها بالدار التي تكفت أهلها، وذلك لتجهيزها لأهلها كما تجهز الدار لأهلها بالفراش والطعام والشراب، وإعداد الأرض لاتخاذ ما يحتاجون، فأشبهت الكفات، كما سمى الأرض ﴿فِرَٰشًا﴾ [البقرة:٢٢] و﴿مِهَٰدًا﴾ [النبأ:٦] لمشابهتها للفراش، والمهاد من حيث تجهيزها وإعدادها لسكنى أهلها عليها، والمعنيان متقاربان وحاصلهما واحد، وهو الدلالة من تهيئة الأرض للإنسان على قدرة اللّه تعالى ونعمته على عباده، ليؤمنوا بالآخرة، ولا يكفروا نعمه بتكذيب رسله، والتكذيب بآياته.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٩ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ٣٠ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ٣١ إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ٣٢﴾ ٢٨

---

٢٧ ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا﴾ ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ﴾ ﴿فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿رَوَٰسِيَ﴾ جبالاً راسيات ثابتات راسخات في أماكنها لا تتحول عنها لثقلها ورسوخها في أماكنها ﴿شَٰمِخَٰتٖ﴾ عاليات مشرفات في الهواء طوالاً مرتفعات، وهي دليل على قدرة خالقها، وهي تحفظ الأرض لئلا تميد بأهلها، ولعل ذلك برسوخها في الأرض مع ثقلها وأشكالها وموادها الحديدية وشموخها في الهواء.

﴿وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا﴾ وهو ماء المطر فراتاً عذباً، يزيل العطش، ويروي الناس وأنعامهم وزروعهم وأشجارهم، فالنعمة فيه عظيمة، والآية فيه على قدرة اللّه وعلمه واضحة جلية، وهكذا يجمع اللّه بين الاحتجاج على المكذبين والتذكير بالنعمة كما في (سورة الواقعة) في سياق الرد على المكذبين بالبعث: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ﴾ [آية:٦٨-٧٠].

٢٨ ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ فقد جمعوا بين الفساد في الأرض بتكذيبهم لآيات اللّه، وجمعوا بين كفر الجحود وكفر النعمة، فلهم الويل يوم القيامة، وفيما يلي تفصيل وبيان أسباب الويل.

٢٩ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ يقال لهم يوم القيامة: انطلقوا إلى العذاب الذي ﴿كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ وانطلاقهم: مسيرهم إليه أو ذهابهم إليه بعد موقف الحساب، ويحتمل أن يقال لهم في أوقات متعددة يبشرون فيها بالنار مثل ساعة الموت، وعند خروجهم من قبورهم، وعند سوقهم إلى جهنم من موقف الحساب.

كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ﴿٣٣﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوۡمُ

﴿٣٠-٣١﴾ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ * لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ ولعله جعل لهم هذا الظل تهكماً كما جعل لهم طعام ﴿لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ [الغاشية:٧] وشراب لا يروي من العطش و﴿ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾ إما دخان أصله واحد وحين يطلع في جوّ جهنم يتشعب ثلاث شعب لعظمه، وإما تشبيه بالظل الذي لا يفيد لدخول الشمس من بين شعبه.

والأول أظهر، فقد ذكر اللّه الظل في (سورة الواقعة) بقوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ﴾ [آية:٤٣] وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام) لسورة الواقعة: «واليحموم: الدخان» انتهى، وفي تفسيره لـ(سورة المرسلات): «﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾ معناه: إلى دخان جهنم» انتهى ﴿وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ لا يدفع العذاب من اللهب أي لهب جهنم.

﴿٣٢﴾ ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ﴾ ﴿إِنَّهَا﴾ أي إن جهنم المفهومة من السياق ﴿تَرۡمِي بِشَرَرٖ﴾ عظيمة تبلغ الشرة في حجمها مثل القصر، قال الإمام الهادي عليه السلام: «والقصر: فهو الدار المبنية الكبيرة المرتفعة» انتهى، ورميها بالشرر لتسعرها على عادة النار في رميها بالشرر إذا سعرت.

﴿٣٣﴾ ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام: «والجمالات الصفر: فهي الجبال الصغار المنفردة من الجبال التي تكون في قيعان الأرض، تسميها العرب: الظراب واحدها ظرب، وأهل اليمن يسمونها جمالات» انتهى المراد، وهو مناسب للتشبيه بالقصر.

ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا

﴿٣٤﴾ ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ من عذاب جهنم، وما يلحقهم يومئذ من الخزي وغيره.

﴿٣٥﴾ ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ الإشارة إلى يوم الفصل ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ إما للختم على أفواههم في حال، وإما لشدة الهيبة وانقطاع الحجة، والمنفي هو النطق الاختياري، فأما إذا أنطقهم الله أو سألهم، فهو غير مقصود هنا لأن السياق في بيان هول الموقف.

﴿٣٦﴾ ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ أي لا يؤذن لهم في الاعتذار لأنهم ليس لهم عذر صحيح ولا يعودون إلى دار الخيار أو حالة الاختيار والتكليف، كما كانوا في الدنيا فيعتذرون اعتذاراً نافعاً أي يتوبون.

﴿٣٧﴾ ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ من هول ذلك اليوم، وتقطع الأسباب، وشدة العذاب.

﴿٣٨﴾ ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي يقال لهم: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ الذي وعدكم الله في الدنيا ﴿جَمَعۡنَٰكُمۡ﴾ والأمم التي قبلكم كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ..﴾ [الواقعة:٤٩-٥٠] فقد تحقق الوعد.

﴿٣٩﴾ ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ﴾ في هذه تعبير عن غضب الله عليهم، وتسجيل عليهم بعداوتهم لله، وعجزهم عن دفع بطشه، وهي كلمة غضب يحق لها أن تهد القوى وتزهق النفوس لو كان أحد يموت يومئذ، وهم أعجز عن تدبير مكيدة لرب العالمين، العزيز، القاهر فوق عباده، الغالب على أمره.

يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً إِنَّكُم

﴿٤٠﴾ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ من غضب الله وعذابه.

﴿٤١-٤٤﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قابل تعالى بين حال المكذبين وحال المتقين لينظر الإنسان لنفسه، وينتبه من غفلته، بالمقابلة بين الحالتين فيعمل لما يسعد به وينجو من الشقوة الكبرى، والمتقون: هم المؤمنون الذين اتقوا ربهم بطاعته، والتوبة إليه عند كل زلة، ولا يصرون على ما فعلوا من المعاصي وهم يعلمون.

والظلال: جمع ظل وهو الظل الحقيقي، فهو الظل الظليل لا كظل أهل النار، والعيون: عيون الماء وغيره من شراب الجنة، والفواكه معروفة، وهي أنواع كثيرة، ولهم من كل نوع ما يشتهون، ويقال لهم تكرمة لهم وترغيباً: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:٦٠].

وقوله: ﴿إِنَّا﴾ بعبارة العظمة التي تشير إلى قدرته وعلمه وعدله وحكمته وكرمه ورحمته وسعة فضله، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يشير إلى ما عند الله من الثواب للمحسنين، وكأن ما ذكره هنا إشارة إلى سائر ما لهم من النعيم والملك الكبير؛ لأنه قال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الذي أنتم فيه المذكور هنا ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧] وبعد توجيه الأذهان إلى الآخرة وما فيها للفريقين، قارن بها حال المكذبين تهجيناً لها وعودة إلى التحذير منها، فقال تعالى:

مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

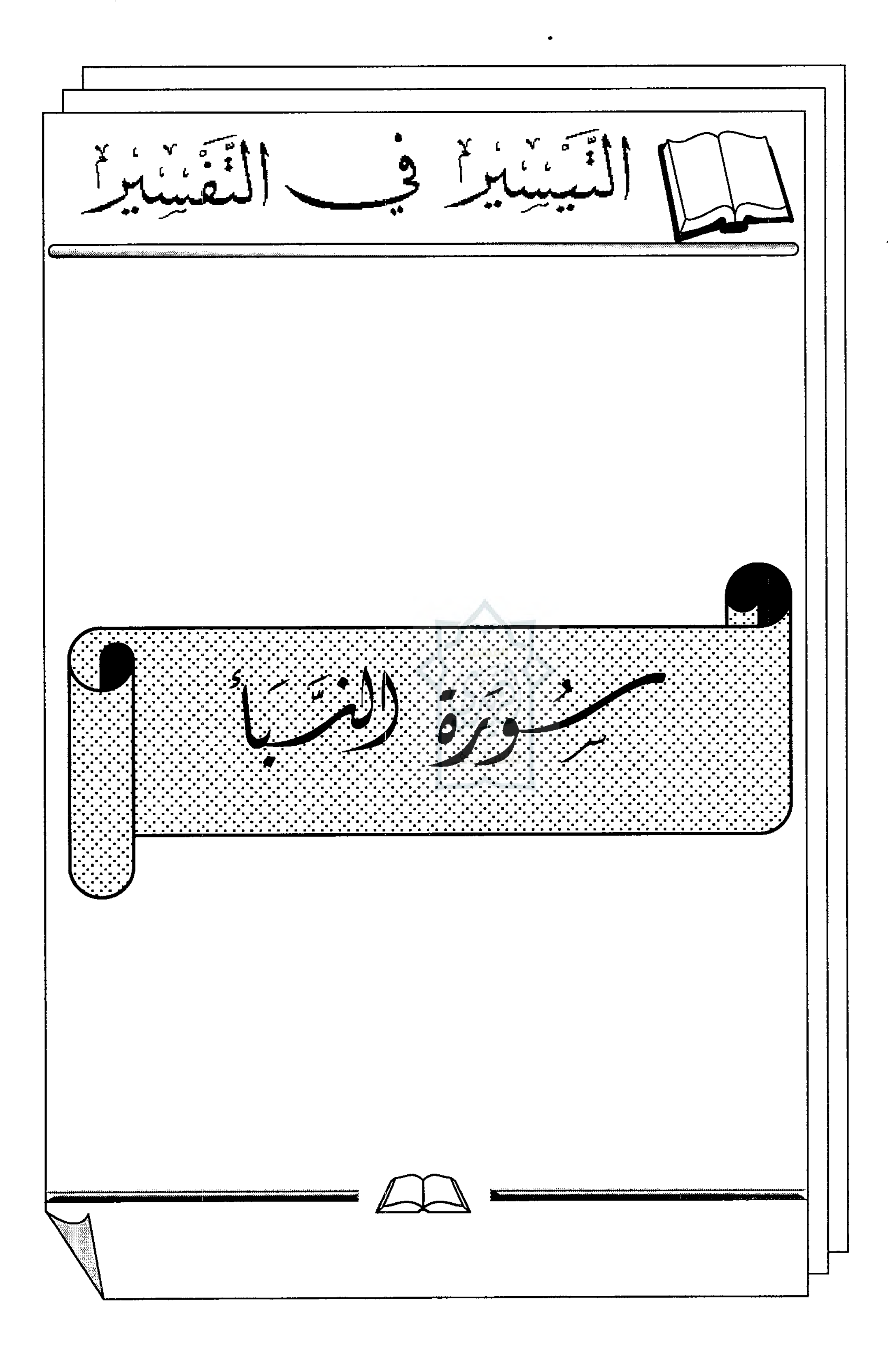
﴿٤٥﴾ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ من غضب الله وعذابه.

﴿٤٦﴾ ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟﴾ كما تأكل الأنعام، فهو متاع قليل ينتهي وتصيرون بعده إلى العذاب والويل لأنكم ﴿مُّجْرِمُونَ﴾.

﴿٤٧-٤٨﴾ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ تأكيد للوعيد ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ إذا قيل لهم: اخضعوا لله ربكم واعبدوه ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ مع أنهم ما خلقهم ربهم إلا ليعبدوه، لكنهم مستكبرون.

﴿٤٩﴾ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ لأنهم مستكبرون عن عبادة ربهم، مجرمون مفسدون في الأرض، وفي قوله تعالى: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاَ يَرْكَعُونَ﴾** دلالة على أن الأصل في الأمر إفادة الوجوب، ومثله قوله تعالى: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَانِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾** [الفرقان:٦٠] لأنه ذمهم على مخالفة قوله: **﴿ارْكَعُوا﴾** وقوله: **﴿اسْجُدُوا﴾** ومثلهما أمر الملائكة بالسجود لآدم، وقوله تعالى لإبليس: **﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾** [الأعراف:١٢].

﴿٥٠﴾ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿بَعْدَهُۥ﴾ أي بعد هذا الحديث وما فيه من البيان الكافي والحجج المنيرة والوعيد للمكذبين الذي تكرر، وأقل أحوالهم لو أنصفوا أن يلفتهم إلى التفكر في آيات اللّه، والنظر بجدّ ونصح لأنفسهم، حتى يعرفوا الحق ويتبعوه، ولكنهم معرضون مستكبرون.


التيسير في التفسير
سورة النبأ



سُورَةُ النَّبَإِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ

(١-٢) ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿عَمَّ﴾ أي عن أي شيء، أصله: (عن ما) أدغمت (النون) في (الميم) وأسقط ألف (ما) لدخول حرف الجر عليه، مثل: ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:٣٥] ثم بين الله تعالى ما ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ عنه، فقال: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ و﴿النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ الخبر بالقيامة، وما يكون فيها من الفصل بين العباد، وجزاء كل نفس بما كسبت، فهم يتساءلون عن صدق هذا النبأ المهم.

(٣) ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ بين قاطع بكذبه وشاك فيه، أو نحو ذلك، أي يسأل بعضهم بعضاً، فهو سؤال شك في اليوم الآخر، أو تشكيك، أو تكذيب به، أو استهزاء، ولهذا رد الله عليهم فقال تعالى:

(٦) ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ فقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ ﴿ثُمَّ كَلَّا﴾ زجر يعقبه زجر لأهمية الموضوع واستحقاقه الردع عن التهاون به، وقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ أي سيعلمون يوم القيامة حين يرون العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٢] فهو وعيد للذين يتساءلون، ثم بيّن سبحانه قدرته على الإتيان بيوم القيامة لأنهم يستبعدون القدرة على إحياء الموتى، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ فأنتم تعلمون أنا جعلنا الأرض مهاداً ممهّدة مهيّأة لأهلها على عظمها واتساعها.

أَوۡتَادٗا ﴿٧﴾ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴿٨﴾ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ﴿٩﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ﴿١٠﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ﴿١١﴾ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ﴿١٢﴾ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ﴿١٤﴾ لِّنُخۡرِجَ

﴿٧﴾ ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾ فأنتم تعلمون هذا، وترونها راسخة في الأرض غائصة في بطنها، فالأرض بها ثابتة لا تميد، وإن خلق الجبال على كثرتها وطولها وضخامتها لدليل على قدرة الله.

﴿٨﴾ ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ يقول الله تعالى: وخلقناكم أصنافاً ذكوراً وإناثاً.

﴿٩﴾ ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا﴾ قطعاً للأعمال، فهو راحة للبدن والفكر، قال الإمام الهادي عليه السلام: «السبات: فهو الإطراق والخفات والهدوء والسكون في الحالات» انتهى.

﴿١٠﴾ ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ ساتراً بظلامه، ولعل من هذا الستر أنه يدعوهم إلى دخول مساكنهم للنوم فيسترهم بذلك، بعد ما كانوا ظاهرين في النهار، وهذا يناسب عطف هذه الآية على التي في النوم.

﴿١١﴾ ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾ يطلب الناس فيه من الرزق ما يعيشون به.

﴿١٢﴾ ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام: «يعني بالسبع الشداد: السماوات المبنيات» انتهى المراد، وتكرر في القرآن الكريم ذكر بناء السماء، والبناء: تأليف أجزاء المبني بحيث يتماسك ويصلح لما يبنى له، فكل سماء من السبع مبنية أو جملة السبع.

﴿١٣﴾ ﴿وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا﴾ وهو الشمس جعلها تعالى سراجاً تضيء بحيث يذهب الليل بظهورها، قال الإمام الهادي عليه السلام: «والوهّاج: فهو المتوقد الملتهب» انتهى. قلت: يعني عليه السلام الذي يزداد ضوءه لذلك.

بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبًا

﴿١٤﴾ ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ أي أنزلنا من السحاب التي فيها الماء أنزلنا المطر، قال الإمام الهادي عليه السلام: في ﴿ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ﴾: «فسمين لحبسهن ما فيهن من الماء وإمساكهنّ له معصرات» وقوله تعالى: ﴿ثَجَّاجًا﴾ أي قوي الوقوع في الأرض لغزارته، بحيث يضرب ما لاقاه ضرباً؛ لأن اللّه أرسله لسقي الأرض فهي تحتاج إلى الماء الكثير.

﴿١٥-١٦﴾ ﴿لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا﴾ أي أنزلنا هذا المطر ﴿لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ﴾ رزقكم ورزق أنعامكم ﴿حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ ومرعى وأشجاراً نافعة لكم ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ بساتين من الفواكه وزروعاً كثيفة ﴿أَلۡفَافًا﴾ يلتف بعضها إلى بعض لكثرة فروعها وطولها وتمددها، بحيث تتلاقى في الهواء.

قال الإمام الهادي عليه السلام: «وكل ما ذكر اللّه سبحانه من قوله: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدًا * وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادًا * وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجًا * وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتًا * وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا * وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعًا شِدَادًا﴾ إلى قوله: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا﴾ فإنما أراد اللّه تبارك وتعالى بذكر ما ذكر من هذا احتجاجاً على المكذبين بالنبأ العظيم، بما جعل من ذلك كله، وركّب فيه من الدلائل الدالة عليه سبحانه، والشاهدات على تصديق النبأ العظيم الذي هم في تصنيف الكذب به مختلفون..» إلى آخر كلامه عليه السلام.

﴿١٧﴾ ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ موضع ذكر هذه الآية الكريمة بعد الآيات الماضية يشبه موضع النتيجة بعد البرهان، و﴿يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ﴾ يوم القيامة؛ لأنه يوم يفصل اللّه فيه بين المحق والمبطل، والظالم والمظلوم، ويحكم اللّه بين العباد فيه.

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ (١٩)

وفي ذكر ﴿ٱلْفَصْلِ﴾ إشارة إلى دليل على صدق الوعد به، وهو الدليل العقلي أنه لابد في حكمة اللّه العزيز الحكيم من الإنصاف بين الظالمين والمظلومين، والفرق بين المسيء والمحسن، وكما قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم:٣٥] و(الميقات): الموعد المحدد في علم اللّه وهو موعد لابد منه.

(١٨) ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ يوم الصيحة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق:٤٢] ﴿فَتَأْتُونَ﴾ موقف الحساب والفصل بين العباد، تأتونه: تجيئون إليه منقادين مستسلمين ﴿أَفْوَاجًا﴾ جماعات كبيرة لكثرة من يحشر.

(١٩) ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ لكثرة فطورها وشقوقها عند تمزقها.

(٢٠) ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ وذلك بعد أن تدكها الرجفة تنسف نسفاً حتى تطير في الهواء غباراً، ثم ترق حتى تصير كالسراب، والسراب: شيء يرى في القاع الواسع مع شعاع الشمس وحرها فيه يخيَّل لرائيه من بعيد أنه ماءٌ، وهذه الأهوال مقدمة أمر الآخرة، المقصود منها الذي هو جزاء الطاغين والمتقين، فلذلك رتب على ذكرها قوله تعالى:

(٢١) ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ المرصاد والمرصد في الأصل: هو المكان الذي يأتيه العدو فينتظره عدوه فيه؛ لأنه طريقه ليس له طريق غيره يفوته منه، أو أنه المكان الذي لابد أن يجيئه، فإذا جاء ظفر به فقتله أو أسره، قال تعالى: ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة:٥] فالمعنى: أن الطاغين يأتون جهنم ولا يجدون عنها محيصاً، والجزاء والعذاب قد أعد لهم فيها، كما يستعد الراصد لعدوه في المرصد.

﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا

﴿٢٢﴾ ﴿لِّلطَّـٰغِينَ﴾ للعصاة المتمردين المتكبرين ﴿مَـَٔابًا﴾ مرجعاً ومصيراً، وسميت ﴿مَـَٔابًا﴾ إما لأن الآخرة يرجعون فيها إلى الحياة إلا أن محل رجوعهم إلى الحياة هو جهنم، وإما لأن مسكن الإنسان يسمى مثاباً لأنه يثوب إليه لأنه مسكنه.

﴿٢٣﴾ ﴿لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ ﴿لَّـٰبِثِينَ﴾ مقيمين فيها ﴿أَحْقَابًا﴾ جمع حَقْب، قال الإمام الهادي عليه السلام: «الأحقاب: الدهور الدائمة، وقيل: إن واحد الأحقاب حقب، وأن الحقب ثمانون سنة، فإن يكن ذلك كذلك فهي أحقاب متوالية متواترة متصلة لا آخر لها ولا انقطاع ولا فراغ لمدتها ولا فناء؛ لأن اللّه سبحانه ذكرها أحقاباً، ولم يذكر لها غاية ولامدى، فدل ذلك على أنها أبداً دائماً سرمداً» انتهى.

قلت: هي مجمل فسره الآيات الكريمة في مواضع عديدة من القرآن، كقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧] وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦] وقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم:١٧] وغيرها، هذا والآية الكريمة قد دخل فيها المكذبون بالنبأ العظيم دخولاً أولياً، أو هي خاصة بهم بشهادة سياق الكلام من أول السورة وما يأتي فيهم، فلا يصح جعلها خاصة بغيرهم.

﴿٢٤﴾ ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ فلا يخفف عنهم عذابها، ولعله كناية عن حرمانهم من كل خير، فقد كان البرد والماء في الدنيا من أيسر الحاجات فإذا حرموه فبالأولى غيره.

وقال الإمام الهادي عليه السلام: «يريد: لا يجدون فيها فسحة ولا راحة تبرد عنهم كربهم، ولا تنفس عنهم ألمهم، ولا تكشف عنهم حرارتهم، ولم يرد هنا بقوله: ﴿بَرْدًا﴾ وقع البرد وحسَّه، وإنما أراد بالبرد تهوين الأمر؛ لأن العرب تقول: بَرَّد عني غمي كذا أو كذا، وبَرَّدَ عني ألَم علتي كذا وكذا، يريد: هوَّن عني وسهّل علي وفرج كربي كذا وكذا» انتهى المراد.

(٢٥) ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ لا يذوقون شراباً إلا حميماً وغساقاً، والحميم: الماء الحار، وقد وصفه اللّه بشدة الحر بقوله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٥] وأما الإمام الهادي عليه السلام فقد جعل شدة حره من مفهوم اسم الحميم؛ لأنه قال في معناه: «الذي قد منع الأيدي عن مسه لشدة حموه وحره» انتهى.

والحاصل: أن الحميم صفة للماء الذي هو شرابهم، فيحتمل: أن شرابهم جامع للوصفين، كقول الشاعر:

هو الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

فهو حميم وهو غساق، قال الإمام الهادي عليه السلام في تفسير (الغساق): «فهو الذي قد غلا حتى رمى حبه وتطاير نضجه من جوانب إنائه، فهو يتطاير من الإناء لشدة الغليان» انتهى.

وهو يحتمل أنه من قولهم: «غسقت عينه: دمعت» كما ذكره في (لسان العرب) أو من غسق الليل؛ لأنه يشوي الوجوه فتسود منه وتظلم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف:٢٩] وقد قيل في تفسير (الغساق): الصديد، وقيل: ما يقطر من جلود أهل النار، والأقرب: أنه شيء واحد ماء حميم وغساق، قال تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص:٥٧] فأفرد الإشارة وأعاد الضمير عليه مفرداً، بقوله تعالى: ﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص:٥٨] ولم يقل: (من شكلهما).

ويحتمل: أن إفراد الإشارة لأن المراد به جنس شرابهم، وأن الضمير رجع إلى الغساق وحده؛ لأن أزواج شرابهم يجمعها اسم الحميم، وهي أنواع باعتبار الصفات المختلفة، ولكن هذا لا ينافي وحدة الحميم والغساق، لكون الغساق من أنواع الحميم - والله أعلم.

والآية التي نحن فيها تدل بالحصر والقصر على أن أزواج الشراب المذكورة في قول اللّه تعالى: ﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص:٥٨] هي من الحميم، وإلا لزم أن يكون لهم شراب غير الحميم والغساق، وهو خلاف ظاهر الآية، ولا يصح دعوى التخصيص قبل تحقق خروجها عن اسم الحميم والغساق؛ لأن الأصل بقاء الحصر على ظاهره، ولا مانع أن يكون الحميم الذي يشربونه ماء صديداً، كما قال تعالى: ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:١٦] وإنما الترجيح في معنى (الغساق) في اللغة وتفسيره بما يسيل من صديد أجساد أهل النار يحتاج إلى دليل صحيح، وكذا تفسيره بما يقطر من أجسادهم.

(٢٦) ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ جزاء موافقاً لجرائمهم مماثلاً لها، جزاء سيئة بمثلها.

(٢٧) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي إن الطاغين المذكورين سابقاً ﴿كَانُوا﴾ لا يؤمّلون محاسبة لهم على جرائمهم؛ لأنهم لا يؤمنون بيوم الحساب، قال الإمام الهادي عليه السلام: «ومعنى ﴿يَرْجُونَ﴾ يأملون في مخرج الكلم [و] هاهنا هو لا يخافون ويتقون ويخشون ﴿حِسَابًا﴾» انتهى.

قلت: يعني عليه السلام: أن هذا هو المراد من نفي الرجاء والتأميل، فهو كناية عنه، أو أراد عليه السلام أن معناه: لا يؤملون في غير هذا الموضع وهو المعنى الأصلي، أما هاهنا فمعناه: لا يخافون، وهو نظير ما قلت في: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٠].

﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا

﴿٢٨﴾ ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾ بتشديده أي تكذيباً، وهذه من أعظم الجرائم؛ لأنها محاربة للدين الذي هو مبني على الآيات، فهو إفساد في الأرض، والآيات: تعم آيات الكون والمعجزات، وآيات القرآن الكريم.

﴿٢٩﴾ ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا﴾ ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ يعم المجرمين وأعمالهم وسائر الأشياء، فلا ينسى مجرم ولا ينسى شيء من جرائمه، فالآية كقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس:١٢] وقول موسى عليه السلام حين قال له فرعون: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥١-٥٢] وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩] قال الإمام الهادي عليه السلام: «وإنما ضرب الله لهم بما ذكر من الكتاب مثلاً إذ كان أبين ما عندهم بياناً واضحاً، وأثبته ما كان في الكتاب مكتوباً..» إلخ كلامه عليه السلام.

وعلى هذا: فسواء كان المعنى أحصيناه كتابة، أو أحاط علمنا بعدده ومقاديره حال كونه مكتوباً، والآية يصح أن تكون معطوفة على ما قبلها، داخلة في تعليل تعذيبهم، فهو عذبهم سبحانه لعلمه بما عملوا من أسباب العذاب.

﴿٣٠﴾ ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ التفات إلى المجرمين، كأن العذاب قد وقع، والمعنى يقال لهم: ذوقوا، كما في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر:٢٤] ومواجهتهم بهذا الكلام غضب وتعذيب باليأس من رحمة الله، و(لن) تعم المنفي القريب والبعيد؛ لأنها إذا دخلت على الفعل المطلق الصادق على القريب والبعيد نفته كله، كالنكرة في سياق النفي، ومن هنا تفيد التأبيد.

(٣١-٣٢) ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۞ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ للذين اتقوا ربهم بالإيمان واجتناب المعاصي والمفاز والفوز: الظفر بالخير، ويقال: للنجاة، ويمكن هنا جمع المعنيين لعدم التنافي ومناسبة السياق الماضي للنجاة والآتي للنعيم، وهو قوله تعالى: ﴿حَدَآئِقَ﴾ جمع حديقة، وهي البستان الجامع للفواكه المتعددة المحاط بحائط محدق به، ويحتمل: أنه يسمى حديقة على الإطلاق، ولو كانت ثمرته نوعاً واحداً، ولكن ذكر التنوع الإمام الهادي والزمخشري، فظهر: أنه من معنى الحديقة ﴿وَأَعْنَٰبًا﴾ الظاهر من الجمع أنه أنواع العنب.

(٣٣) ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ قال الإمام الهادي عليه السلام: «والكواعب: فهن النساء النواهد، والناهد: فهي التي قد برز ثديها وتبين للناظرين في صدرها التي لم ينكسر ولم يمل» انتهى المراد، والأتراب: المشتبهات في السن المتفقات في وقت المولد أو في عام المولد، ولكن الإمام الهادي عليه السلام فسرها في هذا الموضع بالمشتبهات في القد والجسم والصورة والخلق.

وهو فائدة اتفاق الميلاد أن يكن سواء في القد والجسم ومعاني اتفاق السن وإن كان الله أنشأهن إنشاء بدون ولادة كما قيل في أهل الجنة، كأبناء ثلاث وثلاثين؛ لأن التاريخ نفسه غير مقصود أعني تاريخ الولادة، إلا لما يترتب عليه في الدنيا، وأمر الآخرة خلاف أمر الدنيا.

(٣٤) ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ يقال في الكأس: كوب فيه الخمر يشرب به، فأما الإمام الهادي عليه السلام فقال: «والكأس: فهو ضرب من الأقداح يشرب فيها الماء وغير الماء من العسل واللبن، يكون الكأس من الفضة والذهب ويكون في الآخرة من ذلك، ومن غيره من الجواهر الياقوت الأحمر والدرّ الأبيض والزمرد الأخضر» انتهى.

وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

فأفاد عليه السلام أنه ليس من معنى (الكأس) أن يكون فيها خمر، بل أي مشروب لذيذ، ولا أن تكون من الزجاج خلاف ما يفهمه (الكشاف) في تفسير (سورة الصافات) ولعل الخمر يكون هو المعنى مع التأنيث؛ لأنها تؤنث بخلاف الماء والعسل واللبن، ففي قوله تعالى: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ [الإنسان:٥] يفسر بالخمر، وكذا في قوله تعالى: ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ [الصافات:٤٦] أما مع عدم التأنيث فتصلح للكل، ولكن وصفها هنا بأنها (دهاق) أي مملوءة يشير إلى أنها شيء عزيز في الدنيا قلما يملأ منه الكأس لعزازته، وكان الخمر يتلف أموال بعضهم على ما بأنفسهم من الشح بالمال، فلعلهم كانوا يشربون منها بمقدار اقتصاداً في الإنفاق، فالأرجح أن الكأس هنا الخمر ـ والله أعلم، أو الخمر تارة والعسل تارة، وهذا إذا لم يكن الضمير الآتي راجعاً إلى الكأس، فأما إن كان راجعاً إلى الكأس فهو الخمر بغير تردد.

﴿٣٥﴾ ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ الضمير إما للجنة؛ لأن السياق قد أفادها، أو لقوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ وإما للكأس، والمعنى: أنها خلاف خمر الدنيا التي يشربها الفساق ويقترن شربها باللغو والكلام الفاحش وتكذيب بعضهم لبعض لعباً ومجوناً كما قيل في المنافقين تحيتهم لعنة، وقد اقترن بذكر شراب الجنة هذا الوصف في (سورة الطور) قال تعالى: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [آية:٢٣] والراجح: الجمع بين المعنيين، فالضمير للجنة، وقرن بذكر الكأس لئلا يتوهم اللغو عند شربها في الجنة، فلا لغو مع شربها لأنهم لا يسمعون في الجنة لغواً.

والكذّاب ـ بتشديد الذال ـ التكذيب، كقوله تعالى: ﴿لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ﴾ [الطور:٢٣] وأما كذاباً بالتخفيف فالأنسب لقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ﴾ أنه الكذب، وهو كقوله تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج:٢٤] قال تعالى: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة:٩٠] قال الراغب: «يقال: كذبه كذباً وكذاباً».

(٣٦) ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ أي هذا النعيم الذي ذكره لأهل الجنة، وصفه بأنه ﴿جَزَآءً﴾ لهم بما صبروا في الدنيا ﴿عَطَآءً﴾ أعطاهم الله ﴿حِسَابًا﴾ أي بقدر أعمالهم في الدنيا، فتختلف لذلك درجاتهم في الجنة لتفاوت حسابهم.

وقال الإمام الهادي عليه السلام: «﴿حِسَابًا﴾ يقول: عطاء كثيراً، إن حسب كثر حسابه، وإن عدّ لم يحط بعدده كثيراً جسيماً جزيلاً عظيماً» انتهى، وقال (صاحب الكشاف): «﴿حِسَابًا﴾ صفة بمعنى كافياً من أحسبه الشيء إذا كفاه، حتى قال: حسبي» انتهى، والأول يناسب قوله تعالى في أهل النار ﴿وِفَاقًا﴾ وقد حكاه في (الكشاف) عن بعضهم، وكذلك حكاه الراغب حيث قال: «وقيل: ذلك إشارة إلى ما قال: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ [النجم:٣٩].

(٣٧) ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ هو مالكها كلها، ولذلك ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ لأن الملك يومئذ للرحمن، فليس لأحد حق على الله، أو نفوذ طلب عنده أن يأذن الله له في خطاب، أو لا يملك من الله أن يقول تعالى قولاً يريده العبد، كقوله: ﴿فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [الأحقاف:٨].

صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

﴿٣٨﴾ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ يوم يقفون بين يدي ربهم منتظرين أمره و﴿ٱلرُّوحُ﴾ جبريل عليه السلام، عطف عليه الملائكة، عطف العام على الخاص، مثل: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٢٨٥] ﴿صَفًّا﴾ مصدر بمعنى صفوف أو صافين صفاً ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ من هيبة ربهم وإجلاله؛ ولأن القول له ليس لهم أن يقولوا، بدليل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي أذن له في الكلام ورضي القول الذي يقوله؛ لأنه حق وصواب، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم:٢٦] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ [طه:١٠٩].

وفائدة اشتراط الرضى، دفع توهم المشركين أن شركاءهم يشفعون لهم لمشاركتهم في الملك بزعمهم، وقوة مكانتهم عند اللّه بزعمهم، بحيث أنه في ظنهم يشفّعهم على كل حال؛ لأن لهم في ظنهم نفوذاً يخوّلهم ذلك، فرد اللّه عليهم، وبين لهم: أن الملائكة ﴿لاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء:٢٨] وليس لأحد أن يشفعه اللّه لمكانته، ولو شفع فيما لا يرضاه اللّه أو لو شفع شفاعة لا يرضاها، وإنما يأذن بها إسعاداً وهو كاره، كما يحتاج الملك إلى تشفيع وزيره في بعض الحال فيما لا يرتضيه، حفاظاً على مكانته في نفس الوزير.

فالله سبحانه وتعالى له الملك وحده ﴿يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الإنفطار:١٩] هذا والكلام في قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ لا يختص بالشفاعة، ولكنها من معناه.

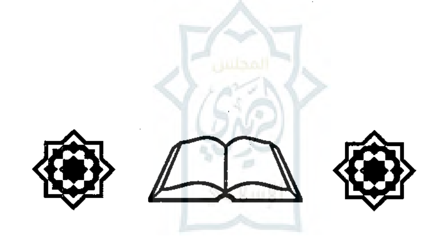
(٣٩) ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ وإن تساءل عنه الجاهلون ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ المآب: المرجع الذي يؤوب إليه، أي يرجع إليه حين يرجع إلى الحياة في الآخرة، أو هو مصدر (آب) فالمعنى: اتخذ لنفسه في الدنيا أوباً إلى ربه في الآخرة، وأما اسم المكان فالمعنى: مثآباً عند ربه، كقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٥].

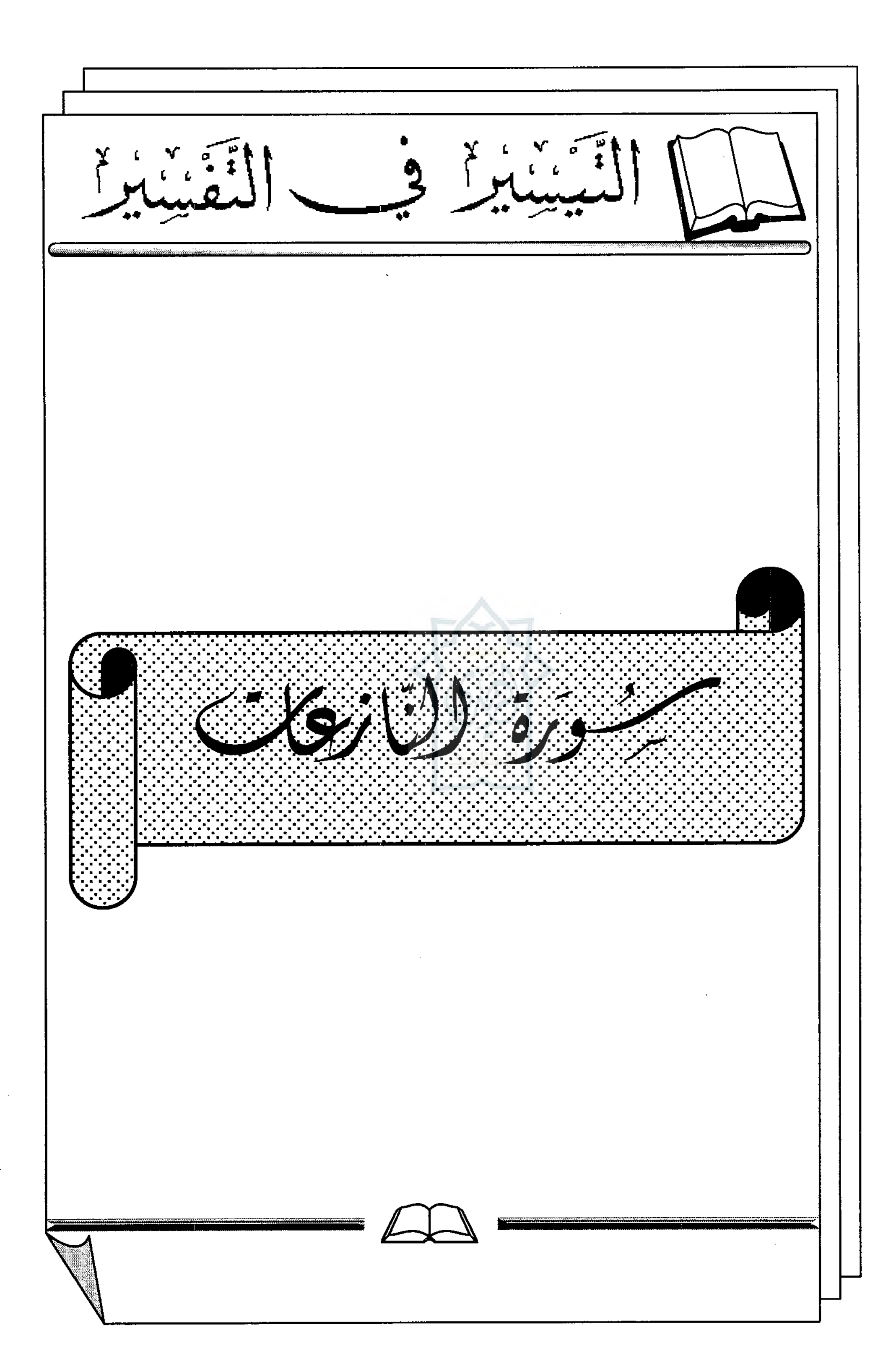
والحاصل: اتخذ من الإيمان والعمل الصالح والتقوى ما يقربه إلى اللّه، فهذه مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [المزمل:١٩] إلا أن السبيل في هذه الآية لم يذكر، وكفى في الدلالة عليه اتخاذ المثآب؛ لأن اتخاذه هو اتخاذ السبيل بعينه.

(٤٠) ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾ الخطاب إما للمكلفين كافة، وإما التفات إلى الذين ﴿يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ والعذاب القريب: هو عذاب جهنم المذكور سابقاً في هذه السورة، وهو قريب لأن الأجل في جنب دوامه كلا شيء والقرب والبعد من الأمور النسبية.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾ أي الإنسان أو هو أعم ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ ما عمل من المعاصي التي توجب له العذاب، أو هو عام للمعاصي وغيرها إلا أن اختصاصه بالمعاصي أوفق للسياق وتأكيد تسبيبه للعذاب بتأكيد نسبته إليه بقوله: ﴿يَدَاهُ﴾ ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾ ندماً ﴿يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾ على أصلي الأول.

فيكون المعنى: ليتني لم أخلق إنساناً وبقيت على أصلي تراباً، أي يا ليتني ما زلت تراباً، أو يا ليتني صرت تراباً حين لا يفيده التمني شيئاً، وقد كان في الدنيا يستطيع أن ينقذ نفسه من ورطته، ولكنه اتبع هواه واستكبر، وقد تقدم إنذاره عذاباً كائناً في هذا اليوم الذي ينظر فيه ما قدمت يداه، فيعلم أنه هو الذي أوقع نفسه في العذاب بجرائمه التي ينظرها في كتابه.




التيسير في التفسير
سورة النازعات



سورة النازعات

آياتها ٤٦ — ترتيبها ٧٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ تكرر في القرآن الحكيم القسم بآيات الله ونعمه، وهذا وصف لمحذوف موصوف بقوله: ﴿النَّازِعَاتِ﴾ وليس يمكن القطع بتعيينه، ولكن الراجح عندي: أنها الإبل والبقر التي تنزع الماء بكثرة وتطلعه من الآبار فتغرق ما تصب إليه وما يسقى به من أماكن النخيل والعنب والزرع وغيرها، ففيها آية من حيث إعداد خلقها لذلك وتقويتها وتسخيرها وتذليلها للإنسان يسني عليها أكثر يومه فلا تمتنع منه.

ونظير هذا القسم بـ(العاديات) إما الخيل وحدها، وإما الخيل والإبل، وتفسير ﴿النَّازِعَاتِ﴾ بالمعهودة عند السامعين أظهر من تفسيرها بالسحاب النازعات لمائها من البحر؛ لأن هذا غير معهود إلا عند قليل من الناس، والآية الظاهرة في السحاب ما ذكره الله في مواضع من القرآن غير النزع ـ والله أعلم.

﴿٢﴾ ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ الأقرب: أنها الإبل التي يسافر عليها من بلد إلى بلد. قال في (لسان العرب): «ونشط من المكان ينشط: خرج، وكذلك إذا قطع من بلد إلى بلد، والناشط: الثور الوحشي الذي يخرج من بلد إلى بلد، أو من أرض إلى أرض..» إلى قوله: «ونشطت الإبل تنشط نشطاً: مضت على هدى أو غير هدى، ويقال للناقة: حسن ما نشطت السير، يعني سدو يديها في سيرها» انتهى، وقال في تفسير (السدو): «السدو: مَدّ اليد نحو الشيء، كما تسدو الإبل في سيرها بأيديها..» إلخ.

﴿٣﴾ ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ الراجح: أنها الخيل تسرع في عدوها حتى كأنها تسبح في الماء، وقد وصفت بالسبح في أشعار العرب، وفي معلقة امرئ القيس يصف فرساً:

مِسَحٌّ إذا ما السابحات على الونى أثرن الغبار بالكد يد المركل

قال شارحها: «السابح من الخيل: الذي يمد يديه في عدوه شبه بالسابح في الماء» انتهى، وقال في (الصحاح): «وسَبْحُ الفرس: جَرْيُه، وهو فرس سابح» انتهى.

﴿٤﴾ ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ لإسراعهن في سبحهن وقوتهن على السبح حتى يسبقن غيرهن من الخيل، فالقسم بهن؛ لما جعل اللّه فيهن من القوة والجودة.

﴿٥﴾ ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ لقلبهن موازين القوة، وتحويلهن أعداء اللّه بعد عنادهم وتكبرهم إلى أذلاء صاغرين، مما يدفع فسادهم، ويرفع راية الحق وينتشر به العدل، وذلك ما تدبره خيل الجهاد، وهذا فضل عظيم للخيل خصت به، فهي تسرع وتهجم على الأعداء وتصبر في المعارك، كما قال عنترة:

ما زلت أرميهم بثغرة نحره ولبانه حتى تسربل بالدم..الخ

وقد أمر اللّه بإعدادها للجهاد في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠] وأقسم بها في قوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ [العاديات:١-٥] ولا إشكال أنهن من آياته العظيمة ونعمه الجسيمة، فالقسم بهن ظاهر.

ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ

والراجح: أن المراد بها خيل الجهاد في سبيل اللّه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ وقد فسرت هذه الأقسام بالملائكة وهو بعيد؛ لأن الآيات خطاب للعرب في أول نزول القرآن وهم لا يعرفون هذه الصفات للملائكة حتى تتبادر إلى أذهانهم، بخلاف صفات الإبل والبقر والخيل، فهي ظاهرة وهي التي تتبادر إلى أذهانهم لكونها معهودة عندهم ـ والله أعلم ـ وجواب القسم: ما دلت عليه الآيات بعدها، أي لتبعثن وتجزون بما قدمت أيديكم.

﴿٦﴾ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ الرجفة الأولى رجفة الأرض عند الصيحة الأولى التي يصعق عندها من في السماوات والأرض إلا من شاء اللّه، وسميت الأرض ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ لأنها لابد أن ترجف عن قريب، كما قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ لقربها.

﴿٧﴾ ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ تتبع رجفتها الأولى الرجفة ﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾ أي التي تعقبها عند الصيحة الثانية المعبر عنها بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر:٦٨] وسميت (رادفة) لقربها من الأولى، فهي رادفة كالراكب بعد الراكب على دابة واحدة.

﴿٨﴾ ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ ﴿وَاجِفَةٌ﴾ مضطربة من الفزع، وهي قلوب الفجار.

﴿٩﴾ ﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾ أي أبصار أهلها ﴿خَـٰشِعَةٌ﴾ ذليلة خاضعة، بعد التكبر في الدنيا، والعصيان والإباء من طاعة اللّه.

خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ

﴿١٠﴾ ﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ ﴿يَقُولُونَ﴾ أي في الدنيا يقول الكافرون: ﴿أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ أي في الحياة نرد بعد الموت، قال في (الكشاف): «قيل لمن كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه: رجع إلى حافرته أي طريقته وحالته الأولى، قال:

أحافرةً على صلع وشيب ... معاذ اللّه من سفهٍ وعَارِ

يريد أرجوعاً إلى حافرة» انتهى، وفي (تفسير محمد بن القاسم بن إبراهيم عليهم السلام): «أراد يكذبون بالرد لهم في الحافر ـ ثم قال ـ: والحافرة: التي تحفر على السرائر وتظهرها» انتهى.

﴿١١﴾ ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ استبعدوا إحياءهم بعد أن صاروا ﴿عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ فقولهم: ﴿أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ﴾ سؤال نفي وإنكار، ولما كان هذا يتكرر منهم جاء هنا بالفعل المضارع الذي هو فعل العادة المتكررة، والعظام النخرة: التي قد بليت ودمرت، قال في (الصحاح): «نَخِر الشيء ـ بالكسر ـ أي بلي وتفتت، يقال: عظام نخرة» انتهى.

﴿١٢﴾ ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي قالوا: تلك إذا كانت تقع، فهي ﴿كَرَّةٌ﴾ أي عودة ﴿خَاسِرَةٌ﴾ أي نخسر فيها، فهم لشدة تكذيبهم يزعمون أنها لو كانت حقاً ما اجترئوا على تكذيبهم بها؛ لأنه يؤدي إلى خسارهم، فالمعنى: أنهم بزعمهم مطمئنون أنها لن تكون، وهم أهل عقول ونصح لأنفسهم فلم يكذبوا إلا لأنهم واثقون أنها لن تكون، ونظير هذا استعجالهم بها تكذيباً بها.

(١٣) ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي استبعادكم للقيامة بقولكم: ﴿أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ﴾ وتكذيبكم باطل، فإنها لا تصعب على اللّه أصلاً إنما هي زجرة واحدة، قال الراغب: «الزجر: طرد بصوت، قال: ثم يستعمل في الطرد تارة وفي الصوت أخرى، قال: واستعمال الزجر فيه [أي في الطرد] لصياحهم بالمطرود، نحو أن يقال: أعزب وتنحّ ووراءك» انتهى.

وفي (لسان العرب): «الزجر: المنع والنهي والانتهار ـ ثم قال ـ: وزجرت البعير حتى ثار ومضى أزجره زجراً، وزجرت فلاناً عن السوء فانزجر وهو كالردع للإنسان، وأما للبعير فهو كالحث» انتهى المراد، فالزجرة هنا إما مجاز عن إعادة الموتى وإثارتهم من قبورهم كما عبر عنه بقوله كن، وإما مجاز عن الصيحة الثانية.

(١٤) ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ فإذا هؤلاء المكذبون بالقيامة، أو ﴿فَإِذَا هُم﴾ أي الأموات كلهم ﴿بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ والسهر: الأرق، أي عدم النوم في وقته أو في وقت الحاجة إليه أي في الليل.

ولكن المفسرين اختلفوا في (الساهرة) فقيل: وجه الأرض، وقيل: هي أرض القيامة، وفي (الكشاف): «الأرض البيضاء المستوية» ويظهر: أن هذه المعاني ترجع إلى التشبيه بالسهر كما ذكروا، فالأقرب: أن الساهرة: هي أرض الموقف موقف الحساب، لتكون هذه الآية كقوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣] وأن المراد: سهر أهلها مثل: ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة:٢١] كالإشارة إلى حالتهم التي يقولون فيها: ﴿يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس:٥٢] وإثبات السهر كناية عن شدة الأمر عليهم؛ لأن الإنسان يسهر للشدة في بدنه أو في نفسه، قال امرؤ القيس:

فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ

تطاول ليلك بالأثمد ... وبات الخلي ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة ... كليلة ذي العائر الأرمد

وقال آخر:

فبتّ كأني ساورتني ضئيلة ... من الرقش في أنيابها السم ناقع

وهذا المعنى أقرب من قول بعضهم: «سميت ساهرة لِوَطْءِ الأقدام عليها».

﴿١٥-١٧﴾ ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ * إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى * ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ هذه الآيات الكريمة فيها موعظة للمكذبين للرسول بما يأتي من قصة فرعون لأجل التكذيب والعصيان، وفيها تسلية للرسول ﷺ، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فاطر:٤] وفيها تنبيه للكفار أن اللّه قد أرسل قبل محمد ﷺ، فليس بدعاً من الرسل، ولا أرسله بشيء عجيب؛ لأنها سنة اللّه في الذين خلوا من قبل أن يرسل إليهم.

ولكون السورة (مكية) جاءت خطاباً لأهل جاهلية جهلاء، فجاءت موجزة كأخواتها من قصار السور، ولذلك اكتفى فيها بذكر موسى وفرعون، ولعلها خصت بالذكر لأجل شهرة موسى وفرعون، أما موسى فلانتماء اليهود إليه على كثرتهم في الأرض، وأما فرعون فلقصته التي استحقت الشهرة تبعاً لشهرة موسى جملة، أي اشتهار أن موسى أرسل إلى فرعون وقومه وهلكوا بالغرق في البحر.

أما حكاية القصة على التفصيل فهي من دلائل النبوة؛ لأنهم إذا شاءوا سألوا أهل الكتاب وعرفوا مطابقتها لما عندهم.

وقوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾ فيه تنبيه لابتداء الحديث ليستمع له ويفرغ له ذهنه ﴿نَادَىٰهُ﴾ دعاه ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ إلى آخر الآيات من (سورة القصص) [من آية:٣٠] والنداء بجهر الصوت ورفعه كما قدمت، وقوله: ﴿طُوًى﴾ اسم الوادي ﴿ٱلۡمُقَدَّسِ﴾ الذي أوحى الله فيه إلى موسى وناداه، وقد اختصر هنا ذكر ما نادى به فذكر إرسال موسى ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي اذهب لإنذاره ودعوته إلى ترك الطغيان وإلى الهدى.

(١٨) ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ ﴿فَقُلۡ﴾ له ﴿هَل لَّكَ﴾ أي اعرض عليه أن ترشده إلى أن يزكى، كأنه قيل: هل لك أن تتوجه إلى تزكية نفسك أو ترجع إلى تزكية نفسك، وأصل ﴿تَزَّكَّى﴾ بتشديد الزاي أو تخفيفها ﴿تَزَكَّىٰ﴾ أي تزكى نفسك وتزكية النفس إصلاحها، وقد فسر (التزكي) بالتطهر من أدران الطغيان، والأقرب عندي: أنه تفسير باللازم، بدليل قوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾ [البقرة:٢٣٢].

(١٩) ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ ﴿وَأَهۡدِيَكَ﴾ معطوف على ﴿تَزَّكَّى﴾ فهو داخل في العرض، تعرض يا موسى على فرعون الجاهل بربه الغافل عنه الآبق منه أن تهديه إلى ربه فيخشى عذابه، لما هو عليه من الطغيان، وقل له هذا القول اللين الرفيق الذي هو قول الناصح الشفيق.

وقوله: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أعرّفك الطريق لترجع إليه، وطريق الرجوع إليه: هي الإيمان المسبب للخشية، فالتخلص من الطغيان وتعريفه الطريق تنبيهه وتبيين الأدلة له الموصلة إلى الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر، والمؤدية إلى الخشية وتقوى الله وذلك هو الرجوع إلى الله.

﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ

هذا الظاهر من حيث أن فرعون عبد آبق أرسل إليه سيده رسولاً يعرض عليه أن يدلَّه على الطريق ليرجع إلى سيده، وليخشى ما قد تعرض له من الأمر المخوف، وقوله: ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ إنذار له بأنه محتاج إلى الخشية من أمر مخوف يريد أن ينقذه منه، وهذا توجيه له لو استعمل عقله إلى أن يفكر وينظر في صحة ما يقول موسى وصحة دليله على صدقه دون أن يسارع إلى التكذيب والمكابرة.

وفي تفريعه بقوله: ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ على قوله: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ دلالة على أن هدايته إلى ربه تستلزم أن يخشى؛ لأنه بذلك يوقن أنه على خطر عظيم فيخشى، وهذا يؤكد أن معنى ﴿أَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أدلك على الطريق إلى ربك لترجع إلى ربك.

﴿٢٠﴾ ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ وهي صدقه في أنه رسول من رب العالمين، وهي ما ذكره اللّه تعالى في قوله في (سورة الشعراء): ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [آية:٣٠-٣٣] فقد أراه الآيتين فظاهره أنهما مجموعهما الشيء المبين وهنا كذلك يحتمل أن مجموعهما هو الآية الكبرى لاجتماعهما عقيب طلب فرعون.

﴿٢١﴾ ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ كذب الرسول وعصاه، وكذب بالآية.

﴿٢٢﴾ ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ ﴿أَدْبَرَ﴾ عن موسى ﴿يَسْعَىٰ﴾ مسرعاً ليحشر قومه ويبادر إلى تضليلهم وصرفهم عن الإيمان بموسى.

ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ

﴿٢٣﴾ ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ حشر قومه فناداهم بإفكه وتضليله.

﴿٢٤﴾ ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ يخوف قومه من اتباع موسى، وليس يعني: أنه الذي خلقهم، وإنما أراد أنه مالكهم الأعلى؛ ليحذروا بطشه، وجرى كلامه مجرى المشاكلة لقول موسى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف:٤٦]، ومعناه: نفي رب العالمين وإثبات نفسه بدله في ملكهم والقدرة عليهم، وحين قابل الآيات بالتكذيب من أول الأمر بعد وضوح الحق وتمرد على اللّه خذله، فتطور في باطله واستمر على مكابرته.

﴿٢٥﴾ ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ ﴿نَكَالَ﴾ مصدر مؤكد؛ لأن معنى: (أخذه اللّه) نكّل به ﴿نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ عقوبة الآخرة والأولى، ومعنى ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ إما ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ من جرائمه ﴿وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ منها أي أخذ بجرائمها كلها وقدمت الآخرة؛ لأنها سبب تعجيل العذاب لأنه في الآخرة حشر قومه ليقتلوا موسى وقومه فطردوهم حتى البحر فأغرقهم اللّه، ويحتمل ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ أنه أخذه أخذاً يستمر، فأوله في الدنيا الغرق وما اقترن به من إهانته، وآخره عذاب النار الدائم، وفيما بين ذلك يعرض على النار غدواً وعشياً، فهو أخذ الدنيا والآخرة.

﴿٢٦-٣٣﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ * ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا * وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا * وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ * أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا * وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا * مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ لأنه ينذر المكذبين لرسول اللّه ﷺ أن يؤخذوا كما أخذ فرعون فهو محل قياس لأن الأصل تكذيب فرعون وتمرده وإصراره بعد وضوح الحق، والفرع تكذيب المكذبين لمحمد رسول اللّه ﷺ وتمردهم وعنادهم وإصرارهم، والعلة الجامعة أن كلاً منهما رسول من اللّه جاء بالآيات البينات من اللّه، والحكم استحقاق الآخذ من اللّه وكونه متوقعاً ثم وقوعه إن لم يتوبوا، فالعبرة عبور حكم الأصل إلى الفرع أو هي العلة الجامعة التي بها يعرف عبور حكم الأصل إلى الفرع وهذا أقرب، وفي كلام الإمام علي عليه السلام: «ما أكثر العبر وأقل الاعتبار».

ولما انتهى حديث موسى وما فيه من الإنذار للمكذبين بالآخرة المكذبين بالنذر رجع الكلام إلى الاحتجاج على المكذبين بالآخرة القائلين: ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾.

فقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا * وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:٥٧] فالمعنى: ءأنتم يا منكري البعث ومستبعدي القدرة عليه أنتم أشد وأصعب خلقاً أم السماء والأرض، فقد قدر سبحانه وتعالى على خلق السماء والأرض، فكيف لا يقدر على خلقكم، ولعل تسمية خلق السماء بناء إشارة إلى أنه تعالى جعلها سقفاً، قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة:٢٢] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء:٣٢] ولا يبعد أنها مركبة تركيب البناء مؤلفة منظمة فسميت ﴿بِنَاءً﴾ لذلك ـ والله أعلم.

وفي تفسير (سورة الذاريات) من (المصابيح) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ﴾ [آية:٤٧] قال الإمام الهادي عليه السلام: ((فهو جعلناها وخلقناها وقدرناها سقفاً عليكم وجبرناها)) انتهى، وهذا يشير إلى المعنى الأول ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ فيه احتمال أن السمك هو الرفع، فمعناه: أبعدَ بُعْدَها في العلو أو أن يكون السمك هو الطول، ومعنى رفعه: زيادة إطالته أعني تطويل طوله، وجعله بعيد المسافة في الطول.

وقد *يقال*: لا يتبادر إلى الأذهان إلا لو كانت السماء بنياناً كالقصر فيكون رفع طوله مفهوماً؟

والجواب: أن السماء إذا كانت عبارة عن جملة السبع السماوات، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة:٢٩] وقوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الحديد:٢١] وفي آية: ﴿عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ [آل عمران:١٣٣].

فكما يصح في القصر الذي هو سبع طبقات أن يقال: ((رفع طوله)) صح في السبع السماوات أن يقال: جعلت السماء سبع سماوات طباقاً فارتفع سمكها بذلك؛ لأنها جعلت كالقصر المبني من سبع طبقات ـ والله أعلم ـ ولأن طبقاتها متباعدة في علوها.

وقد روي أن بين كل سماء وسماء خمسمائة عام، وعلى هذا يسهل فهم بناء السماء بمعنى جعلها سبع طبقات، كبناء الدار، وفهم رفع سمكها بذلك مع تباعدهن في العلو.

فإن قيل: من أين لنا تفسير السمْك بالطول؟

قلت: قال في (لسان العرب): «والسمك: القامة من كل شيء بعيدٍ طويل السمك، وقال ذو الرمة:

نجائبَ من نتاج بني عُزَيرٍ طوال السمك مُفْزِعَةً نبالا

ثم قال: والسامك: العالي المرتفع، وبيت مستمك: طويل السمك.

قال رؤبة:

صَعَّدكُم في بيت مَجْد مستَمِك

ويروى: منسمك» انتهى، وأيضاً يصح اعتبار الإطالة للبناء: رفعه، فتكون تسميتها سمكاً باعتبار رفع البناء، فلم يخرج السمك عن معنى الرفع، ويناسب هذا قول الشاعر:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

ومثله قول لبيد في (معلقته):

فبنى لنا بيتاً رفيعاً سمكه فسمى إليه كهلها وغلامها

وقوله تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ تسويتها: إتقان صنعها وتهيأتها لما، يراد بها وسلامتها من الفطور.

وقوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ في (تفسير الشرفي): عن الحسين بن القاسم: الإغطاش هو الظلام» انتهى، أي جعل ليلها ظلاماً، ونحوه في (الكشاف) و (مفردات الراغب) وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي نهارها، إخراجه: إظهاره بعد أن كان غائباً في الليل.

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ ودحو الأرض: إعدادها للإنسان لتصلح لعيشه فيها بتربتها وهوائها وجبالها ومائها، ولعل من تفسير الدحو قوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ وللإيجاز لم يذكر ما يترتب على الماء لأنه ظاهر ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ جعلها راسية في أماكنها أوتاداً للأرض ومنافع للناس.

ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ

﴿مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ﴾ هذه النعم وتهيئة الأرض لعيشكم فيها ﴿مَتَـٰعًا﴾ متعناكم به والمتاع: المنفعة القصيرة المدة، فاعتبرت متاعاً لأن الإنسان لا يبقى فيها إلا مدة قليلة ثم يرتحل إلى دار القرار، ألا ترى إلى قول مؤمن آل فرعون: ﴿يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر:٣٩] فهذه دلائل على قدرة اللّه على إعادة الإنسان في الآخرة، كما هي دلائل على نعم اللّه تعالى الموجبة لشكره واجتناب الكفر.

﴿٣٤﴾ ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ في (المصابيح): «عن الحسين بن القاسم عليه السلام: وإنما سميت (طامة) لعلوها ورفعتها، وهولها عند وقعها، ووثوبها بغتة وسرعتها، وأصل الطمّ في الارتفاع في الهواء سريعاً سريعاً معاً معاً» انتهى المراد.

وفي (لسان العرب): «طمّ الماء يطم طماً وطموماً، علا وغمر، وكل ما كثر وعلا حتى غلب فقد طم يطم وطمَّ الشيء يطمُّه طماً غمره» انتهى المراد، فظهر أن ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ هنا بمعنى: الواقعة على العالم، العامة لأهل السموات والأرض، القاهرة لهم، ثم قال: ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾ فزادها تعظيماً وتهويلاً.

﴿٣٥﴾ ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ تفسير لحين مجيء الطامة، فهو يوم يتذكر الإنسان ما قدم في الدنيا، إما لأن اللّه تعالى ألهمه لشدة خوفه من السيئات وطمعه في الحسنات، وإما لأنه يراه في كتابه وإما لذلك كله.

﴿٣٦﴾ ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ أظهرت ليروها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٧] وفي (الكشاف): «أي لكل أحد، يعني أنها تظهر إظهاراً بيناً مكشوفاً، كقوله: قد بين الصبح لذي عينين، يريد لكل من له بصر، وهو مثل في الأمر المنكشف الذي لا يخفى على أحد» انتهى.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن

ومن هذا المعنى قول الشاعر:

شجو حساده وغيظ عداه ... أن يرى مبصر ويسمع واع

۝٣٧ ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ (الفاء) للتفريع على مجيء ﴿الطَّامَّةُ﴾ وتبريز الجحيم، وهو يفيد: أن إظهار الجحيم لمن يرى متقدم على وقت إدخالهم جهنم، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢] فهم يرونها قبل أن يصيروا فيها، والطغيان: مجاوزة الحد في العصيان، كأن العاصي المصر علا وتكبر، من حيث أنه عبد لله عليه أن يطيعه، فخلع رداء العبودية وترفع عنها بالتمرد والعصيان، فكان ذلك طغياناً.

۝٣٨ ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ جعل مطالب الحياة الدنيا أحب إليه من الإعداد للآخرة، فاختار العمل للدنيا على عمل الآخرة، وقدمه على الإعداد للآخرة.

۝٣٩ ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي مأواه الذي يأوي إليه إذا جاءت ﴿الطَّامَّةُ﴾ أي مصيره ومحله ومقره.

۝٤٠ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ موقف الحساب الذي يوقف فيه العباد بين يدي ربهم ليسألهم ويحاسبهم و(المقام) الموقف، والمعنى: خاف حسابه عند ربه، فهو من المتشابه كما قدمت في تفسير (الحاقة) وتصوير العرض على الله والوقوف بين يديه للحساب وارد في مواضع من القرآن، وهو عبارة عن موقف الحساب الدقيق، والسؤال عما تقدم من الأعمال، ووقوف العباد للحساب.

ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

والسؤال حقيقي، وإنما المتشابه: تسميته لقاء وحساباً عنده ووقوفاً بين يديه، ﴿**وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا**﴾ [الزمر:٦٩] ﴿**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ**﴾ [الحاقة:١٧] ﴿**سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ**﴾ [الرحمن:٣١] ﴿**إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ**﴾ [المائدة:٤٨] ﴿**وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا**﴾ [الكهف:٤٨] وهي تعبر عن مقام هيبة وإجلال لله تعالى، وعن كون السؤال والحساب منه، وكذلك الفصل بين العباد، وعن غير ذلك من المعاني التي لأجل جملتها كان ذلك كالحضور بين يدي ملك يقضي فيهم بما يشاء.

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي في هذه الدنيا نهى نفسه عما تهوى، وكلفها الصبر على التقوى، والأولى حملها على ظاهرها، وأن الواجب مدافعة الهوى نفسه، أي ما زاد على الطبيعي الضروري.

﴿٤١﴾ ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ وفي هذه حصر، وكذلك الأولى فالنار مأوى الطاغين لا مأوى لهم غيرها، والجنة مأوى المتقين لا غيرها.

﴿٤٢﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ القيامة، ولعلها سميت (ساعة) لتقريبها في قدرة اللّه، والدلالة على أنها لا تعسر عليه، والسائلون عنها: إما أهل القلوب التي تكون ﴿**يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ**﴾ وإما الناس كقوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ**﴾ [الأحزاب:٦٣] و﴿أَيَّانَ﴾ بمعنى متى ﴿مُرْسَىٰهَا﴾ ومرساها كناية عن وصولها وثباتها، كأنها آتية إتيان المسافر وعند وصولها ثبتت ثبات الجبال، قال تعالى: ﴿**وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا**﴾.

﴿٤٣﴾ ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي في أمر عظيم أنت بسبب تذكرها، أي في اهتمام بها وخوف، قال في (المصابيح): «عن الحسين بن القاسم عليه السلام: يريد

بذلك التوقيف للناس على خوف رسول الله ﷺ وما هو فيه من الفزع والحزن، عند ذكره لها وعندما يخطر على باله من هولها» انتهى. وهذا دليل على عظم أمر الساعة، وأن المهم الإعداد لها، لا السؤال متى تجيء.

(٤٤) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ غايتها، أمرها إلى الله وحده، وهي مصير كل نفس إلى جزائها، أو الساعة تنتهي إليه فيتولاها هو، تشبيهاً كما قلنا في ﴿مُرْسَاهَا﴾.

(٤٥) ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ أي ما أنت إلا نذير لم تبعث لتخبرهم متى تكون ولم تعلم الغيب، و﴿مَن يَخْشَىٰهَا﴾ الذي يخافها فهو الذي ينتفع بالإنذار، والحصر إضافي بالنسبة إلى أنه لم يبعث ليخبر متى الساعة.

و﴿مَن يَخْشَىٰهَا﴾ يحتمل: من يخشاها عند سماع الإنذار فينظر في الدليل على صدق الإنذار لأجل خشيته عند الإنذار فيؤمن بها ويستعد لها، ويحتمل: من يخشاها لأنه يؤمن بها، فيكون المعنى: من ينتفع بالإنذار فيؤمن فيخشاها لأجل إيمانه بها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس:١١].

(٤٦) ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ يوم يرون الساعة لأنها قد جاءت، ورؤيتها: رؤية أهوالها وأمورها التي تكون عند قيامها، كأنهم لم يلبثوا أي في أنفسهم يرون مدة اللبث قصيرة جداً ليست إلا مقدار بعض يوم، ومدة اللبث هذه التي يرونها قصيرة إلى هذا الحد إما أن تكون مدة لبثهم في الحياة الدنيا، فيكون المعنى: أنهم يوم يرونها يستقلون الحياة الدنيا، ومقتضى ذلك أن يندموا لإيثارها على الآخرة الباقية العظيمة الشأن.

وإما أن تكون مدة اللبث هذه هي مدة لبثهم في القبور، فيكون المعنى: أنهم حين يبعثون، وفي أول ما يرون القيامة ويعلمون أن قد قامت يستقلون المدة الماضية من حين ماتوا حتى بعثوا.

وهذا رد على من يستعجلها ويسأل ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ استعجالاً لها، كأنه قيل: لا تستعجلوها، فإنكم يوم ترونها تكونون في استقلالكم المدة الماضية من حين متم كأنكم لم تلبثوا ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ لا يكون في نفوسكم أي استطالة لمدة اللبث بل العكس.

ويشكل على هذا: أنه ليس في الآية تحديد لأول مدة اللبث من حين ماتوا، كما أنه يشكل على الأول: أنه ليس في الآية تحديد لغاية اللبث حتى ماتوا فالأولى الجمع، وهو أن يكون المعنى: كأن لم يلبثوا في حياتهم الدنيا وبعد وفاتهم إلى يوم القيامة إلا عشية أو ضحاها، وهذا يناسب قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٥٥-٥٦] وهو واضح في تحديد آخر المدة بالقيامة.

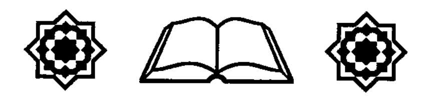
فأما تحديد أولها، فيمكن أن يحتج له بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس:٤٥] بناء على أن جملة ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ حال من ﴿يَلْبَثُوا﴾ وهو محتمل أنه حال من ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ وإن كان الأول أرجح لأنه أقرب، وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ [الأحقاف:٣٥] وهذا ظاهر الدلالة؛ لأن السياق في الكفار المكذبين لرسول الله ﷺ وهم أحياء، ولا دليل على تقدير الموت هنا، والساعة: مدة قصيرة غير محددة في لغة العرب، فلا تنافي بين الآيتين؛ لأن العشية أو ضحاها يصح أن تعتبر ساعة لقلتها.

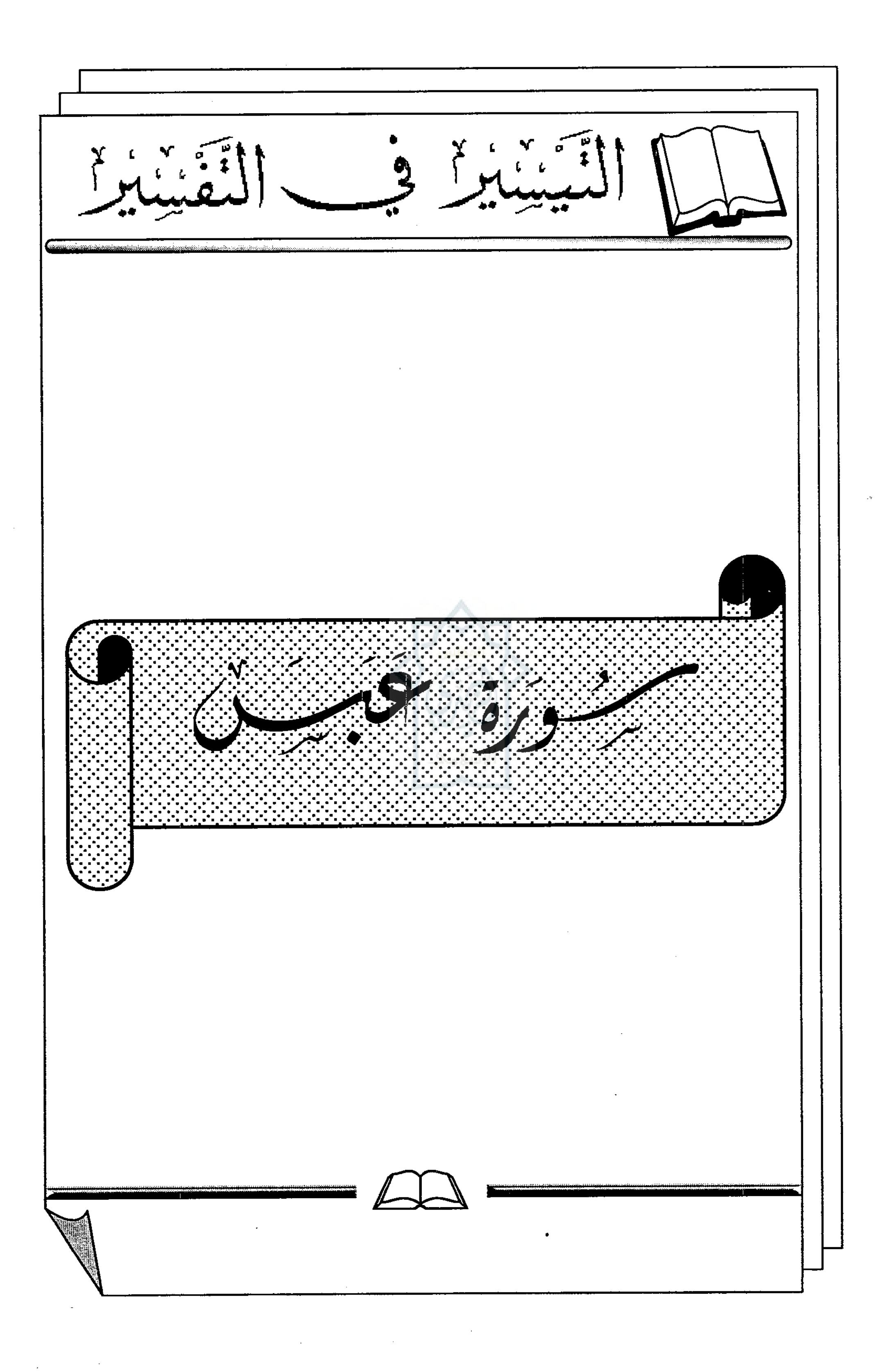
فإن قيل: فكيف بقوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ [المؤمنون:١١٢]؟

قلنا: لم يقل في بطن الأرض، فيصح حمله على حالتي الحياة في الأرض والموت.

فإن قيل: فكيف ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف:١٩]؟

قلنا: يجوز أن يشكوا عند السؤال وإن كانوا قبله لا يترددون في أنها ساعة، وكذلك الجواب في قوله تعالى: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه:١٠٣-١٠٤] يصح أن يبدو لهم ذلك من بعد، وإن كانوا أرادوا في بطن الأرض.




التيسير في التفسير
سورة عبس



سورة عبس

مكية · آياتها ٤٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا

﴿١-٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ ﴿عَبَسَ﴾ قطب وجهه وأظهر الحمس من مجيء ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أعرض عنه بترك التوجه إليه، واختلف في هذا العابس المتولي فقيل: هو رسول اللّه ﷺ، واعتذر له بأنه كان مشغولاً بكبراء من قريش يدعوهم إلى الإسلام ويرغب في إسلامهم ليسلم أتباعهم، فشق عليه مجيء الأعمى لاشتغاله بما هو في نفسه أهم، ولم يكن تقطيب وجهه حمساً على الأعمى، وإنما هو لضجره منه أداه الضجر إليه بالطبع لا بالاختيار، وأما إعراضه عنه فلاتّجاهه إلى ما هو في نفسه أهم وكون الأعمى معارضاً له، ليس تكبراً على الأعمى ولا استخفافاً به.

وقيل: العابس المتولي: رجل من كفار قريش المتكبرين عن الجلوس مع أصحاب رسول اللّه الفقراء، عبس عند مجيء ابن أم مكتوم تكبراً، وهذا يناسب ما تشير إليه الآيات، مثل: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ..﴾ الآية إلى قوله تعالى: ﴿..فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٢] وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا..﴾ الآية [الكهف:٢٨] وقد كان رسول اللّه ﷺ على خلق عظيم، فيبعد منه وقوع هذا العبوس والتولي بسبب مجيء الأعمى، وحمله على من هو مظنته أقرب.

فإن قيل: إن اللّه تعالى عقبه بقوله: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾ والخطاب فيه للنبي ﷺ، فهو كالتتمة للإنكار عليه؟

قلنا: هو توجيه للإنكار على العابس المتولي؛ لأنه عبس ممن ينتفع بالمجيء إلى رسول اللّه ﷺ واستماعه إليه، بخلاف العابس من كبار قريش وتوجيه الخطاب إليه؛ لأنه هو الذي يعرف قيمة هذا التوجيه، بخلاف الكافر فعيبه من أول الكلام وارد في القرآن المنزل على رسول اللّه ﷺ مبلغ إلى رسول اللّه ﷺ ليسمع الإنكار على المتكبرين.

ويفيد معرفة مكان المصغين إلى الرسول ﷺ، ونظيره قوله تعالى في (سورة الطلاق): ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [آية:١] ولم يكن المراد: أن رسول اللّه ﷺ هو المطلق المأمور بالطلاق للعدة، ولكن لأن الكلام معه أنزل إليه، فخوطب بتعليل الحكم.

ويؤكد أن العابس غير النبي ﷺ: اختلاف الكلام حيث لم يقل: (عبست) كما قال: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ ومعنى ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ يصلح نفسه بالعمل الصالح، وذلك إذا سمع من رسول اللّه ﷺ تعليماً للعمل الصالح أو ترغيباً فيه، ومعنى ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ﴾ أو يتذكر ينتبه من غفلة ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾ التي هي الموعظة المنبهة له من الغفلة كقوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ [الأعلى:١٠].

(٥) ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ أي من كفر فاستغنى عن الهدى؛ لأنه كاره له لا يريده.

(٦) ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ تتعرض له لتعليمه وإرشاده إلى الإسلام، وهو يرى أنه لا يحتاج له لكفره واستكباره.

عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾

﴿٧﴾ ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ وما يضرك أن لا يزكى، فعدم تزكيه ضره عليه لا عليك، وكان ﷺ حريصاً على إسلامهم، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣] وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ..﴾ إلى قوله: ﴿..أَسَفًا﴾ [الكهف:٦] فهذا تسلية له بأنه لا يضره تركهم للتزكي أو عدم تزكيهم؛ لأنه ليس عليه هداهم إنما عليه البلاغ.

﴿٨-١٠﴾ ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ ﴿مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ مسرعاً لرغبته في أن لا يفوته شيء من كلامك؛ لأنه ﴿يَخْشَىٰ﴾ اللّه ويرغب في تعلم ما ينجيه من عذاب اللّه ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ تتشاغل بالمستغني عنك وعن كلامك عن هذا الراغب إليك، وسمي التشاغل عنه تلهياً؛ لأنه أحق بالإقبال والتعليم ممن لا يريده ولا يقبله.

قال في (الكشاف): «فإن قلت: قوله ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ كأن فيه اختصاصاً؟ قلت: نعم. ومعناه: إنكار التصدي عليه والتلهي، أي مثلك خصوصاً لا ينبغي له أن يتصدى للغني ويتلهى للفقير» انتهى.

قلت: أراه أصاب وأخطأ، أصاب في تفسير الاختصاص، وأخطأ في تفسير الاستغناء بالغنى، وحاشا رسول اللّه ﷺ أن يتصدى للأغنياء، ولا يتصور أن ينسب إليه في القرآن الكريم، ولو لم يكن المقصود أنه يتصدى للغني لغناه؛ لأنه يوهم ذلك ويكون ضعفاً في التعبير ينزه عنه أعلى الكلام في حسن البيان الذي هو القرآن، وفي كل فضل، وكذا قوله: ويتلهى عن الفقير، عبارة ضعيفة جداً.

وقد قال (صاحب الكشاف) في تفسير ﴿اسْتَغْنَى﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾ [الليل:٨]: «وزهد فيما عند اللّه، كأنه مستغن عنه فلم يتقه، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الجنة» انتهى المراد.

وقالوا في قول الشاعر:

كلانا غني عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشد تغانيا

التغاني: استغناء كل منهما عن الآخر، وفي (نهاية ابن الأثير): «وفي حديث الجمعة: «من استغنى بلهو أو تجارة استغنى اللّه عنه والله غني حميد»» انتهى المراد، وفي (كنز العمال): أنه أخرجه ابن عدي، والدار قطني، وابن ماجه و (ز) ـ لعله البزار ـ كما ذكره مؤلف (الكنز) كلهم عن جابر، وأنه أخرج رواية أخرى الطبراني في (الأوسط) عن أبي هريرة، ورواية أنه أخرجه الدار قطني في (الأفراد) عن ابن عباس.

فظهر: أن معنى ﴿اسْتَغْنَى﴾ لم يجد حاجة إليه، أي رأى أنه غير محتاج إليه، ولهذا لحقه الوعيد في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾ [الليل:٨] وهذا معنى الغنى الأصلي، قال في (النهاية): «الغني: الذي ليس بمحتاج» انتهى، ولذلك يقال: «الغنى غنى النفس» أي القناعة.

وفي قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى..﴾ إلى قوله: ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ تسلية لرسول اللّه ﷺ عن المتمردين، بأنهم مستغنون لا يريدون تعليمه وإرشاده، وإنما يشغلونه عمن ينتفع به ليجعل اهتمامه بإرشاد من يقبل دون من هو كاره متمرد.

(١١-١٢) ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ زجر إما للعابس المتولي؛ لأن رسول اللّه ﷺ أرسله الله ليهدي الناس ويذكرهم، والأولى به من يتبعه لا المتكبرون.

مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ

﴿كَلَّا إِنَّهَا﴾ قال الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام: «معناه: نعم إنها تذكرة و(كلاَّ) هاهنا بمعنى (نعم) وليست بمعنى (لا) كغيرها» انتهى. وهذه الجملة دالة على هوان المتكبرين عند اللّه، بحيث نهى رسوله عن التلهي بهم، وذمهم على العبوس والتولي ﴿تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ ذكر اللّه واطرح الكبر؛ لأن هذا الكلام تذكرة لهم من كتاب الله.

﴿١٣-١٦﴾ ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة:٧٧-٧٨] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤] إلا أن بينهما فرقاً، فـ(أم الكتاب) و(الكتاب المكنون) لعله باق في السماء، مثبت للملائكة يقرؤونه وأما هذه الصحف فهي ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ يحملونها ليبلغوا ما فيها، وهي ﴿صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ عند اللّه لكرامة القرآن المكتوب فيها ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ قدراً وشأناً أو مرفوعة قبل أن تنزل بها السفرة، وهم الرسل من الملائكة عليهم السلام ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ لا يمسها إلا المطهرون.

﴿كِرَامٍ﴾ أهل تقوى لله وأخلاق كريمة ورغبة في هداية أهل الأرض ﴿بَرَرَةٍ﴾ أهل بر وإحسان وسعي في الخير والصلاح وطاعة لله، وهذه الجملة تعظيم للتذكرة القرآنية، ودلالة أنها منزلة من عند اللّه، والكلام من أول السورة عائد إلى الرسول وما جاء به من اللّه، ولما كان من جملة ما جاء به الإنذار والتذكرة، وكان الكافرون يكفرون باليوم الآخر، أتبعه بالدليل على قدرة اللّه على النشأة الآخرة، وعلى نعمته على الإنسان، فقال تعالى:

ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ

﴿١٧-١٨﴾ ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ * مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ في (المصابيح): «عن محمد بن القاسم بن إبراهيم: ومعنى ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ أي لعن الإنسان ما أقل شكره، وكذلك كل من كفر بآيات اللّه ولم يصر فيما أُمِر به إلى مرضاة اللّه، فمن كان كذلك أو عمل بذلك فهو من الكافرين غير الشاكرين، لما أولاه ووهب له من النعم وأعطاه» انتهى.

فالسياق جامع للتبكيت على كفر النعمة وتعديد النعم وللاحتجاج على المكذبين بالآخرة ﴿مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ حتى يقوم لمخاصمة ربه وجحده لقدرته، أي لم يخلق من أصل عظيم، إنما خلق من شيء حقير، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٧٧].

﴿١٩﴾ ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ من ماء قليل هو المني ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢] أي جعله على مقدار محكم مناسب لوظيفته في الحياة، وأيضاً جميل متناسب وتقديره يكون مع خلقه ونموه في بطن أمه.

﴿٢٠﴾ ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ التقدير: ثم يسر سبيله يسره، وهي من دلائل قدرته تعالى حيث يسر له سبيلاً للخروج من بطن أمه، لا هي أخرجته، ولا هو خرج بقدرته واختياره.

﴿٢١﴾ ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾ وهي من دلائل القدرة، فالعالم يعجزون عن دفع الموت بأي حيلة أو دواء أو غير ذلك، لا يدفع عن ملك من الملوك، ولا عن نبي ولا غيره ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾ سخر الأحياء فقبروه، ليواروا سوأته ويصونوا جثته، تكرمة للإنسان للأحياء والأموات.

صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ

﴿٢٢﴾ ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ خلقه خلقاً جديداً يوم القيامة.

﴿٢٣﴾ ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ ردع للإنسان عن غفلته عن الآخرة أو كفره بها، مع أنها الخطر العظيم عليه، وهو لم يتم ما أمره اللّه به، وجاءت ﴿لَمَّا﴾ هنا لأن الإنسان ما زال في مدة الاختبار يمكنه أن يتم ما أمره في بقية عمره فأما (لم) فوقتها حين يموت مقصراً، ولكن السياق في دعوة الحي إلى الإيمان والطاعة والشكر، فالكلام فيمن يصلح لذلك لا فيمن قد مات.

﴿٢٤﴾ ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ كيف أوجدناه له نعمة وآية.

﴿٢٥﴾ ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ وهذا توقف على جعله في السحاب لينزل منها إلى الأرض، فيعم المال والمراتع وغيرها، وذلك دليل على قدرة اللّه مع كونه نعمة؛ لأنه يسقي الأنعام والناس والأشجار والمرعى.

﴿٢٦﴾ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ بإخراج الزرع من بين الأرض عند نباته، فالزرعة اللينة الضعيفة تطلع في منبتها فتشقه وتفرق اتصاله بقدرة اللّه تعالى، وما جعل فيها من قوة الخروج من بطن الأرض.

﴿٢٧﴾ ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ بعد خروج الزرع وصلاحه لإنبات الحب وإخراجه منه، والحب أهم طعام الإنسان.

﴿٢٨-٣١﴾ ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ غُلْبًا * وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ أي جملة ما ذكر متاعاً لنا ولأنعامنا التي سخرها لنا لنأكل منها، فتم بيان طعام الإنسان المهم ، وأما القضب والأب فهو للأنعام، وقد يأكل بعض الناس من القضب، والزيتون يؤكل ويستعمل دهنه دهناً للشعر والبدن وصبغاً للآكلين،

وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ

وتسقى به المصابيح في الزمان الأول، والنخل تجمع فوائد في نفس الشجرة وفوائد في ثمرتها، فسعفها يصنع منه الحصير والمكانس ويجعل في سقف البيت عند بنائه وغير ذلك، والتمر يؤكل ويتخذ منه نبيذ، والنوى ينقع في الماء ويدق ويطعم الأنعام، ولعلها ذكرت ـ أعني ـ النخل دون التمر لما فيها من المتاع لنا ولأنعامنا الذي لا يخص التمر، والأبّ مرعى للأنعام، قال في (المصابيح) ـ حاكياً عن محمد بن القاسم بن إبراهيم ـ: «والأبّ: فهو العشب والمرعى الذي جعله اللّه مرعى ومرتعاً للأنعام ومهملاً للإبل» انتهى، وحكى في (المصابيح) أيضاً مثله عن الإمام الهادي عليه السلام.

ومثله قاله ابن جرير في (تفسيره) ورواه بإسناده عن ابن عباس، ورواه عن الحسن، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وأما الحدائق فقد مر تفسيرها، وأما الغلب: فهي الغلاظ، وهي التي في أشجارها كثرة وقوة والتفاف.

﴿٣٢﴾ ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ أي أنبتنا هذه النباتات متاعاً لكم ولأنعامكم مؤقتاً وقتاً لا يتعداه قصيراً؛ لأن الموت يحول دونه والقيامة.

﴿٣٣-٣٦﴾ ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ * يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ في (المصابيح) عن الإمام القاسم عليه السلام في تفسير ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾: «المسمعة المصخة للأنفس من هولها وما يرى فيها من عظمها فتصخ لها النفوس» انتهى.

قلت: هي القيامة، أو الصيحة الثانية التي يحشر الناس عندها حين يسمعون الصيحة، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾ [ق:٤٢]

﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

وعبارة (الكشاف): «يقال: صخ لحديثه، مثل أصاخ له، فوصفت النفخة بالصاخة مجازاً؛ لأن الناس يصخون لها» انتهى.

قلت: أصاخ له أي استمع له، قال الشاعر:

وحديثها كالقطر يسمعه ... راعي سنين تتابعت جدبا

فأصاخ يرجو أن يكون حياً ... ويقول من فرح هَيَا ربَّا

ثم فسّر: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ ﴿يَفِرُّ﴾ الإنسان يفر من خاصته في الدنيا؛ لأنه مشغول بنفسه ﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ والديه ﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾ قرينة حياته الدنيا، سواء كانت زوجه كما هو شأن معظم العالم، أم خدينة تكون معه بمنزلة الزوجة أو أخص، كما هو شأن بعض الكفار ﴿وَبَنِيهِ﴾ الذين كان في الدنيا مستعداً ليفديهم بنفسه بالدفاع عنهم.

﴿٣٧-٣٦﴾ ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ ﴿لِكُلِّ﴾ إنسان من المذكورين في ذلك اليوم العظيم وبسبب هوله ﴿شَأْنٌ﴾ حال ﴿يُغْنِيهِ﴾ يدفعه عن أهله ويشغله عنهم، فلا يحاول أن ينصره أو يسأله عن حاله، ثم فسر تعالى الشأن الذي يغنيه، فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ ناضرة بيضاء مشرقة، وعبارة (الكشاف): «مضيئة متهللة من أسفر الصبح».

وعلى هذا: فهي منيرة ليس مجرد البياض، ويحتمل: أنها لجمالها وظهور أثر السرور عليها كأنها تضيء، كما قال الشاعر:

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه ... برقت كبرق العارض المتهلل

وقال آخر:

المحه من سنا برق رأى بصري … أم وجه نُعْم بدا لي أم سنا نار

وأما الضحك فهو دليل الأمن والسرور، وأما الاستبشار فهو في القلوب فرح، بما عرفوا بالعلامات من حسن مأواهم وكرامتهم عند مولاهم، ولعله يؤخذ في معنى الاستبشار أنه سرور يظهر في البشرة.

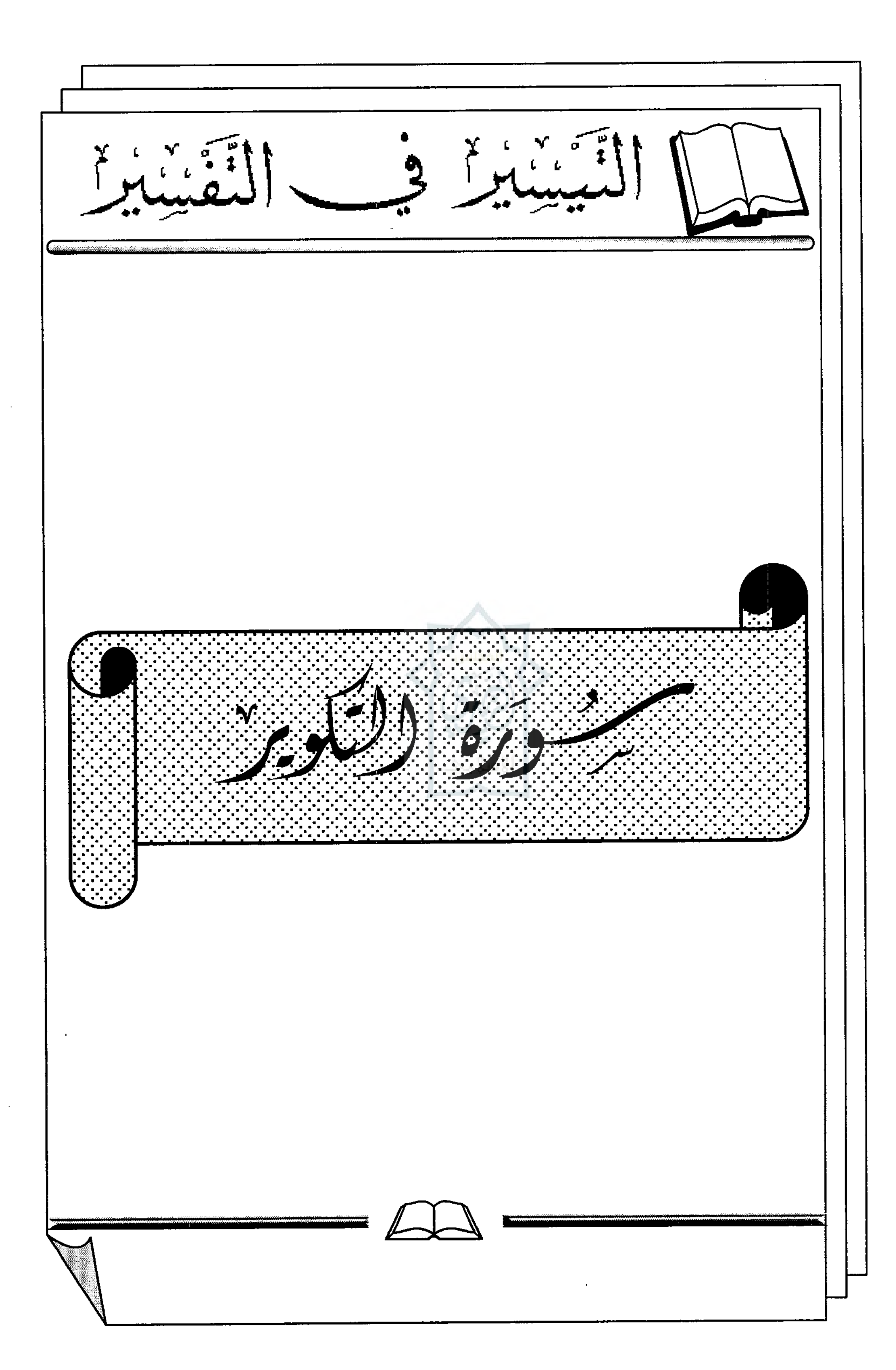
قال الراغب: «وَأَبشَرْتُ الرَّجُلَ، وبَشَّرْتُه، وَبَشَرْتُهُ: أَخْبَرْتُهُ بخبر سَارٍّ بَسَطَ بَشَرَةَ وَجْهِهِ، وَذَلك أنّ النفسَ إذا سُرَّت انْتَشَرَ الدَّمُ فيها انْتِشَارَ الماءِ في الشَّجَرِ» انتهى، وهذا الاستبشار في القيامة إذا جاءت الصاخة.

(٤٠-٤١) ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ ﴿غَبَرَةٌ﴾ غبار من أثر خروجهم من بين التراب، أو من هباء الجبال أو غير ذلك و﴿تَرْهَقُهَا﴾ تغشاها، أي تلحق الوجوه وتعلوها ﴿قَتَرَةٌ﴾ سواد أو تلحق الغبرة، والأول أظهر؛ لأنه قال في الذين أحسنوا: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ [يونس:٢٦] ولعل هذه القترة اسوداد وجوههم من الندم والغم.

(٤٢) ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ أي جملتهم كفرة فجرة، والكفر، إما كفر النعمة، وإما جحد ما أخبر اللّه به من البعث أو غيره، أو التكذيب بالآيات، ويحمل على المعنيين؛ لأن السياق يناسبهما كما مر، و﴿الْفَجَرَةُ﴾ أهل الجرائم ضد الأبرار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الإنفطار:١٣-١٤] ضد المتقين، كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨] وقال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس:٨].

وكما قال الشاعر:

لنفسي تقاها أو عليها فجورها


التيسير في التفسير
سورة التكوير



سُورَةُ التَّكوِير

ترتيبها ٨١ — آياتها ٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ لفٌّ بعضها على بعض، وفي (تفسير محمد بن القاسم عليهما السلام): «والتكوير: الطرح السريع للشيء إذا طرح، فجاء لشدة طرحه متكوراً بعضه على بعض» انتهى، ذكره في (المصابيح) فلعلها ـ والله أعلم ـ اصطدام الشمس بغيرها من الكواكب، فتلتف بسبب المصادمة، وذلك إذا كانت كالحديد لا كالجبال.

﴿٢﴾ ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾ تهاوت مسرعة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ [الإنفطار:٢].

﴿٣﴾ ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾ وتسيير الجبال في الهواء بعد دكها فتصير غباراً تمر مر السحاب، ويحتمل: أنه تموجها عند حملها ودكها.

﴿٤﴾ ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ﴾ في (تفسير محمد بن القاسم عليهما السلام): «يقول الله تعالى في هذه السورة للعرب وهو يخبرهم عن ذهول الناس يومئذ عما يحبون مما ينزل بهم من فادح الكرب و﴿ٱلۡعِشَارُ﴾ حوامل النوق من الإبل، وهي أنفس ما كان للعرب عندها من الأموال التي لم يكونوا في الدنيا لعجبهم بها يصيرون لها إلى إغفال» انتهى.

وتفسير ﴿ٱلۡعِشَارُ﴾ بالحوامل جُمليّ، وفي (الكشاف): «وهي التي أتى على حملها عشرة أشهر» ومثله في (مفردات الراغب) و(صحاح الجوهري) إلا أن الجوهري زاد فقال: «ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع، وبعد ما تضع أيضاً» انتهى.

﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ

ومعنى ﴿عُطِّلَتۡ﴾ تركت وأهملت عن الرعاية، وتخلى عنها أهلها، وفي شعر الإمام الهادي عليه السلام يتشكى من إهمال الحق وتضييعه:

وعطَّله أنصاره وحماته فقد درست أعلامه والشرائع

﴿٥﴾ ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾ لفزعها من الزلزلة تخرج من بيوتها وتسير في الأرض وتجتمع، ولعل هذا في أول الصيحة الأولى قبل أن تموت، أو حشرت مع حشر الناس وإخراجهم من قبورهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨] وهذا أقرب.

﴿٦﴾ ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾ أشعلت ناراً، ولعل هذا باختلاطها بالبترول عند ارتجاف الأرض ونسف الجبال وتفجّر البراكين ـ والله أعلم ـ قال تعالى: ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر:٧٢] وفي (مفردات الراغب): ((السجر: تهييج النار، يقال: سجرت التنور، ومنه: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور:٦]..إلى قوله: وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾ أضرمت ناراً عن الحسن)) انتهى.

وفي (تفسير الشرفي): ((عن محمد بن القاسم بن إبراهيم عليهم السلام: ويومئذ تسجر البحار، وتسجيرها: تحريكها بالاستعار كما يضطرم بالسجر والتحريك مضطرم النار)) انتهى.

﴿٧﴾ ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ في (تفسير الشرفي) عن محمد بن القاسم عليه السلام: ((تزويج النفوس ـ والله أعلم ـ ضمها إلى الأبدان إذا نشرت)) انتهى، ويحتمل: جعلت أزواجاً، كقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً﴾ [الواقعة:٧] والله أعلم.

﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا

﴿٨-٩﴾ ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ ﴿ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾ التي تدفن في التراب وتقتل بذلك، كأنها تسأل لتعلم أن ربها يريد أن ينتقم لها من وائدها، وأنه لم يغفل عن عمل ظالمها.

﴿١٠﴾ ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ ﴿ٱلصُّحُفُ﴾ صحف أعمال العباد التي كتبت فيها تنشر لتقرأ، قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣-١٤] فنشر الصحف للحساب يوم القيامة.

﴿١١﴾ ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ في (تفسير الشرفي): «عن محمد بن القاسم عليه السلام: وكشطها قلعها من موضعها إذا طويت» انتهى، قلت: لعل الأولى: أنه شقها وقطعها وطي أبعاضها، فالقلع قلع بعضها من بعض.

﴿١٢﴾ ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ إعداداً لها لأهلها يشتد التهابها وتوقدها.

﴿١٣﴾ ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ ﴿أُزْلِفَتْ﴾ للمتقين قربت، فإذا كانت هذه الأمور المذكورة من أول السورة:

﴿١٤﴾ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ من عمل ينفعها أو يضرها، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران:٣٠] والأقرب ـ والله أعلم ـ أنه علمها بحقيقة عملها وخبره، كقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ [يونس:٣٠] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق:٩] لأن علمها بأنها فعلت كذا وفعلت كذا، يكون عند نشر الصحف وقراءتها، وهذا العلم كأنه متأخر.

ألا ترى أن في (سورة النازعات) قدم قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى﴾ [النازعات:٣٥] قبل قوله: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ [النازعات:٣٦] وهنا قدم: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ﴾ ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ﴾ على قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ فالأقرب: أن هذا العلم هو العلم بخبره أحسنٌ أم قبيح أنافع أم ضار، وعلى هذا: تصلح ﴿مَّآ﴾ أن تكون هي الاستفهامية؛ لأن السؤال عن العمل هو باعتبار قيمته وخبره يومئذ أنافع أم ضار.

(١٥-١٦) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ * ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ أي أفلا أقسم بالخنس، وفي (تفسير الشرفي): «عن محمد بن القاسم عليه السلام: والخنس ـ والله أعلم ـ النجوم الخمسة والقمر والشمس، فمن النجوم الجارية وجريها تحريكها في الفلك بأنفسها، وخنوس ما خنس منها: رجوعها إذا بلغت الشمس إلى الدرجات التي خلفت من ورائها، والخنوس في لسان العرب: الرجوع إلى وراء بعد السير قُدُماً، والخنوس ـ والعلم عند الله ـ الذي هو الرجوع بعد الاستقامة لا يذكر به شيء من النجوم إلا هذه الخمسة من زحل والمشتري والمرّيخ وعطارد والزهرة، فإن هذه الأنجم الخمسة قدر الله سيرها بالجري والإقبال حتى إذا جرت في المنازل والبروج، حتى تكون في البروج الذي يواجه برج الشمس، وكادت أن تجتمع هي والشمس رجعت متحيرة في سيرها خانسة بالجري والرجوع إلى ما خلّفت من ورائها، ولكل نجم منها درج معلومة إذا بلغها وقرب من الشمس رجع عند بلوغه لها عن الشمس متحيراً خانساً راجعاً إلى ما خلفه مدبراً حتى يتغيب عن الشمس في الرجوع إلى ما ورائه من البروج، وهذا المغيب عن الشمس ـ والله أعلم ـ فهو الكنوس، وكلما غاب من شيء وتنحى في اللسان العربي دعي كانساً تقديراً قدّره الله فيها من أحكم التقدير، وتدبيراً منه في سيرها دبره لعجيب من الأمور، وقد يمكن ـ والله أعلم ـ أيضاً أن يكون من الجوار الخنس الكنس النجوم التي تغيب وتطلع بحساب الأوقات والأزمان وعلم الحر والبرد والأمطار» انتهى.

تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ

قلت: لعله يعني مثل الثريا تطلع في الشتاء وتغيب في الصيف، وقد بسط هنا ما اختصره في (الكشاف) و(مفردات الراغب).

﴿١٧﴾ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ في (المصابيح): «عن محمد بن القاسم عليه السلام: عسعسة الليل إدباره وتوليه عند آخره» انتهى، وهو الذي اختاره (صاحب الكشاف).

﴿١٨-٢١﴾ ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ إذا طلع نوره منتشراً كأنّ الصباح تنفس به، وقال (صاحب الكشاف): «إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح ونسيم، فجعل ذلك نفساً له على المجاز» انتهى، ومعنى القسم بهذه الأشياء أنها آيات تدل على قدرة اللّه المدبر للنجوم، والليل، والنهار.

وجواب القسم قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ في (المصابيح): «عن محمد بن القاسم عليه السلام أن الرسول جبريل عليه السلام» وكذا (صاحب الكشاف) وهو كذلك في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام) ومعنى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ أنه قارئه على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومبلغه، ومعنى ﴿رَسُولٍ﴾ أنه رسول من اللّه إلى رسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ومعنى أنه ﴿كَرِيمٍ﴾ أنه تقي كريم الأخلاق صاحب بر وإحسان ذي قوة عظيمة لتحمل ما حمله من تبليغ الرسالة وما كلف به من عبادة اللّه.

ومعنى أنه ﴿مَكِينٍ﴾ عند ذي العرش أن له مكانة وقدراً عظيماً وزلفى، وهو مكانة الفضل والشرف والوجاهة عند اللّه، فهو قرب معنوي لا حسي؛ لأن اللّه جل جلاله لا يختص به مكان.

ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

ومعنى ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي مطاع في السماء يطيعه الملائكة أو بعضهم، ومعنى ﴿أَمِينٍ﴾ أنه صاحب أمانة مطلقة، فهو أمين على الرسالة وتبليغ ما أرسل به إلى رسول اللّه ﷺ، ويحتمل: مطاع ثم أنه مجاب الدعوة عند اللّه، وقد جمع بينه وبين الأول محمد بن القاسم عليه السلام، والراجح الأول ـ والله أعلم.

وقد يقال: قد يستعمل ﴿مُّطَاعٍ﴾ بمعنى مجاب، قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨] وهذا فيه نظر لاحتمال أنه رد على المشركين الذين يعتقدون لشركائهم نفوذاً أو مشاركة لله في الملك، بحيث يشفّعهم إذا شفعوا لهم بزعمهم من دون اشتراط أذن ولا رضى من اللّه لهم بالشفاعة، بحيث يكون تشفيعه لهم طاعة لمشاركتهم له في الملك بزعمهم، تعالى اللّه عن ذلك علواً كبيراً.

وما روي عن عائشة: أنها قالت لرسول اللّه ﷺ: «إن ربك ليطيعك» فإن صح فهو محمول على التجوز والمبالغة في أنه يجيبه بسرعة إذا دعاه، كالمطيع الذي يؤمر وصحته تبعد، إلا أن يكون صدر منها في الصغر ولم ينكر عليها لذلك، أو يكون الرسول ﷺ أنكر ـ والله أعلم، وحاصل الآيات هذه أن هذا القرآن هو تبليغ جبريل عليه السلام ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء:٢١٠] كما يأتي.

﴿٢٢﴾ ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ أي محمد ﷺ صاحب قريش أو صاحب العرب الذي هو منهم ما هو ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ وهذا نفي مؤكد بـ(ما) و(الباء) وذلك واضح لرجاحة عقله واستقامة كلامه.

﴿٢٣﴾ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي لقد رأى صاحبكم جبريل عليه السلام ﴿بِٱلْأُفُقِ﴾ أي في الأفق أي في جو السماء و﴿ٱلْمُبِينِ﴾ البين الذي لاشك فيه.

(٢٤) ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي ما محمد ﷺ ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ والضنين: المتهم، فالمعنى أنه ﷺ ﴿أَمِينٌ﴾ على تبليغ ما جاءه به جبريل كما بلغه، من دون زيادة ولا نقص ولا تغيير، أي أن اللّه ـ جلَّ جلاله ـ ارتضاه لذلك، لعلمه بأمانته وأنه غير متهم على ما نزل به من ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ وهو ما غاب عن الناس، وهو ما جاء به جبريل عليه السلام من الغيب وهم لا يعلمونه إلا حين يبلغهم، كقوله تعالى: ﴿فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن:٢٦-٢٧] فما جاء به من أخبار القيامة والجنة والنار وغير ذلك فهو حق كله.

(٢٥) ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي وما القرآن ﴿بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ يرجم بالشهب إذا حاول استراق السمع فليس من الكهانة فقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة:٤١-٤٢] وهذا رد على الكفار الذين يقولون تارة مجنون، وتارة كاهن.

(٢٦) ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أيها الكافرون التائهون العادلون عن الطريق الواضح المستقيم إلى الدعاوى التي لا تناسب حال الرسول الذي هو أرجح الناس عقلاً وأبعدهم عن الباطل وأوضحهم حجة وأقومهم سبيلاً.

(٢٧-٢٨) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ * لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي هذا القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ * لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ إن هذا القرآن الذي يقرؤه عليكم محمد ﷺ أي ما هو إلا ذكر وتنبيه للعالمين لما يذكر به من الوعد والوعيد ويبلغه من إنقاذكم من الضلال والهدى إلى الصراط المستقيم، والإنذار للعالمين لحاجتهم إليه لكونهم على شفا حفرة من النار لما قد شاع فيهم من الشرك والضلال.

وقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ يفيد: أن من آمن بالقرآن واتبعه مستقيم سوي سليم من الاعوجاج، وأن المخالف له اعوج باعوجاج سبيله وعدوله عن الصواب.

﴿٢٩﴾ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي ما يشاء كلكم أن تستقيموا لأن منكم من يتمرد ويجادل في آيات اللّه ويكذب بها، مع وضوح الحق وتبين أن القرآن آية خارقة لعادة الكلام في حسنه وحكمته، بحيث يُعلِم أنه كلام اللّه القادر على كل شيء؛ لأن البشر لا يأتون بسورة من كلام مثله في الحكمة والإتقان وعلو الدرجة في الحسن والإحكام، كما قد تبين واضحاً جلياً بعد عجزهم عن الإتيان بسورة من مثله.

فالمجادلون فيه بعد ذلك المكذبون له جحوداً بما قد تبين لهم تمرداً وكبراً وحسداً واتباعاً لأهوائهم قد خذلوا، وسلطت عليهم الشياطين ﴿تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾ [مريم:٨٣] فصار بينهم وبين الإيمان به مسافات بعيدة ومراحل عديدة، فما يشاءون ذلك إلا أن يشاء اللّه أن ينزل عليهم آية قاهرة ملجئة إلى الإيمان فتظل أعناقهم لها خاضعين؛ لأنه رب العالمين الذي خلقهم فهو قادر على أن يفعل بهم ما يشاء ولكنه لم يشأ ذلك في الحال؛ لأن حكمته اقتضت جعل عباده في هذه الحياة في مقام اختبار، وهو يستلزم ترك العبد وما يختار حتى تنتهي مدة الاختبار ويريد اللّه إهلاك المجرم بعده أو إنزال العذاب عليه ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر:٨٥].

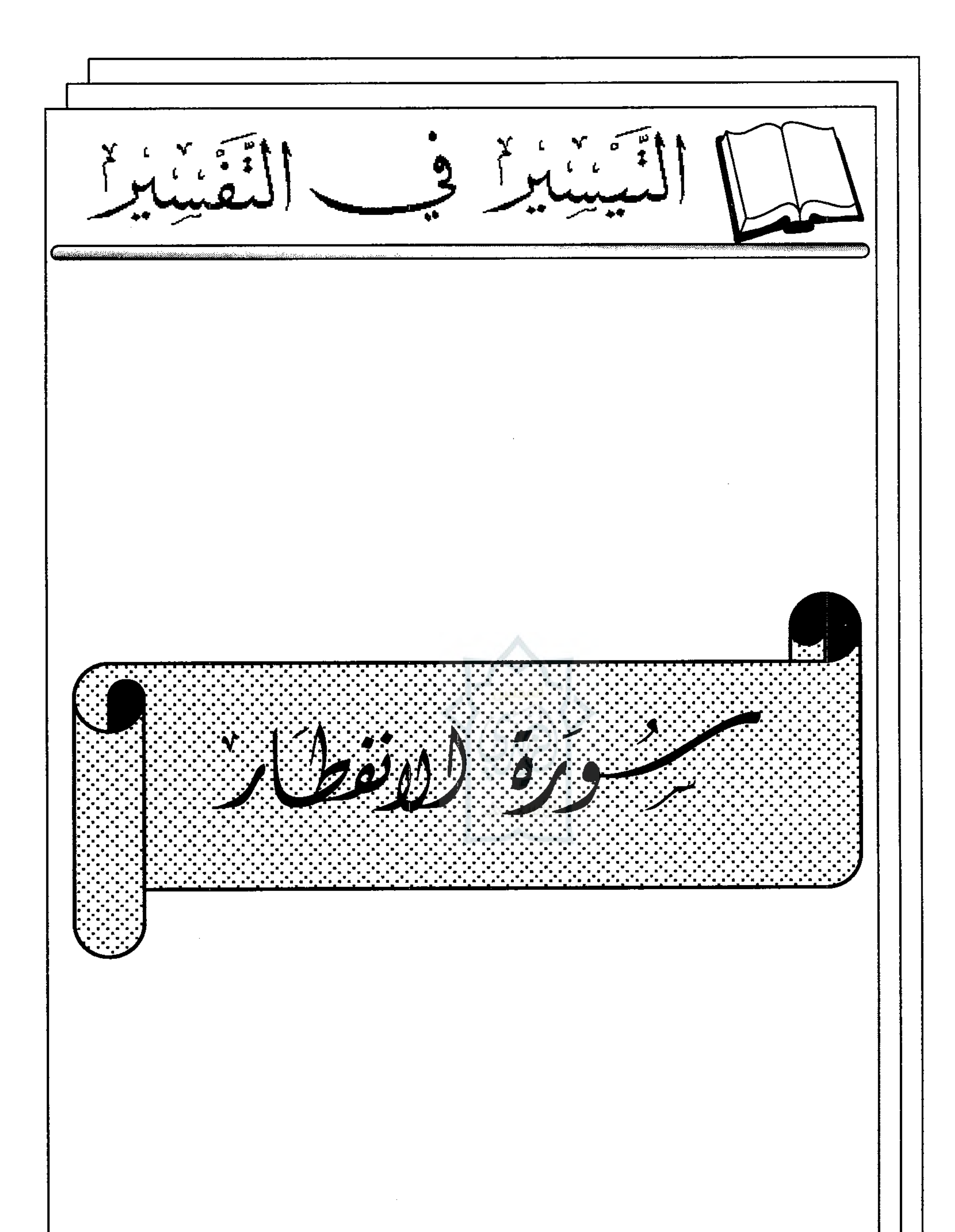
وهذا على فرض أن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ كلام على جملتهم، ويحتمل: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ أن تستقيموا لأن هوى أنفسكم يدعوكم إلى البقاء

على دينكم الذي نشأتم عليه، وأن تقتدوا بآبائكم، فلا تشاءون لأنكم تتبعون الظن وما تهوى الأنفس ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن يحبب إليكم النظر والتفكر واتباع عقولكم ويضعف داعيكم إلى ما تهوى الأنفس حتى ترغبوا في أن تستقيموا وتشاءوا ذلك، ولا إشكال أن هذا كلام على الواقع وليس فيه نفي القدرة على أن يشاءوا اتباع عقولهم ولكنه كلام على الواقع، وفائدته تحذيرهم من ترك الاستقامة بسبب أهوائهم وفائدته على المعنيين إفادة أن الله غني عنهم لا يضره اعوجاجهم ولا ينقص من ملكه.






سورة الانفطار



سورة الانفطار

ترتيبها ٨٢ — آياتها ١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ ﴿ٱنفَطَرَتْ﴾ و﴿انشَقَّتْ﴾ سواء في الدلالة على تفرق اتصالها، وهو ابتداء خرابها عند مجيء القيامة.

﴿٢﴾ ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ تساقطت وزالت عن أماكنها.

﴿٣﴾ ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي خرجت من أماكنها ففاضت فيضاناً عظيماً، ولعل ذلك عند ارتجاف الأرض.

﴿٤﴾ ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ بإخراج باطنها وإلقائه حولها غير منتظم، كقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الإنشقاق:٤] ولعله يؤخذ منه أن الموتى تكون قبل القيامة قد صارت جثثها تراباً فصارت جزءاً من أجزاء القبور، ولذلك صح أن يقال: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ فنسبت البعثرة إلى القبور نفسها وفي (سورة العاديات): ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ [آية:٩]، وعلى هذا يكون خروج أهل القبور منها وهم تراب قبل نشرهم وإحيائهم ـ والله أعلم.

﴿٥﴾ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى﴾ [النازعات:٣٥].

﴿٦﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ ﴿غَرَّكَ﴾ خدعك ﴿بِرَبِّكَ﴾ بإنعام ربك ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ وستره عليك وحلمه عنك.

ما هو الذي غرك به حتى نسيت شكره، وكفرت نعمته، وكذبت رسله، وأطعت عدوه؟! وإنما ينبغي لك لو استعملت عقلك أن تشكره على نعمته وتطيعه؛ لأنه ربك الكريم الذي خلقك وأنعم عليك، وعمرك في هذه الحياة، وفتح لك باب التوبة، فما هي حجتك؟! أو ما هو عذرك حتى انخدعت؟! إنه لا حجة ولا عذر، ولكن حب العاجلة، واتباع هوى النفس، أدى إلى الطمع الفارغ في دوام النعمة مع الكفران، وأدى إلى التكذيب بآيات اللّه وجحد الآخرة والجزاء الأوفى، وصدق أمير المؤمنين ـ صلوات اللّه عليه ـ حيث قال عند هذا السؤال: «ادحض مسئول حجة، وأقطع مغتر معذرة، لقد أبرح جهالة بنفسه» انتهى.

ومن أمثلة الاغترار بالله ما حكاه في قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا* ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ [المدثر:١١-١٥] وفي قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٥-٣٦] وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت:٥٠].

و﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ اسم جامع للصفات الخيرة الممدوحة، والبعد عن كل نقص وعيب ـ سبحانه وتعالى.

(٧) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ﴾ وهو أولى بك وأحق أن تؤمن به وتعبده لأنه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾ جعلك بشراً سوياً محكم الصنع ﴿فَعَدَلَكَ﴾ ناسب بين أعضائك وعدل قامتك، فأنت منتصب غير مائل.

فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ

﴿٨﴾ ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ ﴿أَيِّ﴾ تكون للترديد بين شيئين أو أشياء مثل ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ [التكوير:٩] وتكون للتعظيم تقول: رأيت زيداً أي رجل، تعني: أنه من خيار الرجال، فإن كان قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ﴾ من النوع الأول، فالمعنى: إن ربك ركبك في أي صورة من الصور شاءها أو شاء تركيبك فيها، أي أنه هو عين لك صورتك من بين الصور، وركبك عليها، وهذه آية في الإنسان عظيمة بينة له جلية؛ لأنه يرى الصور الكثيرة مختلفة لكل إنسان صورة يختص بها على كثرة الناس، وذلك دليل على قدرة اللّه تعالى من حيث قدر على خلقها مختلفة هذا الاختلاف الواسع، وعلى سعة علمه تعالى حيث علم كيف يصور هذا ويخالف بينه وبين سائر الناس على كثرتهم، وذلك دليل على قدرته تعالى على إعادتهم بعد الموت للجزاء.

وعلى هذا التفسير: تكون ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿صُورَةٖ مَّا﴾ هي المؤكدة للشياع، كقولك: أعطني كتاباً ما، تريد أي كتاب كان صغيراً أو كبيراً أو في أي فن كان أو غير ذلك، فهي تؤكد الترديد بين الصور جليلها وحقيرها وجميلها ودميمها وغير ذلك، لتفيد أن أي صورة كانت للإنسان فإن اللّه ركبه عليها؛ لأنه شاء أن يركبه عليها.

وإن كانت ﴿أَيِّ﴾ للتعظيم، أي لتعظيم صورة الإنسان والتقدير في صورة أي صورة ركبك، فقوله تعالى: ﴿مَّا شَآءَ﴾ خبر ضمير محذوف، أي هي ما شاء و(ما) موصولة، والجملة صفة لصورة، فكأنه قيل: في صورة أي صورة هي ما شاء ركبك.

وفائدة هذا: هي التنبيه على أن اللّه فضل الإنسان في الصورة بمشيئته على غيره من الحيوانات، وهذا المعنى زائد على معنى ﴿فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ وفي تفضيل الإنسان على غيره في الصورة دلالة على قدرة اللّه وعلمه ونعمة عظيمة توجب عليه الشكر، فهي مرتبطة بما قبلها من قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الإِنسَانُ﴾.

(٩) ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ ﴿كَلَّا﴾ حرف زجر وردع عن الاغترار بالله، لأن أمامهم أهوال القيامة، وموقف الحساب الذي يعلمون فيه ما قدموا وأخروا، فهو يستحق الاستعداد له وترك الاغترار، وقوله تعالى: ﴿بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ إضراب وترقٍّ من ذكر الاغترار إلى ما هو أشد وهو التكذيب بيوم الدين بعد وضوح الدلالة عليه، فهذا هو السبب العظيم لترك الإعداد له، وهو أساس الفساد وعماد الإصرار على الباطل؛ لأن تكذيبهم بالدين الذي هو الجزاء على ما عملوا في هذه الدنيا جرأهم على كل جريمة فعلوها من التكذيب بآيات اللّه وتكذيب رسله وكتبه وغير ذلك.

(١٠-١٢) ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامٗا كَٰتِبِينَ * يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ فما أسوأ حالكم في اغتراركم وتكذيبكم بالدين، وجرأتكم على الجرائم، وإصراركم على العصيان والتمرد، مع أن كل عمل عملتموه تحصيه الملائكة الحافظون، ويكتبون الصغيرة والكبيرة كلما قدمتم في حياتكم الدنيا، من حين عقلتم حتى هلكتم، فكيف تكون حالكم يوم القيامة وكشف الغطاء ومشاهدة الجزاء، إذا وضع الكتاب ﴿لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ [الكهف:٤٩].

وفي (تفسير محمد بن القاسم عليه السلام) فسر (الحافظين): «بأنهم الملائكة الذين يحفظون ما عمل المكلف ولا ينسونه أبداً» انتهى بالمعنى.

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

وقوله تعالى: ﴿كِرَامًا﴾ يفيد: أنهم أهل تقوى وإحسان، فهم مأمونون على الإنسان، موثوق بشهادتهم عليه وصحة ما يكتبون، وقوله تعالى: ﴿كَـٰتِبِينَ﴾ ظاهره: الكتابة المعروفة بأي طريقة، ولو بتصوير العبد وأعماله في فيلم يعرض عليه يوم القيامة، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠] وقال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣-١٤] ولا ملجئ للتأويل كشهادة أعضائه عليه، وكشهادة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على من شاهده من أمته وغير ذلك، ولا يلزم من تأويل الكتاب في بعض المواضع من القرآن الحكيم تأويله في سائر المواضع مع اختلاف سياق الكلام.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ يفيد: أنهم يكتبون كل ما يفعل المخاطبون؛ لأنهم لا يخفى عليهم عمل من أعمال المخاطبين، فأفاد بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ﴾ أنهم موكلون على المخاطبين ليحصوا أعمالهم، وبما ذكر من صفاتهم أنهم يحصل بهم المقصود لكمال كفاءتهم له.

﴿١٣-١٦﴾ ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ في هذه الآيات تحقيق ما يكون ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ وكان ما ذكر في السورة وأعمال العباد محفوظة يذكرونها في ذلك اليوم، فهاهنا صرح بالجزاء الأوفى: أما الأبرار ففي نعيم، في عيش ينعم أهله ولهم ما يشاؤون، وأما الفجار ففي جحيم في نار جهنم.

والأبرار: هم المؤمنون المتقون أهل العمل الصالح، والفجار: أهل الفجور وهو ارتكاب الجرائم، وأعمال السوء، والفاجر يقابل البر، فيقال: البر والفاجر، كما يقابل المسيء بالمحسن، والعاصي بالمطيع، فيقال: المحسن والمسيء، والمطيع والعاصي، وقد فسر الراغب الأصفهاني (البر): «بالتوسع في الخير ـ ثم قال ـ: وقد اشتمل عليه قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ..﴾ الآية [البقرة:١٧٧]» انتهى.

قلت: وكفى بها تفسيراً للبر، والأبرار: هم أهل البِرّ، وقال الراغب: «والفجور شَقُّ سِتْرِ الديانة ـ ثم قال ـ: وسمي الكاذب فاجراً لكون الكذب بعض الفجور» انتهى، وقد قوبل الفجور بالتقى؛ لتوافق معنى التقى والبر من حيث التطبيق، قال الشاعر:

لنفسي تقاها أو عليها فجورها

بل في القرآن الحكيم: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨] فالبر والمتقي واحد، والفاجر والمجرم واحد، وهو العاصي لله المتمرد المصر، سواء كان الفجور بالتكذيب أو غيره من الجرائم.

وقوله تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي يباشرونها بأجسادهم بدون حائل، يقال: شاة مصلية إذا شويت بالنار، و﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء، وهو يوم القيامة، وذلك بعد موقف الحساب يؤمر بهم إلى النار فيلقون فيها في ذلك اليوم، ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ أبداً فهم يصلونها ولا يغيبون عنها، ومعنى ذلك: أنهم لا يغيبهم عنها مخبأ ولا مكان بعيد، أو حائل بينهم وبينها حتى لا تراهم، وهذا لأنهم في موقف الحساب يسألون وقد بُرِّزت لهم الجحيم، قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢] ثم يساقون إليها ثم يصيرون فيها خالدين، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ﴾ [هود:١٦] ولذلك فهم بمرءاها لا يغيبون عنها، لا في موقف الحساب ولا بعده.

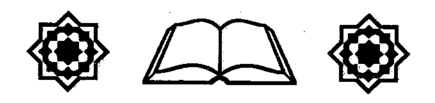
(١٧-١٨) ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ هذا تعظيم وتهويل لذلك اليوم، أعني قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ وهو حقيق بذلك؛ لأنه يوم فيه الحساب على الصغير والكبير من الأعمال، حيث الشاهد على العباد هو الحاكم فيهم، يوم فيه خضوع العالمين واستسلامهم لحكم ربهم.

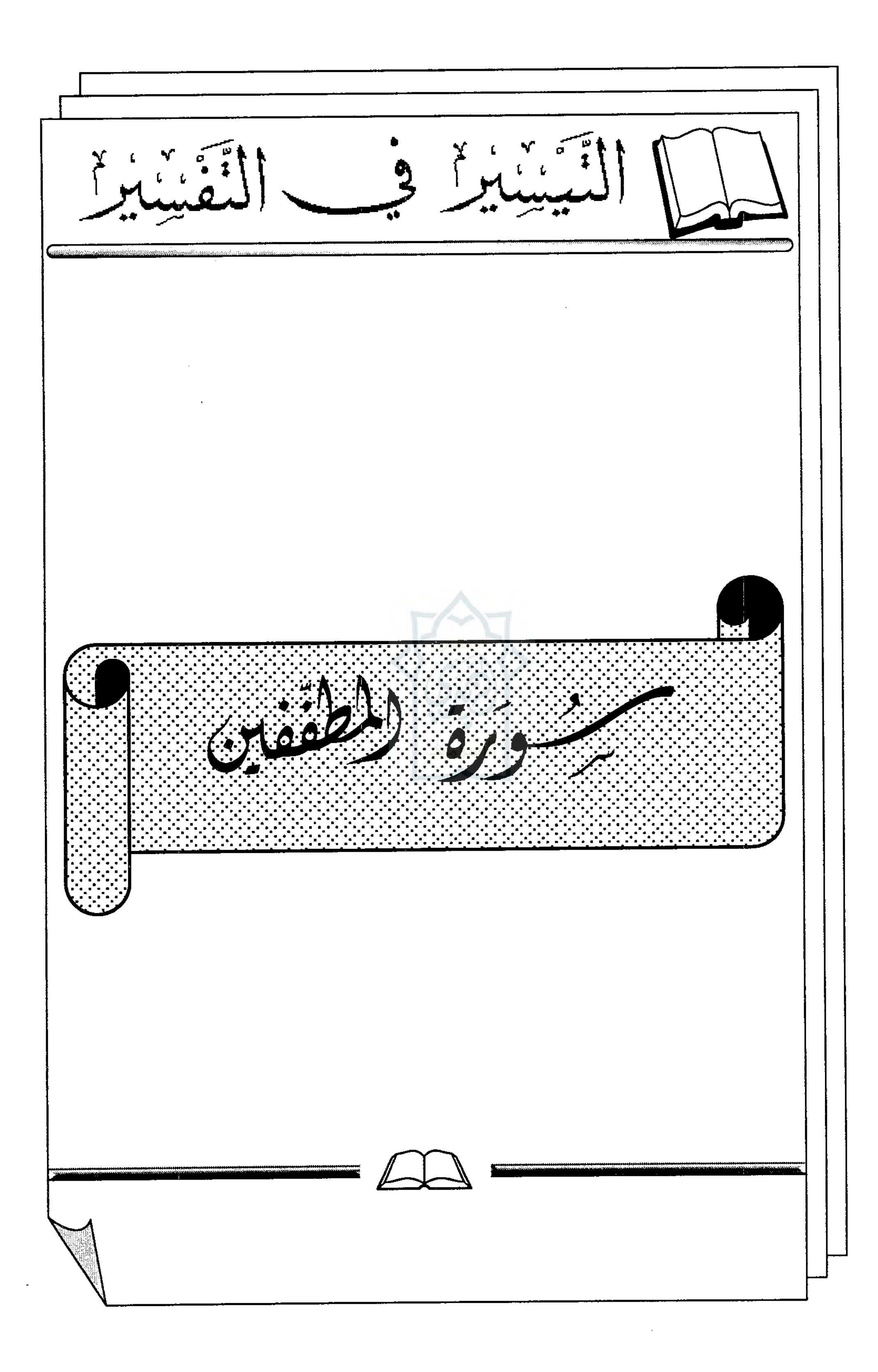
(١٩) ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ وحده يأمر بما شاء ويحكم ما يريد، لا شريك له في ملكه، ولا منازع له في أمره، في حال أنها تبرز الجحيم فتأتي ولها كلب ولجب وقصيف هائل، وهي تنادي: «إليّ بأهلي» كما قال أمير المؤمنين عليه السلام، وأشار إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٦-٨] وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ..﴾ [الأحقاف:٢٠] وقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:٢].

ويبين القرآن كثرة من يساقون إلى النار يوم الدين، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ [الأعراف:٣٧-٣٨] وفي قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء:٩٤-٩٥] وفي قوله تعالى: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩] وفي قوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ ما يحق له أن ترتجف القلوب وتقشعر الجلود؛ لأنه يفهم منه أنهم من كل شعب من كل قبيلة، بل من كل عشيرة.

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ [الدخان:١٦] ما يشير إلى عظم الهول في ذلك اليوم، وقد روي أنه يقال لأبينا آدم عليه السلام: «أخرج من ذريتك بعث النار» ـ أي سلمهم إلى جهنم ـ فيقول: كم؟ فيقال: «من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين» أو كما قال.

ومعنى: ﴿لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ﴾ أنه ليس لها شيء من الأمر، وليس لها ولاية تستطيع بها نفعاً أو دفع ضر أو قبول شفاعة أو غير ذلك، بل الأمر كله لله وحده، وهو قطع لأماني من يعتقد أن معبوده من دون اللّه سيكون له مشاركة في الملك بحيث يستطيع التدخل والدفاع عنه يوم القيامة بالشفاعة أو بحيث يغفر لهذا المشرك من أجل كرامة معبوده عند اللّه، فأبطل اللّه أمانيهم.




التيسير في التفسير
سورة المطففين



سُورَةُ المُطَفِّفِين

آياتها ٣٦ — ترتيبها ٨٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ﴿وَيْلٌ﴾ في (تفسير الإمام الهادي عليه السلام) وقد مر: «يريد: الويل والعويل والبلاء واللعنة والشقاء» انتهى، وفي (تفسير الإمام القاسم عليه السلام) لـ(سورة الهمزة): «وتأويل ما ذكر الله من الويل ما يعرف من الحرقة والعويل والخزي الكبير العظيم الجليل» انتهى، والعويل: رفع الصوت بالبكاء والصياح، كما أفاده (القاموس).

والمطفف: ظالم في الكيل أو الوزن، لا يوفي بما عليه، وقد فهم هذا التفسير من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ الذم على الإخسار، الذي هو النقص على المشتري من المكيل أو الموزون، فأما الاستيفاء إذا اكتالوا أو استوزنوا فهو حجة عليهم لأنهم استوفوا، بمعنى أن ذلك حق لهم، فكيف الحق لهم لا يكون مثله حقاً عليهم؟! ومثل هذا جاء في القرآن الكريم في مواضع حيث يقرن الحق بالباطل لا لأنهما معاً باطل، ولكن للاحتجاج على صاحب الباطل، مثل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٤٤] ومثل: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت:٥١] ومثل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس:٢٢-٢٣].

عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَابَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ

فالدعاء مخلصين لله محمود غير مذموم، ولكنه حجة عليهم حين بغوا وهذا واضح، وإنما أكثرت فيه لأن بعض المفسدين ألف كتيباً يدعو فيه إلى ترك الدين إذا كان الإنسان لا يتمه في كل شيء ويستمر عليه، وأورد من القرآن احتجاجاً على ما زعم أمثال هذه الآيات، وهو خطأ فاحش، فالمذموم الباطل وحده ـ وبالله التوفيق.

﴿٤-٦﴾ ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ اعلم أن أعظم مهمة الكتاب والرسول: التعريف بالله والدعوة إليه، والإنذار والتبشير ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] وجاء مطلع هذه السورة الكريمة في (التطفيف) وإن كان المراد الأعظم: هو إنذارهم، وفي بدء السورة بإنكار التطفيف لطيفة من محاسن البيان، وهي ابتداء الكلام بما يدعو السامع إلى الإصغاء وحسن الاستماع، فقد كانوا في مكة المكرمة في مركز تجارة يعيشون عليها والعدل فيها محبب إلى الطباع؛ لأنه مما يستقيم به أمر المجتمع، وكل الناس يكرهون الجور والحيف ومنه التطفيف.

فهم إذا سمعوا الرسول ﷺ يخوف من التطفيف لابد أن يصغوا لقوله، حتى يؤديهم إلى سماع الإنذار الذي هو المقصود الأكبر فيسمعوا ذكر البعث والوقوف للحساب بين يدي رب العالمين بإصغاء؛ لمناسبة ذكر الوعيد على التطفيف ومطابقة الكلام لفطرة العقل، من أنه لابد من جزاء الظالم، فيكون لهذا البيان الوقع الكامل في قلب من ألقى السمع وهو شهيد.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ﴾ ليس دعوة إلى الظن، فإنه لابد من العلم، ولكن ذكر الظن لأنه يكفي العاقل في أن يحذر المخوف العظيم أن يظن وقوعه عليه إن لم يحذر، وأكثر الحذر في الدنيا من الضرر المظنون، ولا يتوقف العقلاء عن الحذر حتى يتيقنوا، وهذا في ضرر الدنيا الذي هو يسير بالنسبة إلى عذاب الآخرة، فكيف لا يحذره من يظنه، هذا مع أن البعث والجزاء أمر تواترت به الرسل والكتب، وتوارثت الأجيال ذكره.

وقد اعترف بعضهم بظنه في قولهم: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية:٣٢] وكان بعض أهل الجاهلية يثبته، فكيف وقد جاءهم النذير البشير السراج المنير، وتلا عليهم القرآن الحكيم، فأقل أحوالهم أن يظنوا ﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تنبيه لهم على عظم الخطر، ووجوب الحذر لعظيم ذلك اليوم وما فيه من الأهوال والعذاب الشديد، كما مر في تفسير: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الإنفطار:١٧].

وقيام الناس لرب العالمين: وقوفهم للحساب والسؤال، خاضعين لأمر رب العالمين، منقادين مستسلمين، قد ضلت الحيل وتقطعت الأسباب، فلا أنساب، ولا شركاء المشركين.. ولا غير ذلك؛ لأن الأمر يومئذ لله وحده لا شريك له ولا معارض، ولا متدخل ولا منازع، ولعل الحديث الوارد أنها تصرخ جهنم يومئذ صرخة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثى على ركبتيه لتحقيق هذا المعنى، وهو أنهم كلهم خاضعون لأمر اللّه، دون أن يخاف أولياء اللّه أو يحزنوا، وقد جاء القرآن الكريم بتحقيق هذا القيام في مواضع قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات:٢٤] وقال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف:٤٨] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام:٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧] وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٨] فلا بد من جمع الناس ليوم الجمع، ووقوفهم للسؤال الذي أقسم اللّه أنه يسألهم في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣] وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف:٦-٧].

(٧-٩) ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ * وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَـٰبٌ مَّرۡقُومٌ﴾ ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ حرف زجر وردع عن التطفيف والتهاون بعاقبته، و﴿كِتَـٰبَ ٱلۡفُجَّارِ﴾ والكتاب: هو كتاب عملهم، والفجار: جمع فاجر ضد الأبرار، ومن الفجار المطففون ﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾.

وقد فسر ﴿سِجِّينٍ﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ فسجّين الذي فيه كتاب الفجار ﴿كِتَـٰبٌ مَّرۡقُومٌ﴾ ضمنه كتاب الفجار، ولعله ـ والله أعلم ـ كتاب يرسل إلى سجنهم إلى خزنة جهنم، يؤمرون فيه بتعذيبهم كل على قدر فجوره، وتذكر فيه مقادير العذاب التي توافق مقادير الفجور، ويرسل ضمنه كتاب الفجار ليعرف الخزنة مقادير فجورهم، حتى يكون تقدير شدة عذابهم على مقادير الجرائم ـ والله اعلم.

وفي (مفردات الراغب): «الرقم: الخط الغليظ، وقيل: هو تعجيم الكتاب» انتهى وفي (الصحاح): «الرقم: الكتابة والختم، قال تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ مَّرۡقُومٌ﴾ وقولهم: هو يرقم الماء أي بلغ من حذقه بالأمور أن يرقم حيث لا يثبت الرقم، ورقم الثوب كتابه، وهو في الأصل (مصدر) يقال: رقمت الثوب ورقمته ترقيماً مثله ـ ثم قال ـ: والرقيم: الكتاب، وقوله تعالى: ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ [الكهف:٩] يقال: هو لوح فيه أسماؤهم وقصصهم» انتهى المراد.

لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ

ويظهر: أن الرقم في اللغة الخط سواء كان كتابة أحرف أو صورة أو نقوش، وفي الحديث الذي رواه الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه تماثيل أو صور إلا ما كان رقماً في ثوب» انتهى، ولكن ذكر الكتاب في الآية الكريمة قرينة أن الرقم أحرف أو رقوم درجات العذاب يفهمها الخزنة أو نحو ذلك، والمراد بهذا التقريب الذي يرشد إليه السياق.

﴿١٠﴾ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ الأرجح أن معنى ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأن السياق لم يبعد، وقوله: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ..﴾ الآيتين كلام في بعض أحوال ذلك اليوم، فليس خروجاً عن السياق فيه، والمكذب: هو الذي يكذب الخبر أو المخبر، فيقول: الخبر كذب أو المخبر كاذب، والأصل: تكذيب الخبر، ويبنى عليه تكذيب المخبر في ذلك الخبر أو فيه وفي غيره، وقد غلب على الكفار الذين كذبوا الرسل كان الرسول يبلغ قومه أنه نذير لهم بين يدي عذاب شديد، ويخبرهم بالحياة الآخرة، وما وعد الله به من الجنة والنار، فيكذبون ذلك الخبر، محتجين بأنه لا يبعث الله من يموت، مستندين إلى استبعاد إحياء العظام وهي رميم.. ونحو ذلك.

وينتقلون من تكذيب الخبر بالبعث إلى تكذيب الرسول في قوله: إن الله أرسله إليهم ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ..﴾ [سبأ:٧-٨] ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [القمر:٩] ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ:٤٥].

عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ

وقد يبدءون بتكذيب الرسول بدعوى أنه يريد أن يتفضل عليهم أو بدعوى أنه يريد أن يصدهم عما كان يعبد آباؤهم فالباطل ليس له ضابط، كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [ق:٥].

﴿١١-١٢﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ بيان للمراد بالمكذبين هنا، سواء كان تفسيراً أم تطبيقاً؛ لأنهم كذبوا بالآيات فكذبوا ﴿بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وكذبوا ما بلغه الرسول عن اللّه فكذبوا بيوم الدين، ويوم الدين: يوم الجزاء الذي هو يوم القيامة وعلق الوعيد على التكذيب بيوم الجزاء؛ لأن قبحه عظيم من حيث هو تكذيب بالجزاء، ومعناه: نفي حكمة اللّه وجعله مسوياً بين المسلمين والمجرمين والمؤمن الذي عمل الصالحات والمسيء لجرمه.

قال تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ الاعتداء: الظلم ومجاوزة الحق إلى الباطل، قال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا﴾ [البقرة:٢٣١] والأثيم: الواقع في الإثم، والإثم: الذنب، فلا يتجرأ على التكذيب بيوم الدين إلا المتعدي الأثيم، الذي لا يبالي بما وقع فيه من الباطل، وذلك لأن يوم الدين قد وعد اللّه به وهو أصدق القائلين واقتضته حكمة أحكم الحاكمين، ودلت على صدق النذير به الآيات البينات من القرآن الحكيم.

﴿١٣-١٤﴾ ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فكذب بآيات اللّه ذي العظمة والجلال إصراراً على تكذيبه بيوم الدين لأن آيات اللّه تثبته والمعتدي الأثيم ينفيه، فجمع بين الكفرين.

والأساطير: جمع (أسطورة): يعني أن القرآن ليس من اللّه إنما هو بزعمه ﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي ما سطره الأولون من القصص والأخبار التي لا أساس لها من الصحة، وحاصله التكذيب بأنها من آيات اللّه، وقد وضح كذبهم بعجزهم عن الإتيان بسورة من مثله.

﴿كَلَّا﴾ حرف زجر وردع عن التكذيب بآيات اللّه، ودعوى أنها أساطير الأولين ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ دنسها وغلبها، فهي كارهة للحق تأبى قبوله، ولأهل اللغة عبارات في تفسير (الران) وحاصل المعنى: إفساد قلوب الذين يكذبون بيوم الدين، والمفسد لها هو ما كانوا يكسبونه في الماضي من الذنوب المتتابعة المتوالي فسادها على القلوب، وفي (أمالي المرشد بالله الخميسية) [ج ٢/ ص٢١١]: بإسناده عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أربع خلال مفسدة للقلب: مجاراة الأحمق فإن جاريته كنت مثله وإن سكت عنه سلمت منه، وكثرة الذنوب مفسدة للقلب، وقد قال اللّه تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾..» الحديث.

(١٥) ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ مبعدون عن ربهم، وهو تمثيل كمن يحجبه حاجب الملك عن الدخول إليه، قال في (لسان العرب): «والحاجب: البوّاب صفة غالبة، وجمعه: حجَبَة وحجّاب، وخطّته الحجابة [يعني حرفته] وحجبه أي منعه الدخول» انتهى المراد.

قلت: ومنه قول الشاعر:

لهم حجاب ولنا أنفس ... تمنعنا الذل عزيزات

وقول الشاعر:

إذا اعتروا باب ذي عِبِّيَّة رُجبوا ... والناس من بين مرجوب ومحجوب

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى

ومنه قول أبي الأسود الدؤلي:

وَخامِلٍ مُقرِفِ الآباءِ ذي أدبٍ ... نالَ المعاليَ بالآداب والرُّتَبا

أمسى عزيزاً عظيم الشأن مشتهراً ... في خدِّه صَعَرٌ قد ظل محتجبا

ومعنى أنهم مبعدون: أنهم مهانون في ذلة وصغار.

﴿١٦﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ﴾ والترتيب بـ﴿ثُمَّ﴾ هنا مستقيم على أصلها؛ لأن حجبهم في موقف الحساب ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وبعد ذلك يؤمر بهم إلى النار ويوقفون عليها ثم يلقون فيها فيصلونها نعوذ بالله.

﴿١٧﴾ ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي ﴿هَٰذَا﴾ العذاب بهذه النار ﴿ٱلَّذِى كُنتُم﴾ في الدنيا ﴿بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ الرسل حين أنذروكم وتكذبون من حذر منه.

﴿١٨﴾ ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ زجر عن التكذيب بيوم الدين؛ لأن معناه: نفي الجزاء للفجار والأبرار و﴿كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ كتاب أعمالهم ﴿لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ و﴿عِلِّيُّونَ﴾ فسره قوله تعالى:

﴿١٩-٢١﴾ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ فقد فسر ﴿عِلِّيِّينَ﴾ بأنه ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ وعظم هذا الكتاب وشرّفه بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ وبقوله: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ والأقرب: أنهم الملائكة المقربون ليكرموا الأبرار، كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤] واطلاعهم على الكتاب مما يسر الأبرار، قال تعالى: ﴿فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة:١٩] ومعنى ﴿يَشْهَدُهُ﴾ يحضره ويشاهده.

ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾

﴿٢٢-٢٣﴾ ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ لعل هذا في الأبرار مقابل قوله تعالى في الفجار: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ فهو في الجنة، ويحتمل: أنه في موقف الحساب فقد جاء في (حديث الصيام): عن علي عليه السلام قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الظامئة أكبادهم؟! وعزتي وجلالي لأروينهم اليوم. قال: فيؤتى بالصائمين فتوضع لهم الموائد وإنهم ليأكلون والناس يحاسبون» انتهى من (أمالي أبي طالب) من (الباب الرابع والعشرين) وأوله في (مجموع الإمام زيد بن علي عليهما السلام).

﴿٢٤﴾ ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ النضرة: البهجة والجمال، مع أن الجمال مرئي بالبصر لإضافة النضرة إلى ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ فالمعنى: ترى في وجوههم النضرة التي هي بسبب النعيم، يعرف بها ما هم فيه من النعيم؛ لأنه اجتمع لهم الأمن في ذلك اليوم والبشرى، مع ما يؤتون به من الطعام والشراب، فأما قوله: ﴿يَنظُرُونَ﴾ فيأتي تفسيره في آخر السورة، وفائدته هنا الدلالة على أمنهم وسرورهم، بخلاف أعداء الله الظالمين الذين تشخص أبصارهم.

﴿٢٥﴾ ﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ﴾ والرحيق: نوع من الخمر جيد، وفي الصحاح: «الرحيق: صفوة الخمر» انتهى، وقوله تعالى: ﴿مَّخۡتُومٍ﴾ الأقرب: أنه ختم زجاجه، وأثبت له الختم ليدل على صيانته، ولعل هذا قرينة كونهم في موقف الحساب قبل دخولهم الجنة، مع أنه يمكن أنهم في الجنة كذلك، وإن كان الخمر أنهاراً إلا أن قربه وكونه في الجنة لا يحوج إلى ختمه، بخلاف إذا كان يؤتى به لهم في موقف الحساب ـ والله أعلم.

وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾

﴿٢٦﴾ ﴿خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ لتطيب به رائحته، ويدل ذلك على كرامتهم عند اللّه، ولعل ذلك سبب اعتراض قوله: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ﴾ والتنافس: التسابق إلى الشيء النفيس لسبقه مع الغيرة من سبق الآخرين له.

وفي (تفسير محمد بن القاسم عليه السلام): «التنافس: التحاسد، ولم يحسّن اللّه في شيء من أمور الدنيا كلها التحاسد، وإنما حسّن سبحانه التحاسد الذي هو التنافس في نعيم الجنة؛ لعظم قدرها وجلالة فضلها، فهنالك ما يحسن التحاسد لا في هذه الدنيا الفانية» انتهى المراد.

قلت: المراد بالحسد هنا: الغيرة كما في الحديث: «لا حسد إلا في اثنتين..» والحديث موافق للآية.

﴿٢٧-٢٨﴾ ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ أي مزاج الرحيق المذكور، و﴿تَسْنِيمٍ﴾ اسم عين في الجنة كما دل عليه قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ وتخصيصها للمقربين دليل على فضلها وزيادة حسنها، بحيث أنه يحسن الشراب بمزجه منها، فكيف إذا كان الشراب كله منها.

ولعل هذه قرينة أنهم ما زالوا في موقف الحساب؛ لأن (الأبرار) يعم السابقين وأصحاب اليمين، فهم كلهم يسقون من رحيق له الصفات الثلاث.

وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿٢٩-٣٣﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ * وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾ اعلم أن إيراد هذه الأفاعيل من الذين أجرموا ليس تحويلاً للكلام عن ذكر سعادة الأبرار، ولكنه تقديم لبيان نوع من سعادة الأبرار، والذين أجرموا أهل الجرائم العصاة المتمردون، والمراد بهم هنا: مجرمون مخصوصون لاختصاصهم بهذه الأفعال السخرية من الذين آمنوا بحيث يضحكون منهم استهزاء بهم لإيمانهم محاربة للدين، والتغامز بينهم يغمز بعضهم بعضاً تنبيهاً على المؤمنين الذين مروا بهم كما يتغامز المارة بالمجنون.

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ﴾ بعد مرورهم بالذين آمنوا وضحكهم منهم ﴿ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ ملتذين بما كان منهم وإذا رأوا الذين آمنوا ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ غاوون عن طريق الصواب أكدوا تضليلهم بـ(إن) و(اللام) والتحقيق لهم باسم الإشارة واستعملوا الجملة الاسمية لأن الذين آمنوا دخلوا في دين يثبتون عليه ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾ ليحفظوهم عن الضلال، فكلامهم فضول مع كونه زيادة في الكفر.

﴿٣٤-٣٦﴾ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ * عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ وهذا الضرب من نعيم الأبرار

الذي سيق له الكلام من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ وهو سعادتهم بنصرهم على أعداء الله الذين يستخفون بهم في الدنيا ويؤذونهم ويضللونهم، فالمؤمنون بنصرهم ﴿يَضْحَكُونَ﴾ وحق لهم أن يضحكوا وهم ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ لا يحتاجون لينظروا أن يتحولوا عن فراشهم الوثير، بل ينظرون من أمكنتهم، سواء كانوا في موقف الحساب أم في الجنة، إلى ماذا ينظرون؟! ينظرون إلى الكفار إما وهم يبكتون في الموقف ويؤمر بهم إلى النار ويساقون إليها.

وإما أن يكونوا قد وصلوا الجنة وهم ينظرون من غرفهم الواسعة الكثيرة الأبواب، ويرون من هناك إذا شاءوا أولئك ﴿الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ وهم يعذبون في النار لينظروا هل ثوبوا، أي جوزوا بما كانوا يفعلون من التمرد والعدوان على أولياء الله، ونظير هذا التركيب قوله تعالى: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك:٣] ونظير هذا المعنى في (سورة الصافات) في سياق نعيم أهل الجنة: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ..﴾ إلى قوله: ﴿..فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الآيات:٥٠-٦١] فهذا نوع من سعادتهم.

وعكسه نوع من شقاء أعدائهم دل عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٨-١١١].

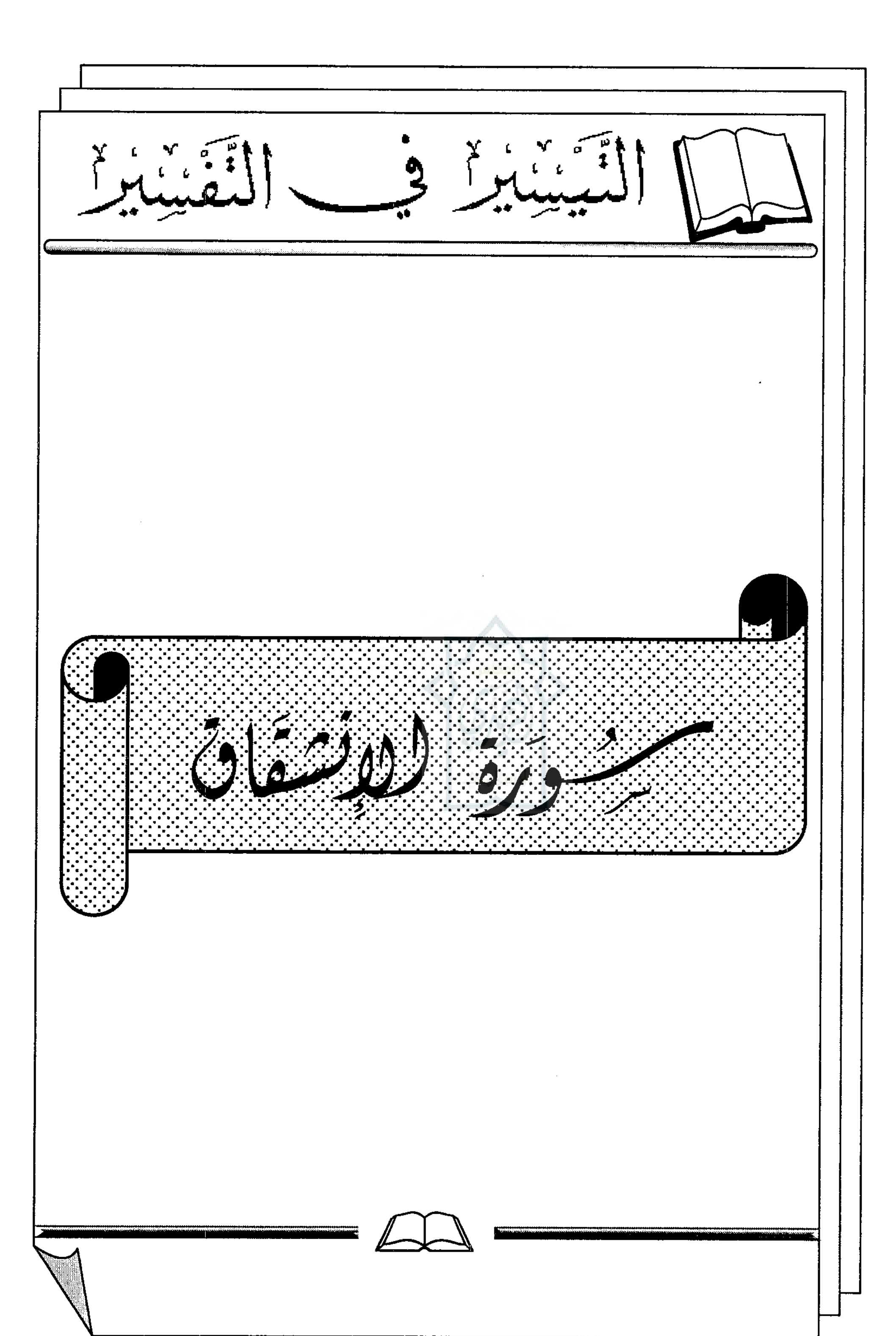
فالحاصل: أن الذين آمنوا ينظرون إلى الكفار هل ثوبوا ما كانوا يفعلون، أي ليشاهدوا جزاءهم وتقر به أعينهم، وفي (تفسير محمد بن القاسم عليه السلام): «أي قد ثوب الكفار إذ عذبوا ثواب نقمة فيما كانوا يلقّون الأبرار» انتهى.

وفي (الصحاح): «وقوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ﴾ أي هل جوزوا» انتهى، قال في (مفردات الراغب): «والثواب يقال في الخير والشر، لكن الأكثر المتعارف في الخير»؟

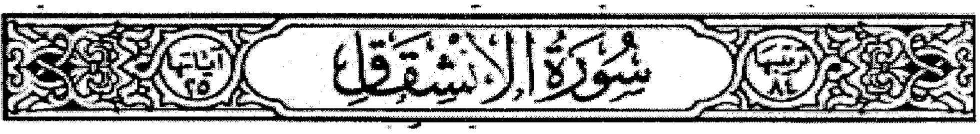
وقال في أول البحث: «أصل الثوب رجوع الشيء إلى حالته الأولى التي كان عليها ـ ثم قال ـ: والثواب: ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله فيسمى الجزاء ثواباً تصوُّراً أنه هو، ألا ترى كيف جعل اللّه الجزاء نفس الفعل في قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧] قال: والتثويب في القرآن لم يجيء إلا في المكروه نحو ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾» انتهى، يعني: وهو من الثواب بمعنى الجزاء المكروه.







التيسير في التفسير
سورة الانشقاق





بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ﴿٣﴾ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ

﴿١﴾ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ ﴿ٱنشَقَّتۡ﴾ و﴿انفَطَرَتۡ﴾ بمعنى.

﴿٢﴾ ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ ﴿أَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ سمعت لأمره، أي أطاعت حكمه وانقادت لقضائه، وقوله تعالى: ﴿وَحُقَّتۡ﴾ قيل في تفسيره: أصيبت أي لم يخطئها الشق.

وقيل: ﴿وَحُقَّتۡ﴾ أي وحق لها أن تأذن لربها؛ لأنه القادر على كل شيء الغالب على أمره، قال في (الصحاح): «وحق له أن يفعل كذا، وهو حقيق أن يفعل كذا، وهو حقيق به ومحقوق به: أي خليق له، والجمع: أحِقَّاء ومحقوقون» انتهى.

والأقرب عندي: أن المراد ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتۡ﴾ في ابتداء خرابها ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ انقادت لقضائه فيها بالتخريب ﴿وَحُقَّتۡ﴾ إما أصيبت بما دمرها وأتلفها، وإما وحق لها أن تنقاد وتستسلم لقضائه، والأول أرجح؛ لأنه بدونه لا يكون في الكلام إلا إثبات انشقاقها.

ويصير الأذن لربها الاستسلام لشقها، وعلى الأول يكون شقها في ابتداء خرابها المؤذن بخرابها فاستسلامها للقضاء بخرابها، فخرابها كما يحضر الموت فيستسلم له الحي فيموت، فانشقاقها بمنزلة حضور الموت وخرابها كالموت ـ والله أعلم.

﴿٣﴾ ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾ كما يمد البساط فلا تبقى كروية ـ والله أعلم.

كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ

﴿٤﴾ ﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ﴾ ﴿مَا فِيهَا﴾ من الموتى والجبال تلقيهم من بطنها، ولعلها مع مدها تلقي كل ما في بطنها من الجثث وغيرها لشدة الزلزلة مع مدها، وقوله تعالى: ﴿وَتَخَلَّتۡ﴾ يحتمل ـ وهو الراجح ـ أنها تتخلى من أهلها ومن الجبال، فتخرج أهلها إلى الجنة والنار، وتخرج الجبال إلى الهواء هباء منبثاً.

﴿٥﴾ ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ استسلمت لقضاء ربها ودمرت بعد تخليها، وهذا أرجح من جعل الكلمات بمعنى واحد في مقام الإيجاز البالغ؛ لأن قصار السور أبلغ في الإيجاز.

﴿٦﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ ﴿كَادِحٌ﴾ كادّ في مراحل عمرك مسافر فيها ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا﴾ تحقيق لكون الإنسان في كدّ وعناء في مراحل عمره مقبلاً إلى ربه ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ في نهاية هذا السفر ملاقي ربك ليسألك في موقف الحساب ويجزيك.

﴿٧-٨﴾ ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ ظاهر الآية: أنه يؤتى كتابه بيمينه قبل أن يحاسب، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿**وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**﴾ [الإسراء:١٣-١٤] والحساب اليسير سليم من المناقشة والتوبيخ، واليسير ضد العسير، فهو حساب سهل على المؤمن.

﴿٩﴾ ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾ ﴿يَنقَلِبُ﴾ من موضع الحساب ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ في الجنة ﴿مَسۡرُورٗا﴾ لأنه استبشر بالسلامة ورضوان اللّه ودخول الجنة، فيصل إلى أهله وهو مسرور مبروك يا ولي الله.

أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴿١١﴾ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا

﴿١٠﴾ ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ هذا لا يعارض آية إيتاء كتابه بشماله، فهو يجتمع له الأمران يناول من خلفه ليأخذه بشماله، فتلك علامة سوء العاقبة.

﴿١١﴾ ﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا﴾ يقول: «يا ثبوراه» كما يقول: «يا ويلاه» لأنه قد فاته كل خير، وهو صائر إلى العذاب الدائم قد خسر نفسه، إذ حياته ليست له وإنما هي ليجزى بما أسلف، فهو أعظم الهلاك.

والثبور: الهلاك، والدعاء: دعاء الندب مثل: «واراساه» وفي (تفسير محمد بن القاسم عليه السلام) فسر (الثبور): بالويل، وحقيقته: الشقاء في العذاب ولذلك قال تعالى: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان:١٤].

﴿١٢﴾ ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾ يباشر النار سعيراً مسعرة موقدة ملتهبة.

﴿١٣﴾ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ لا يخاف الآخرة ولا يبالي بجرائمه، وإنما همه أغراضه الدنيا وسروره بما نال منها.

﴿١٤﴾ ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أن لن يرجع إلى ربه ليسأله ويجازيه، فأمن الجزاء، وتجرأ على الفجور.

﴿١٥﴾ ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا﴾ ﴿بَلَىٰٓ﴾ تكذيب لظنه ﴿أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ أي بلى أنه يحور ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا﴾ لم يخلقه عبثاً ولم يهمله وقد أكمل له عقله وأرسل رسله وأنزل كتبه فما بقي له بد من الجزاء كما اقتضته الحكمة.

ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ

﴿١٨﴾ ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ * وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ * وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ هذا قسم بهذه الحوادث التي هي دليل على الذي أوجدها و(الشفق): حمرة الأفق الغربي بعد غروب الشمس، وهي حمرة قوية من أثر ضوء الشمس مع اقترابه من الأرض وزاده وضوحاً سواد الليل، فهو دليل على الذي غيب الشمس وجاء بالليل بعد يوم من النهار، والقسم بالليل لما فيه من الآية لأن فيه منفعة للحيوان والشجر لما فيه من راحة الناس من الأعمال وسكونهم عن الحركة والتفكير بالنوم في الليل، والقسم بما وسق، ومعنى ﴿وَسَقَ﴾ جمع، والليل يجمع أنواعاً من المخلوقات مختلفة كثيرة وكلها آيات تدل على الخالق وتنتفع بالليل، وفي (تفسير محمد بن القاسم عليه السلام): «وتفسير وسق فيه: هو كلما كفت الليل من الخلق عند وقوعه عليه» انتهى. ولعل التفسير بقوله: كفت، أحسن لإشارته إلى فائدة الليل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ ففي (تفسير محمد بن القاسم عليه السلام): «فاتساق القمر هو تمام نوره، وما يكون من استدارته واتساقه بعد ذهاب نوره في آخر الشهر وامتحاقه» انتهى.

﴿١٩﴾ ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ هذا جواب القسم، في (الصحاح): «والطبق الحال، ومنه قوله تعالى: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ أي حالاً عن حال يوم القيامة» وفي (تفسير محمد بن القاسم عليه السلام) للآية: «هو ما ينتقل فيه بالبشر الحالات من الحياة الدنيا التي هم فيها، ثم ما يصيرون إليه من الذهاب والممات، ثم ما يصيرهم الله إليه من البعث والنشور بعد البلى في القبور» انتهى.

أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

والأقرب: أن القسم وجوابه ردّ لظنهم أن لن يحوروا، ولكنه التفات لتأكيد الوعيد، واستعمال الركوب هنا كاستعماله في ركوب الأهوال، ولأن أحوالهم يكونون عليها وينتقلون من حال إلى حال، فأشبه حالهم السفر، واستعير له الركوب الذي هو من خواص السفر، وعلى هذا فالأحوال أولها الموت، وآخرها موقف الحساب.

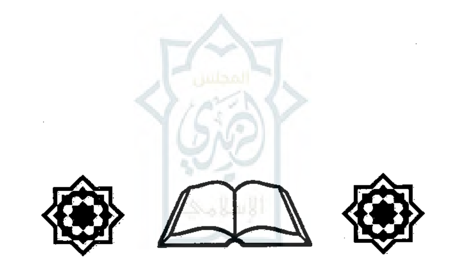
﴿٢٠-٢١﴾ ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ وفيه الآيات التي يؤمن لأجلها من أنصف، وفيه الوعيد الشديد المؤكد بالقسم، وذكر أهوال القيامة ما يبعث على النظر والحذر والسجود، خضوعاً لله وإيماناً كما يفعل الصالحون المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء:١٠٧].

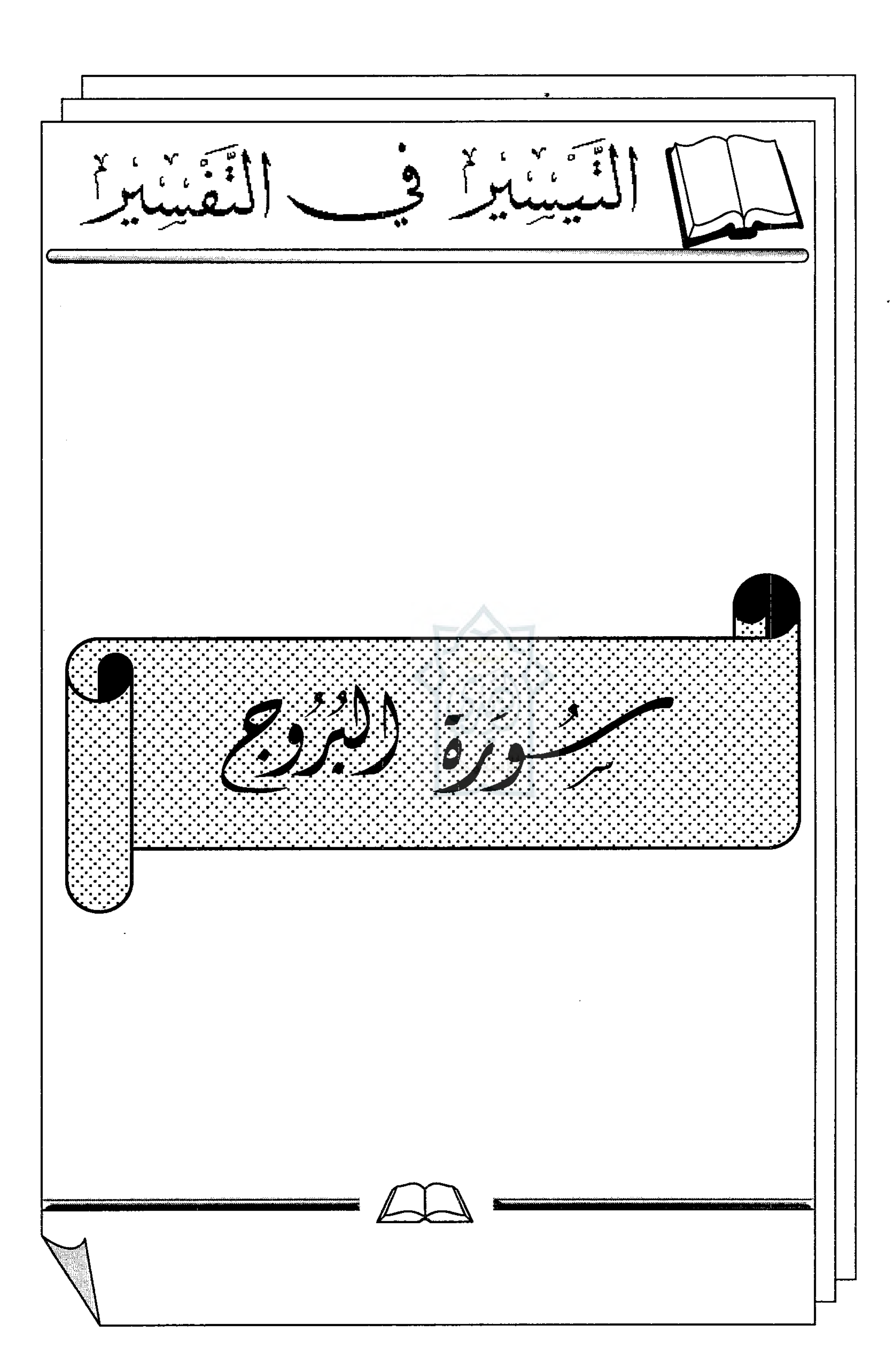
﴿٢٢﴾ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ﴾ فلذلك لا تنفعهم الآيات والمواعظ لأنهم يكذبون بها كلها، وقد خذلوا لتمردهم.

﴿٢٣﴾ ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ بما يسرونه في قلوبهم، فهو مجازيهم على أعمالهم كلها؛ لأنه لا يخفى عليه شيء منها، حتى ما أضمروا في صدورهم من الكبر والحسد والعداوة والبغضاء لأهل الحق وسوء النيات.. وغير ذلك.

﴿٢٤-٢٥﴾ ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ لأنها قد بلغتهم الحجة وتمردوا، وفي ذكر التبشير تهكم بهم؛ لأنهم اختاروا التكذيب وأصروا عليه، كأن له فائدة وما فائدته إلا العذاب الأليم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾ فلا يعذبون بما كفروا قبل الإيمان، بل هم ناجون من عذاب الكفر، ولهم أجر الإيمان والعمل الصالح أجر عظيم غير ممنون عليهم، بل يقال لهم: هذا جزاء إيمانكم وعملكم الصالح ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:٦٠] فيسرهم أنهم قدموا لأنفسهم في الدنيا ما سعدوا به في الآخرة.




التيسير في التفسير
سورة البروج



سُورَةُ البُرُوجِ

آياتها ٢٢ — ترتيبها ٨٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ هذا قسم بالسماء ذات البروج، و﴿الْبُرُوجِ﴾ منازل الشمس والقمر، وفيها آية عظيمة تدل على قدرة اللّه وعلمه؛ لأن الشمس تقطع البروج في سنة بسير منتظم لا يتخلف، والقمر تقطعها في شهر كذلك، وبعضها تنزل فيها الشمس في الصيف، وبعضها تنزلها في الشتاء وبعضها بين ذلك.

﴿٢﴾ ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ وهو يوم القيامة.

﴿٣﴾ ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ في تفسير (محمد بن القاسم عليه السلام) وفي (الكشاف) كليهما ترجيح: أن الشاهد من يشهد، أي يحضر يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود:١٠٣] أي يشهدون ما في ذلك اليوم من الجزاء، وما فيه من الأهوال والعجائب، وذلك هو المشهود.

﴿٤-٥﴾ ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ ﴿قُتِلَ﴾ كلمة غضب على ﴿أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ وفسرت بمعنى: لعنوا، وهم الذين خدّوا في الأرض أخدوداً وأضرموا فيه النار وأحرقوا المؤمنين.

﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ النار إما عطف بيان؛ لأنه صار ناراً، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ [الكهف:٩٦] وإما بدل اشتمال كما قال (صاحب الكشاف، بدل اشتمال من الأخدود، و﴿الْوَقُودِ﴾ إما مصدر وإن كان غريباً، فقد فسره محمد بن القاسم عليه السلام حيث قال: «والوقود: فاللهب، وكذلك

عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

تسمى كل نار التهبت، والعرب فلا يسمون النار وقوداً إلا عند التهابها واضطرامها، وذلك معروف في لسان العرب عند خواصها وعوامها» انتهى، أما (صاحب الكشاف) فقال: «وصف لها بأنها نار عظيمة لها ما يرتفع به لهبها من الحطب الكثير وأبدان الناس» انتهى.

﴿٦-٧﴾ ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۞ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ ﴿إِذْ﴾ ظرف إما لقتل، وإما بمعنى: اذكر كما في كثير من القرآن الكريم، والأقرب عندي ـ والله أعلم ـ أن جواب القسم حذف، وأغنى عنه ذكر هذه القصة؛ لأنها دليل على أنه لابد من الجزاء، ولولا أن اللّه يعذبهم لما مكنهم من تعذيب أوليائه، ولأن ذكر القصة يجر إلى ذكر الجزاء، ولذلك يقول محمد بن القاسم عليه السلام: «وأي أمر أعظم من أن يكون من كفر وأجرم قاعداً على أخدود من وقود النار يحرق فيها أولياء اللّه المؤمنين الأبرار، فيمهلهم اللّه سبحانه في حياة الدنيا مدة يسيرة، ويستدرجهم فيؤخرهم أياماً قصيرة، ثم يعاقبهم بما فعلوا بالمؤمنين أشد العقوبة في الآخرة، فيدخلهم نار جهنم خالدين فيها أبداً، ويحرقهم بحريق جهنم تحريقاً دائماً سرمداً، بقدرته سبحانه عليهم، ولما أعد اللّه لهم من العذاب في الآخرة الذي يخزيهم ويعطي اللّه المؤمنين من جزيل مثوبته والقول [لعل الأصل: والفوز] الدائم والخلد في جنته أكثر مما يتمنون» انتهى.

فظهر: أن القصة قامت مقام جواب القسم: إن عذاب ربك لواقع، أو نحو هذا، ومعنى: ﴿شُهُودٌ﴾ حاضرون مشاهدون.

شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

﴿٨﴾ ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ في (مفردات الراغب): «نقمت الشيء، ونقمته: إذا نكرته إما باللسان وإما بالعقوبة» انتهى، أي ما نقم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ من المؤمنين والمؤمنات إلا إيمانهم الذي ثبتوا عليه وأبوا أن يتحولوا عنه؛ لوثوقهم به أنه ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ الذي لا يضيع أجرهم فهو الذي ينتقم لهم ممن ظلمهم.

﴿٩﴾ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو أحق أن يطيعوه، وليس لأصحاب الأخدود حق في أن يتركوا الإيمان بالله، فهم معتدون بتحريقهم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فلا مجال لأعداء الله من عقابه؛ لأن الشاهد هو الحاكم.

﴿١٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين عذبوهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ لأن لا يقنط الذين أسرفوا على أنفسهم، فهذه الجريمة النكراء قد فتح لهم باب التوبة إن كانوا تابوا، وليس في الكلام إشارة إلى أنهم تابوا، بل يشير إلى أنهم لم يتوبوا كلهم أو بعضهم، و﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ يشتمل على أنواع من العذاب، فصح عطف ﴿عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ عليه عطف الخاص على العام.

وقد اختلف في ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ والأقرب: أنهم الذين حرقوا المؤمنين في (نجران) لأن في (نجران) موضعاً يقال له: الأخدود إلى الآن، وذلك يؤيد الرواية أنهم هم، والقصة في (الكشاف) بلفظ: «وقيل: وقع إلى (نجران) رجل ممن كان على دين عيسى عليه السلام فدعاهم فأجابوه، فسار إليهم ذو نواس اليهودي بجنود من حمير، فخيرهم بين النار واليهودية فأبوا، فأحرق منهم اثني عشر ألفاً في الأخاديد، وقيل: سبعين ألفاً» انتهى.

ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ

قال في تخريجه: «أخرجه ابن إسحاق في (السيرة): حدثني يزيد بن أبي زياد، عن محمد بن كعب.. ذكره مطولاً» انتهى.

قلت: وكانت هذه الحادثة قبل بعثة نبينا محمد صلى اللّه عليه وآله وسلم، وأظن في آخر القصة مبالغة بتكثير العدد وذكر أخاديد، وليس في القرآن ما يفيد أكثر من أخدود، مع أن عادة المؤمنين أن يكونوا قليلاً ولا سيما الخلَّص الذين يثبتون في حال الشدة ـ وبالله التوفيق.

﴿١١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عام يدخل فيه الذين حرقوا في الأخدود، و﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ مجاري الماء، والمقصود بجري الماء من تحتها، فهي لا تزال خضراء لا تظمأ، وفي اجتماع الجنات والأنهار الجارية جمال أي جمال، و﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾ هنا الظفر والفلاح، أو الظفر بالخير مع حصول السلامة، كما قال الراغب في (المفردات) وهو الأرجح، لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥].

﴿١٢﴾ ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ قال في (الصحاح): «البطشة: السطوة والأخذ بالعنف» انتهى، وبطشه سبحانه بالظالمين هو الذي اقتضته عزته وحكمته، قال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦].

﴿١٣﴾ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾ فهو القادر على البعث والجزاء والبطش بالظالمين.

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾

﴿١٤﴾ ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ لمن تاب إليه في هذه الدنيا قبل حضور الموت، فالمغفرة على ما تقتضيه الحكمة والرحمة، وكذلك الود: وهو الحب لأوليائه، كما أن البطش على ما تقتضيه الحكمة فلا تدافع في صفاته تعالى.

﴿١٥﴾ ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ فالملك له وحده، قال في (تفسير محمد بن القاسم عليه السلام): «و﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ في (لسان العرب): الجواد الماجد، والماجد: ذو العطايا والإحسان والمحامد، وكذلك الله سبحانه، فالمجيد الذي لا يبلغ مجده ماجد، وولي جميع ما بين الأرض والسماء من الخير والعطايا والمحامد» انتهى.

﴿١٦﴾ ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ فإذا أراد بقوم سوءاً فلا مرد له؛ لأنه الغالب على أمره يفعل ما يشاء.

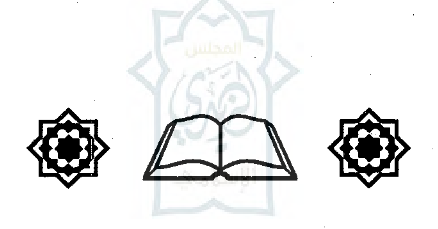
﴿١٧-١٨﴾ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ ﴿حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ الخبر في شأنهم، وهو أنهم كذبوا الرسل فعجل الله لهم عذاباً شديداً، فإن في حديثهم عبرة لمن يخشى.

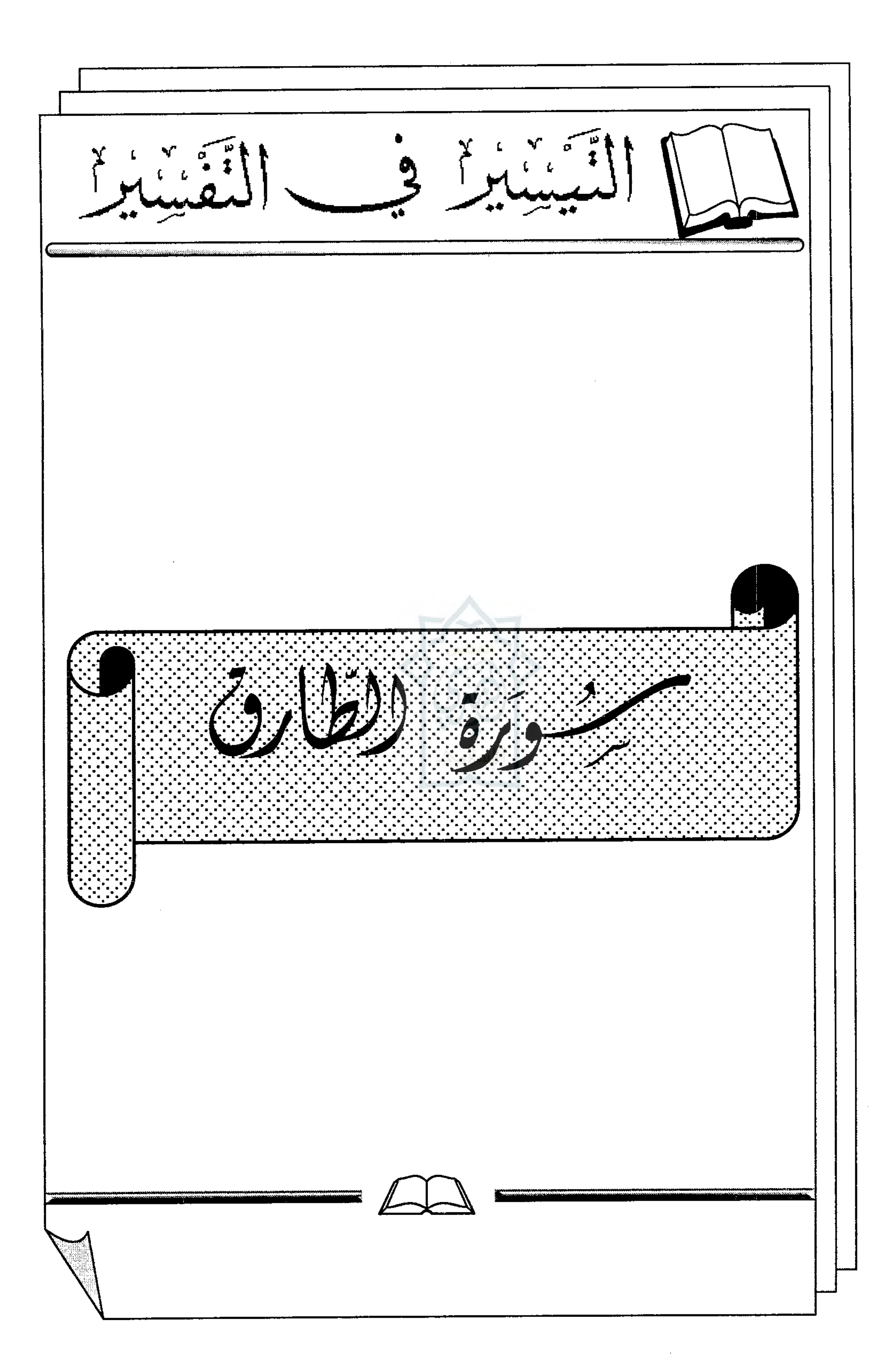
﴿١٩﴾ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ﴾ أي ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فِى تَكْذِيبٍ﴾ لهذا القرآن فلا ينتفعون بشيء من زواجره وعبره ونذره.

﴿٢٠﴾ ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم﴾ طالب لهم ليجزيهم بما ظلموا، وهو ﴿مُّحِيطٌۢ﴾ بهم لا يفوتونه.

﴿٢١﴾ ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ كريم محمود، لا كما يقول المكذبون.

(٢٢) ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ فالقرآن ﴿مَّحْفُوظٍ﴾ لا يزاد فيه ولا ينقص منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] واللوح إما حقيقة على أنه كتب القرآن للملائكة وهو أم الكتاب، وإما تمثيل لحفظه بالحفظ في لوح لا ينسى منه شيء؛ لأنه مقيد بالكتابة.




التيسير في التفسير
سورة الطارق



سُورَةُ الطَّارِقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ هذا قسم بـ(السماء) لما فيها من الآيات وبـ(الطارق) لأنه آية، وأصل الطارق الذي يأتي في الليل، قال في الصحاح: «وأتانا فلان طُرُوقاً، إذا جاء بليل وقد طرق يطرق طروقاً فهو طارق».

﴿٢-٣﴾ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ في (تفسير محمد بن القاسم عليه السلام): «و﴿الطَّارِقُ﴾ فهو النجم ذو الذّنب الذي يرى ليلاً، ويطرق في الحين الطويل، فقد رأيتموه ورأيناه مرة بعد مرة، وإنما قيل له: الطارق ـ والله أعلم ـ لأنه لا يرى إلا بالليل، والعرب تسمي ما جاء من الأشياء ورأي ليلاً أتياً وطارقاً، وهذا النجم يرى في الزمان بعد الزمان ليلاً غربياً ومشرّقاً، وإنما جعله الله قسماً لعلمه بما فيه من أسرار الآيات، ثم قال: و﴿الثَّاقِبُ﴾ فهو الذي يبين نوره ويثقب، وفي مثل هذا من أمر النجم العجب العجيب» انتهى المراد.

وقد ظهر أن الطارق يعتبر فيه أن يأتي ليلاً بعد غياب، كالمسافر يطرق أهله إذا أتاهم من سفره في الليل، فهذا النجم فيه هذه الصفة ظاهرة؛ لأنه يغيب زماناً ثم يظهر ليلاً، وثقوبه للظلام واضح لزيادة نوره، فهو آية عظيمة لمخالفته المعهود من النجوم بالغياب ثم الطروق، وبشكله حيث جعل الله شكله خلاف شكل النجوم فيما يرى، فهو حقيق بتعظيمه بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾.

دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾
يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ

﴿٤﴾ ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ جواب القسم في (تفسير محمد بن القاسم عليه السلام): «أن الحافظ يحفظ أعمالها، ويحصي عليها ألفاظها وأقوالها» انتهى، وهو الله الرقيب عليها، الشهيد على كل شيء، والحفظ للأعمال دليل على الحساب يوم القيامة، فجواب القسم يشير إلى أنه لابد من الحساب والجزاء.

﴿٥﴾ ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ ليعرف قدرة الله وعلمه، وأنه لا يعسر عليه أن ينشئه النشأة الأخرى.

﴿٦-٧﴾ ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ هذا الماء الدافق الذي يسيل من المجاري الضيقة حتى يصير في الرحم، ثم يخلق مصوراً بأعضائه ومفاصله وعروقه وعصبه ودماغه وقلبه وكبده ورئتيه وغير ذلك، إن الذي خلقه أول مرة قادر على أن يعيده ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩] وهذا الماء دافق يتدفق مع خروجه دفقات، و﴿ٱلصُّلْبِ﴾ صلب الظهر، قال في (الصحاح): «وكل شيء من الظهر فيه فقار فذلك الصلب» انتهى، وفي (مفردات الراغب): «﴿ٱلصُّلْبِ﴾ الظهر» وفي (لسان العرب): «الصُّلْبُ والصُّلَّبُ عَظْمٌ مِن لَدُن الكاهِل إلى العَجْب» انتهى، ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ قال في (لسان العرب): «وقال أهل اللغة أجمعون الترائب: موضع القلادة من الصدر، وأنشدوا:

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل»

انتهى، وعبارة (صاحب اللسان) أحسن من عبارة (الكشاف) حيث قال: «وهي عظام الصدر حيث تكون القلادة» انتهى، والدليل البيت المذكور لأنه أراد أن صدرها مصقول لا عظام الصدر.

﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾

﴿٨-٩﴾ ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾ كما خلقه من الماء المذكور، و﴿رَجۡعِهِۦ﴾ خلقه حياً تارة أخرى ورجعه يكون ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ أي يرجعه يوم تبلى السرائر من النيات والعقائد، وكل ما أسر العبد في هذه الدنيا ﴿تُبۡلَى﴾ تعرف ويتبين خبرها خيرها وشرها وفائدتها وضرها، كقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُو كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡ﴾ [يونس:٣٠].

وفي (الصحاح): «بلوته بلواً: جرّبته واختبرته» انتهى، وفي (المصابيح) في تفسير قول الله تعالى: «﴿هُنَالِكَ تَبۡلُو..﴾ [يونس:٣٠] أي تختبر وتذوق» انتهى.

﴿١٠﴾ ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾ ﴿فَمَا﴾ للإنسان ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ ﴿مِن قُوَّةٖ﴾ يدفع بها عن نفسه الجزاء ﴿وَلَا﴾ له ﴿نَاصِرٖ﴾ ينصره ليخلصه من العذاب.

﴿١١-١٢﴾ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ * وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ هذا قسم بالسماء والأرض، و﴿ٱلرَّجۡعِ﴾ رجع النيرات الشمس والقمر والنجوم التي تغيب وترجع، أو رجع الخنس منها بعد خنوسها، فهذه النيرات تنسب إلى السماء، وقد فسر ﴿ٱلرَّجۡعِ﴾ بالمطر ولكنه ينسب إلى الجو، قال تعالى في السحاب: ﴿فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الروم:٤٨] ودعوى بعضهم: أن المطر من السماء الدنيا غير معروف، وتفسيره بعض الآيات بذلك تفسير بالمحتمل، بل المعهود الجو للمطر، والقسم ينصرف إلى المعنى المعهود عند السامعين، ورجع النيرات: أي إرجاع الله لها بما دبر لها من الجري في أفلاكها آية عظيمة لاستمراره وإحكام نظامه.

وأما ﴿ٱلصَّدۡعِ﴾ فهو الشق، وقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا * فَأَنۢبَتۡنَا..﴾ الآية [عبس:٢٦-٢٧] وهذه آية عظيمة، فتفسير الصدع به قريب؛ لأنه معنى حقيقي معهود بل هو الراجح.

﴿١٣-١٤﴾ ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ * وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ هذا جواب القسم، والضمير للقرآن، وفي (تفسير محمد بن القاسم عليه السلام): «يقول سبحانه: هذا وما جاء به من الخبر في هذه السورة وما أخبر به من وحيه في جميع السور ﴿لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ * وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ والفصل ـ والله أعلم ـ فهو الفرقان والبرهان الفاصل بين قوة الحق وضعف الباطل، والهزل من الأخبار فهو الزور» انتهى.

قلت: تفسير (الهزل) بالزور من التطبيق، وهو الحاصل من المعنى؛ لأنه مقابل (الفصل) والهزل مقابل الجد، وهو كلام لا يراد به معناه، وفي الحديث: «ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: النكاح، والطلاق، والعتاق» أو كما قال صلى الله عليه وآله وسلم.

فلما كان الهزل لا فائدة له ولا معنى مقصوداً كان كلاماً ضائعاً مهملاً في العرف، فهو نوع من الباطل لأنه لا يعمل به، فلو استعمل في الوعد والوعيد وليس جداً ولا مقصوداً لأنه عندهم غير واقع لكان من الزور كالمزح بكلمة الكفر.

﴿١٥-١٦﴾ ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾ بالتكذيب بالقرآن، يحتالون لإبطال الرسالة واستمرارهم في الباطل، أو بأي مكيدة يدبرونها، قال تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء:٥٧] وقال تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ﴾ [المرسلات:٣٩] ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾ وأكيدهم كيداً بالإنعام عليهم والإملاء لهم والإمهال، قال تعالى: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف:١٨٣].

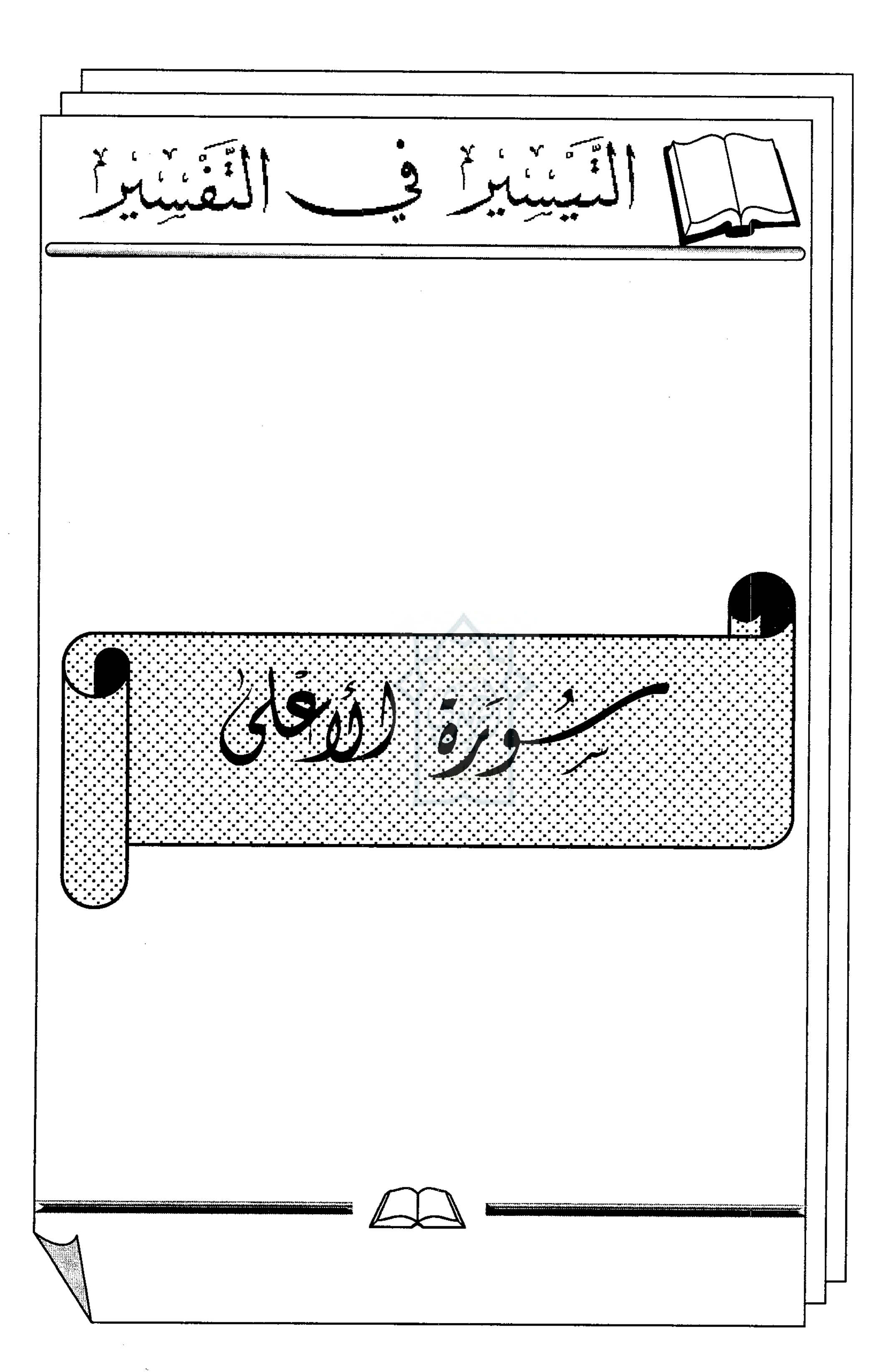
قال الراغب: «الكيد: ضرب من الاحتيال وقد يكون مذموماً وممدوحاً» انتهى، وهذا المعنى أظهر في هذا السياق من فعل المقاربة الذي يحتاج إلى جملة تكون خبراً، نحو: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ [الحج:٧٢].

(١٧) ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ فلا تعجل عليهم، فإن الله غالب على أمره وانتظر ﴿رُوَيْدًۢا﴾ قليلاً، وإمهاله لهم: أن لا يقاتلهم حتى يؤذن له، أو لا يدعو عليهم بالهلاك العاجل.






التيسير في التفسير
سورة الأعلى



سُورَةُ الأَعْلَى — ترتيبها ٨٧ — آياتها ١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا

---

(١) ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ التسبيح: تنزيه بليغ عن كل نقص وعيب ﴿سَبِّحِ﴾ بعّد عن كل نقص وعيب ﴿فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء:١١٠] التي تدل على عظمته وجلاله وبعده عن كل نقص وعيب، وليس فيها ما يدل على ضعف أو نقص أو منافاة للحكمة و﴿ٱلْأَعْلَى﴾ الغالب على أمره، القاهر فوق عباده، فهو علو الشأن.

(٢) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ ﴿خَلَقَ﴾ كل مخلوق ﴿فَسَوَّىٰ﴾ جعله سوياً وأتقن صنعه.

(٣) ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ ﴿قَدَّرَ﴾ المصنوعات بمقاديرها وقدر للأحياء أرزاقهم وآجالهم وغير ذلك ﴿فَهَدَىٰ﴾ كل حيوان إلى أسباب معيشته، وهدى المكلفين لمعرفة ما كلفوا فمنه كل هدى.

(٤-٥) ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ * فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ ﴿أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ من منابته من الأرض وأصوله والمرعى: ما ترعاه الأنعام من الغنم وغيرها ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً﴾ الغثاء: فتات الحشيش والشجر الذي يقذفه السيل في جوانب الوادي.

والأحوى، قال في (الصحاح): «والحوّة: لون يخالط الكمتة، مثل صدأ الحديد، وقال الأصمعي: الحُوَّة: حمرة تضرب إلى السواد ـ ثم قال (صاحب الصحاح) ـ : والحوة: سمرة الشفة» اهـ.

وفي (تفسير محمد بن القاسم عليهم السلام): «وما ذكر سبحانه من شبه الرعي إذا خرج وبدا بما هو له شبيه من خفيف الغثاء، والغثاء: القذاء الصغار الخفاف الذي على السيل إذا جرى، والأحوى: فهو الأصفر من أطرافه، وكذلك الرعي فهو يخرج إذا بدا بنبت أصفر من جوانب ورقه، والعرب تدعو الشاة من النعم إذا كان خداها أصفرين: حوّى، وهم على هذا في (اللسان) مجتمعون غير مختلفين» انتهى.

وفي (لسان العرب): «الحوة: سواد يضرب إلى الخضرة ـ ثم قال ـ: وجميم أحوى، يضرب إلى السواد من شدة خضرته، وهو أنعم ما يكون من النبات، قال ابن الأعرابي: هو مما يبالغون به» انتهى، قال في (الصحاح): «الجميم: النبت الذي طال بعض الطول ولم يتم» انتهى.

قلت: يمكن أن معنى الحوة في الشفة: حمرة تضرب إلى السواد، وفي النبت وغيره صفرة إلى السواد ـ أيضاً ـ وكلام (صاحب الصحاح) موافق لكلام محمد بن القاسم في المعنى وإن اختلف التعبير، حيث قال (صاحب الصحاح): «مثل صدأ الحديد» وقال محمد بن القاسم عليهم السلام: شاة حواء أي صفراء الخدين وهذه الصفرة مثل صدأ الحديد.

وقد قيل: يعبر بالصفرة عن السواد، لكنه غير مقصودهم في الشاة، فتفسير محمد بن القاسم عليهم السلام هو الراجح؛ لحمله الغثاء على التشبيه في الرقة والخفة، والإحوا على الحقيقة التي رواها عن العرب ووافقها كلام (صاحب الصحاح).

وأما تفسيرهم للغثاء الأحوى: بالدرين، أي الأسود الذي قد يبس وتحطم، فهو تشبيه له بالغثاء؛ لأنه قد يبس وتحطم وأشبه ما يحمله السيل،

تَنسَىٰٓ ۞ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ۞ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ۞ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۞ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۞ وَيَتَجَنَّبُهَا

وصار معناه: فجعله بالياً حطاماً قد اسود من القدم والعتق، فهو بعيد لأن في (تفسير محمد بن القاسم عليهما السلام) في المرعى آيتين إخراجه من الأرض بشقه لها، وتطويره بجعله أخضر مصفر أطراف الورق في أول نشأته، وهذا أوضح في اعتباره آية من بلى المرعى وتحطمه واسوداده من القدم ـ والله أعلم.

وفي (تفسير محمد بن القاسم عليهما السلام) مرجح آخر، وهو أنه أقرب لاستعمال (الفاء) التي للتقريب، والجعل الذي هو في الخلق أظهر من تركه حتى يبلى والعموم للمرعى ما يؤكل وترعاه الأنعام، وما يترك حتى يبلى، وتفسيرهم خاص بما يترك، والمناسبة لكلمة المرعى فهو غثاء أحوى في حال كونه مرعى، وفي أول ما يرتع، أما الدرين فهو يؤكل بشكل معلوف لا رعي، وهذا يحوج إلى تفسير جعل بمعنى صيّر وإخراجه عن كونه مرعي إلى كونه غثاء أحوى، أي يابساً متحطماً مسوداً من طول زمانه، وليس في هذا فائدة تظهر بالنسبة إلى السياق لدلائل القدرة.

(٦-٧) ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ * إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾ القرآن فتحفظه؛ لأن المراد أن تحفظه وتبلغه ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن تنساه فلا يضرك نسيانه؛ لأن اللّه ﴿يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ﴾ من القول ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ من القول ومن ذات الصدور، فهو يعلم ما تحفظه، ولو نسيت شيئاً لكان ذلك بعلمه ومشيته.

(٨) ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ للشريعة اليسرى السمحة السهلة، والطريقة اليسرى والأخلاق السمحة الرفيقة، فكلها من الشريعة اليسرى ﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾ لها نهديك لها ونوفقك، ونهيئك حتى تصير عليها.

ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ

﴿٩﴾ ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ ﴿فَذَكِّرْ﴾ بالقرآن والمواعظ والتنبيه للغافلين ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي حاول النفع بها، و﴿ٱلذِّكْرَىٰ﴾ ما يذكرهم به من القرآن قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:٢] أو من القرآن وغيره، ثم بين له أن الذكرى تنفع؛ ليزيده رغبة في التذكير، فقال تعالى:

﴿١٠﴾ ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ وهو من استعمل عقله فخاف الوعيد فانتبه من غفلته وصحح النظر.

﴿١١﴾ ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ يتجنب اليسرى التي تذكِّر لها وتدعو إليها وتيسَّر أنت لها، ولتشبيهها بالطريقة كانت أولى بعود ضمير التجنب إليها، أما الذكرى فهي تصدر عن الرسول ﷺ، وليس المقصود نهيه عن تجنبها.

فإن قيل: المراد: يتجنب سماعها أو قبولها أو اتباعها؟

قلنا: ذلك زيادة مضاف مقدر بلا دليل، و﴿ٱلْأَشْقَى﴾ الأشدّ شقاوة بسوء عاقبته، والشقاوة: ضد السعادة.

﴿١٢-١٣﴾ ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۞ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ يحتمل: أن جهنم متفاوتة في شدتها، فتكون ﴿ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أشدها، ويحتمل: أن النار الكبرى: نار جهنم فضلت على نار الدنيا، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم:١٧] فهو يعالج شدة الموت ولا يموت، نعوذ بالله من عذاب الله.

ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

﴿١٤﴾ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ فاز وظفر من صلح بتقوى اللّه والإيمان والعمل الصالح.

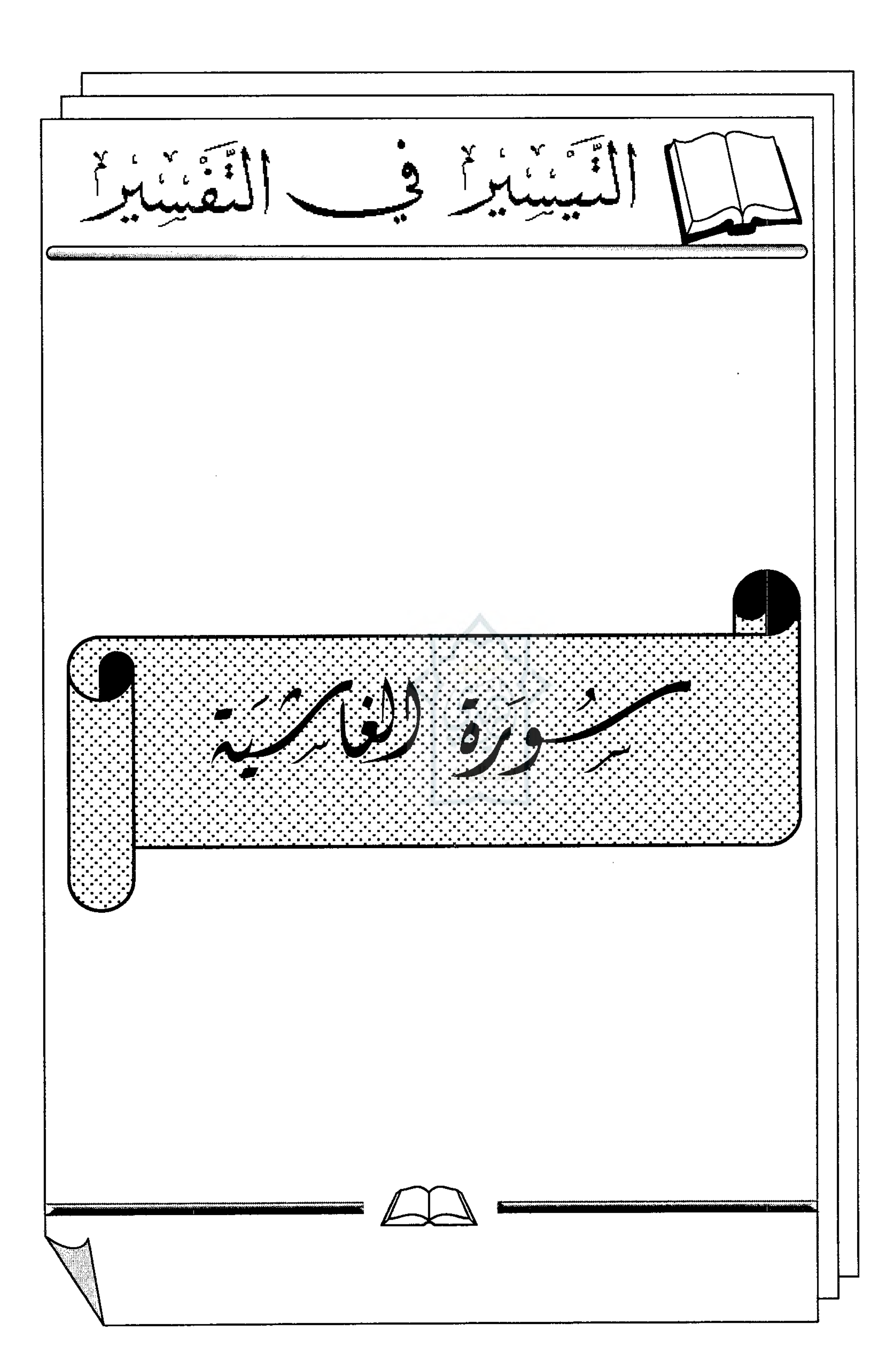
﴿١٥﴾ ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ لا يبعد أن المراد بهذا الذكر: تكبيرة الإحرام؛ لأنه رتب عليه الصلاة، وهي مترتبة على تكبيرة الإحرام، أو قوله: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا**..﴾ إلى قوله: ﴿..**مِنَ الذُّلِّ**﴾ [الإسراء:١١١] والله أعلم.

﴿١٦-١٧﴾ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ إيثار الدنيا جعل السعي لها دون الآخرة، أو تفضيل الحياة الدنيا في السعي بحيث تكون أرجح، فيكون العبد قد آثرها وخصها بالزيادة، وهذا خطأ من العبد على نفسه؛ لأن الآخرة خير من الحياة الدنيا وأبقى، فهي أحق بالإيثار مع ما في إيثارها من الفلاح بالزحزحة من النار، وذلك الفوز العظيم.

﴿١٨-١٩﴾ ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ ﴿إِنَّ هَـٰذَا﴾ الوعد والوعيد المذكور ﴿لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ قد تضمنته الصحف المذكورة أي معناه ﴿**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلاَ فِيهَا نَذِيرٌ**﴾ [فاطر:٢٤] وقال تعالى: ﴿**رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾ [النساء:١٦٥] و﴿ٱلصُّحُفِ﴾ جمع (الصحيفة).






التيسير في التفسير
سورة الغاشية



سُورَةُ الغَاشِيَة

ترتيبها ٨٨ — آياتها ٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ هذا السؤال لتوجيه ذهن السامع إلى ﴿حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ ليصغي له، كقوله تعالى في أول (قصة داود عليه السلام): ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص:٢١] و﴿حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ خبرها وذكر ما تأتي به من الجزاء للمؤمنين والفجار، و﴿الْغَاشِيَةِ﴾ هي القيامة سميت غاشية لأنها تغشى الناس وتعمهم كما يغشاهم الليل ويشتمل عليهم.

﴿٢-٣﴾ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ المراد بالوجوه أهل الوجوه، ولظهور أثر الذلة على الوجوه نسبت إليها، والخشوع: الذلة والخضوع ﴿عَامِلَةٌ﴾ لشدة العذاب كما يعمل من به ألم شديد، فهو يقوم ويقعد، أو يذهب ويرجع، أو يضطرب في مكانه ويتقلب ﴿نَّاصِبَةٌ﴾ متحملة لمشقة العمل وعنائه ومقاساة العذاب وحمل السلاسل وجرها.

﴿٤﴾ ﴿تَصْلَىٰ نَارًا﴾ تباشرها بدون حائل ﴿حَامِيَةً﴾ شديدة الحرارة أعظم من هذه النار في حرها.

﴿٥﴾ ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ العين: التي تخرج من جبل أو أرض أو غير ذلك، والآنية: شديدة الحرارة، بحيث يشتد غليانها فهم يسقون منها.

﴿٦﴾ ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ في (تفسير محمد بن القاسم عليهما السلام): «والضريع، فمعناه: اليابس القاحل الخشن، الذي ليس برطب ولا لين» انتهى المراد.

لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ

فظهر: أن (الضريع) سمي ضريعاً باعتبار صفته، وعلى هذا فهو الزقوم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ [الدخان:٤٣-٤٤] وصف هاهنا بهذه الصفة.

﴿٧﴾ ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ ﴿لَا يُغْنِي﴾ لا يدفع شيئاً ﴿مِن جُوعٍ﴾ ولا قليلاً.

﴿٨-٩﴾ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يومئذ تغشى الغاشية، والناعمة الحسنة اللون ذات النعومة واللين ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ ﴿لِّسَعْيِهَا﴾ في الدنيا وما صبرت عليه من عناء التكاليف، كمشاق الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصوم، والحج.. وغير ذلك ﴿رَاضِيَةٌ﴾ رضيت به لما رأت من ثوابه، والرضى: ضد الكراهة، فرضيت لنفسها ذلك السعي كما رضيته في الدنيا، إلا أنها في الآخرة أرضى لمشاهدة الثواب وانقطاع العناء.

﴿١٠﴾ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ ﴿عَالِيَةٍ﴾ رفيعة، وعلوها إما بمعنى: أنها ليست كبعض جنات الدنيا التي تكون في الأودية حيث الحر والوبا، بل هي مناكب وظهور كما في الحديث أنها قيعان، وإما بمعنى: علو الشجر وسموها في الجوّ وهذا أقرب، كقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:٢٢-٢٣].

﴿١١﴾ ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ ليس فيها لغو من الكلام، كالفحش والسب واللعن والغيبة والنميمة والكذب، فلا تسمع نفس ﴿لَٰغِيَةً﴾ بشيء من اللغو.

﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٥﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٦﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ

﴿١٢﴾ ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ هذا اختصار للسامعين في أول نزول الوحي لقلة تحملهم للتطويل، ولذا ترى في هذه السور (المكية) إيجازاً بليغاً، ويحتمل: أن هذه العين يكون منها أنهار كثيرة متفرعة بعيدة المدى بالغة كل جنة، والمراد بها في هذا السياق: عين الماء التي تجري من تحت الجنة، أما غيرها فقد طوي ذكره، وأشير إليه بذكر الأكواب إن كان المراد بها أكواب المشروبات المختلفة.

﴿١٣-١٤﴾ ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ هنا ذكر المساكن والسرر ترفع ليرى من عليها الجنات والإخوان ـ والله أعلم ـ وقد روي أن طول السرير أربعون ذراعاً، وأنه ينخفض لصاحبه حتى يجلس عليه ثم يرتفع، هذا معنى الحديث، والأكواب: جمع كوب، وهي التي يشرب بها ﴿مَوْضُوعَةٌ﴾ حاضرة معدة للشرب، ولعلها تناولهم الولدان.

﴿١٥﴾ ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ الأقرب: أنها وسائد الظهور تكون ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ بعضها إلى بعض متناسبة صفاً، ويحتمل: أنها أعظم من وسائد الظهر بعضها تحتهم وبعضها ظهور، كما ذكره الإمام الهادي عليه السلام في ضمن وصف (الأرائك).

﴿١٦-١٧﴾ ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ * أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ زرابي: بسط عراض نسميها اليوم مفارش جميلة منقشة، ولما ذكر سبحانه ﴿الْغَاشِيَةِ﴾ وما يكون فيها، أتبعها بما يدعو إلى الإيمان بقدرة الله تعالى على الإتيان بها، تأكيداً لصدق الوعد والوعيد بالدليل العقلي، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ أي نظر اعتبار وتفكر، فهم يرونها ذات صور مناسبة لوظائفها، وخلق مناسب لعملها.

قال في (الكشاف): «خلقاً عجيباً، دالاً على تقدير مقدر، وتدبير مدبر، حيث خلقها للنهوض بالأثقال وجرها إلى البلاد الشاحطة، فجعلها تبرك حتى تحمل عن قرب ويسر، ثم تنهض بما حملت منقادة لكل من اقتادها بأزمّتها، لا تعازّ ضعيفاً ولا تمانع صغيراً، وبراها طوال الأعناق لتنوء بالأوقار [أي عند النهوض من مباركها] وعن بعض الحكماء: أنه حُدّث عن البعير وبديع خلقه وقد نشأ في بلاد لا إبل فيها، ففكر ـ ثم قال ـ: يوشك أن تكون طوال الأعناق، وحين أراد بها أن تكون سفائن البرّ صبَّرها على احتمال العطش حتى أن أظماءها لترتفع إلى العشر فصاعداً، وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراري والمفاوز مما لا يرعاه سائر البهائم» انتهى المراد.

قوله: «صبّرها على احتمال العطش» قيل: أنها تشرب في المرة الواحدة كثيراً يعينها على السفر مع فقدان الماء، وقيل: إن في السنام دسومة تمد الجسم عند السفر الطويل ـ والله أعلم ـ وقد كفى في الآية ما يرون ويشاهدون من كيفيتها.

(١٨) ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾ يقول سيد قطب في (تفسيره): «وتوجيه القلب إلى السماء يتكرر في القرآن وأولى الناس بأن يتوجهوا إلى السماء هم سكان الصحراء، حيث للسماء طعم ومذاق وإيقاع وإيحاء، كأنما ليست السماء إلا هناك في الصحراء، السماء بنهارها الواضح الباهر الجاهر، والسماء بأصيلها الفاتن الرائق الساحر، والسماء بغروبها البديع الفريد الموحي، والسماء بليلها المترامي ونجومها المتلألئة وحديثها الفاتر، والسماء بشروقها الجميل الحي السافر، هذه السماء.. في الصحراء.. أفلا ينظرون إليها..» الخ.

كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

﴿١٩﴾ ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ نصباً، وكان يمكن أن توجد غير منصوبة، فلا بد لها من ناصب قدير، له قدرة خلاف قدرة المخلوقين المعهودة.

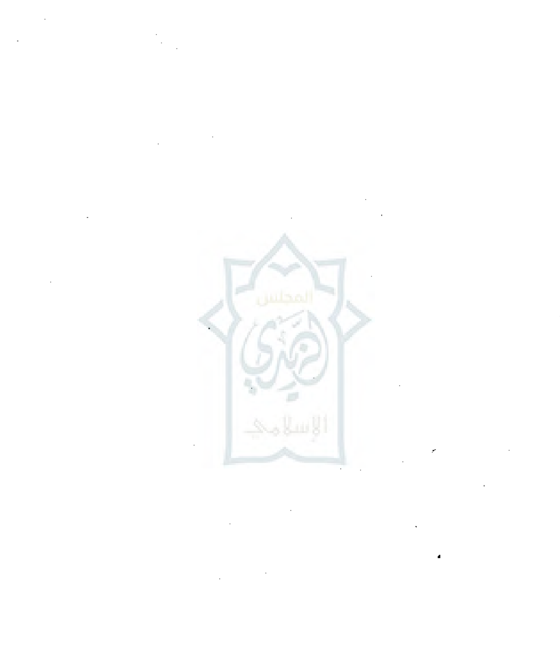
﴿٢٠﴾ ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ مهيأة لساكنها، يتهيأ لهم فيها السير والحرث والبناء وغير ذلك.

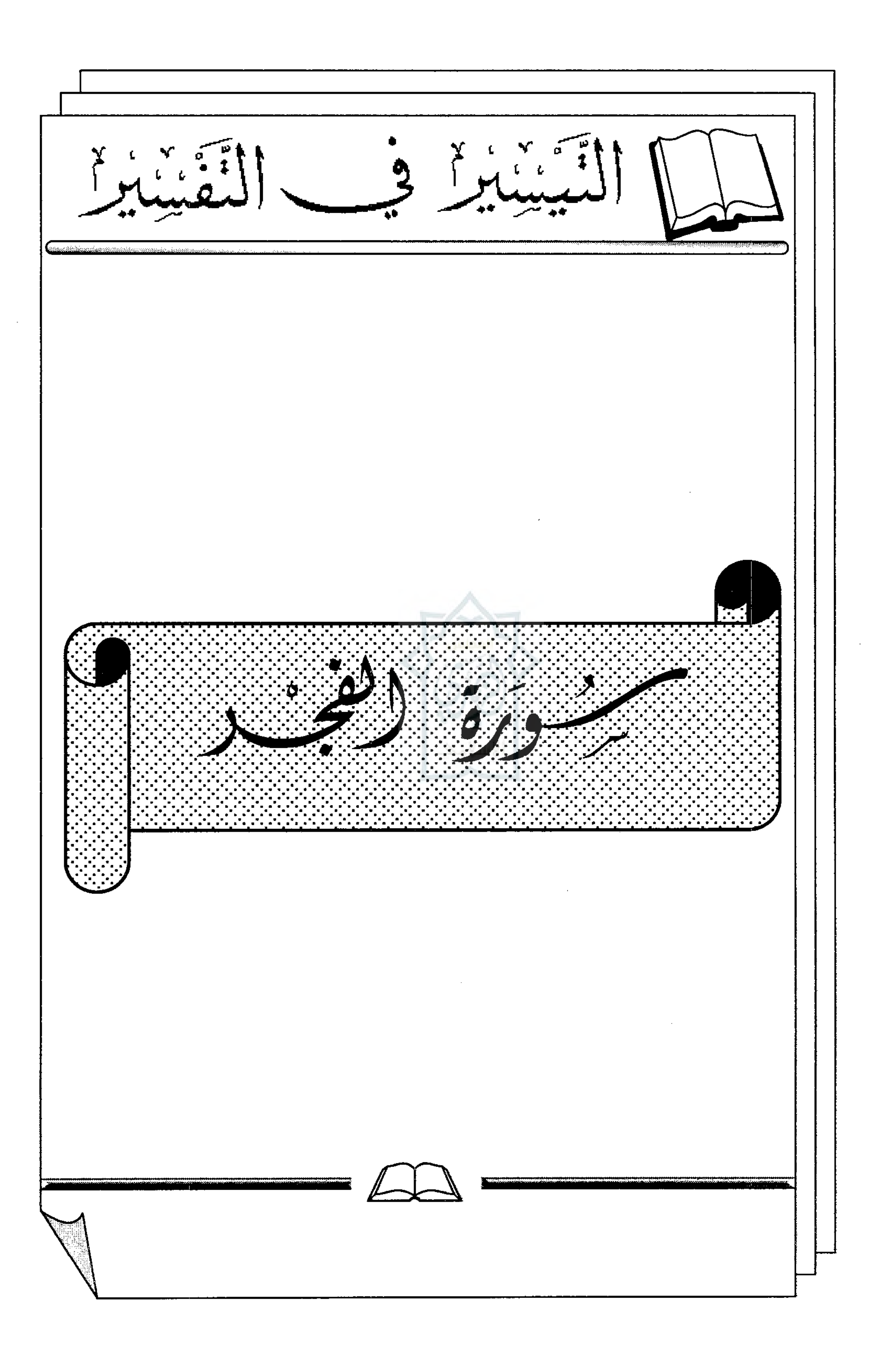
﴿٢١-٢٢﴾ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ ﴿فَذَكِّرْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ ذكر: نبه الغافلين بما تبين لهم الحق، وتثير دفين العقول، وتنذر وتبشر ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم﴾ أي على من أرسلت إليهم ﴿بِمُسَيْطِرٍ﴾ قاهر غالب تجبرهم على الإسلام.

﴿٢٣-٢٤﴾ ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ لكن من ﴿تَوَلَّىٰ﴾ عن الحق ﴿وَكَفَرَ﴾ بالآيات أو بها وبما دلت عليه من صدق الرسول والقرآن واليوم الآخر، أو كفر بنعمة اللّه ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ﴾ فليس مهملاً، وإن ترك وشأنه في هذه الحياة ولم يكن على الرسول إلا إبلاغهم و﴿الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ نار جهنم وما فيها.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ يقول اللّه ذو العظمة إن رجوعهم في الآخرة ﴿إِلَيْنَا﴾ أي إليه ـ جلَّ جلاله ـ وحده لا يرجعون معه إلى شفيع أو ناصر.

﴿٢٦﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ حين يرجعون إلينا نحاسبهم، لنجزيهم بقدر ما عملوا، فهو واجب علينا أي واجب في الحكمة، قال في (الكشاف): «ومعنى الوجوب: الوجوب في الحكمة» قلت: قد دل على أن الحكمة تقتضيه قوله تعالى: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦].




التيسير في التفسير
سورة الفجر



سورة الفجر

مرتبها ٨٩ — آياتها ٣٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ وَٱلْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ هذا قسم بالفجر: الذي هو النور المعترض في جهة المشرق وهو أول النهار، وفيه آية ودلالة على قدرة الله الذي جاء به بعد استمرار الليل، والليالي العشر: فسرها محمد بن القاسم عليه السلام: بعشر ذي الحجة، العشر التي آخر أيامها يوم الأضحى، وذلك دليل على فضلها.

وقد روى المرشد بالله عليه السلام في (الأمالي الخميسية): بإسناده عن الإمام زيد بن علي، عن آبائه، عن علي عليه السلام: «﴿وَٱلْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قال: عشر الأضحى» وروى بأسانيده: عن سعيد بن جبير رضي الله عنه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من أيام أحب إلى الله عز وجل فيهن العمل - أو قال: أفضل فيهن العمل - من أيام العشر. قيل: يا رسول الله ولا الجهاد. قال: «ولا الجهاد، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلا يرجع من ذلك بشيء»».

وفي (الأمالي) أيضاً: بإسناده عن ابن عمر نحوه مرفوعاً، وعن أبي هريرة مرفوعاً، وعبدالله بن عمرو مرفوعاً، وفيها - أيضاً - بالإسناد عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر..» الحديث.

وفيها بإسناده عن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أفضل أيام الدنيا أيام العشر عشر ذي الحجة..» الحديث.

﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِى ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرۡعَوۡنَ ذِى ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِى ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا

﴿٣﴾ ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾ يحتمل: كل المخلوقات، ويحتمل: العبادات المشروعة شفعاً، والعبادات المشروعة وتراً، كصلاة الوتر، والطواف بالبيت، والسعي، وهذا قريب لأجل السياق.

﴿٤﴾ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ حيث يأتي أوله ويتقدم شيئاً فشيئاً حتى يعم ويستحكم، ثم في آخره يتقدم إلى جهة المغرب ويكتفت من المشرق، فكأنه سرى علينا بأوله ووسطه وآخره وإقباله وإدباره وهذا دليل على قدرة اللّه وعلمه، حيث جاء به بقدر، وأبقاه بقدر، وأذهبه بقدر.

﴿٥﴾ ﴿هَلۡ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجۡرٍ﴾ سؤال تقرير على عظمة هذه الأشياء، وأنها من حيث هي آيات عظيمة تستحق القسم بها، وذو الحجر: ذو العقل.

﴿٦﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ هذه وما بعدها دليل جواب القسم، فتفهم: أنه وعيد بالعذاب للمفسدين، ومعنى كيف فعل بعاد: كيف أهلكها.

﴿٧﴾ ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ ﴿إِرَمَ﴾ أي عاد إرم، وهم قوم عاد الذين أهلكوا بالريح العقيم ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ جمع عمود أي عاد ذات العماد، والعماد: إما أعمدة خيامهم إن كانوا بدواً يسكنون المظالّ التي ترفع بالعماد، وإما أعمدة عظيمة من الأحجار يبنونها ويرفعون بناءها، يفتخرون بقوتهم على من بعدهم، كما قال تعالى فيهم: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعۡبَثُونَ﴾ [الشعراء:١٢٨] ولا يشكل هذا على الأول؛ لاحتمال أنهم كانوا لقوتهم لا يحتاجون البيوت وتكفيهم المظال ـ والله أعلم.

ٱلۡفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ

﴿٨﴾ ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ وهي قبيلة عاد الذين كانوا في قوتهم وكمال بنيتهم أعظم من كل من خلقه اللّه في البلاد، ولذلك ﴿قَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥].

﴿٩﴾ ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ﴾ أي وكيف فعل ربك بثمود ﴿ٱلَّذِينَ جَابُواْ﴾ أي قطعوا ﴿ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ﴾ والواد: إما اسم بلدهم فيكون قطعهم للصخر ليبنوا به بيوتاً، وإما واد حقيقة فيكون قطعهم للصخر فيه قطع صخر عظيم كان يحول السيل إلى غير ما يريدون، فقطعوا الصخر لينزل من مكانه الماء إلى حيث أرادوا ـ والله أعلم.

قال محمد بن القاسم عليه السلام في (تفسيره): «وثمود فقوم صالح ـ صلى اللّه عليه ـ والواد: فبلد في بعض نواحي الحجاز معلوم معروف، ويقال له: وادي القرى، وبلد ثمود موضع منه يسمى الحجر..» إلخ.

﴿١٠﴾ ﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ أي وكيف فعل ربك بفرعون، وهو فرعون الذي أغرقه اللّه وقومه و﴿ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ الأهرام التي في مصر شبهت بالجبال، وإما أوتاد من الحديد كان يوتد بها من يعذبه بها في يديه ورجليه يوتده بالأرض، وهذا أنسب للسياق في عاد وثمود وفرعون كلهم.

﴿١١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ تجاوزوا الحد في الظلم والفساد.

﴿١٢﴾ ﴿فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ﴾ بإفساد الناس، وصدهم عن سبيل اللّه، وحملهم على الباطل، وظلمهم بأنواع الظلم.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٥﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾

(١٣) ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ ضربهم من فوقهم بسوط عذاب، والسوط: عصى، وشبه عذابهم بضربة سوط؛ لأنه العذاب الأدنى وهو يسير في جنب عذابهم المعد لهم في الآخرة العذاب الأكبر، وعذابهم معروف مشهور، أهلكت عاد بالريح، وثمود بالصيحة، وفرعون بالغرق.

(١٤) ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ هذا تمثيل كالراصد لعدوه في مكان ليأخذه، قال تعالى: ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة:٥] فهو سبحانه معد للظالمين أخذه إذا جاء أجلهم.

(١٥) ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ إذا ما ابتلاه اختبره بالإكرام وبتوسعة الرزق، فجعله ذا نعمة أي في لين عيش وخصب ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ لا ينظر إلى أن اللّه ابتلاه من فضله ابتلاء أيشكر أم يكفر، بل اعتبر ذلك إكراماً له فحسب، وجعل المقصود به إكرامه لم يقل: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠] ولم يفكر في الشكر؛ لأنه لا يهمه إلا الدنيا، ويحتمل ﴿أَكْرَمَنِ﴾ جعلني كريماً شريفاً في الناس؛ لجهله أن الكرم بالتقوى والإحسان لا بالمال.

(١٦) ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ﴾ ﴿ٱبْتَلَىٰهُ﴾ بتقدير ﴿رِزْقَهُۥ﴾ وتقليله، في (تفسير محمد بن القاسم عليهما السلام): «وقدره عليه أن لا يبسطه ولا يوسعه» اهـ.

﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ﴾ غافلاً عن كونه ابتلاء، وأن المقصود الاختبار له أيصبر، وإن الإنسان قد يكون عند اللّه كريماً ولا يريد إهانته، ولكنه أراد أن يبتليه ليثيبه إذا صبر، ويعطيه في الآخرة بغير حساب، فعليه أن يفهم أنه ابتلاء، وأن يصبر ولا يعتبره إهانة له، والحاصل: أن الإنسان لفرط حبه للمال وتعظيمه له في نفسه لا يهمه إلا المال، ولا يرى الكرامة إلا فيه.

وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾
كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾

﴿١٧-٢٠﴾ ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ ﴿كَلَّا﴾ زجر لهم عما زعموا في بسط الرزق وتقديره.

وقوله تعالى: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ﴾ إضراب وترق إلى درجة أهم من الأولى، التي هي تعظيم المال وجعل الكرامة فيه والإهانة في تقليله، فهم في حال أهم من ذلك، وهي أنهم لا يقومون بالواجب عليهم من إكرام اليتيم، والحض على طعام المسكين، الذي يدل على صلاح الضمير ورحمة الضعيف، بل يعاملون بالقسوة وعدم المبالاة بالواجب.

وهم يأكلون الميراث ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ يجمع الحرام والحلال، ويحرص على المال حرصاً شديداً يكون خطراً على المجتمع الإنساني، بحيث يفسد المجتمع لو ترك الناس عليه، ويصيرون كالسباع الضارية يأكل بعضهم بعضاً، ولذلك فلا بد من الإيمان بالآخرة لإصلاح المجتمع الإنساني، وإيجاب حق الفقير على الغني، وتربية المجتمع على الإحسان، وإكرام اليتيم، والرحمة بالضعيف، وقد دلَّ ما فعل اللّه بعاد وثمود وفرعون، على أن اللّه لا يهمل عباده، وأنه لابد من الجزاء لهؤلاء المكذبين للرسول ﷺ، المكذبين بآيات الله.

﴿٢١﴾ ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ متكرراً متواصلاً ﴿كَلَّآ﴾ زجر عن الاشتغال بالدنيا والحرص على المال، مع تعرضهم لعذاب اللّه إذا جاءت القيامة، إذا دكت الأرض.

(٢٢) ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ في (تفسير محمد بن القاسم عليه السلام): «وما ذكر الله من مجيئه فهو مجيء أمره ونقمته، وظهور ما يظهر من عظيم آياته، وما يكون يومئذ من عقاب أهل معصيته، فلما بدا من آيات الله العظام في يوم القيامة ما كان لا يعاين ولا يُرى من فعله في دار الدنيا، فرأى الخلق يومئذ من أخذ الله بانتقامه للعاصين وشدة زلزال بطش عقاب الله بالظالمين ما لم يكونوا في دار الدنيا يرون، جاز أن يسمى الله تبارك وتعالى كما يرون ويسمعون إتيان أمره أو آياته عند أخذه لأهل معصيته لشدة بأسه وعقابه وما يصير إليه من أطاعه من كريم ثوابه إتياناً منه، إذ كان ما ظهر في ذلك كله من الآيات العظام إنما كان بقدرته وعنه، وذلك مفهوم في لسان العرب عند من كان ذا لبّ قد يقولون اليوم في مفهوم اللسان بينهم عندما يكون من سطوات ملوكهم فيهم، وعند حلول جنود ملوكهم بمن يعصيه جاء القوم ما لا يطيقون حين يسطوا جنود ملكهم بهم في الدنيا ويقولون جاءهم الملك والخليفة، وإنما جاءتهم جنوده المبعوثة..» إلخ.

وبعبارة أخرى لما كانوا في الدنيا في دار الاختبار كأنه غائب عنهم إذ تركهم يعملون ما شاءوا بلا سؤال في الدنيا ولا حساب، كما أنه كان كالمشغول عنهم بحيث عبر عن أمر الآخرة بقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن:٣١].

فلما كان يجمعهم ويعرضون عليه صفاً ويسألهم عما كانوا يعملون، ويبين لهم الذي يختلفون فيه، ويحكم بينهم ويحاسبهم ويجازيهم، ويميّز بينهم، ويأمر ببعضهم إلى الجنة وبعضهم إلى النار، وهم يومئذ في مقام ذلة وخضوع وهيبة واستسلام، كان شأنه في ذلك الموقف شأن الملك الحاضر بعد غيابه الذي جاء ليحكم بينهم وفيهم، ويجزي كل نفس بما تسعى، فعبر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ أي وجاء الملك حال كونهم صافين صفاً بعد صف.

وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا

﴿٢٣﴾ ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ﴾ فصارت بحيث يراها المجرمون ويسمعون لها تغيظاً وزفيراً فيسألون وهم يرونها ﴿يَوْمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ما سعى في الدنيا من طاعة ومعصية، فيندم على ما فرط ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي ومن أين له الذكرى؛ لأنه مشغول بنفسه، فليس له من الذكرى إلا تذكر ما قدم في الدنيا بسبب شدة الخوف وحضور الجزاء على ما قدم.

فأما التذكر الذي كان يدعى إليه في دار الخيار لمعرفة اللّه وعظمته وجلاله، ومعرفة حقه على عباده ووجوب شكر نعمته وقبح معصيته، والإيمان بما كان يجب الإيمان به على طريق الاختيار، والنظر في الآيات والإيمان بها، كل ذلك قد فات ولم يبق إلا ما اضطر إليه مما أهمه من العذاب ونحو ذلك، كتذكره أنه قد كان محتاجاً إلى أن يقدم في الدنيا لحياته الدائمة.

﴿٢٤﴾ ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ وهذا التمني لم يفده شيئاً، ولكنه يدل على ندمه حين لا ينفع الندم.

﴿٢٥﴾ ﴿فَيَوْمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ ﴿فَيَوْمَئِذٖ﴾ **﴿إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ﴾** **﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ﴾** **﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾** ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ أي لا يعذب كعذاب اللّه أحد، فهو الذي يعذب وحده لا شريك له، عذاباً زائداً على كل عذاب.

يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

﴿٢٦﴾ ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ في (لسان العرب): «والوثاق: اسم الإيثاق، تقول: أوثقته إيثاقاً ووثاقاً» انتهى، فالمعنى: أن أعداءه تعالى يوثقون بالسلاسل والأغلال ويقيدون بها، فيكون تعالى قد أوثقهم وثاقاً لا يوثق مثله أحد؛ لأن الأغلال والقيود لا تفك عنهم ولا تخلع أبداً، وهي حديد يصير ناراً ـ أعني جمراً ـ فهو بشدته ودوامه لا يماثله إيثاق، ولا يوثق مثله أحد ـ نعوذ بالله.

﴿٢٧ـ٢٨﴾ ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ هذا وعد بعد الوعيد كعادة القرآن في إتباع أحدهما الآخر، زيادة في البيان؛ لأن بضدها تتميز الأشياء، و﴿ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ التي هي لأمنها لا قلق فيها ولا اضطراب، بل هي ساكنة، فهي تنادى بهذه الصفة التي تمتاز بها يوم الفزع الأكبر.

﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ إلى تقريبك وتكريمك، كما قال تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٥] وهذا تقريب معنوي، معناه: تكريم وتشريف ورفع منزلة، واعتبر رجوعاً لأنه أنشأها في الدنيا ورباها وأنعم عليها وتولاها بألطافه وحسن رعايته، ثم في الجنة ترجع إليه إلى حسن رعايته وتمام نعمته.

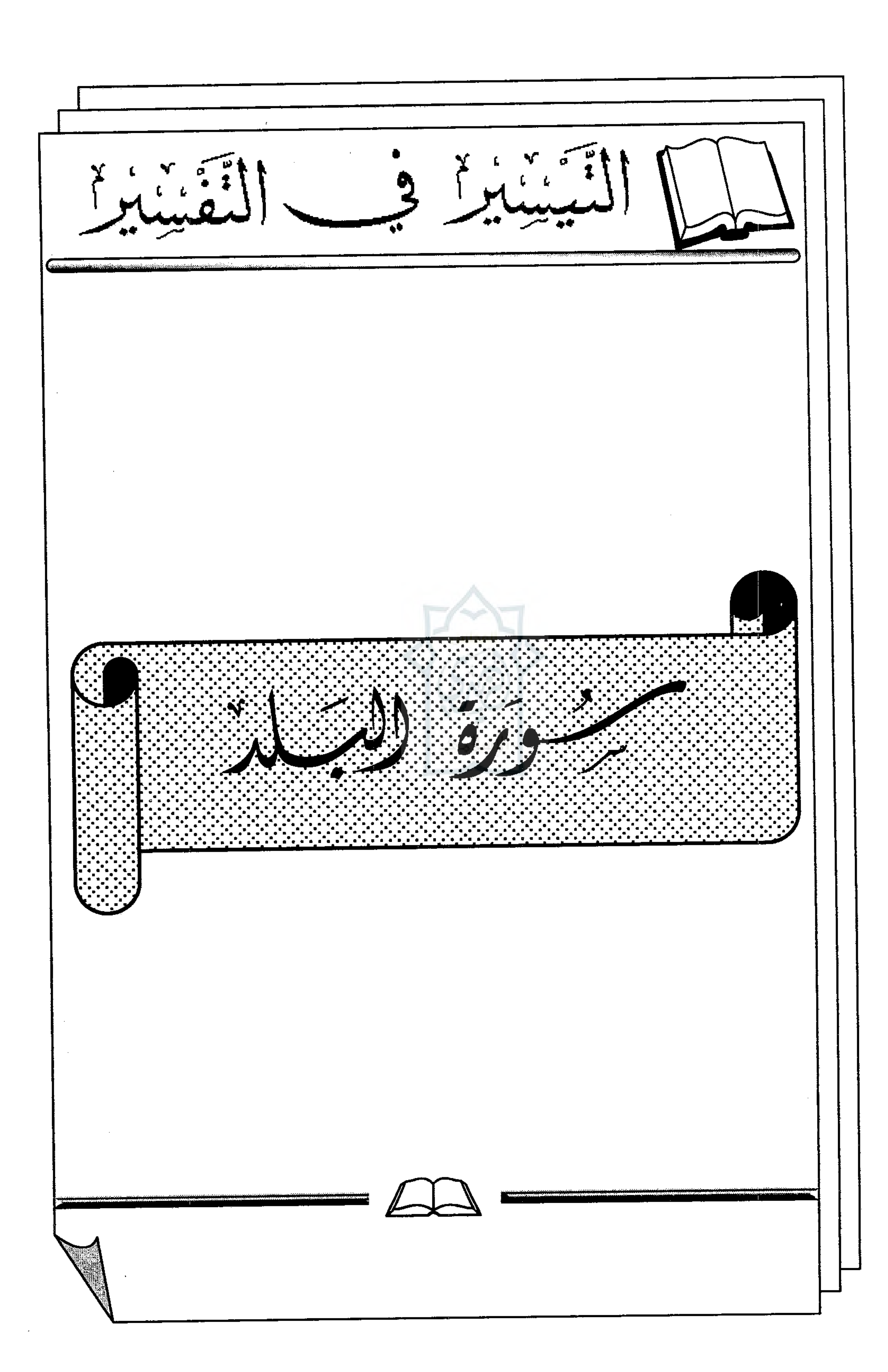
﴿رَاضِيَةً﴾ بما نالت من الثواب، كقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى:٥] أو راضية عن ربك بما أثابك، كقوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة:١١٩] ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ للرجوع إلى ربك بما قدمت.

(٢٩) ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ كقوله: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩] معنى الدخول فيهم: الكون في زمرتهم ولها ما للعباد الصالحين، ويحتمل: كوني فيهم فأنت معهم، كقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩].

(٣٠) ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ التي أعددتها لعبادي الصالحين.






التيسير في التفسير
سورة البلد



سُورَةُ البَلَدِ

ترتيبها ٩٠ — آياتها ٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ البلد الحرام الذي هو مكة، وهذا قسم به وبما عطف عليه ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أقسم بها في حال أنك حل بها، والتقدير: ألا أقسم، قال محمد بن القاسم عليه السلام: «فكان قول الله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ إنما تفسيره: كيف لا أقسم بهذا البلد، ومعنى ﴿حِلٌّ﴾ حال وساكن، فزاد شرف هذا البلد، واستحق القسم به لكونك يا محمد حالاً به ساكناً فيه».

﴿٣﴾ ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ في تفسير (محمد بن القاسم عليه السلام): «ثم قال تعالى فيما كرر من القسم وثنى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ لما في الولد والوالد من آياته وعجيب آثار تدبيره وقدرته، بينما الوالد كما جعله الله واحداً إذ خلق منه نسلاً كثيراً..» إلخ.

وفي الوالد آية من حيث ولد كيف ولد بقدرة الله خالق النطفة ومطور صنعها ومكمل خلقها حتى صارت إنساناً سميعاً بصيراً، وفي الولد آية حيث سخر الله له والديه لتربيته ورعايته حتى يكبر ويستقل بنفسه، وحتى يشب وينفع والديه إذا كبرا وصار نعمة لهما كما كان ريحانة لهما وكما كانا نعمة له، فاجتمع في المقسم به كونه آية، وكونه حكمة، وكونه نعمة للإنسان.

﴿٤﴾ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ جواب القسم، وهو يناسب أن المراد بوالد وما ولد هو الإنسان والداً ومولوداً من حيث هو آية، ومن جهة ما في ذلك من الحكمة والنعمة.

وقد رجّح (صاحب الكشاف): أن المراد بالوالد: محمد ﷺ، وبالولد: ذريته ليناسب أول القسم، وبعضهم رجح: أن المراد بالوالد: إبراهيم، وبالولد: ابنه إسماعيل عليه السلام ليناسب كذلك أول القسم، وزعم أنه لابد من المناسبة بين المتعاطفين المقسم بهما.

وقد يمكن أن يجاب بأنهما اشتركا في أن كلا منهما فيه حفظ للإنسان ورعاية، إلا أن أحدهما عام والآخر خاص، فوجود حرمة البلد الحرام فيه حفظ ورعاية لأهله، ووجود الإنسان بطريقة التوالد فيه حفظ للطفل ورعاية، أو للوالد والولد كما مر، وكلاهما محتاج إليه من حيث خلق الإنسان في كبد، إذا كان معنى (الكبد) العناء ومكابدة مشاق الحياة، وما يعرض فيها من الشقاق، وعدوان بعضهم على بعض ـ والله أعلم.

وفي (تفسير محمد بن القاسم عليه السلام) لهذه الآية: «يريد ـ والله أعلم ـ في تقويم واعتدال وانتصاب وصعد؛ لأن اللّه ـ عزَّ وجل ـ لم يخلق في الاعتدال والإصعاد والتقويم والكبد والانتصاب شيئاً من الأبدان غير بدن الإنسان، وفي ذلك عجب عجيب من التدبير والحكمة والبيان، ولذلك ما يقول اللّه سبحانه العليم الحكيم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] تذكيراً من اللّه تبارك وتعالى بنعمته فيما خلقه فيه من الكبد، الذي هو التقويم والتصعيد، وتفضيله لخلق الإنسان على خلق جميع الأبدان..» إلخ.

وذكر عليه السلام قول من فسر (الكبد) بالتعب والكد ثم قال: «والذي ذكرناه من تفسيره أولى وأشبه وأشرح وأنور وأفهم وأوضح» انتهى.

وقد ذكر ذلك في (لسان العرب) فقال: «وفي (التنزيل): ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ قال الفراء: يقول خلقناه منتصباً معتدلاً» انتهى، وفيه: «قال المنذري: سمعت أبا طالب يقول: الكبد: الاستواء والاستقامة» انتهى.

مَالاً لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا

ومناسبة هذا المعنى لما أقسم به واضحة، لأنه يكون كقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٣-٤] ولأن الكل آيات ودلائل على تدبير اللّه للإنسان وإنعامه عليه ليترتب على ذلك إنذاره بأن اللّه الذي خلقه وأنعم عليه لن يسوي بين الشاكر والكافر لنعمته؛ لأنه أحكم الحاكمين.

﴿٥﴾ ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ ﴿أَن لَّن يَقْدِرَ﴾ على إعادته وجزائه ﴿أَحَدٌ﴾ لأنه يصير عظاماً ورفاتاً، وقد خلقه اللّه ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] فهو قادر عليه كما أنشأه أول مرة.

﴿٦﴾ ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا﴾ في (تفسير محمد بن القاسم عليهما السلام): «واللبد: المتراكم الكثير الوافر الذي بعضه على بعض..» إلخ، ومثله في (لسان العرب) وغيره.

﴿٧﴾ ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي قد رآه اللّه ولم يغب عنه ما صنع لكنه لا ينفعه ما يقول لأنه يفتخر به وهو في حال كفره لم يؤمن، ولم ينفقه كما شرع اللّه، بل إنما أنفقه للفخر والسمعة، وكان بعض العرب يفتخر بإتلاف المال، وفي (معلقة امرئ القيس):

ويوم عقرت للعذارى مطيتي ... فياعجباً من كورها المتحمل
فظل طهاة اللحم ما بين منضج ... صفيف شواء أو قدير معجل

وفي (معلقة طرفة):

وما زال تشرابي الخمور ولذَّتي ... وبيعي وإنفاقي طريفي ومُتْلَدي

إلى قوله:

ألا أيهذا اللائمي احضر الوغى وإن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

فإن كنت لا تسطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

وفي (معلقة لبيد):

بل أنت لا تدرين كم من ليلة طلق لذيذ لهوها وندامها

قد بت سامرها وغاية تاجر وافيت إذ رفعت وعز مدامها

أغلي السباء بكل أدكن عاتق أو جونة قدحت وفضّ ختامها

إلى قوله:

وغداة ريح قد وزعت وقرة قد أصبحت بيد الشمال زمامها

إلى قوله:

وجزور أيسار دعوت لحتفها بمغالق متشابه أجسامها

ادعوا بهن لعاقر أو مطفل بذلت لجيران الجميع لحامها

فالضيف والجار الجنيب كأنما هبطا تبالة مخصباً إهضامها

وفي (معلقة عمرو بن كلثوم):

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

إلى قوله:

وكأس قد شربت ببعلبكّ وأخرى في دمشق وقاصرينا

وفي (معلقة عنترة):

فإذا شربت فإنني مستهلك مالي وعرضي وافر لم يكلم

وإذا صحوت فما أقصرٌ عن ندى وكما علمت شمائلي وتكرمي

ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾
أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟

وتفسير الأبيات في (شرح المعلقات السبع) وهو مطبوع منشور، فقد ظهر أن أهل الجاهلية كانوا يفتخرون بإتلاف المال في الخمر، واللذات، وأسباب الفخر.

﴿٨-١٠﴾ ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ ففي هذه من الصنع المتقن ما يقصر عنه الوصف، فكيف لا يقدر عليه أحد ليعيده بعد الموت، وفيها من النعم ما يعظم لأجله قبح الكفر بآيات الله، فالعينين يرى بهما ولا يعدل نفعهما ملك الأرض، واللسان ينطق به وفيه العجب العجاب لتعدد مخارج الحروف واختلاف أصواتها، وهداية الإنسان للنطق بها مرتبة على ترتيبها في وضع الكلمة بسرعة، وفي اللسان منفعة للأكل والشرب، والشفتين غطاء للفم لا يدخله ما يكره دخوله من غبار وشعر وذباب وغير ذلك، ويستعملان في النطق والأكل والشرب، وهداية الإنسان لمصالحه الدينية والدنيوية، فضل فيها على الأنعام والسباع والكل من هذه النعم حجة عليه من حيث هي نعمة لم يشكرها، ومن حيث هي آية لم يهتد بها.

وفي (تفسير محمد بن القاسم عليهم السلام): «فالنجد الظاهر العالي الذي لا يخفى، ولذلك ما قيل لما برز من الأرض نجد من الأنجاد دلالة على أنها ظاهرة بارزة من البلاد، وما ذكر الله سبحانه من هدايته للنجدين فهما - والله أعلم - الطريقان في مصالح الدنيا والدين» انتهى المراد باختصار.

﴿١١-١٥﴾ ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ في (مفردات الراغب): «والعقبة: طريق وعر في الجبل» انتهى.

وفيه: «الاقتحام توسط شدة مخيفة» انتهى، وهو تمثيل لما فسره به في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ * يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ﴾ (فك الرقبة): تخليصها من الرق، وهو يصدق على إعتاق العبد وإعتاق الأمة وتسليم ما به يعتقان من مال الكتابة الذي لا يخرجان من الرق إلا به، وهذا ثقيل على النفس من أجل شحها بالمال، واعتبار ذلك غرامة، وكذلك الإطعام في يوم ذي مجاعة، والسغب: الجوع وفي يوم الجوع يكون الطعام عزيزاً يشتد البخل به، وفائدة الإطعام فيه كبيرة للمطعِم والمطعَم.

﴿ذَا مَقۡرَبَةٍ﴾ أي يطعم يتيماً ذا قربى في النسب، فإطعامه صلة رحم عظيمة لعظم موقع الإطعام في المجاعة، ولكون ذي المقربة أحق ولا يختص هذا باليتيم الذي ليس [له] مال، ولكنه المحتاج إلى الإطعام ولو لتبقى له رقاب ماله، ولعله خص القريب لأن القريب قد يطمع في مال قريبه لمجاورته أو قربه من داره أو نحو ذلك، فكان إطعامه ليستغني عن بيع ماله فضيلة وقمعاً لشرَه النفس وفيه مشقة زائدة لتفويته الغرض النفسي.

(١٦) ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾ ﴿ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾ شديد الحاجة يتصل بالتراب لقلة كسوته وفراشه أو عدم ذلك، وأصل (المسكين) المحتاج إلى الطعام وغيره لشدة فقره، وقال الإمام الهادي عليه السلام في (الأحكام): بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ليس المسكين هذا الطواف عليكم ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان» قالوا: فمن المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس» انتهى.

وهو يشعر بأن المسكين هو في اللغة: شديد الفقر، فبين: أن شديد الفقر هذا الذي لا يفطن له أي حاله خفية لا تظهر بغير تأمل، ولولا هذا التفسير لانسد باب معرفة المسكين.

بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴿٢٠﴾

وليس المراد: أن السائل الذي لم يعط ليس مسكيناً، وإنما المراد: السائل الذي يعطى، ولذلك قال: «ترده اللقمة واللقمتان» أي فهو يعطى من هنا وهناك، والحديث خارج مخرج المجاز الذي تنفى فيه الحقيقة تجوزاً، كقول الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء

ولذلك قالوا: فمن المسكين ـ وهم عرب ـ أو هو مبني على أن الذي يسأل لابد أن يعطى لصلاح المجتمع يومئذ، فهو يخرج عن المسكنة بما يعطى لا بنفس السؤال، فظهر الردّ على الإنسان المفتخر بإنفاق المال، بأنه لم ينفق في الخير الذي يدل على كرم المعطي الذي يدل على رحمته للضعيف، ورغبته في الإحسان من حيث هو إحسان، إنما أنفق في لذاته وهوى نفسه وطلباً للسمعة وذلك غير محمود، إنما المحمود غيره ولو اقتحم العقبة لكان مفخرة له.

﴿١٧﴾ ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ هنا مشكلة الإتيان بـ(لا) في قوله: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ﴾ دون قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ لم يقل: (ولا كان) والحل: أن نقدر (الهمزة) في ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ﴾ أي: أفلا اقتحم، أي أن الفخر في اقتحام العقبة إن كان يريده، ونظيره في المعنى قول الشاعر:

تعدون عقر النيب أكبر مجدكم ... بني ضوطر لولا الكمي المقنعا

وقد ذكر تقدير (الهمزة) في كتاب (إعراب القرآن) للدرويش عن بعضهم وضعّفه، ولا وجه لتضعيفه إلا دعوى: أنه لا دليل عليه، وهي مردودة بأن السياق يرشد إليه؛ لأنه رد لافتخار الإنسان بغير حق.

والفرار من تقدير (الهمزة) يلجئ إلى وجه ضعيف، وقد بيّن ضعف تلك الوجوه في كتاب (إعراب القرآن) إلا وجهاً واحداً، وهو أن بعضهم زعم أن قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ دعاء عليه كقولك: لا نجا، وقولك: لا سلم، وأعجبه هذا لصحته في صناعة النحو ولكنه ضعيف من جهة المعنى؛ لأن اللّه يدعو الإنسان إلى فعل الخير، ويدعوه إلى الإيمان والخروج من الجاهلية، ولذلك أرسل الرسول وأنزل القرآن، فكيف يدعو على الإنسان أن لا يفعل الخير وهو يدعوه إلى الخير، مع أن الدعاء من اللّه تعالى لا يكون لأنه يفعل ما يشاء؛ ولا معنى لأن يدعو بمثل هذا، وإنما ورد في القرآن استعمال الدعاء الذي اعتادته العرب لا لقصد الدعاء، بل للدلالة على الغضب نحو: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [البروج:٤] ألا ترى أنهم قد ماتوا قبل نزول القرآن، وقوله تعالى: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة:٣٠] فهو واضح أن ليس المراد به الدعاء حقيقة بل ما ذكرت، وهو الدلالة على الغضب لأجل مقالتهم الشنيعة.

وعلى الجملة: فالقول بأن قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ﴾ دعاء عليه هو أضعف الأقوال من جهة المعنى، ولو كان المراد الدعاء عليه للدلالة على الغضب، لاستعمل الكلمات التي اعتادتها العرب لذلك، دون أن يدعوا عليهم أن لا يعتقوا نسمة، وهذا واضح فهو قرينة أن الكلام فيه تقدير يستقيم به التركيب والمعنى، ولم يبق إلا تقدير (الهمزة) وقد أثبتوه في ﴿لَا أُقْسِمُ﴾ وهو أقوى الوجوه فيها لما مر.

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ فيصلح عطفه عليه مع تقدير (الهمزة) بلا إشكال، فأما استعمال ﴿ثُمَّ﴾ فقيل فيه: أنه للترقي من درجة إلى أبعد منها، أي كقول الشاعر:

إن من ساد ثم ساد أبوه ... ثم قد ساد قبل ذلك جده

وأحسن منه قول اللّه تعالى: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الجاثية:٨] هذا ولا يبعد عندي أنه أتى بـ﴿ثُمَّ﴾ لأن الإنفاق الذي افتخروا به كان في الجاهلية، وأن المعنى: أفلا اقتحم العقبة مكان ذلك الذي افتخر به، وبدلاً منه كما مر في بيت عقر النيب، وهي من الإبل والكمي البطل، فصح الإتيان بـ(ثم) على معنى: ثم لما جاء الإسلام كان من الذين آمنوا فهو متأخر وقوعاً، وهم الجماعة الخيرة رسول اللّه ﷺ والذين معه، الذين وصفهم اللّه في آخر (سورة الفتح) ﴿ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ على البر والتقوى والصبر في البأساء والضراء وحين البأس وغير ذلك ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ فيما بينهم ورحمة اليتيم والضعيف.

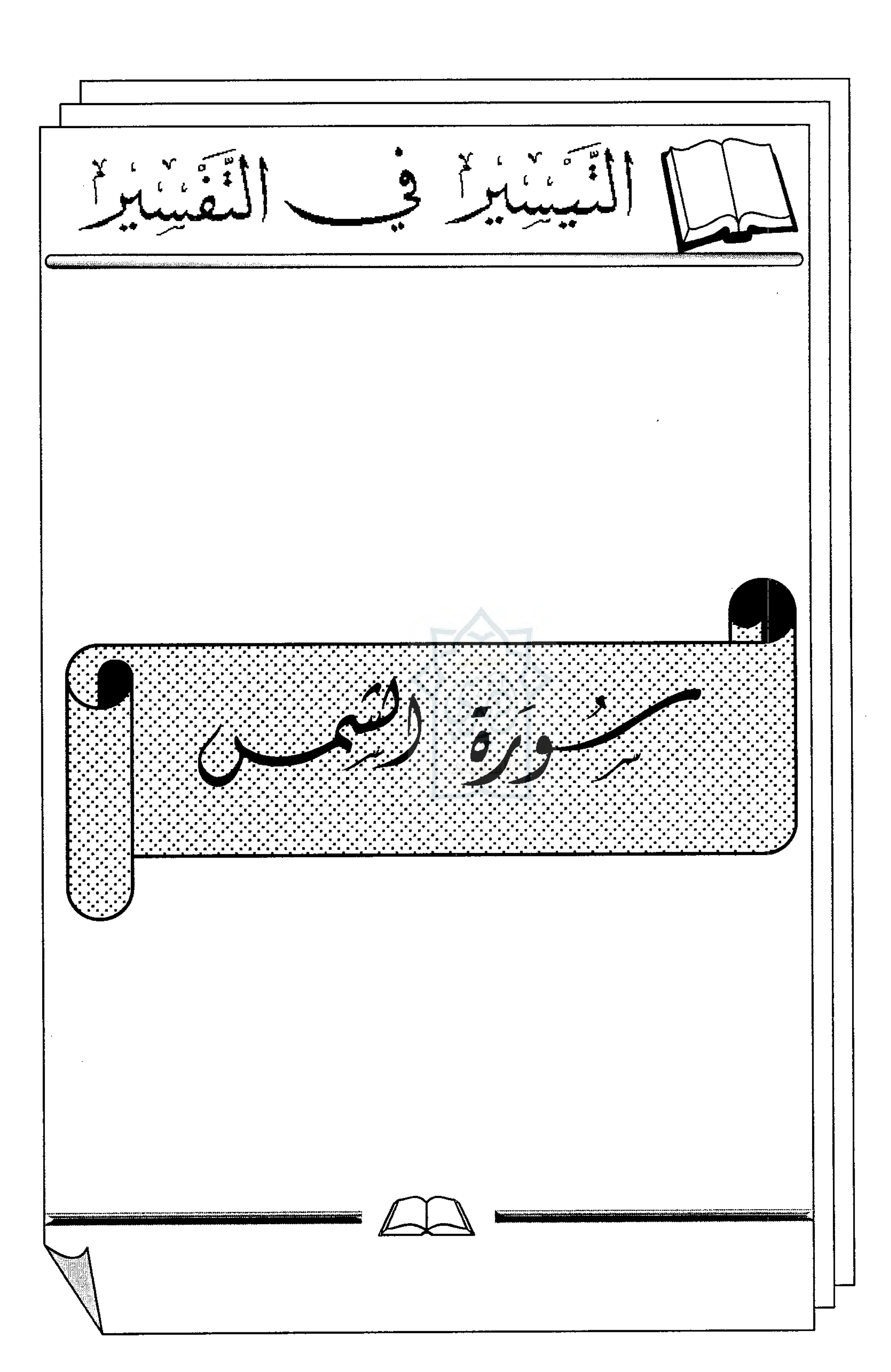
(١٨) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ في (تفسير محمد بن القاسم عليهما السلام): «والميمنة: فهي اليُمْن والبركة» انتهى.

(١٩) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ في (تفسير محمد بن القاسم عليهما السلام): «والمشأمة الشؤْم الذي صاروا به إلى الهلكة» انتهى المراد.

(٢٠) ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةُۢ﴾ أي توصد عليهم، أي تغلق عليهم؛ لأنها محيطة بهم و﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ [الحجر:٤٤] و(تفسير محمد بن القاسم عليهما السلام) يفيد: أن إيصادها إغلاقها وشدها أو شد أبوابها، ولعله يعني: شدها بالعمد الممددة أي شد أبوابها.







التيسير في التفسير
سورة الشمس



سُورَةُ الشَّمْسِ

آياتها ١٥ — ترتيبها ٩١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ

(١-٢) ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا * وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ هنا قسم بالشمس؛ لأنها من آيات اللّه العظمى في خلقها وتنقلها في منازلها وثباتها على حالها مع طول الزمان ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ ضوءها بعد ارتفاعها في السماء حين يخرج الناس لمعاشهم ويبدءون في أعمالهم، فهو آية في نفسه ولما جعل اللّه فيه من النعمة وإتيانه وذهابه كل يوم.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ إذا تلى الشمس جاء وراءها حين يطلع من المشرق عند غروبها متصلاً نوره بنورها، هكذا فسره الإمام القاسم عليه السلام، وذلك عند تمام القمر، فهو قريب من قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾.

ويحتمل: إذا تلاها في الغروب أول الشهر مستمر لا يتخلف، يتقاربان في رأي العين كأنهما في منزلة واحدة بعد افتراقهما في بقية الشهر، فيجتمعان ثم يجري القمر في منازل الصيف والشتاء منزلة منزلة، كل ليلة منزلة ويوافي منزلة الشمس عند أول الشهر الثاني، فهذا النظام العجيب آية تدل على مقدر لسيرهما مدبر لشأنهما بقدرته وعلمه.

(٣) ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ جلى الجهة من الأرض لأهلها ليتشروا لمعاشهم، وقد جاء عود الضمير إلى غير مذكور في القرآن، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ [طه:١٠٥-١٠٦] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥].

وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾

﴿٤﴾ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ يغشى الجهة هذه التي أنتم فيها لتسكنوا فيه والنهار يجلي الأرض ناحية بعد ناحية أي المسكون منها، والليل يغشى كذلك، وهذا لأن الضمير يعود إلى المعهودة المسكونة إضاءتها وإظلامها.

﴿٥-٧﴾ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا * وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ قسم بالسماء بعطفها على المقسم به في (تفسير الإمام القاسم عليه السلام): «﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ فهو وما هيأها من حكمة اللّه وتدبيره ورحمة اللّه وتقديره، قال عليه السلام: وتأويل ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ فهو والأرض وما دحاها، ودحو الشيء: هو بسطه وتمهيده ونشره وتمديده ـ قال عليه السلام ـ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ فهو الأنفس التي قد علمناها وهي التي إذا فارقت وزالت ماتت أجسادها» انتهى باختصار.

﴿٨﴾ ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ علمها الحسن والقبيح، فعرفت بذلك ﴿فُجُورَهَا﴾ إن علمته ﴿وَتَقْوَىٰهَا﴾ إن اجتنبت فجورها، وهذا التعريف من اللّه سبحانه بالعلم الذي جعله فيها علم ما هو حسن وما هو قبيح من أعمالها التي كلفت بالحسن منها واجتناب القبيح، والعلمان قسمان: بديهي في النفس: وهو مبادئ العلوم وهو يحصل للنفس بغير اكتساب، واكتسابي: وهو ما يحصل بالاستدلال وإلهامها آية.

أما البديهي: فهو من فعل اللّه، وأما الاكتسابي فالله تعالى هو الذي جعل النفس قادرة على اكتسابه وألهمها كيف تنظر، فكلاهما آية.

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾

﴿٩-١١﴾ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ هذا جواب القسم ﴿أَفْلَحَ﴾ فاز وظفر بالخير ﴿زَكَّىٰهَا﴾ أصلحها وطيبها بالإيمان والعمل الصالح والتقوى ﴿خَابَ﴾ خسر وفاته كل مطلب، دسى نفسه؛ قالوا: أصله من الدس، وفسروه: بإخفاء النفس بالفجور، كأنها نقصت وخملت، فكأنه دسها فأخذوا من الدس الإخفاء.

أما الإمام القاسم عليه السلام فقال: «وتأويل تدسيتها: فهو من تطغيتها» فمعناه على قوله: إدخال النفس في مضايق الجور والطغيان واعتباره ضيقاً باعتبار عاقبته في الدنيا والآخرة، وفي (لسان العرب): «دسى يدسي نقيض زكا» انتهى، وهذا أقرب من ناحية السياق والمقابلة، وحاول (صاحب الكشاف) إثبات المناسبة على التفسير الأول، فقال: «والتزكية: الإنماء والإعلاء بالتقوى، والتدسية: النقص والإخفاء بالفجور» انتهى، وهذا لمحاولة إرجاعه إلى معنى التدسية.

ثم ذكر تعالى قصة بعض من دسى نفسه فخاب وهلك، ليدل على أنه قد خاب من دساها، فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ كذبت بآيات الله بسبب طغواها وجرائمها التي اجترمتها بطغيانها، فتجرأت على التكذيب، وخذلت لذلك، حتى أصرت واستكبرت وتجرأت على سبب هلاكها الأخير.

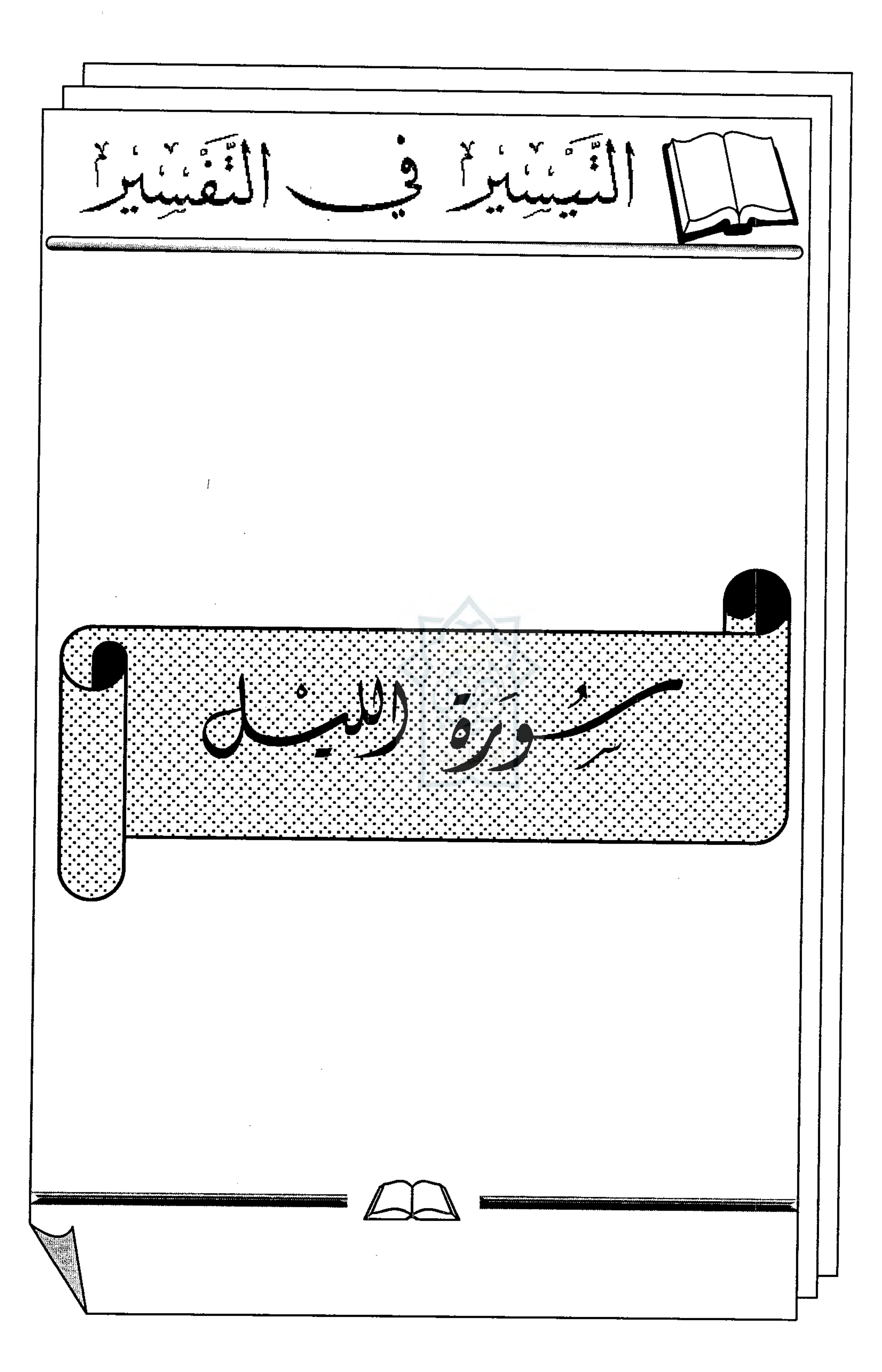
﴿١٢-١٤﴾ ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ في (تفسير الإمام القاسم عليه السلام): «وتأويله: إذ قام لشقوته وشؤمه» انتهى، والضمير لفريق من ثمود بدليل: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾

﴿فَقَالَ﴾ لأشقى ثمود: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ احذروا ناقة الله ﴿وَسُقْيَـٰهَا﴾ لا تمسوها بسوء ولا تمنعوها سقياها، أولا تذهبوا سقياها الذي هو آية أي لبنها ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في تحذيرهم ناقة الله وسقياها، واعتبروه غير محذور ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ عقروا الناقة أي قتلوها.

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ اختلفوا في تفسير (دمدم) فقيل: أرجف، وقيل: غضب، وقيل: أطلق عليهم العذاب، قال في (لسان العرب): «إلا أن أكثر المفسرين قالوا في (دمدم عليهم): أي أرجف الأرض بهم. قال أبو إسحاق: معنى (دمدم عليهم): أي أطبق عليهم العذاب، يقال: دمدمت على الشيء أي أطبقت عليه، وكذلك دممت عليه القبر وما أشبهه، ويقال للشيء يدفن: قد دمدمت عليه أي سويت عليه، وكذلك يقال: ناقة مدمومة قد ألبسها الشحم، فإذا كررت الإطباق. قلت: دمدمت عليه» انتهى.

وقوله: أي سويت عليه، صواب العبارة: أي أطبقت عليه، وأرجح الأقوال: أنه أطبق عليهم الخراب بالرجفة، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف:٧٨] وفي آية: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا..﴾ [هود:٦٧-٦٨] وقوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي فسوى ثمود كلها أدناها وأقصاها وكبيرها وصغيرها أي عمها بالعذاب والدمدمة، كقوله تعالى: ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال:٥٨].

(١٥) ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا﴾ عقبى هذه البطشة والدمدمة والتسوية، قال سيد قطب: «سبحانه وتعالى ومن ذا يخاف، وما ذا يخاف، وأنى يخاف، إنما يراد من هذا التعبير لازمه المفهوم منه، فالذي لا يخاف عاقبة ما يفعل يبلغ غاية البطش حين يبطش، وكذلك بطش الله ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج:١٢] فهو إيقاع يراد إيحاؤه وظله في النفوس» انتهى.


التيسير في التفسير
سورة الليل



سُورَةُ اللَّيْلِ

ترتيبها ٩٢ — آياتها ٢١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾

---

(١) ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ هذا قسم بآية من آيات الله هي ﴿اللَّيْلِ﴾ في أوله عند غشيانه ما ﴿يَغْشَىٰ﴾ من الأرض وما عليها أي يشتمل عليها ويغطيها.

(٢) ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ تبين وظهر واتضح بعد أن كان غائباً، فهاتان آيتان تدلان على مدبر لمجيء الليل واشتماله على المعمورة، والنهار كذلك وتجليه بعد غيابه في الليل.

(٣) ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ خالق ﴿الذَّكَرَ﴾ ذكراً ﴿وَالْأُنثَىٰ﴾ أنثى، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [القيامة:٣٩] ففي الزوجين آية ودليل على الله؛ لأن أصلهما المني، فلماذا كان أحدهما ذكراً والآخر أنثى، واستمر هذا على مر العصور لم يتخلف ولم تتخلف عوامل الذكورة والأنوثة عن هذه المزاوجة بينهما في كل عصر، إنهما لدليل على خالق زاوج بينهما ليستمر الحيوان المتوالد، ولو انقطع أحدهما لانقطع جنسهما، ولعله ـ والله أعلم ـ قدم القسم بالليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى؛ لكونهما آيتين عظيمتين تدلان دلالة سريعة على الآتي بهما، المدبر لهذا الكون وعظما بالقسم بهما لذلك، وعطف قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ لأنه جار مجرى الاستدلال عليه بهما، فمرجع القسمين واحد، وهو ذكر الدليل على الله، وتقديم الدليل على المدلول عليه في الذكر يصح لما فيه من حكمة توجيه الذهن إلى الدليل لينتقل عنه إلى المدلول عليه بيقين.

فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا

ألا ترى إلى قول قس بن ساعدة: «البعرة تدل على البعير، وآثار الأقدام تدل على المسير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، لا يدلان على اللطيف الخبير» ؟!! كيف قدم ذكر الدليل على المدلول، وكان ذلك مستحسناً في نظم الكلام.

فأما قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس:٧] فإنه حسن جميل، من حيث أن (الموصول) اسم مبهم صلته الدليل عليه إذا فُهِمَتْ فُهِمَ، فكان فهمه مترتباً على الدليل كما لو قدم الدليل.

﴿٤﴾ ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ إن عملكم لمتفرق متشتت حق وباطل.

﴿٥﴾ ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ ﴿أَعۡطَىٰ﴾ حيث شرع له الإنفاق ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ ربه بطاعته.

﴿٦﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ يحتمل: أن (الحسنى) هي اليسرى، أي الشريعة التي جاء بها محمد ﷺ؛ لأنه كان يدعو إليها، وكان المشركون مكذبين بها والمسلمون المصدقون بها قليل.

﴿٧﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ نهديه ونوفقه ﴿لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ التي آمن بها.

﴿٨-٩﴾ ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ ﴿بَخِلَ﴾ بماله عما يحق عليه ﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ عن التقوى ورأى أنه غير محتاج إليها لجهله بالجزاء، ﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ بالشريعة الحسنى والسبيل إلى ربه.

﴿١٠﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ للعاقبة العسرى، أو العقوبة العسرى، ونهيئه لها كقوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى﴾ [الأعلى:١١].

لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

﴿١١﴾ ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾ هوى في العذاب، والتردي: السقوط، وهو كناية عن الهلاك فما يغني عنه ماله شيئاً من العذاب، والحاصل: لا يدفع عنه ماله، وما أحسن التشبيه بالمتردي؛ لأن المتردي لا يدفع عنه ضرر التردي ولو كان من أكثر الناس مالاً، فلا بد أن يضره التردي على قدر أسباب الضرر.

﴿١٢﴾ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ علينا أن نهدي إلى قصد السبيل ببيانها للناس بالقرآن والرسول.

﴿١٣﴾ ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ فنفعل ما نشاء ونحكم ما نريد في الدنيا والآخرة، لذلك نرسل الرسل، وننزل الكتب، وندعو العباد إلى العبادة، وفي الآخرة نجزي كل نفس بما تسعى.

﴿١٤-١٦﴾ ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ * لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ تفريع على قوله تعالى: ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى * وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى**﴾ وتلظي النار: تلهبها وتسعرها وشدة توقدها، وهذه النار قد وصفت بوصفين الأول: ﴿تَلَظَّىٰ﴾ والثاني: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ فهي نار فيها زيادة على عذاب سائر الأشقياء، ولعلها طبقة من طبقات جهنم مخصصة للمكذبين المتولين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿**فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا..**﴾ الآية، فالشقي أعم من الأشقى.

﴿١٧-١٨﴾ ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ رسول الله ﷺ، أو هو والسابقون الأولون، ولم يخصوا بالذكر لإخراج سائر المتقين،

ولكن لعل السبب: أن هذه السورة نزلت والخصومة في الدين بين المكذبين والرسول ﷺ، أو بينهم وبين الرسول ﷺ والسابقين الأولين؛ لعدم غيرهم عند نزولها في أول البعثة ـ والله أعلم.

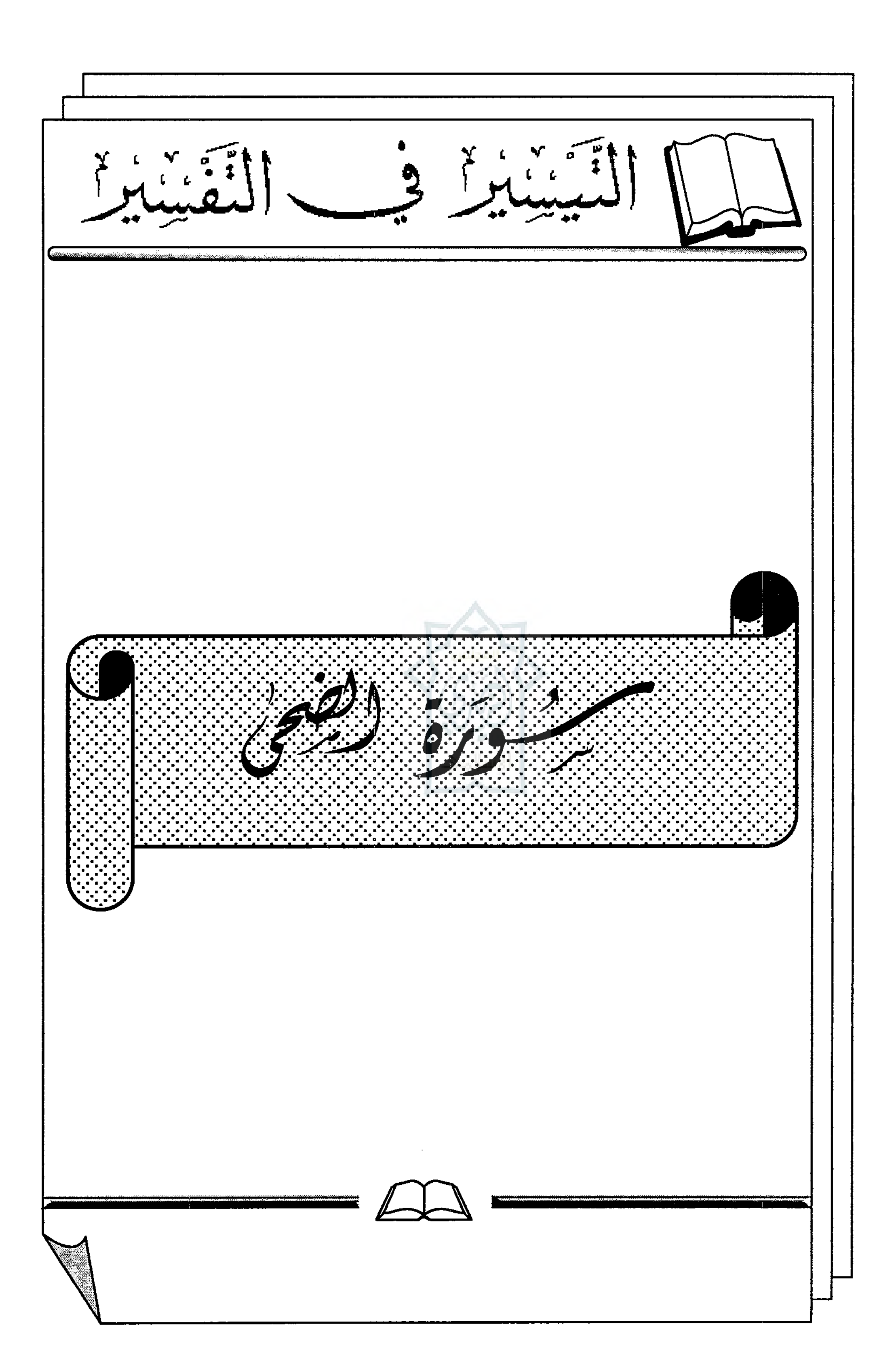
﴿ٱلَّذِى يُؤۡتِى مَالَهُۥ﴾ ينفقه في وجوه الخير ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ يزكي نفسه بالإنفاق يجعلها زاكية صالحة، وفيه دلالة على أن الإنفاق من أسباب صلاح المنفق، وهو قريب من قول الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنفُسِهِمْ..﴾ [البقرة:٢٦٥].

(١٩) ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٍ تُجۡزَىٰٓ﴾ لم ينعم عليه أحد ممن يعطيهم فيعطيهم مكافأة.

(٢٠) ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ لكن يؤتي ماله طلب وجه ربه، أي رضوانه ونظره إليه، فالوجه كناية عن النظر، والنظر كناية عن الرضوان؛ لأن الراضي عنك ينظر إليك، كما أن الساخط عليك يعرض عنك ولا ينظر إليك، وقد فسره الإمام القاسم عليه السلام: بالرضوان.

(٢١) ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ بما يعطيه الله في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى:٥].


التيسير في التفسير
سورة الضحى



سُورَةُ الضُّحَى

آياتها ١١ — ترتيبها ٩٣

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾

﴿١-٢﴾ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ ﴿ٱلضُّحَىٰ﴾ ضياء الشمس القوي حين ينبسط شعاعها على الأرض أول اليوم، وذلك وقت شروع الناس في أعمالهم لمعايشهم، فهذا الضحى نعمة ورحمة للناس يعملون فيه بنشاط إثر راحة الليل، وقبل الحر، ويلتذون في الشتاء بشعاع الشمس، فالذي جاء به رحمة لعباده ونعمة، كيف يقلي عبده المطيع له.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ استحكم ظلامه، وعم الهدوء بسببه، واستراح الناس من أعمالهم وبرقادهم، من أجل هذا الليل الذي جاء به ربهم نعمة لهم ورحمة، فينعم به وبنهاره على عباده البر منهم والفاجر، فكيف يقلي عبده المطيع له كما زعم الذين كفروا.

﴿٣﴾ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ ما تركك ترك المودع للرحيل الذي يطول غيابه ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ وما أبغض.

﴿٤﴾ ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ فما زال راضياً عنك معداً لك خير الآخرة العظيم، ولم يزو عنك الدنيا إلا لمصلحتك؛ لأن الدنيا خيرها قليل فان.

﴿٥﴾ ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ ﴿يُعۡطِيكَ﴾ الخير العظيم الذي يسرك ويرضيك.

﴿٦﴾ ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾ فلم يودعك وأنت صغير لم تبلغ حد التكليف، فكيف يودعك وأنت ساع في طاعته.

فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

﴿٧﴾ ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ هداك بعد أن لم تكن تدري ما الكتاب ولا الإيمان، وبعد جهلك بطرق الحق، فما قلاك في جهلك، بل هداك ولا ودعك بل علمك ما لم تكن تعلم.

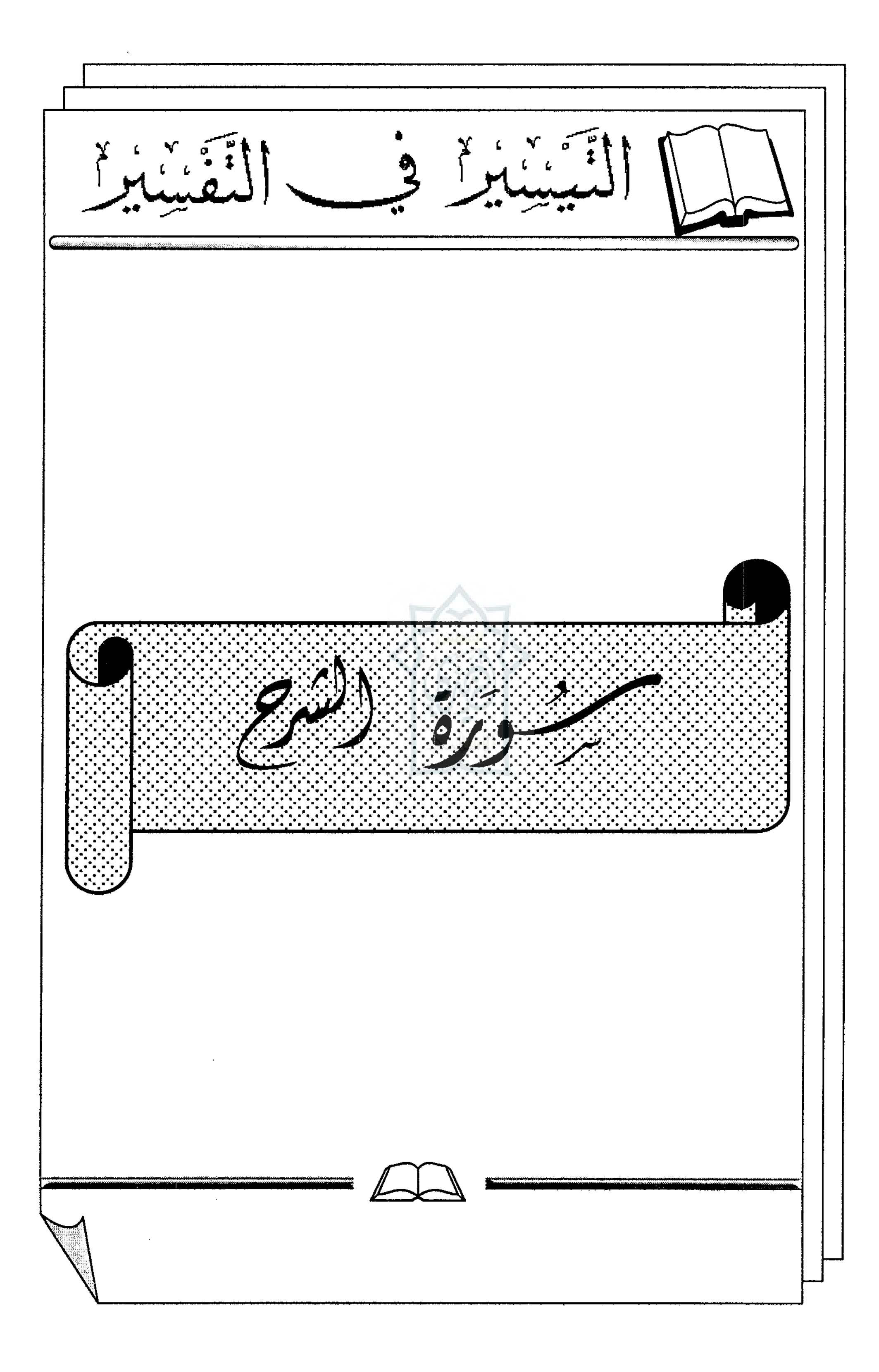
﴿٨﴾ ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ عائلاً مفتقراً فأغناك بالمال الكافي والقناعة، وكان تعالى يسر له الكسب فيما يروى بعمله في تجارة خديجة بنت خويلد رحمة الله عليها، فما ودعه في تلك الحال ولا قلاه، ولا في سائر أحواله ﷺ.

﴿٩﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ لا تغلبه لضعفه إما بأن تأخذ ماله أو شيئاً من حقوقه أو تستخدمه.

﴿١٠﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ والسائل يعم سائل المال وطالب العلم لا تنهر لا تزجره، بل أعطه، أو أحسن الرد بالرفق والاعتذار حيث لا يتيسر إعطاؤه.

﴿١١﴾ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ كلم الناس بما أنعم به ربك عليك، ومن ذلك النبوة، والرسالة، والقرآن، فما ودعك ولا قلى، بل أحسن رعايتك صغيراً وكبيراً، فاشكر نعمته بما ذكر.




التيسير في التفسير
سورة الشرح



سُورَةُ الشَّرح

ترتيبها ٩٤ — آياتها ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ نوسع صدرك ليتحمل مشاق تكاليف الرسالة والطاعة ولا يضيق عنها، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ﴾ [الأنعام:١٢٥] والسؤال لتقرير أن اللّه شرح له صدره لأنه يحس بذلك ويجده من نفسه.

﴿٢-٣﴾ ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ حططناه عنك، والوزر: الحمل، والمراد به هنا: الخطيئة، ووضعها: غفرانها، كما قال تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢].

وإنقاض الظهر: ضره بشدة ثقل حمله بحيث حصل له نقيض أي صوت انتقاض الظهر، وهو تمثيل لشدة الوزر على رسول اللّه ﷺ واستثقاله له وتألمه منه.

﴿٤﴾ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ في (تفسير الإمام القاسم عليه السلام): «وتأويل ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ فهو رفعه لذكره بما أبقى في الغابرين إلى فناء الدنيا من أمره وقدره، ومن ذلك النداء في كل صلاة باسمه، وما جعل به من الشرف لقومه فضلاً عما منّ به على ذريته وولده ومن شركه في الأقرب من نسبه..» إلخ.

(٥-٦) ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا * إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ فمع عسر تكاليف الرسالة والطاعة وقيادة الأمة مع قلة ذات اليد وغير ذلك، مع ذلك يسر من اللّه بتيسير العسير، كشرح الصدر، وخذلان الأعداء والنصر عليهم، وأما الآخرة فيسرها خالص ليس مع عسر.

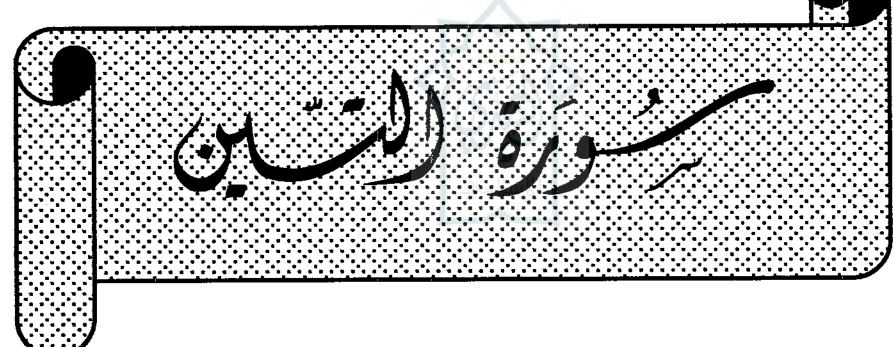
وناسب التأكيد هنا: أن اليسر قد يكون خفياً لا يشعر به الإنسان أو لا يدري بأي طريقة يكون، فعلى المكلف أن يقوم بتكاليفه ويرجو من اللّه تيسير العسير.

(٧) ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ﴾ والفراغ يكون بالخروج من الصلاة، ويكون بالخلو عن الناس ﴿فَٱنصَبۡ﴾ فجدّ واجتهد في ذكر اللّه وشكره.

(٨) ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ بالدعاء لله وطلب المعونة على ذكره وشكره وحسن عبادته، وبصرف المصائب والنصر على الأعداء، ورفع الدرجة في الآخرة وغير ذلك، واجعل رغبتك إليه وحده، وأصل الرغبة إليه طلب المرغوب فيه من اللّه بالقول، أعني الدعاء أو بالعمل الصالح، توسلاً إلى رضاه وفضله.

وفي (تفسير الإمام القاسم عليه السلام): «فذكر أنه لما أنزل على رسوله ما أنزل في هذه السورة من آياته فعبد رسول اللّه حتى عاد كالشّنّ البالي في عبادته شكراً لله وحمداً وتذللاً وتعبّداً» انتهى.


سورة التين





سُورَةُ التِّينِ

آياتها ٨ — ترتيبها ٩٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ ﴿ٱلتِّينِ﴾ هذه الفاكهة التي نسميها البلس وليس خاصاً بالنوع الكبير منه، قال في (القاموس): «التين ـ بالكسر ـ معروف ورطبه النضيج. أحمدُ الفاكهة وأكثرها غذاء وأقلها نفخاً..» إلخ.

وفي (تذكرة داود): «أصح الفاكهة غذاء إذا أكل على الخلاء ولم يتبع بشيء..» إلخ، وقد بسط فيه (صاحب كتاب الغذاء لا الدواء).

وبالجملة فهو آية كبرى ونعمة عظمى، وكذلك (الزيتون) وهو ثمر شجرة تصلح بالشام ويستخرج منه الزيت الذي يستعمل صبغاً للآكلين، ودهناً للأبدان والشعر وغير الأبدان.

وقد بالغ في مدحه (صاحب كتاب الغذاء لا الدواء) وقال فيه: «فهذا الزيت يمتاز عن غيره من الأدهان والزيوت بصفات كثيرة تعود على الإنسان بالصحة والعافية، فهو أسهل هضماً من جميع الزيوت الأخرى» وبسط فيه بما يدل على فضله وكثرة منافعه.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ هو (طور سيناء) وفي (تفسير الإمام القاسم عليه السلام): «فهو الجبل الذي كلم موسى عليه السلام منه رب العالمين» انتهى ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ وهو الحرم حرم الكعبة، فهو آية ونعمة؛ لأن اللّه جعل للكعبة احتراماً في قلوب الناس، فكان حرمها آمناً، وكان ذلك عوناً على حج البيت، وتواصل الناس لمنافعهم من التجارة وغيرها.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾

وفي طور سيناء والحرم وذكرهما تذكير بما أنزل اللّه فيهما من الهدى، وجعل فيهما من الرسالة، ليذكر أهل الجاهلية الرسالات من اللّه إلى الأولين، ويعلموا أن رسول اللّه إليهم ليس بدعاً من الرسل، وجواب القسم في هذه السورة:

﴿٤﴾ ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ وتقويمه: تعديله وإتقان تركيبه وصنع أعضائه، وكونه ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ لأنه مفضل على سائر الحيوانات بتركيب بدنه ونصبه، واستغنائه عن المشي على يديه، وصلاحهما للعمل الكثير النافع، ومفضل بعقله وما ترتب عليه من المنافع الدينية والدنيوية.

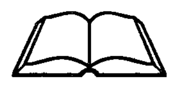
﴿٥﴾ ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ لأنه إن عمر أو لم يعمر يموت، فيصير جثة هامدة وجيفة، تأكله الدود وتأكل عظامه الأرض، وهكذا القرن بعد القرن يموت قرن ويحيى قرن، ثم يموت فيصير في ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ فلماذا هذا الإتقان للصنع؟ ولماذا هذا الرد إلى أسفل سافلين من دون تمييز بين من استعمل عقله وأصلح في حياته ومن أساء في حياته وأفسد فكلهم يصير أسفل سافلين؟ إنه لابد من البعث من القبور ومجازاة المحسن بإحسانه خيراً وجعله في حياة لا موت بعدها سعيداً مخلداً.

﴿٦﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ فلا يضرهم رد أجسادهم ﴿أَسۡفَلَ سَافِلِينَ﴾ لأنهم يعودون خلقاً جديداً، ويعودون إلى أجر كريم لا يمنّ عليهم، بل يقال لهم: هذا جزاءكم بما صبرتم.

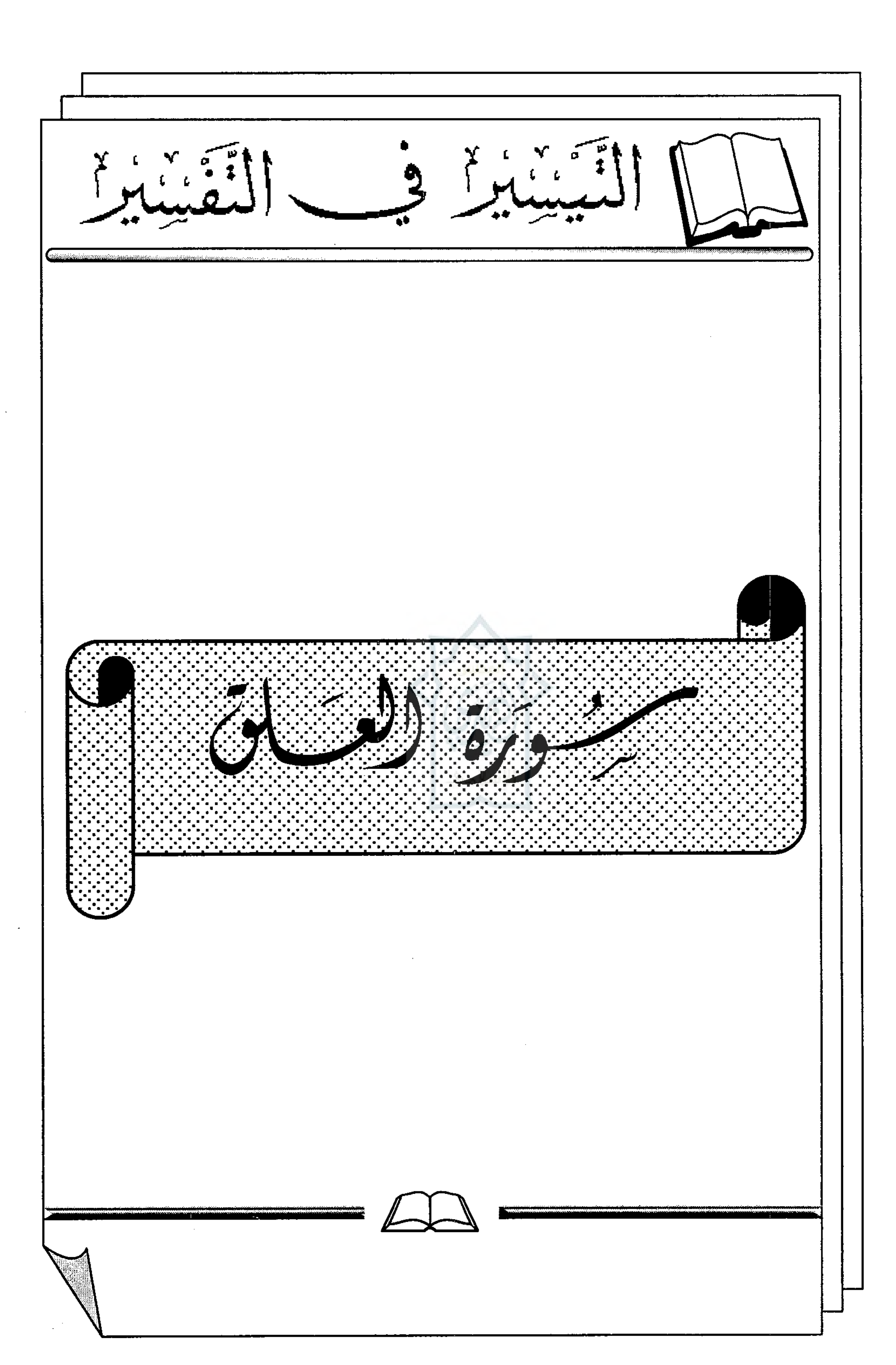
والاستثناء هنا منقطع من المردود ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ ويمكن أن يكون متصلاً على أن يكون المعنى: إلا الذين آمنوا فلا يردون أسفل سافلين؛ لأن أرواحهم تصير بعد خروجها من أجسادهم في سعادة، ولا يضرهم خراب أجسادهم لأن أرواحهم لا تزال في حياة وبشرى، فليسوا أسفل سافلين، فيكون الاستثناء متصلاً بناء على أن سعادة الأرواح من مبادئ الأجر الذي هو غير ممنون لأن الاستثناء مفسر بأن لهم ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أو فلهم أجر غير مقطوع لا ينتهي كما انتهت الحياة الدنيا، بل هو ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨] وهذا مناسب للسياق، ويمكن حمله على المعنيين لعدم التنافي ومناسبة السياق لهما معاً، وكون السورة وجيزة وهو من الإيجاز، وهذا على جواز حمل المشترك على معنييه حيث لا مرجح ولا مانع.

(٧) ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ أي بعد خلق الإنسان ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ورده ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فما يكذبك بعد ذلك بالدين أي بالجزاء، وقد بينا لك أنا لم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمسيء، فما الذي يجعلك مكذباً بالجزاء، وقد تبين أنه لابد منه في الحكمة.

(٨) ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ فكيف يصح منه أن يجعل الشاكر لنعمته كالكافر بها؟! ويجعل المسلمين كالمجرمين؟!سبحانه وتعالى عما يقول المكذبون بالدين.




التيسير في التفسير
سورة العلق



سُورَةُ العَلَق

مكية — آياتها ١٩ — ترتيبها ٩٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ

(١-٢) ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ أمر اللّه نبيه ﷺ في أوائل ما نزل من القرآن أن يقرأ باسمه تعالى، أي يقرأ قراءة ممزوجة باسمه، وفي لغة النحاة: متلبسة باسمه، مثل ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [المؤمنون:٢٠].

وقال في (الكشاف): «محل ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ النصب على الحال أي اقرأ مفتتحاً باسم ربك، قل: باسم اللّه ثم اقرأ» انتهى، ولعله يعني: أن (الباء) للاستعانة.

وفي (تفسير الإمام القاسم عليه السلام): «واسم ربه الذي أمِر أن يقرأ به، فهو: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ الذي قدم له في تعليمه كل سورة عند الإقراء والتعليم» انتهى، وهو الظاهر لما ذكره عليه السلام.

وحكى الشرفي في (المصابيح) قبيل تفسير (الفاتحة) من كلام الإمام القاسم عليه السلام: «إن أول ما نزل سورة الفاتحة».

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ دلالة بأنه خلق مطلقاً، ثم أكد الدلالة بخلق الإنسان، فقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ والعلق: دم أحمر مؤتلق يتلألأ لشدة حمرته ويبرق، كما فسره الإمام القاسم عليه السلام، وفي تفسير (الغريب) للإمام زيد بن علي عليهما السلام: «معناه: من دم» انتهى، وفي (مفردات الراغب): «والعلق: الدم الجامد، ومنه العلقة التي يكون منها الولد» انتهى، وفي (لسان العرب): «العلق: الدم ما كان، وقيل: هو الدم الجامد الغليظ، وقيل: الجامد قبل أن ييبس، وقيل: هو ما اشتدت حمرته» انتهى.

﴿٣-٤﴾ ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ ﴿ٱقْرَأْ﴾ الأمر بالقراءة في الموضعين مطلق وكرر لما اتصل به أول مرة من قوله تعالى: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وما اتصل به في المرة الثانية من قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ والمراد: أن يقرأ ما علمه اللّه قراءته وأمر بالقراءة؛ ليقرأ ما قد نزل إن كانت الفاتحة قد نزلت، ويقرأ هذه السورة التي أمر بالقراءة فيها، ويقرأ ما سينزل عليه، وهذا الإطلاق الأمر بالقراءة مع كونه ﷺ متوقعاً لنزول ما سينزل وهو في أول نزول القرآن، فالمراد توجيهه للقراءة وأن يستعد لها.

ويظهر هذا المعنى لو فسّرنا اقرأ باسم ربك أي اقرأ حاكياً عن ربك فتقول حين تقرأ: بسم الله، أي هذا الذي أقرؤه كلام اللّه أحكيه عنه كما تقول: اشتر السلعة باسمي أي مضيفاً لها إلي وهذا قريب، وقد رجحته في تفسير (الفاتحة).

﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ (الواو) للحال، والمعنى تشجيعه على القراءة بأن ربه الأكرم وهذا لأن القراءة قراءة القرآن وهي بين الجاهلين المشركين أمر ثقيل يحتاج إلى التوكل على اللّه والثقة بمعونته ونصره، إن هذه القراءة تبليغ رسالة وجهاد بالحجة ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢].

وكذلك إن هذه القراءة في الأميين يستبعد تقبلها وحفظها من السامعين الجاهلين الذين كانت أذهانهم بعيدة عن معاني هذا القرآن إنما نشأت على أمور الجاهلية والاشتغال بأغراض الدنيا، فاقرأ راجياً كرم اللّه، وإظهار دينه، ونشر العلم به في الأرض بواسطة القلم، وتخصيص التعليم بـ(القلم) بالذكر هنا مع كون الرسول ﷺ أمياً لا يقرأ كتاباً ولا يخطه بيمينه، ومع أن

ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ﴿٩﴾ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوۡ أَمَرَ

اللّه علم بأسباب العلم كلها من الفؤاد والسمع والبصر، إشارة إلى أن هذا القرآن سينتشر في الأرض بواسطة القلم، كما أن القلم انتشر به العلم في الأولين، ولله الحمد لقد انتشر القرآن النعمة العظمى في العالم، وصارت المصاحف تطبع في العالم بكثرة، وصار القرآن يقرأ حتى في بعض إذاعات الكفار فضلاً عن إذاعات المسلمين.

﴿٥﴾ ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ من المعلومات المختلفة الكثيرة فهو يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً، ثم يعلمه اللّه العلوم الكثيرة الدنيوية التي ينتفع بها في معاشه، والدينية بواسطة الرسل والكتب وهداية العقول للنظر في آيات الكون، فكما علمه ما لم يعلم، وذلك بكرم اللّه وتكريمه للإنسان، فكذلك ينشر العلم في أمتك بواسطة ما تقرأ، نعمة منه تعالى ورحمة للعالمين، وكرماً وفضلاً على هذا الإنسان الذي خلقه من علق، ثم طور خلقه وأكمل قوته وسمعه وبصره وعقله، ثم طور إعداده للكمال والسعادة الدائمة، بهذا القرآن العظيم والرسول الكريم، فهل شكر النعمة.

﴿٦-٧﴾ ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ زجر وردع عن توهم أن الإنسان يشكر نعمة اللّه لأن الإنسان ظلوم كفار إنه ﴿لَيَطۡغَىٰٓ﴾ يتجاوز الحد في العصيان، بسبب أن رأى أنه غير محتاج إلى الطاعة وشكر النعمة والإيمان بالرسول؛ لظنه أن المال هو كل شيء ولا حاجة إلى الدين في ظنه، وذلك لجهله بالله واليوم الآخر، وأيضاً إنه يتصور بسبب ثروته أن حاله لن تتبدل، كما حكى اللّه تعالى قوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ﴾ [فصلت:٥٠] لأنه يتخيل أنه محبوب عند اللّه، أو أنه صاحب حظ جيد لا يفارقه.

بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

﴿٨﴾ ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أيها الإنسان ﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ في الآخرة، فأنت محتاج إلى تقواه غير مستغن عنه.

﴿٩-١٢﴾ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ * أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ * أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ لربه وعبد خالقه، أيترك هذا الناهي المعتدي وشأنه دون أن يجزى بعدوانه الشنيع، الذي يعلم هو أنه عدوان وأن عبادة اللّه حق، إنما يزعم أن عبادة شركائهم حق مع اعترافهم لله بالربوبية واستحقاقه العبادة.

﴿أَرَءَيْتَ﴾ أيها الناهي ﴿إِن كَانَ﴾ هذا العبد المصلي ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ * أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ وأنت تنهاه عن الهدى وتدعوه إلى الفجور، فكر في هذا فإنك اعتديت وما فكرت، والتقوى: تقوى اللّه باجتناب الشرك، واجتناب الفجور كله، والتوبة إلى اللّه مما سلف من ذلك، فهو أمر بخير ولم يدع إلى باطل.

﴿١٣﴾ ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ ﴿كَذَّبَ﴾ بآيات اللّه، كذب بالقرآن، وكذب الرسول، وكذب باليوم الآخر ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ عن أمر ربه، عن استماع القرآن والتفكير في دلالته على الحق، وقوله: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ الأولى التفات إلى الناهي، وهذه الثانية التفات إلى رسول اللّه ﷺ.

﴿١٤﴾ ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ ما يصنع من التكذيب، والتولي، والنهي عن الصلاة.. وغير ذلك من جرائم هذا المكذب، لا يخفى على اللّه منه شيء، فكيف لا يخشاه.

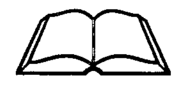
(١٥) ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ ﴿كَلَّا﴾ زجر لهذا المكذب المعتدي المتولي ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ عن ذلك ﴿لَنَسْفَعًا﴾ لنأخذن أخذاً شديداً عنيفاً ﴿بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ والناصية: مقدم الرأس، والمراد: ناصية هذا المكذب.

(١٦) ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي صاحبها، وأسند إليها لأنها من مميزات هذا المكذب المتولي المعتدي، فكأنها عنوان كذب وخطأ.

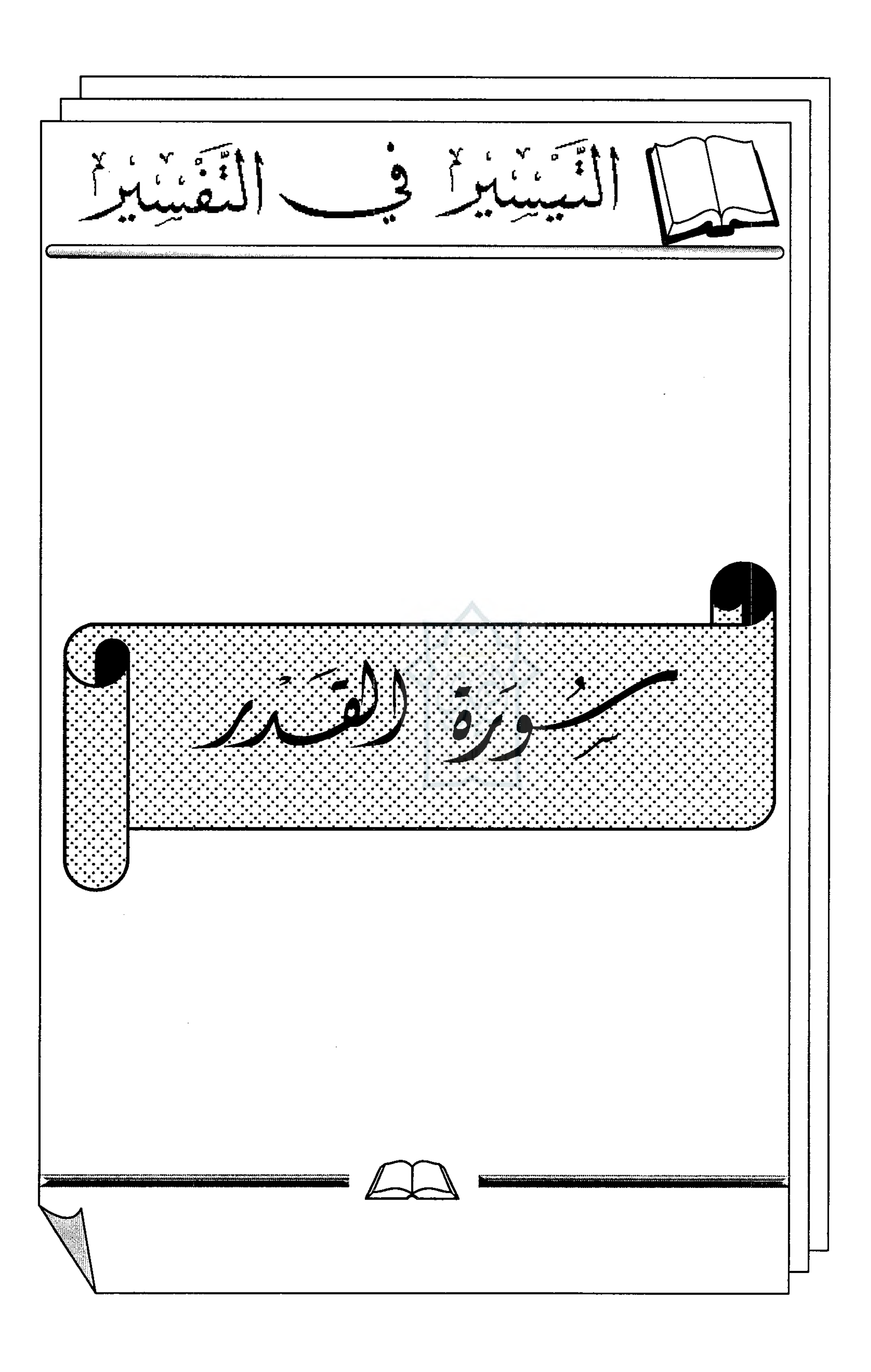
(١٧) ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ ﴿نَادِيَهُۥ﴾ الذين يجتمعون حوله من عشيرته وأصحابه، يوم نأخذه ﴿بِالنَّاصِيَةِ﴾ عند الأمر به إلى النار، فلن ينصروه، ولن يغنوا عنه شيئاً.

(١٨) ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ سندعوهم لأخذه وتعذيبه، في (تفسير الإمام القاسم عليه السلام): «والزبانية: فهم الملائكة المطهرة الزاكية، تأخذ بالشدة كل نفس عاتية متمردة، كما قال سبحانه: ﴿عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

(١٩) ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ يا محمد في نهيه عن الصلاة وعن الأمر بالتقوى ﴿وَٱسْجُدْ﴾ لله في صلاتك، أي صل لله فالأمر بالسجود كناية عن الأمر بالصلاة ﴿وَٱقْتَرِب﴾ إلى ربك بما يرضيه من الطاعة والعبادة، من تبليغ الرسالة، والصبر على ما تلاقي فيها من الأذى والعناء، وسائر ما يقربك من ربك.




التيسير في التفسير
سورة القدر



سُورَةُ القَدْرِ

آياتها ٥ — ترتيبها ٩٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ يقول اللّه ـ جلّ جلاله ـ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي أنزلنا القرآن ﴿فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ قال (صاحب الكشاف): «عظم القرآن من ثلاثة أوجه، أحدها: أن أسند إنزاله إليه وجعله مختصاً به دون غيره، والثاني: أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه، والثالث: الرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه» انتهى.

قلت: وفي الوجه الأول زيادة الإسناد إلى عظمته وجلاله حيث قال: ﴿إِنَّآ﴾ ولم يقل: (إني أنزلت) فأفاد: أنه من مقتضى عظمته وجلاله مثلاً لكرمه وفضله ورحمته وعدله وحكمته وعلمه وقدرته، وفيه زيادة التأكيد بـ(إن) في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ﴾ فهو تأكيد لمضمون الجملة، وما تدل عليه من عظم شأن القرآن.

و﴿لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ من ليالي شهر رمضان، بدليل قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة:١٨٥] وقد عظم اللّه شأنها بهذه السورة.

﴿٢﴾ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ هذا تعظيم لها، كما قال تعالى في تعظيم القيامة: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة:٣] وفي (تفسير الإمام القاسم عليه السلام): «وتأويل ﴿مَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فهو: ما يدريك لولا ما نزلنا من البيان فيها عليك

﴿مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ في القدر والكبر، وما يضاعف فيها لعامله من الأجر والبر» انتهى، فأثبت تعظيمها، وزاد جعل الإخبار بها من دلائل النبوة.

(٣) ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ في (تفسير الإمام القاسم عليه السلام): «فهي ليلة خير من ألف شهر جعلت لبركتها ويمنها في التضعيف لها وبالأضعاف، كعشرة آلاف ليلة وعشرة آلاف ليلة وعشرة آلاف ليلة، فذلك ثلاثون ألف ليلة ونحوها تامة جعلت مقداراً مضاعفاً لليلة القدر، تشريفاً لها وكرامة، وهي ليلة مقدسة يضاعف فيها كل بر وعمل صالح لمن عمل به فيها من أهلها، فيزاد على تضعيفه من قبل ثلاثين ألف ضعف لقدرها وفضلها، ونحمد الله في ذلك وغيره رب العالمين على ما أنعم به من ذلك خير المنعمين» انتهى.

قال في (الكشاف): «ومعنى ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ ليلة تقدير الأمور وقضائها» انتهى، وهذا مناسب لقول الله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٤] قال في تفسير (الغريب) للإمام زيد بن علي عليهما السلام: «معناه: يقضى ويدبر في الليلة المباركة، وهي ليلة القدر يقضى فيها أمر السنة من الأرزاق وغير ذلك إلى مثلها» انتهى.

(٤) ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ تتنزل في ليلة القدر الملائكة وجبريل وهو من الملائكة عليهم السلام، وذلك لبركة ليلة القدر وما ينزلون به بإذن ربهم، أي يتنزلون بإذن ربهم ينزلون إلى الأرض من كل أمر، هنا قال تعالى: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ وفي (سورة الدخان): ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٤] فيمكن ـ والله أعلم ـ أن أمور السنة المقبلة تقضى فيها وتفصل في كتاب في السماء تقرؤه الملائكة عليهم السلام، وتنزل الأرض تهيئها له

وتعدها بما تنزل به من أسباب ومعان تخفى علينا، وتؤدي ما يكون بطريق التسبيب أو التهيئة، فكأن الأمور التي ستكون في الأرض مصدرها السماء، ونزل منه في ليلة القدر ما نزل، فكان ابتداء نزول الملائكة من مصادر الأمور الحكيمة التي في السماء ـ والله أعلم.

لكن يلزم على هذا: أن تكون نزلت منها لا أنها أنزلت منها، فمن أين دلت الآية على ما قلنا؟

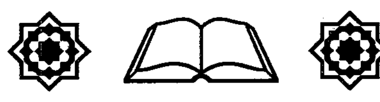
فالأقرب ـ والله أعلم ـ أن المعنى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ أي في ليلة القدر؛ لأنه تفسير لها فلم يلزم ذكر ضميرها، وقوله تعالى: ﴿وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ أي في الملائكة، ومعنى الروح: الخير والحياة والبركة الأمر الحكيم في الملائكة، كقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل:٢] وبهذا لا يبقى إشكال في معنى ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أنها للتبعيض، وهذا أحسن عندي من جعل ﴿مِّن﴾ للتسبيب، أي بسبب كل أمر؛ لأنه ليس محل (من) التي للتعليل؛ لأنك لا تقول: جئت من الصلاة أي لأجل الصلاة، وإنما تستعمل في الدوافع النفسية، مثل: جئت من الخوف، أو فررت من السبع، أو جئت من الجوع.. من العطش.. من الحر.. من البرد، تعبت من العمل ..غضبت من الباطل، فما ذكرته أخيراً هو أرجح، وهو من تفسير القرآن بالقرآن.

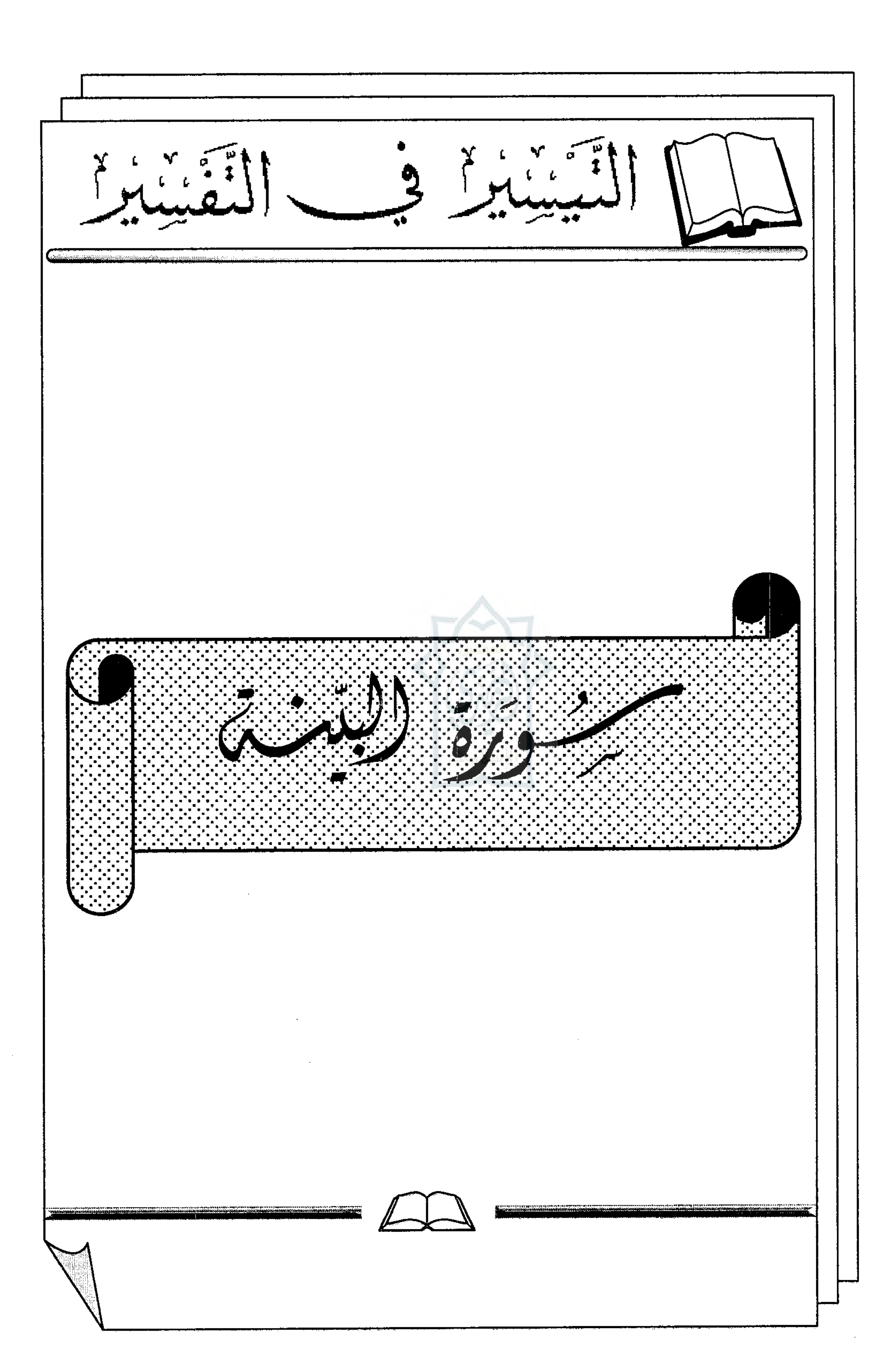
فالمعنى: أن الروح في الملائكة بإذن ربهم الذي جعله فيهم بحكمته فهي تتنزل في ليلة القدر، في حال كون الروح من كل أمر فيها بإذن ربهم ـ والله أعلم ـ والروح من كل أمر: هو خيره، وهو ما اقتضته الحكمة وأحكمه اللّه، فالروح من كل أمر هو الحكيم من كل أمر.

۝ ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ أي (ليلة القدر) ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي سالمة مسلمة، قال الإمام القاسم عليه السلام: «وتأويل ﴿سَلَٰمٌ﴾ فهي سلامة حتى طلوع الفجر، فليلة القدر سالمة مسلمة، ليس فيها عذاب من الله تبارك وتعالى ولا نقمة، جعلها الله بفضله بركة وسلامة ورحمة للعباد إلى الفجر دائمة».

﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ حتى وقت طلوع الفجر، أو حتى طلوع الفجر، فأفاد أن (ليلة القدر) كلها سلام، لا ينقص منها شيء؛ لأن طلوع الفجر نهاية الليل.







التيسير في التفسير
سورة البينة



سورة البينة

آياتها ٨ — ترتيبها ٩٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بأنعم الله وكفروا بأنواع كفر الجحود المذكورة في القرآن، كقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران:١٨١] وقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤] واتخاذهم ﴿أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وقولهم في عزير وعيسى عليه السلام: أنهما ابنا الله، لم يكونوا هم وعباد الأصنام ﴿مُنفَكِّينَ﴾ عما هم عليه من الباطل ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ من جديد، فكانوا محتاجين إليها لهدايتهم، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ولو لم تأتهم لاستمروا على أباطيلهم الكثيرة المتنوعة وتوارثتها القرون.

﴿٢﴾ ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ هذا تفسير ﴿الْبَيِّنَةُ﴾ المذكورة إما على معنى الهداية البينة، وإما على معنى الحجة البينة، فرسول بدل اشتمال؛ لاشتماله على الهداية والحجة التي هي تلاوة صحف مطهرة، واتباعها، ومعنى ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ بريئة من كل عيب؛ لأنها حق لا باطل فيه، وصدق لا كذب فيه، وهدى لا ضلال فيه، ونصح لا غش فيه، فهي حق واضح جلي يدعو من أراد الحق إلى اتباعه، وترك ما كان عليه من الباطل، وبذلك يختلف حال الذين كفروا عما كانوا عليه مجمعين بمجيء الإسلام وخروج الناس من الظلمات إلى النور وظهور الدين، فانفكوا به عما كانوا لولاه لا ينفكون عليه.

تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ

﴿٣﴾ ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي في الصحف ﴿كُتُبٌ﴾ وهي الكلام المكتوب، ﴿قَيِّمَةٌ﴾ لاعوج فيها، وهي آيات القرآن الحكيم الذي أنزل وكتب ليبقى وتتوارثه الأجيال، فحاصل المعنى: يتلو آيات نزلت باسم كتب من حين أنزلت، ولذلك قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:٢] فإسناد التلاوة إلى الصحف لهذا المعنى، وأسندت التلاوة إلى الصحف لتوصف بالطهارة تكريماً لها، مبالغة في تكريم الكتب، والأصل: يتلو ما في صحف مطهرة، وهو المجاز اللفظي مثل: سال الوادي.

﴿٤﴾ ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ لم يتفرقوا لا اليهود ولا النصارى ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ﴾ دلالة الحق ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ التي لا تخفى على طالب الحق، فما تفرقوا لخفاء الحق، ولكن تفرقوا بغياً بينهم لأغراض سياسية، أو أهواء نفسية، قادت إلى بغي بعضهم على بعض، وتفرقهم: أنهم كانوا فرقاً متباينة متعادية مختلفة.

﴿٥﴾ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ وكان من أسباب تفرقهم: أنهم أدخلوا في دينهم ما لم يؤمروا به بل هو مخالف له، كالغلو في عيسى وعزير الذي خرجوا به من الإخلاص لله، وكذلك التشبيه لله الذي جعل أهله يعبدون غير الله، ومعنى ﴿حُنَفَآءَ﴾ كما أفاده الإمام القاسم عليه السلام: «مطيعين لله مستقيمين خاشعين ـ وزاد في موضع آخر في تفسير الحنيف ـ المحب».

جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ

وهذا أحسن من تفسير (الحنيف): بالمائل؛ لأنه لو كان بمعنى (المائل) لما استعمل إلا بقيد يحسنه؛ لأن المطلق مذموم، قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧] ولو أريد به الميل عن الباطل لكان ضعفاً في التعبير، كما لو قيل: كفار أي بالطاغوت.

﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أي ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الذي أمروا به ﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ والقيمة: المستقيمة، وهي الطريقة التي لا عوج فيها مثل ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦].

۝٦ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ منهم: بقوا على ضلالهم وأصروا على كفرهم ولم يخرجوا منه حين أتتهم البينة التي هي القرآن يتلوه الرسول، بل أصروا على أباطيلهم فتوعدهم الله وأخبر خبراً صادقاً أنهم في الآخرة: ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ﴾.

قال الإمام القاسم عليه السلام: «وتأويل ﴿خَـٰلِدِينَ﴾ فهو أنهم غير فانين ولا بائدين، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ..﴾ [فاطر:٣٦].. إلخ».

ثم بين تعالى: أنهم ﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ والبرية: الخليقة التي خالف بينها خالقها في صفاتها بحيث يتميز بعضها عن بعض، أي شر المخلوقات.

۝٧ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ الذين صدقوا وقبلوا وبعثهم ذلك على التقوى والعمل الصالح كما دل عليه

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾

القرآن في سور متعددة، ولذلك قال القاسم والناصر: «المؤمن: الذي يؤمن نفسه من عذاب الله» وقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يؤكد ذلك؛ لأن العمل لا يصلح إلا مع التقوى؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] فالمعاصي كالآفة التي تصيب الزرع فتمنع من صلاحه، ولهذا كان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ لصلاحهم وطهارتهم، وشرفهم بالعقل والإيمان والعمل الصالح.

﴿٨﴾ ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ على الإيمان والعمل الصالح ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ عنده حال كونهم عنده، كقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٥] أو حال كون الجزاء عند ربهم أي معداً لهم، وإذا كان المعنى المراد هو الأول، فعلى معنى التقريب والكرامة والرضوان، لا الحلول في المكان؛ لأن الله سبحانه لا تحويه الأمكنة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

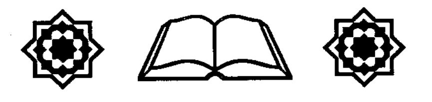
﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ قال الإمام القاسم عليه السلام في تفسير ﴿عَدْنٍ﴾ هو: «مستقر وأمن» انتهى، وفي (مفردات الراغب): «﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي استقرار وثبات» انتهى، والمعنى واحد؛ لأن الخوف ينافي الاستقرار والمراد بالاستقرار: المدح للجنة، فالمراد: نفي ما ينافي الاستقرار في مجرى العادة، فالخوف في المحل يبعث على الانتقال منه كما يبعث عليه الجوع فيه والفقر الشديد والجدب في حق أهل الأنعام.. ونحو ذلك، فوصفه بالاستقرار يشير إلى سلامته من دواعي مغادرته.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ لا يموتون بعد مصيرهم فيها، بـل هـم بـاقون أبـداً، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِـنْ قَبْلِـكَ الْخُلْـدَ أَفَـإِنْ مِـتَّ فَهُـمُ الْخَالِـدُونَ﴾ [الأنبياء:٣٤] ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥] وفي (معلقة طرفة):

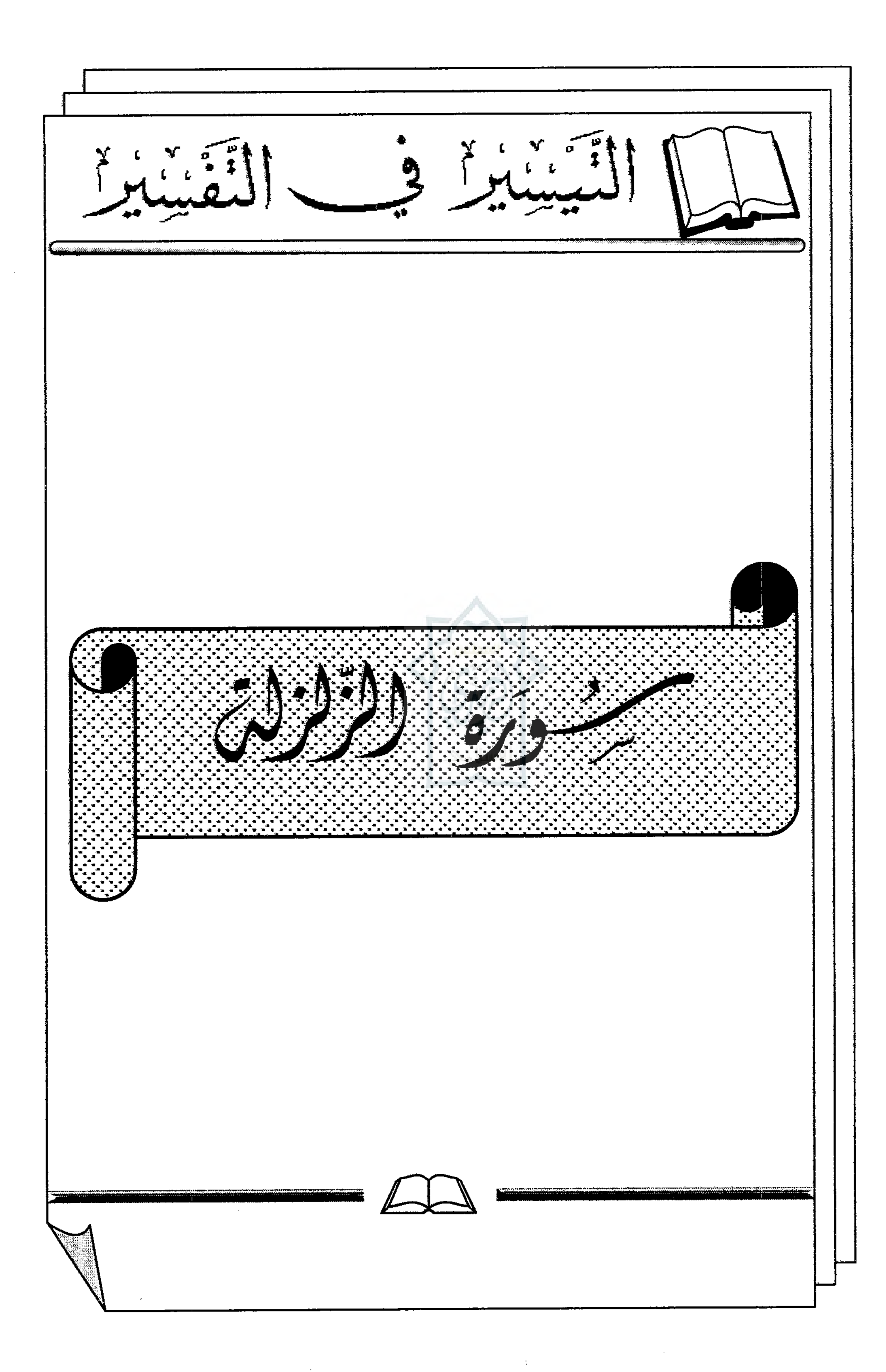
ألا أيهذا الزاجري احضـر الـوغى   وإن أشهد اللذات هل أنـت مخلـدي
فـإن كنـت لا تسـطيع دفـع منـيتي   فـدعني أبادرهـا بمـا ملكـت يـدي

وقوله تعالى: ﴿أَبَدًا﴾ بيان لبقائهم بلا نهاية لبقائهم فيها، فلا يموتـون ولا يخرجون ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ فهم سـعداء في ظـل رضـوان ملـك الملوك، ينعمون بما يصل إليهم من الكرامة والتقريـب ﴿فَـلاَ تَعْلَـمُ نَفْـسٌ مَـا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧] والمراد بإثبـات الرضـوان إثبـات غاياتـه كالرحمة لأن السياق لبيان جزائهم.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ قـال الإمـام القاسـم عليه السلام: «يعـني مـن خافـه واتقاه» انتهى، وهذا يوضح ما قلناه في تفسير الإيمان والعمل الصالح.






التيسير في التفسير
سورة الزلزلة



سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

ترتيبها ٩٩ — آياتها ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ زلزلة الأرض: أن تجعل مضطربة متزعزعة وذلك عند دكها، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر:٢١] وزلزالها المضاف إليها لتعظيمه، هو الزلزال الذي من شأنها أن يقع بها إما لضخامتها، وعموم الزلزال لها كلها وشدته.

فمعناه: الزلزال الذي يعظم هوله لما يكون من قوة الاضطراب وسرعة الحركة وارتفاع صوتها كما جرب عند الرجفات الحادثة لبعض أجزائها، وإما لذِلَّتها لربها، وخضوعها لأمره، واستسلامها لقضائه.

﴿٢﴾ ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أخرجت إلى المحشر من كان فيها من أهلها.

﴿٣﴾ ﴿وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا﴾ اختلف شأنها وصارت تخرج أهلها الذين كانت مستقراً لهم ومتاعاً، فأنكر شأنها وقال: ﴿مَا لَهَا﴾

﴿٤-٥﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ تحدث الأرض أحاديثها وتخبر أخبارها فينكشف للإنسان مالها، فقوله تعالى: ﴿أَخْبَارَهَا﴾ قائم مقام (المفعول المطلق).

وأخبارها: جمع خبر، والذي يفهم من (أخبارها) بواسطة السياق: أنها تحدث بأن قد آن حشر الناس منها وتخليها عنهم.

وفي (تفسير الإمام القاسم عليه السلام): «تحدث بأن الله أوحى لها بفنائها وانقطاع مدتها وأجلها» انتهى بالمعنى، وهو يؤخذ من قول الله تعالى:

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [إبراهيم:٤٨] فتحدث أخبارها كلها ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ﴾ بسبب أن ربك ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ بذلك، ومعنى ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ إما أوحى إليها بما تحدث به أو أمرها بأن تحدث، وإما أوحى لها بالزلزلة وما يعقبها، أي أوحى إلى الملك الذي يحملها هي والجبال ويدكهما، فبذلك أوحى لها بالزلزال كما تقول أمر له بكذا ـ والله أعلم.

﴿٦﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ الصدر: العودة، وأشتاتاً: متفرقين بين شقي وسعيد ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة:١٦٧] فالسعيد يرى عمله مرضياً له، والشقي يراه حسرة، وذلك حين تجزى كل نفس بما تسعى، فهذه كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق:٩] وقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ [يونس:٣٠].

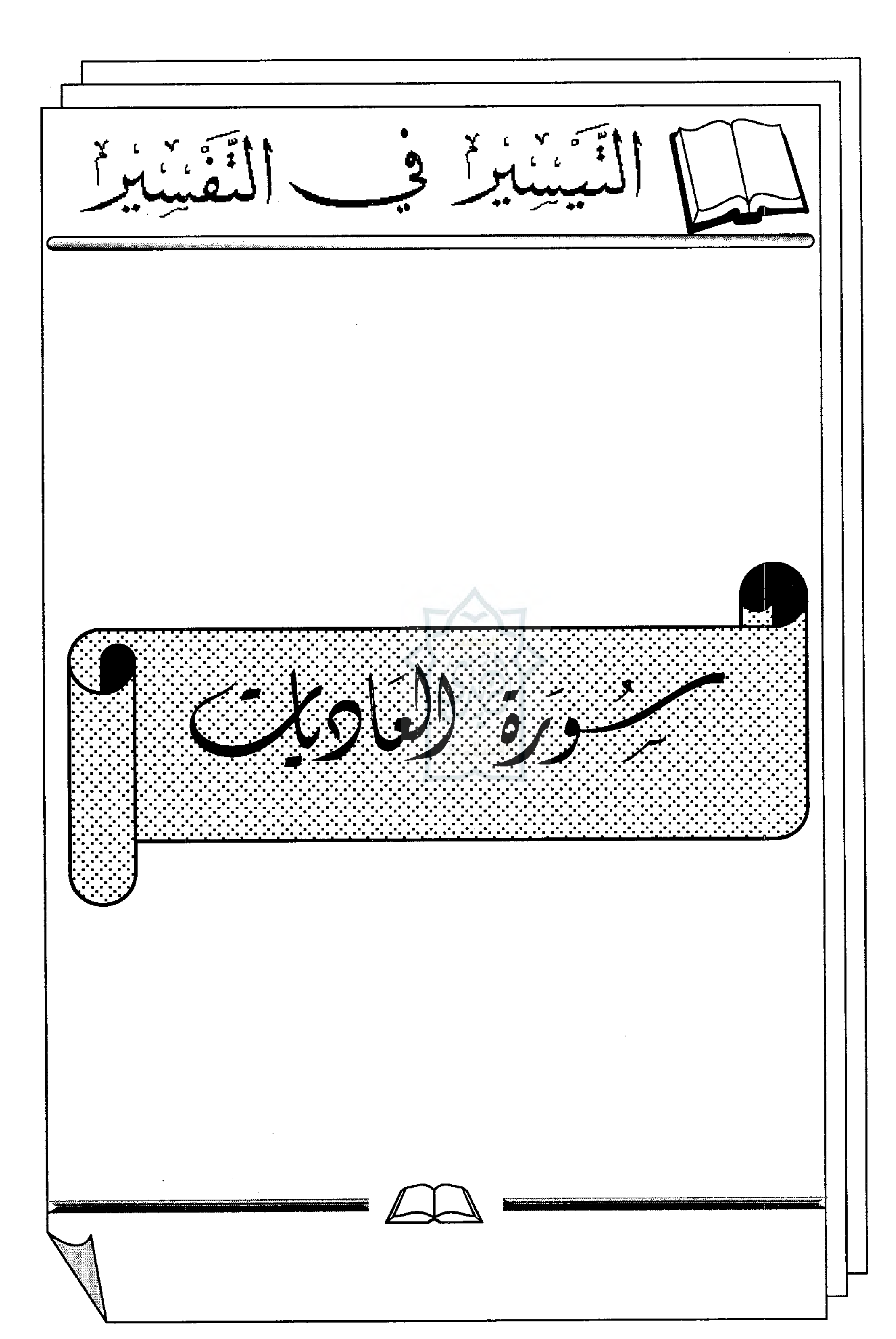
فليس المراد مجرد رؤية العمل، بل رؤيته في جزائه، أو رؤيته من حيث خبره وكونه سبب سعادة أو شقاوة، وذلك لأن المقصود الأعظم من القرآن عموماً ومن هذه السور (المكية) هو الإنذار للإنسان، كما قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] فسواء كان الصدر معناه: الصدر من الأرض، أو من القبور، أو من موقف الحساب، فهو لهذا المقصود ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ [إبراهيم:٥١] وفي (تفسير الإمام القاسم عليه السلام): «فتأويل (يراه) فهو يجزاه».

(٧-٨) ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ فأصغر الأعمال يرى، وهذا تعبير عن عموم الأعمال، فلا يضيع مثقال ذرة من الخير ولا أكثر ولا يهمل مثقال ذرة من الشر ولا أكثر؛ لأن الأكثر يتضمن مثاقيل ذرات كثيرة، فكل مثقال ذرة من أجزائه داخل في العموم، ولأن هذا من فحوى الخطاب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠] فهو دليل على أنه لا يظلم قليلاً ولا كثيراً.







التيسير في التفسير
سورة العاديات



سُورَةُ العَادِيَات

ترتيبها ١٠٠ — آياتها ١١

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ﴿١﴾ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ﴿٢﴾ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ﴿٣﴾ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ﴿٤﴾ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ

﴿١﴾ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا﴾ هذا قسم بالعاديات التي تعدو أي تجري بسرعة، و﴿ضَبۡحٗا﴾ بمعنى: عدواً نشيطاً، كما في (تفسير الإمام القاسم عليه السلام) حيث قال: «فهو عدواً ومرحاً» انتهى، وفي (لسان العرب): «وقال أبو عبيدة: ضبحت الخيل وضبعت: إذا عدَت، وهو السير، وقال في (كتاب الخيل): «هو أن يمد الفرس يديه إذا عدا حتى كأنه على الأرض طولاً» انتهى، وذكر أقوالاً غير ذلك، ولكن هذا أقرب إلى المقصود الذي هو التعبير عن سرعة السير، ولو فسر الضبح: بالصوت الذي يخرج من أنفاسها، ما كان إلا كناية عن السرعة، فالمعنى واحد.

﴿٢﴾ ﴿فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا﴾ بشدة عدوهن وصك الحوافر في الأحجار والحصى التي تقدح عند صك بعضها ببعض.

﴿٣﴾ ﴿فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا﴾ الإغارة: الهجوم السريع لدفع الشر من عدو أو غيره، وهي هنا المغيرة على العدو، والصبح: أول النهار، وفيه تعليم نافع لوقت الإغارة.

﴿٤﴾ ﴿فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا﴾ أي هذه المغيرات أثارت ﴿نَقۡعٗا﴾ أي غباراً ﴿بِهِۦ﴾ أي بالصبح.

﴿٥﴾ ﴿فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا﴾ توسطن بالصبح ﴿جَمۡعًا﴾ من جموع العدو، وهو الذي أغرن عليه صرن وسطه، وفي هذا السياق دلالة على سرعتهن وحسن طاعتهن لرجالهن المغيرين بهن.

عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

وفي ذلك آية عظمى ونعمة كبرى، حيث جعل اللّه الخيل قوية لهذا الشأن مطاوعة لاقتحام المعارك ومطارح المهالك، سريعة للكر والإقدام، بإعداد اللّه لها لهذا الشأن، وذلك من دلائل قدرته على كل شيء، وإنه قادر على بعث الإنسان بعد الموت.

﴿٦﴾ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ لكفور لربه، أي كافر بنعمة ربه، وفي (تفسير الإمام القاسم عليه السلام): «الكنود: فهو الكافر لنعم اللّه بكبائر عصيانه الفاجر العنود».

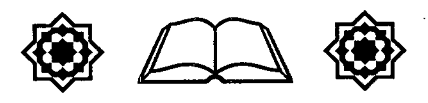
﴿٧﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ إما شهيد، بمعنى: دليل واضح لما فيه من النعم العظمى وما في سلوكه من إيثاره هواه على طاعة ربه، وإما شهيد مقر على نفسه بذلك في نفسه شاهد على ذلك بعقله، وإما شهيد يوم تشهد عليه جوارحه فكل ذلك واقع، أو يشهد على نفسه يوم القيامة إذا سئل عن شكر النعمة.

﴿٨﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ شديد قوي، لا يضعف فيه كما يضعف عن شكر النعمة.

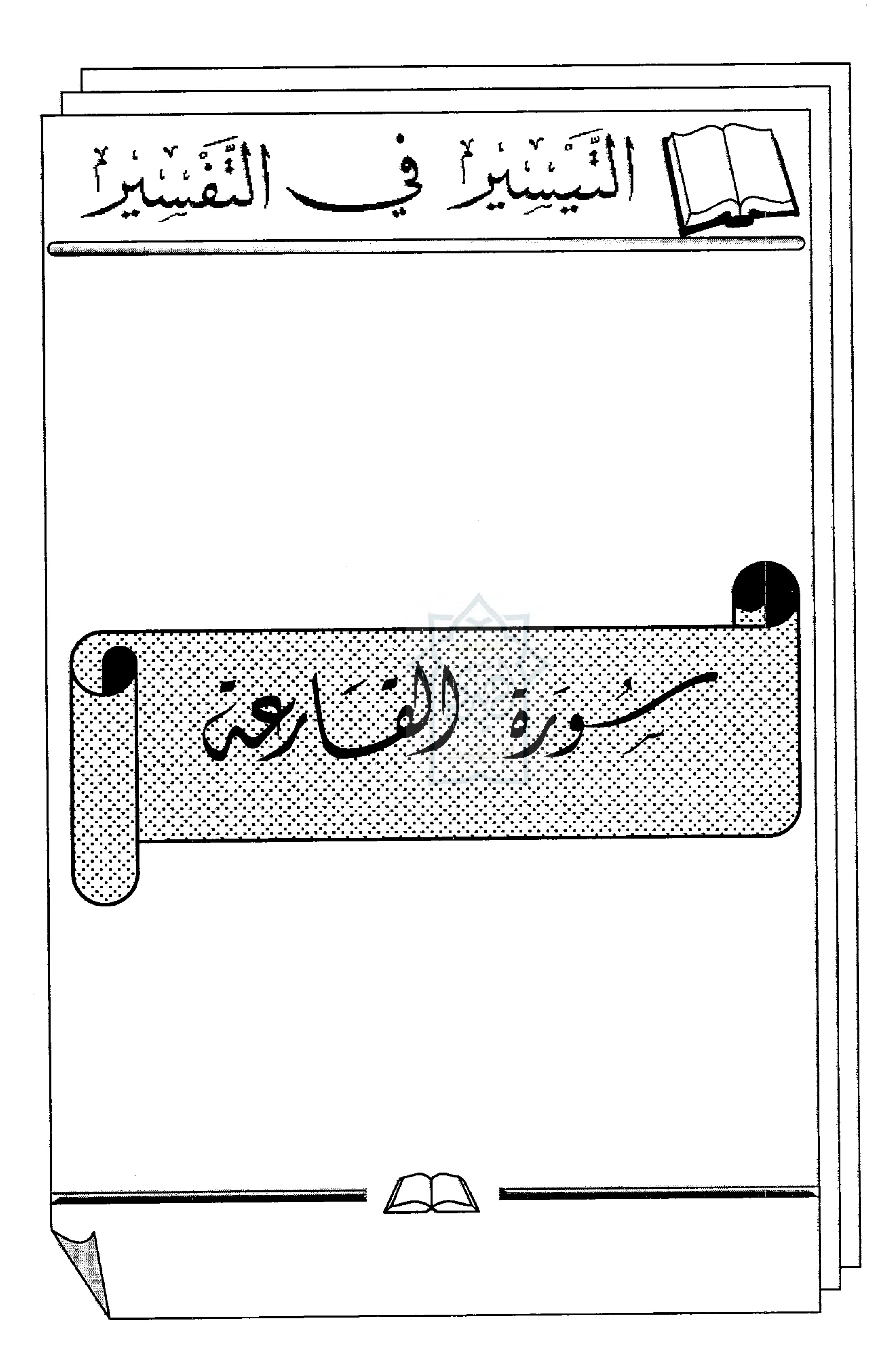
﴿٩-١٠﴾ ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۞ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ في حال كنوده لربه البعث والجزاء فيحذر ويبدل الكنود بالشكر، وبعثرة ما في القبور: إخراجه منها منثوراً مبدداً؛ نتيجة الزلزلة وإلقاء الأرض له من بطنها.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ إما وجده صاحبه باقياً ثابتاً لم يضع ولم يهمل، مع أنه كان كاتماً له في صدره من خيره أو شره، وإما ميز خيره من شره وذاقه صاحبه وعرف خُبْره، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق:٩] وهذا أقوى، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): ((مُيِّز)) انتهى.

(١١) ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ عليم بخبرهم، لا يخفى عليه سرهم ولا تخفى عليه خافية، وهذا تعبير عن عاقبتهم وما يصيرون إليه إذا رجعوا إلى ربهم، وهو عليم بما قدموا سواء ما أسروا وما أعلنوا، وهو الذي أرجعهم ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١] فعلمه بخبرهم كاف لجزائهم؛ لأن الأمر يومئذ لله وحده، وهو الذي يجزي كل نفس ما كسبت.






التيسير في التفسير
سورة القارعة



سُورَةُ الْقَارِعَةِ

ترتيبها ١٠١ — آياتها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٱلْقَارِعَةُ * مَا ٱلْقَارِعَةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام): ((فالقارعة: هي الداهية)) انتهى، يعني: المصيبة، وفي (تفسير الإمام القاسم عليه السلام): ((فالقارعة: ما هال من الأمور وقرع وهجم على أهله بغتة بأهواله فأفزع)) انتهى، ويشهد لهذين التفسيرين قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ..﴾ الآية [الرعد:٣١]، والمراد هنا: الداهية الدهياء والمصيبة العظمى وهي القيامة، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ تعظيم لها وإنذار لخطرها.

﴿٤﴾ ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ (الفراش) هذا الذي يطير في الليل إلى الضوء فيجتمع منه إلى ضوء الكهرباء ونحوه كثير، و﴿ٱلْمَبْثُوثِ﴾ المنتشر، وهو تشبيه للناس حين يسرعون إلى موقف الحساب في ضعفهم وكثرتهم، وعدم التفات بعضهم إلى بعض، وذلك لإجابتهم ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي﴾ [القمر:٦] إلى موقف الحساب إلى الأمر الرهيب.

﴿٥﴾ ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ لشدة تحطم الجبال تصير متخلخلة ﴿كَٱلْعِهْنِ﴾ وهو الصوف الناعم الذي يسهل نفشه وتفريق اتصاله، وذلك لدكها.

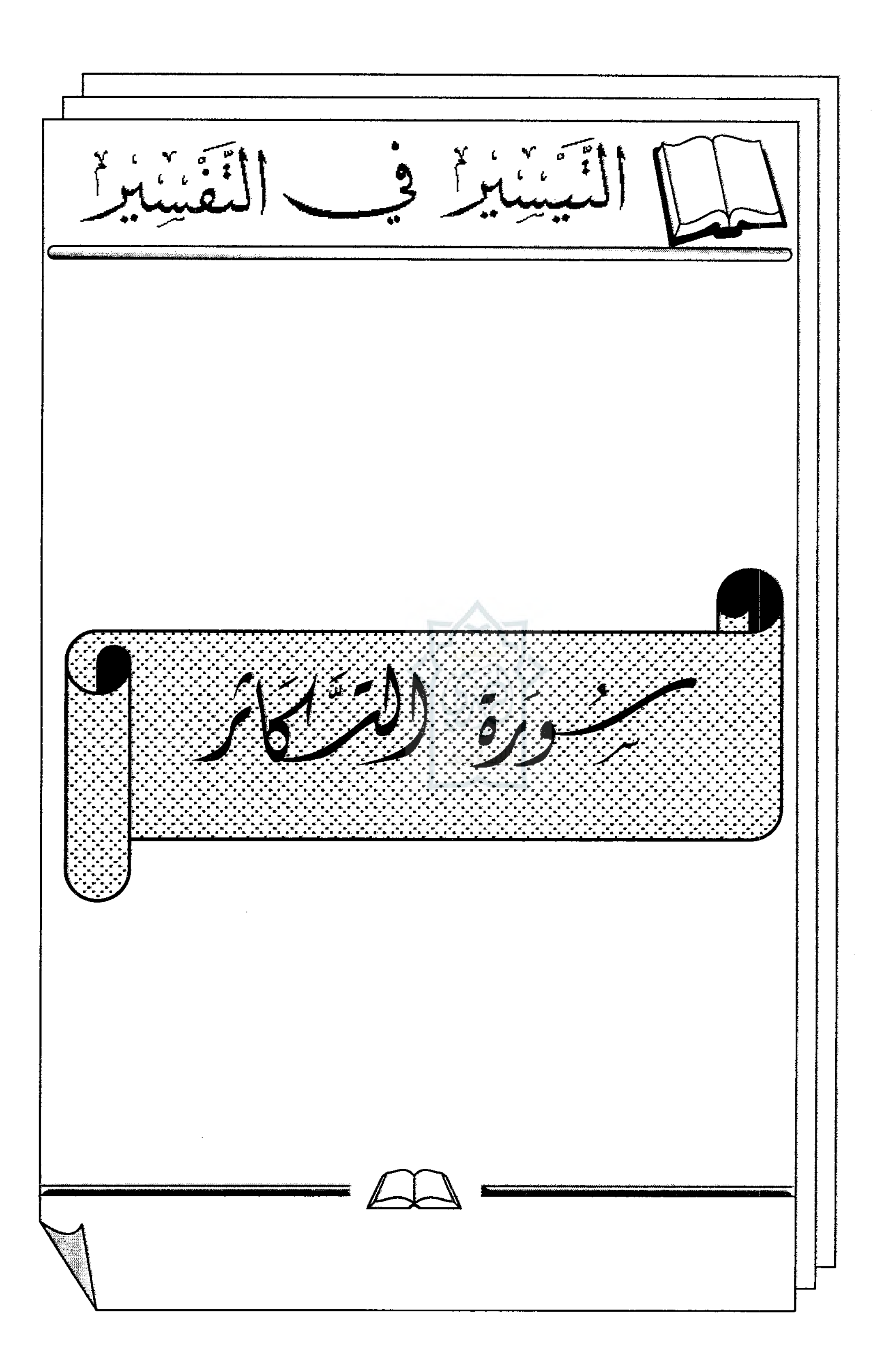
﴿٦-٧﴾ ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ ﴿ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأعماله الصالحة ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ في حياة يرضاها؛ لأنه في سعادة دائمة في جنات النعيم.

قال الإمام القاسم عليه السلام: «تأويلها: من ثقل في الوزن بره وإحسانه فسعد بثقله وثقل بعمله» انتهى، وذكر ذلك عن العرب، يعني أن المراد بالثقل: عظم الحسنة في معناها لا ثقل الأجسام، ومنه الحديث: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي» وقد أشار إليه الإمام القاسم عليه السلام في قوله: «وثقل بعمله» انتهى، ولم يذكر في الآية وزن الحسنات، فأما وزن أهلها فقد فسره عليه السلام، وقوله عليه السلام: «من ثقل في الوزن بره وإحسانه» يعني به: عظم قدره المعنوي، لا أنه يريد الثقل الذي هو للأحجار وغيرها.

(٨-٩) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ قال الإمام القاسم عليه السلام: «فتأويله من خف به فسقه وعداوته» انتهى، فاعتبر خفيفاً لهوانه ونقص قدره، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥] ولم يذكر وزن السيئات، فظهر أن المقصود ما ذكره عليه السلام.

﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ (أمه) التي يؤمها ويتوجه إليها ويصير إليها، هي نار جهنم سميت ﴿هَاوِيَةٌ﴾ لأن صاحبها يلقى فيها فيهوي فيها مدة حتى يقع، وتسميتها (أماً) كقوله تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران:٧] أي التي يرجع إليها، أو أنه نسب إليها لأنه لا يفارقها، بل تصير له مأوى كما سميت أم الطفل التي ولدته لأنه يأوي إليها، وهذا من التهكم؛ لأن الأم تعطف على ولدها، ونار جهنم تعذب ولدها ـ نعوذ بالله.

(١٠-١١) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾ أي ما هي ﴿هَاوِيَةٌ﴾ وبينها تعالى بقوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ وصفت بأنها حامية، فدل ذلك على زيادة حرها؛ لأن النار المعهودة حامية فزاد لها وصفاً يدل على أنها حامية بالنسبة إلى هذه النار.


التيسير في التفسير
سورة التكاثر



سُورَةُ التَّكَاثُرِ

ترتيبها ١٠٢ — آياتها ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ أغفلكم أي سبب لغفلتكم عن المهم الذي تحتاجونه وهو تقوى الله ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ المغالبة في الكثرة إما بالعمل بأن يعمل الإنسان ليكون أكثر مالاً من غيره أو نحو هذا، وإما بالدعوى بأن يدعي كل فريق أنهم أكثر من الآخرين ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فيه وجهان:

الأول ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ أداكم الإفراط فيه إلى زيارة المقابر لتعدوا الموتى وتكاثروا بهم، الثاني: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ طول أعماركم حتَّى متم وفي هذا إشكالان: الأول: أن الخطاب للأحياء لتوبيخهم وزجرهم وردعهم عن الالتهاء بالمكاثرة، فكيف يصح أن يقول: حتَّى متم ولما يموتوا، الثاني: أن الْتهاءهم بالتكاثر حتَّى ماتوا وينقطع التكاثر بالموت قبل زيارة المقابر، وأجيب عن هذا: بأن زيارة المقابر عبارة عن الموت نفسه لا نزول القبور، ويمكن الجواب عن الأول: بأن الخطاب عام للأحياء والأموات لزجر الأحياء.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ﴾ أي زار بعضكم ﴿ٱلْمَقَابِرَ﴾ وفيهما: أنهما من المجاز الأول والثاني، فالراجح: أنَّها الزيارة للتكاثر، قال في (الكشاف): «روي أن بني عبد مناف وبني سهم تفاخروا أيهم أكثر عدداً فكثرهم بنو عبد مناف، فقالت بنو سهم: إن البغي أهلكنا في الجاهلية فعادّونا بالأحياء والأموات فكثرهم بنو سهم» انتهى.

ويقوّي هذا التفسير ما في (نهج البلاغة) عن أمير المؤمنين علي عليه السلام من كلام له عليه السلام ـ قاله عند تلاوته: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ ـ: «يا له مراماً ما أبعده، وزوراً ما أغفله، وخطراً ما أفظعه، لقد استخلوا منهم أي مدكر، وتناوشوهم من مكان بعيد، أفبمصارع آبائهم يفخرون؟ أم بعديد الهلكى يتكاثرون؟..» إلخ، وهو كلام نفيس وموعظة بالغة.

﴿٣-٤﴾ ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿كَلَّا﴾ زجر للمتكاثرين عن أن يلهيهم التكاثر، وكرر ﴿كَلَّا﴾ وعطف بـ﴿ثُمَّ﴾ لتقوية الزجر، وتكرار ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ لمناسبة فرط غفلتهم، كأنهم يحتاجون إلى إعادة الكلام ليفهموه، ومعنى ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي سوف تعلمون أمراً عظيماً تندمون لأجله على أن ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ وذلك عند كشف الغطاء يوم القيامة، أو عند حضور الموت.

﴿٥-٨﴾ ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ ﴿كَلَّا﴾ إعادة للزجر لفرط غفلتهم وليرتب عليه قوله تعالى: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ ما سترون وعم تسألون وإلى ماذا تصيرون وجواب لو دل عليه السياق أي لعلمتم خطاكم في التهائكم بالتكاثر، ولتركتم الدنيا وآثرتم الإعداد للآخرة ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ وهي المهمة الكبرى الَّتِي هي أحق بأن يشغل الأحياء في هذه الدنيا حياتهم بالفرار منها؛ لأنَّه لا ينفع الفرار منها إلاَّ من فر منها في الدنيا، أما في الآخرة فلا مفر منها بل إنهم عند رؤيتها سيندمون حين لا ينفع الندم.

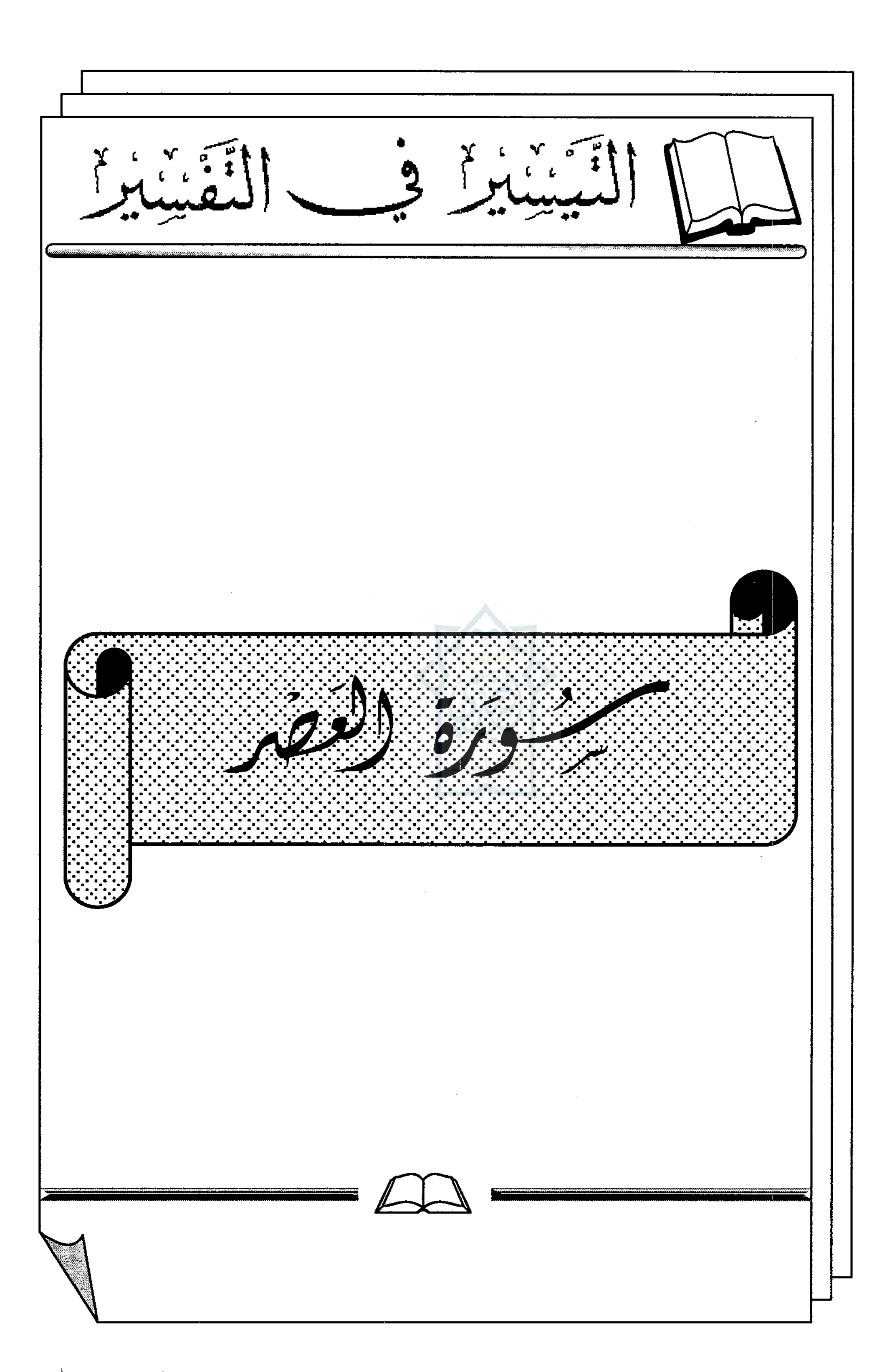
﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ رأي العين عن يقين ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ هذا قسم ليسألنّ يوم إذ يرون جهنم،

فهم يسألون في حال أنهم يرونها ﴿عَيْنَ الْيَقِين﴾ يسألون ﴿عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ الذي ينبغي التكاثر فيه والتنافس فيه ما هو، وعند ذلك يتبين: أنَّه نعيم من زحزح عن النار وأدخل الجنة فهو النعيم أما الدنيا، فكما قال الشاعر:

أحلام نوم أو كظل زائل　　إن اللبيب بمثلها لا يخدع






التيسير في التفسير
سورة العصر



سورة العصر

آياتها ٣

بسم الله الرحمن الرحيم

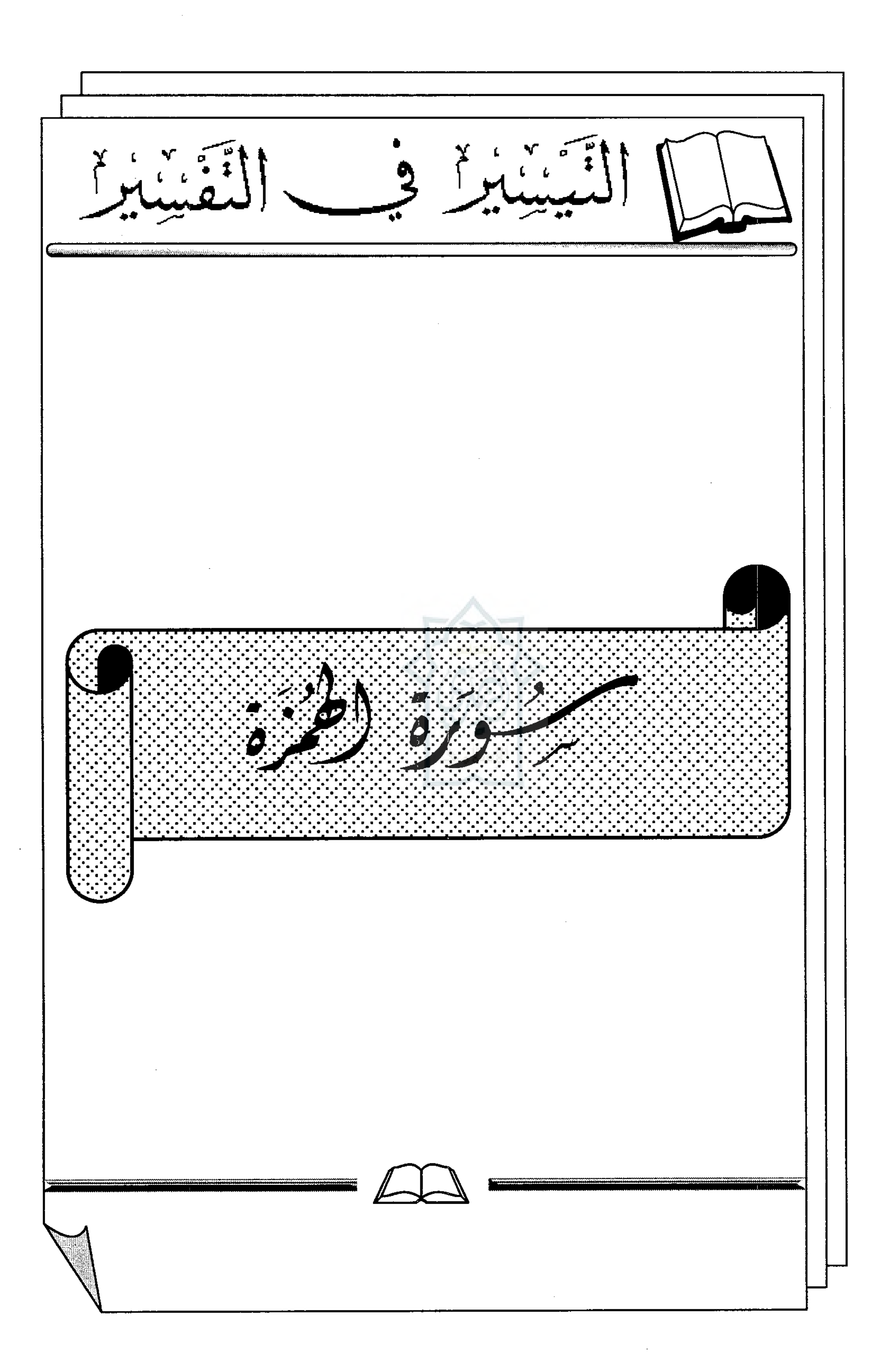
وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾

﴿١-٢﴾ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ وَٱلۡعَصۡرِ * إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ أقسم الله تعالى بالعصر كما أقسم بـ(الفجر) و(الضحى)؛ لأنها كلها آيات تدل على قادر يتصرف في الكون وجواب القسم: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ ومعنى الخسر: خسر الآخرة الذي هو فوات كل خير ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [الأعراف:٥٣] ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥].

﴿٣﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ هذا استثناء من عموم الإنسان الخاسر ﴿آمنوا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَعَمِلُواْ﴾ الأعمال ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولم يقل الحسنات؛ لأن حسن العمل لا يكفي حتى يكون صالحاً، وصلاحه بتمامه ومطابقته للمشروع، وسلامته من مقارنة المحبطات والمفسدات، فهو كالزرع السليم من الآفات.

﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾ باتباع الحق والثبات على الحق ونصرة الحق ليحفظ ولا يضيع ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ على الحق وعلى الدفاع عنه، وعلى ما يلاقون من الشدائد فيه من أعداء الدين، وعلى ما ابتلوا به من الخوف والجوع وغير ذلك، وفيه إشارة إلى التوحد في الدين والتعاون عليه وإلاَّ لما كان للتواصي حاجة، حيث لا يهم الإنسان إلاَّ نفسه لو كان لا يجب عليه أن يهتم بأمور المسلمين.




التيسير في التفسير
سورة الهمزة



سورة الهمزة

آياتها ٩ — مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ قال في (لسان العرب): «الويل: الحزن والهلاك والمشقة من العذاب» اهـ، وفيه: «والويل: حلول الشر» انتهى، وفيه: «ويل: كلمة مثل ويح، إلاَّ أنَّها كلمة عذاب» انتهى، ومثله في (الصحاح).

هذا معنى (الويل) فأما إعرابه: فهو مرفوع على الابتداء ومسوغ الابتداء به أنّه في معنى الدعاء على كل ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ والدعاء يختلف معناه، ففي مثل هذا الموضع هو دلالة على الغضب، مثل: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ [البروج:٤] فهو دعاء بالويل على الهمزة اللمزة، وقد يكون للحث، كما قال الشاعر:

على مثل أصحاب البعوضة فاخمشي ... لك الويل حر الوجه أو يبك من بكى

وقد يكون للتشكي مثل ما أنشده في (لسان العرب):

قالت هريرة لما جئت زائرها ... ويلي عليك وويلي منك يارجل

قال في (لسان العرب): «وكل من وقع في هلكة دعا بالويل، ومعنى النداء فيه ياحزني وياهلاكي ويا عذابي أحضر فهذا وقتك» انتهى، فظهر منه معنى الويل.

و(الهمزة): الهماز، وفي (تفسير الإمام القاسم عليه السلام): «والهمزة من الناس هو من يغتاب صاحبه ويغمزه واللمزة، فهو الذي يعيب حقاً أو محقاً ويهمزه، والهمزة: فهو الباخس المغتاب، واللمزة: هو الغامز العياب» انتهى، والمراد بالغامز: المنقص.

ٱلۡمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ﴿٩﴾

﴿٢﴾ ﴿ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ﴾ ﴿عَدَّدَهُۥ﴾ بادخاره لنوائب الدهر والمصائب، ففيه إشارة إلى بخله به.

﴿٣﴾ ﴿يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ﴾ في (تفسير الإمام القاسم عليه السلام): «وتأويل: ﴿يَحۡسَبُ﴾ هو أيحسب استفهاماً وتوقيفاً وتبييناً له وتعريفاً..» إلخ، فمعنى ﴿أَخۡلَدَهُۥ﴾ صرف عنه المصائب كما قدمت في تفسير ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ [الإنسان:١] وهو تقدمةٌ للوعيد بقوله تعالى:

﴿٤﴾ ﴿كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ وهي أكبر المصائب، فلن يغني عنه ماله شيئاً منها، قال الإمام القاسم عليه السلام: «ونبذه فيها: إلقاؤه، و﴿ٱلۡحُطَمَةِ﴾ فهي الأكول لأهلها باستعارها وحرها وهي النار..» إلخ.

﴿٥﴾ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾ تعظيم لها، ودلالة على أن الرسول لم يكن يدري حتَّى أوحى الله إليه.

﴿٦﴾ ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ﴾ قال سيد قطب: «وإضافتها لله وتخصيصها هكذا يوحي بأنها نار فذة غير معهودة، ويخلع عليها رهبة مفزعة رعيبة» انتهى، ونظيره: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ [الشمس:١٣] فقد روي: أنَّها كانت عظيمة تشرب ماءهم في يومها ولهم يوم.

وما روي: أن عتبة بن أبي لهب كان تحته بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذهب إليه، وقال: هو كافر بالنجم إذا هوى، ثُمَّ تفل في وجهه وطلق ابنته وخرج إلى الشام، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك» فبينما هم يحرسونه ذات ليلة في سفر إذ جاء أسد يشم وجوههم حتَّى ضرب عتبة فقتله» انتهى، فكان الكلب من كلاب الله هو الأسد.

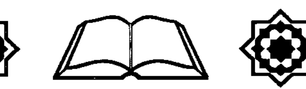
و﴿ٱلۡمُوقَدَةُ﴾ المسعرة الَّتِي ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤] فهي نار لا تطفأ مخالفة لنار الدنيا الَّتِي وقودها الشجر، ونحوه.

(٧) ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ تأكل اللحم حتَّى تبدو على الأفئدة، و﴿ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ جمع فؤاد، وهو القلب أو باطن القلب ـ نعوذ بالله.

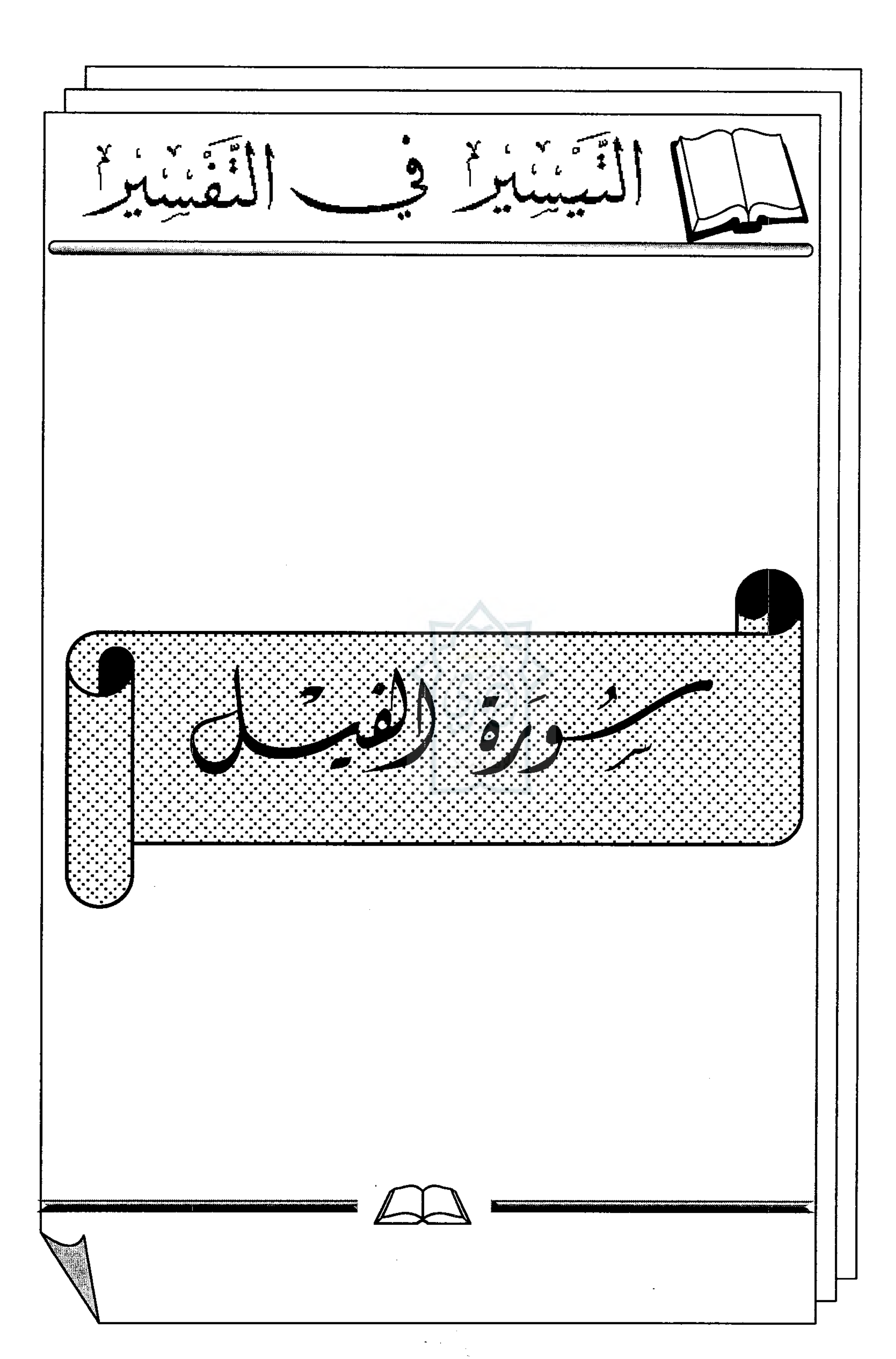
(٨) ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٌ﴾ إن نار الله على كل ﴿هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾ إنها عليهم مغلقة، أي مغلقة عليهم أبوابها.

(٩) ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ في (تفسير الإمام القاسم عليه السلام): «وتأويل ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ بعد ذكره تبارك وتعالى المؤصدة، فهو ما يغلق به أبواب جهنم المؤصدة المطبقة في عمد معروضة على أبوابها ممدودة كالمهاج، والأوصاد الَّتِي تجعل على الأبواب المغلقة، وذلك من الإغلاق والغلق فأوثق ما يغلق به كل مغلق، وذلك أنَّه يأخذ ما في طرفي الباب كله فيغلق الباب كله ويستقصي بالغلق آخره وأوله، ولاسيما إذا كان ممتداً ثابتاً» انتهى المراد باختصار.

وهو عليه السلام يعني: أنَّها تغلق أبوابها بأعمدة ممددة، والعمد: جمع عمود نظير ما يستعمل من الخشب من إحدى جهتي الباب إلى الجهة الأخرى لكل من طرفيه مدخل في هذا الركن وهذا الركن، يسمى في هذه البلاد (المرزح) واستعمال ﴿فِى﴾ يدل على أن الأعمدة تشمل الباب ويتمكن فيها أي العمود بحيث يعتبر الباب في العمود، كقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه:٧١].




التيسير في التفسير
سورة الفيل



سُورَةُ الفِيلِ

آياتها ٥ — ترتيبها ١٠٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ ﴿ٱلْفِيلِ﴾ هو الدابة الضخمة الذي يعرفه من قد رآه أو رأى صورته، ومعنى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم، وفائدته: التعجيب من فعل الله بهم فأصحاب الفيل كانوا باليمن من الحبشة وكانوا نصارى، وولي عليهم رجل من اليمن يدين بدين الحبشة، يقال له: أبرهة، وهذا هو الذي ذكره الإمام القاسم عليه السلام: أن أبرهة يمني، فلا التفات إلى ما في (سيرة ابن هشام) مما يوهم أنّه حبشي أو يصرح، وكانت لهم كنيسة بصنعاء أرادوا صرف العرب إليها وتحويلهم عن الكعبة، فهدم الكنيسة بعض العرب، فبعث أبرهة جيشاً وبعث معه بالفيل ليهدموا الكعبة المشرفة.

﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ بالجيش الذين صحبوا الفيل، وبمن بعث به لهدم الكعبة ﴿رَبُّكَ﴾ الغالب على أمره، وفي قوله: ﴿رَبُّكَ﴾ إشارة إلى أن إرسالك يا محمد هو من أمره وحمايتك لتبلغ رسالته هو من أمره، فلابد أن يحميك كما حمى بيته.

﴿٢﴾ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ﴾ ﴿كَيْدَهُمْ﴾ الذي دبروه لتخريب الكعبة وتحويل العرب عنها، وهو جمعهم واجتماعهم وما صحبوا به جيشهم من قوتهم وعدتهم وأموالهم الَّتي مولوا بها جيشهم ﴿فِى تَضْلِيلٍ﴾ في تضييع لهم جعل كيدهم في تدمير لهم، ولعله تعالى قال في تضليل ولم يقل تضليلاً أو هو التضليل؛ لأن سبب هلاكهم أعم من كيدهم، وإنَّما كيدهم هو منه.

﴿٣﴾ ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قال في (تفسير الإمام القاسم عليه السلام): «والطير الأبابيل: فهي الطير الكثير الأراعيل الَّتِي تأتي من كل جهة» انتهى، قوله: الأراعيل، جمع الجمع لرعلة، قالوا: هي القطعة من الخيل، وأنشد في (الصحاح) لطرفة:

ذلُـقٌ في غابـة مسـفوحة كرعـال الطـير أسـراباً تمـر

قلت: وهذا يدل على أنَّه يستعمل في الطير كما استعمله الإمام القاسم عليه السلام العربي اللسان والنسب وليس خاصاً بالخيل.

﴿٤﴾ ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ قال الإمام القاسم عليه السلام: «والسجيل فيما يقال: فهو الطين المستحجر الصلب» قلت: ولعله سمي سجيلاً؛ لأن فيه خطوطاً كخطوط الكتاب ـ والله أعلم ـ في (مفردات الراغب): «والسجيل: حجر وطين مختلط، وأصله فيما قيل: فارسي معرب، والسجل قيل: حجر كان يكتب فيه، ثُمَّ سمي كل ما يكتب فيه سجلاً» انتهى.

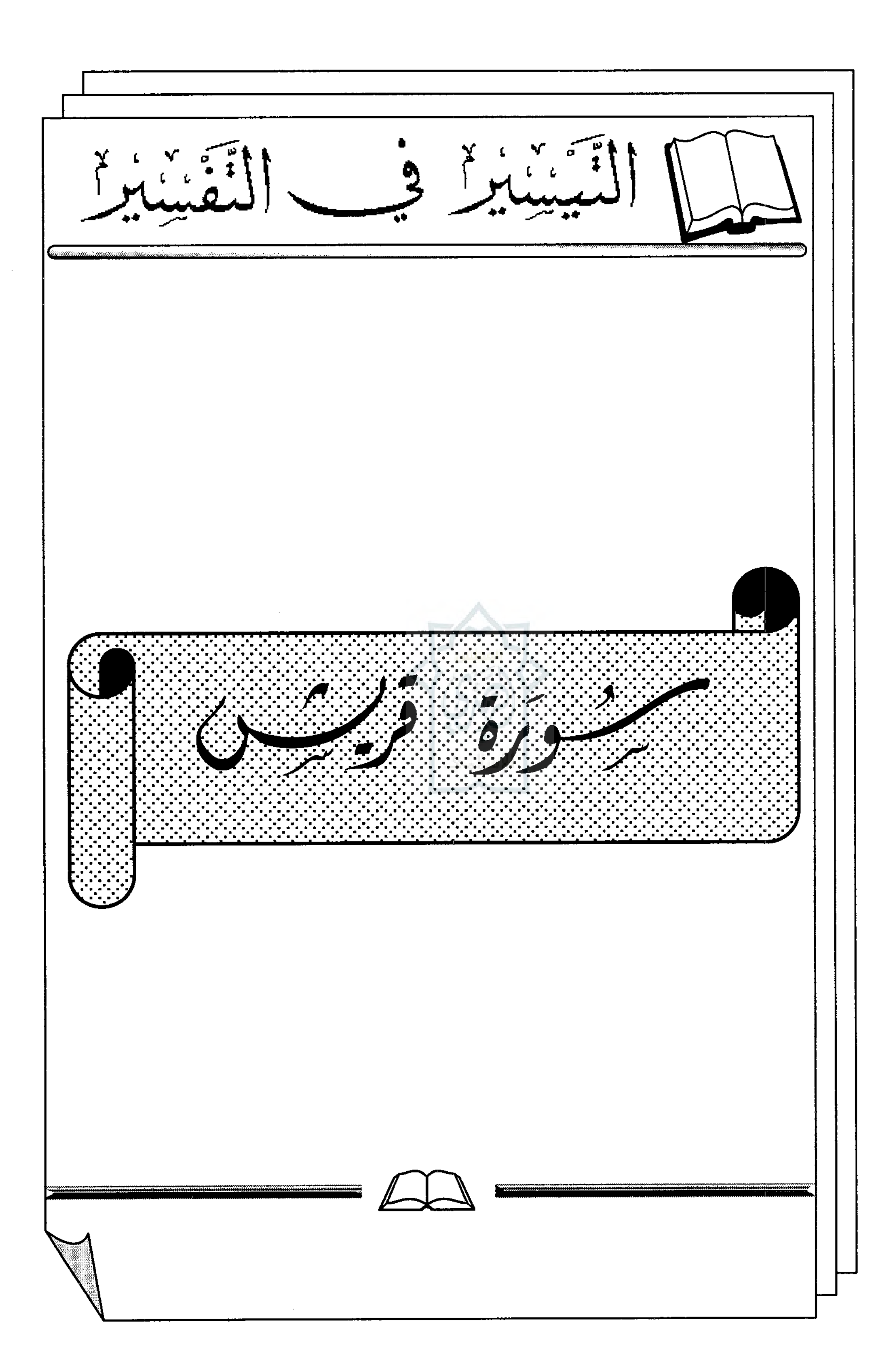
قلت: قوله حجر وطين، الصواب ما قال الإمام القاسم عليه السلام، والدليل قول الله تعالى في قوم لوط: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ [الذاريات:٣٣] وفي آية: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ [هود:٨٢].

﴿٥﴾ ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أي أهلكهم وصاروا مثل قصب الزرع الذي ذهب أجوافه وتعطل من لبّه، كما قال الشاعر:

آليت حب العراق الدهر أطعمه والحب يأكله في القرية السوس

ويحتمل: المأكول الذي قد أكلته الأنعام وصار في بطونها.

تنبيه: في (تفسير سيد قطب) لـ(سورة الفيل) بحث مهم مفيد يتعلق بالسياسة الإسلامية ينبغي نشره، أو نشر ما يقوم مقامه في المدارس.


التيسير في التفسير
سورة قريش



سُورَةُ قُرَيْشٍ

ترتيبها ١٠٦ — آياتها ٤

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴿٢﴾ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴿٤﴾

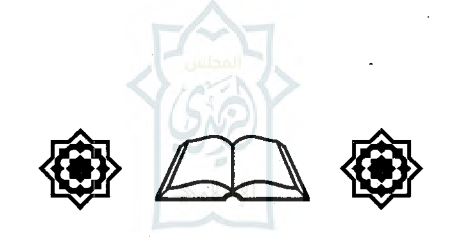
﴿١﴾ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾ كان قريش آلفين مألوفين، يألفهم الناس ويألفون الناس، في حال أن الخوف كان شائعاً في بلاد العرب، والتآلف ضد التنافر والتقاطع، وذلك لأجل بيت الله الكعبة الحرام، فكان الناس يسافرون للتجارة إلى مكة فيأمنون في مكة، وكان قريش يسافرون آمنين لحرمة البيت الذي هم جيرانه، ولحاجة الناس إلى بلاد قريش الَّتِي يلتقي فيها أهل البلدان المتباعدة، وأصل ذلك كله نعمة الله بهذا البيت الذي جعله للناس مثابة وأمناً.

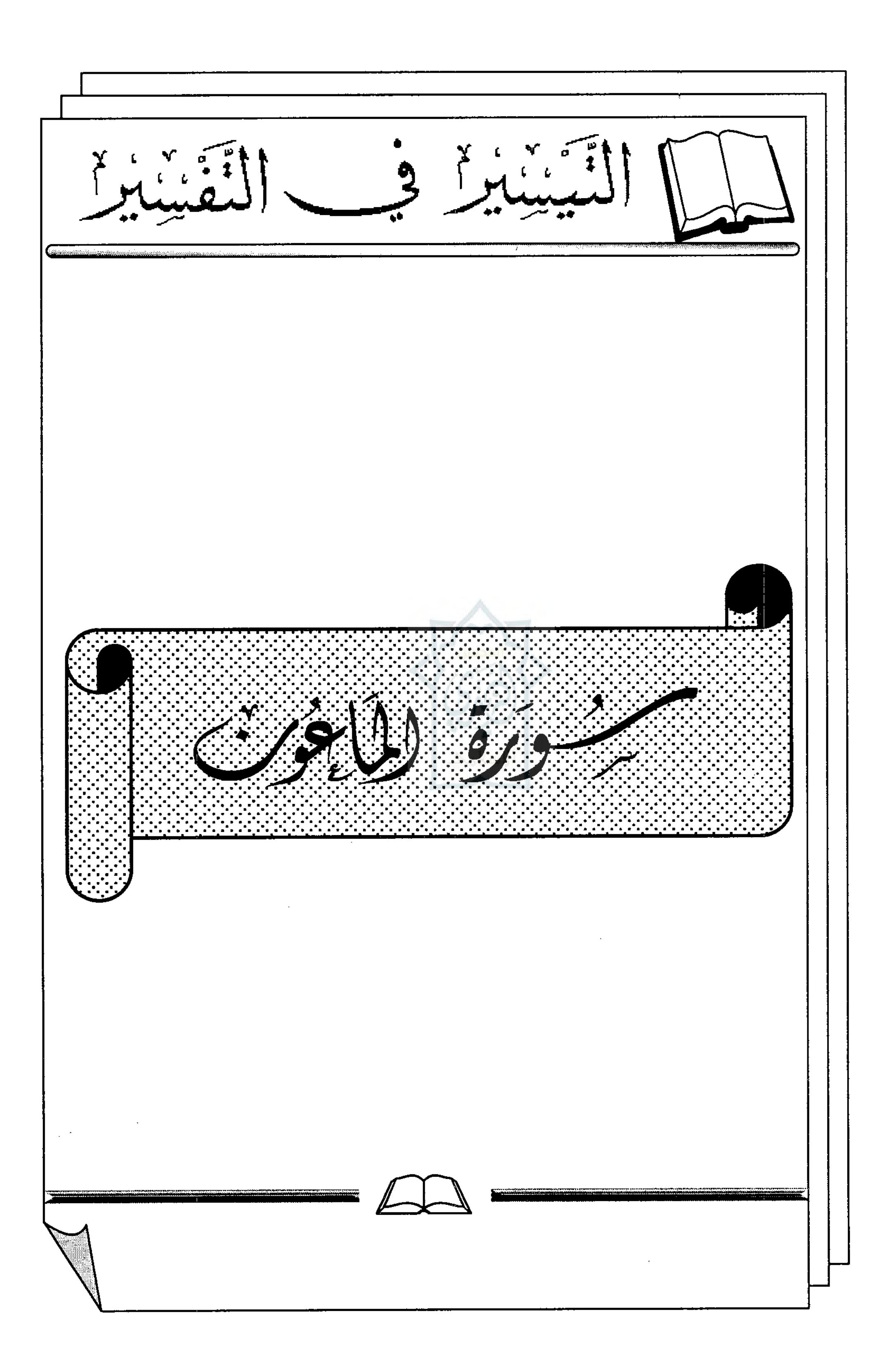
﴿٢﴾ ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ لإيلافهم في رحلة ﴿ٱلشِّتَآءِ﴾ إلى الحبشة ﴿وَ﴾ رحلة ﴿ٱلصَّيۡفِ﴾ إلى الشام لا يعاديهم أحد ولا ينفر منهم.

﴿٣﴾ ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾ الذي هو الكعبة، وربها الله الذي جعلها نعمة لقريش، وقريش قبيلة من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وفيهم من الحديث الشريف عنه ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم» أخرجه مسلم، وأحمد، والترمذي، وغيرهم.

وقال ابن تيمية: «هو حديث ثابت» وفسره في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم) والاصطفاء: يدل على نعمة يجب شكرها، وعبادة رب هذا البيت: إخلاص العبادة له ورفض شركائهم.

(٤) ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ أطعمهم وغيرهم من العرب جائعون ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ آمنهم وغيرهم خائفون، كأنه ضمن ﴿أَطْعَمَهُم﴾. ﴿وَءَامَنَهُم﴾ نجاهم، وذلك الإطعام بسبب دعوة أبيهم إبراهيم صلى الله عليه: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧] وفي (سورة البقرة): ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ..﴾ الآية [١٢٦].




التيسير في التفسير
سورة الماعون



سُورَةُ المَاعُون

آياتها ٧ — ترتيبها ١٠٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ هذا توجيه للسامع ليستمع ما يقال في ﴿ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ ويقبل عليه بقلبه، والدين: هو الجزاء في الآخرة التي يجحدها المكذبون بالآخرة أو مطلقاً.

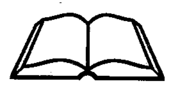
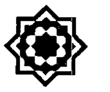
﴿٢﴾ ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ في (تفسير الإمام القاسم عليه السلام): «ودَعُّه له: هو دفعه عن حقه» انتهى، فالمكذب بالآخرة يظلم اليتيم؛ لأنَّه لا يخاف النار، ولا يخاف العقاب على ظلمه؛ لغفلته عن الله وتكذيبه بالجزاء من الله.

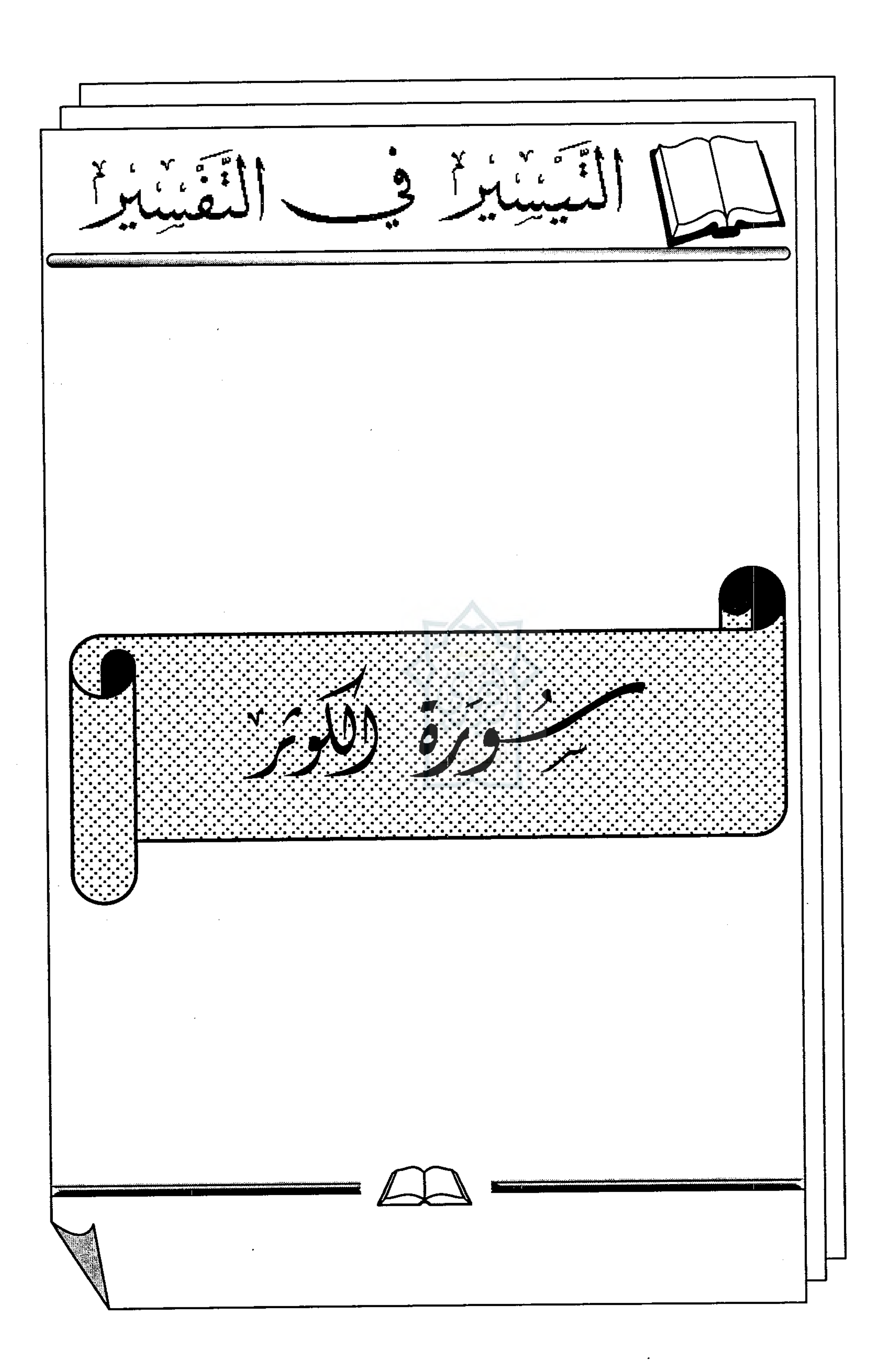
﴿٣﴾ ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ لأنَّه لايرجو منه مكافأة ولايرجو ثواباً من الله لتكذيبه بالدين، فذلك دليل على حاجة الناس إلى الإيمان بالجزاء على البر والفجور ليصلح مجتمعهم ويسلموا التظالم، ولا يكونوا كالسباع الضارية يأكل قويها ضعيفها، فكيف يتركهم الله بلا رسول ولاكتاب كما يزعم المكذبون بالدين.

وهو سبحانه أحكم الحاكمين قد جعل لهم عقولاً وفضلهم بها على السباع والأنعام، ولو تركهم تظالموا واستحقوا العقاب، مع أنَّه لا نذير لهم من العذاب وهو عذاب شديد، فدل ذلك على أنَّه لابد من الرسول، فقد أرسله الله وجاء بالبينات، وما بقي إلاَّ أن يؤمنوا به إيماناً صادقاً.

(٤-٧) ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ لعدم صدقهم في الإيمان، فلا يأتون الصلاة إلاَّ وهم كسالى، ويبخلون بالماعون؛ لبغضهم للمهاجرين الذين جاءوا المدينة المنورة لينصروا الله ورسوله، فقال بعض المنافقين: **﴿لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾** [المنافقون:٧] قال الإمام القاسم عليه السلام: «والساهون: هم الذين عن صلاتهم ووقتها لاهون، ليس لهم عليها إقبال، ولا لهم بحدود تأديتها اشتغال، فنفوسهم عن ذكر الله بها ساهية وقلوبهم بغير ذلك فيها لاهية» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾ يفيد: قلة مبالاتهم بصلاتهم، فهم يميتونها في بعض الأوقات، مع أن صلاتهم خالية من الخشوع والإخلاص، فلذلك أضافها إليهم لنقص صلاتهم عن الصلاة المقبولة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ و﴿الْمَاعُونَ﴾ ما يحتاج إليه من الأدوات والآلات الَّتي لا يضرها الاستعمال، مثل: القدر، والمغرفة، والشفرة، وكذلك الزكاة المفروضة في المال فقد صارت حقاً للفقراء.


التيسير في التفسير
سورة الكوثر



سورة الكوثر

مكية ١٠٨ — آياتها ٣

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴿٣﴾

﴿١﴾ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ ﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ الخير الكثير، قال الإمام القاسم عليه السلام: «و﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾: هو العطاء الأكبر، وإنما قيل: كوثر من الكثرة» انتهى، وهو عام لنعم الله الَّتي أنعم بها على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم:

فمنها: الهدى وقد ذكره الله في (سورة الضحى) وهدى الأنبياء مثل ما ذكره الله في (سورة الأنعام) لأنبيائه نوح وإبراهيم وعدد من ذريته ولوط.

ومنها: العلم النافع والتوفيق والعصمة.

ومنها: القرآن العظيم الذي آتاه وخصه بإنزاله عليه وعلمه لفظه ومعناه وحفّظه وجعله هديه.

ومنها: الخلق العظيم الذي هداه له.

ومنها: اختياره للرسالة.

ومنها: نصره بالرعب.

ومنها: ما اختصه الله به من الكرامات والآيات.

ومنها: أن آتاه أخاه علياً وزيراً وشاهداً له بالرسالة بما رزقه من علم الكتاب، حتَّى صار شاهداً له شهادة بقوله وفعله وسلوكه، بحيث فداه بنفسه وخاض المعارك واقتحم المهالك، زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة، وهذا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع إتمام الله لخلقه، وقواه وعقله ورأيه وفهمه وقوة منطقه وفصاحته وسعة صدره، ولا نستطيع إحصاء نعم الله علينا، فضلاً عن أن نحصي نعمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد عظم الله هذا العطاء بإسناده إلى عظمته وجلاله.

فهي تشير أن ذلك لعلمه سبحانه وقدرته وعدله وحكمته وفضله ورحمته وكرمه، ولعل ذلك يرجع إلى أن هذا العطاء مصلحة للكون، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] وقد فسر ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ بنهر في الجنة، وفسر: بكثرة الذرية، والأولى: تفسيره بما قد أعطاه الله من النعم؛ لأن ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ فعل ماض، إلاَّ أن يحمل على الوعد بالنهر في الجنة، وبكثرة الذرية، فلا مانع من دخوله في العموم.

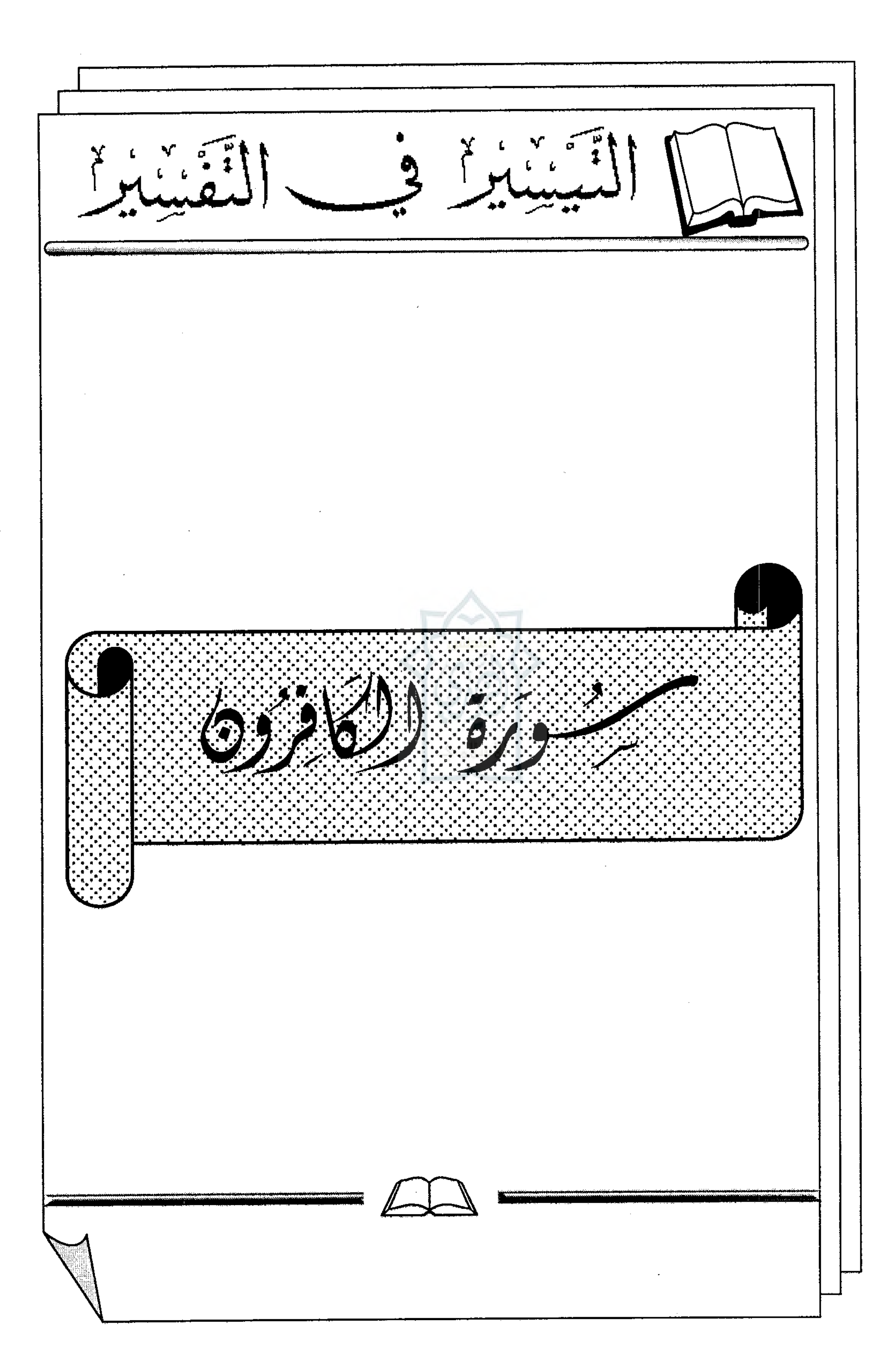
(٢) ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ أي ﴿وَٱنْحَرْ﴾ له، وذلك في الحج والعمرة، اعبده شكراً على نعمه وعملاً بما علمك ربك الذي خلقك ورباك وأنعم عليك صغيراً وكبيراً، صل له عبادة إقراراً له بربوبيته، وتحقيقاً لعبوديتك؛ لتدوم لك النعمة، وتنال ما وعد الله عباده الصالحين.

(٣) ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾ الأقطع، قال الإمام القاسم عليه السلام في تفسيرها: «ثُمَّ أخبر سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم: أن كل من شنئه فأبغضه من البشر، فهو مخذول ذليل أبتر ليس له عز مع بغضه له وشنئانه ولا منتصر، إكراماً من الله ـ جل ثناؤه ـ لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وإخزاء لمن شنئه وأبغضه ولم يؤد إلى الله في محبته فرضه» انتهى المراد.

تنبيه: روي عن علي عليه السلام لما نزل ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ قال النبي: «يا جبريل ما هذه النحرة الَّتِي أمرني بها ربي؟ قال: إنها ليست بنحرة، ولكنها رفع الأيدي في ثلاث مواطن..» إلخ الرواية.

هذه الرواية قد حققت ضعفها في شرحي لبعض (أمالي أحمد بن عيسى) [ص٢١ـ ٢٢] ضعفها من ناحية السند، وضعفها من لفظ متنها، ويكفي في إبطالها أنَّها قد أقرت بأن الرفع معنى مجازي؛ لأنَّه قال: «إنها ليست بنحرة».

ومن علامة المجاز: صحة نفيه، مع أنَّه واضح أن الرفع لا يسمى نحراً في اللغة، واستعمال النحر في نحر الإبل هو المعنى الحقيقي، وقد دل عليه القرآن والسنة في مناسك الحج، فالحمل على المعنى الحقيقي للمحكم هو الحق والرواية المخالفة له تعتبر مخالفة للقرآن بتغييرها معناه.



التيسير في التفسير
سورة الكافرون



سورة الكافرون

ترتيبها ١٠٩ — آياتها ٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

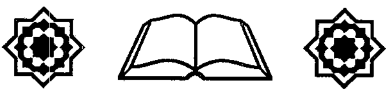
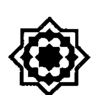
﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بالله وآياته ورسوله ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ لا أساعدكم ولا أوافقكم على عبادة ما تعبدون ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ ولا أنتم متبعون لي في عبادة ما أعبد؛ لأنكم مصرون على الكفر، فديني خلاف دينكم، ودينكم خلاف ديني، فأنا بريء من دينكم ولا أصير إليه أبداً، وأنتم مصرون فلا تتبعوني أبداً قد برئتم من ديني، فقد افترقنا وتباينا وتقاطعنا واختلفت ملتنا.

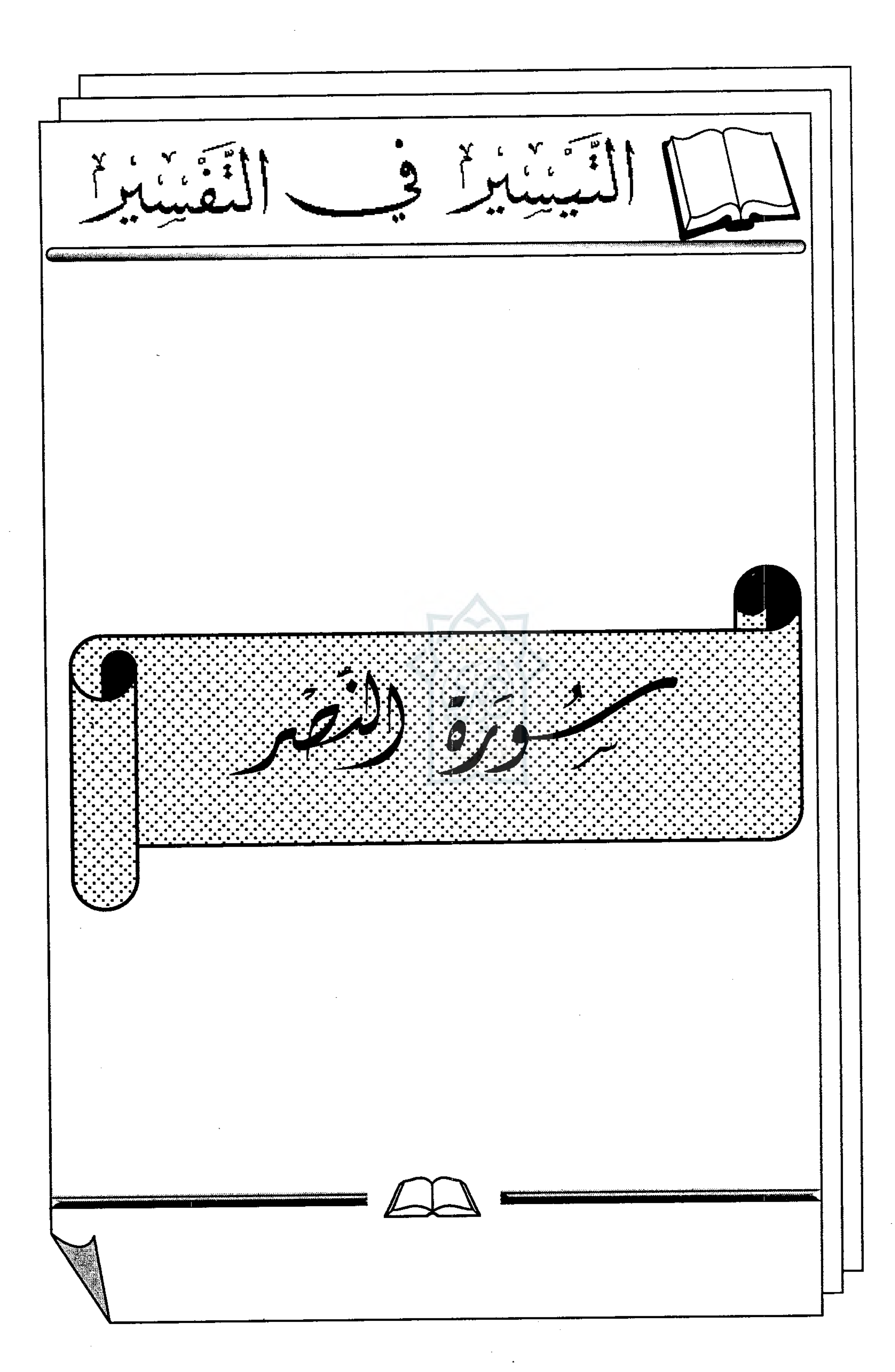
﴿٤-٥﴾ ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ عبادتكم عملكم وحدكم، وقد برئت منها فلا ينجر علي حكمها حتّى تكون عبادتكم مشتركة بيني وبينكم، وحتى أكون قد عبدت ما عبدتم كما ينجر حكم العمل على الآمر به أو الراضي به، وعبادتي عملي وحدي قد برئتم منه، فلا يعمكم حكمها كما يعم العمل الراضي به ويكون مشاركاً فيه، فلا تسألون عن ديني ولا أسأل عن دينكم.

﴿٦﴾ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ فجزاء عملكم خاص بكم وجزاء عملي خاص بي، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:٤١].

فقدم في الآيتين الأولتين: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ نفي الموافقة، ونفي المساعدة على عبادة ما يعبده المشركون، ونفي الموافقة من المشركين على عبادة ما يعبده رسول الله ﷺ، وتحقق فيهما التباين والتقاطع الدائم، بتعليق النفي في الأولى على معبودهم من حيث هو معبودهم، والنفي في الثانية على معبوده ﷺ من حيث هو معبوده، فقيد الحيثية فيهما ظاهر من التعليق، ففيه معنى براءته من معبودهم وبراءتهم من معبوده.

وعلى هذا: لا نحتاج إلى جعل ﴿مَا﴾ مصدرية في قوله: ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ لأنَّه واقع على طريقة الإبهام ليس على تعيين المعبود كما مر في تفسير (والليل) وكذلك ظهر في الأخيرتين نفي المشاركة في العبادة من التعليق على ما عبدتم وما تعبدون، ومِنْ عَطْفِ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ وهذا الفرق رجحته؛ لأجل العطف بـ(الواو) بين الأولتين والآخرتين، الذي ظاهره التغاير بين الأولتين والأخيرتين ـ والله أعلم.



التيسير في التفسير
سورة النصر



سُورَةُ النَّصرِ

ترتيبها ١١٠ — آياتها ٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ لدينه ولرسوله ﷺ نصر الله الذي وعدك به يا محمد النصر العظيم من الله القدير بإظهار دينه وإعلاء كلمته، وجعل رسوله هو المنصور وجنده هو الغالب ﴿وَ﴾ جاء ﴿ٱلْفَتْحُ﴾ من الله بينه وبين أعدائه من المشركين وأهل الكتاب وهو حكمه بنصر أهل الحق وتمكينهم في الأرض، وإخزاء أعدائه الذين حاربوه وعاندوه.

﴿٢﴾ ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ وهو الإسلام ﴿أَفْوَاجًا﴾ جماعات كباراً، وقد كان ذلك في السنة التاسعة من الهجرة.

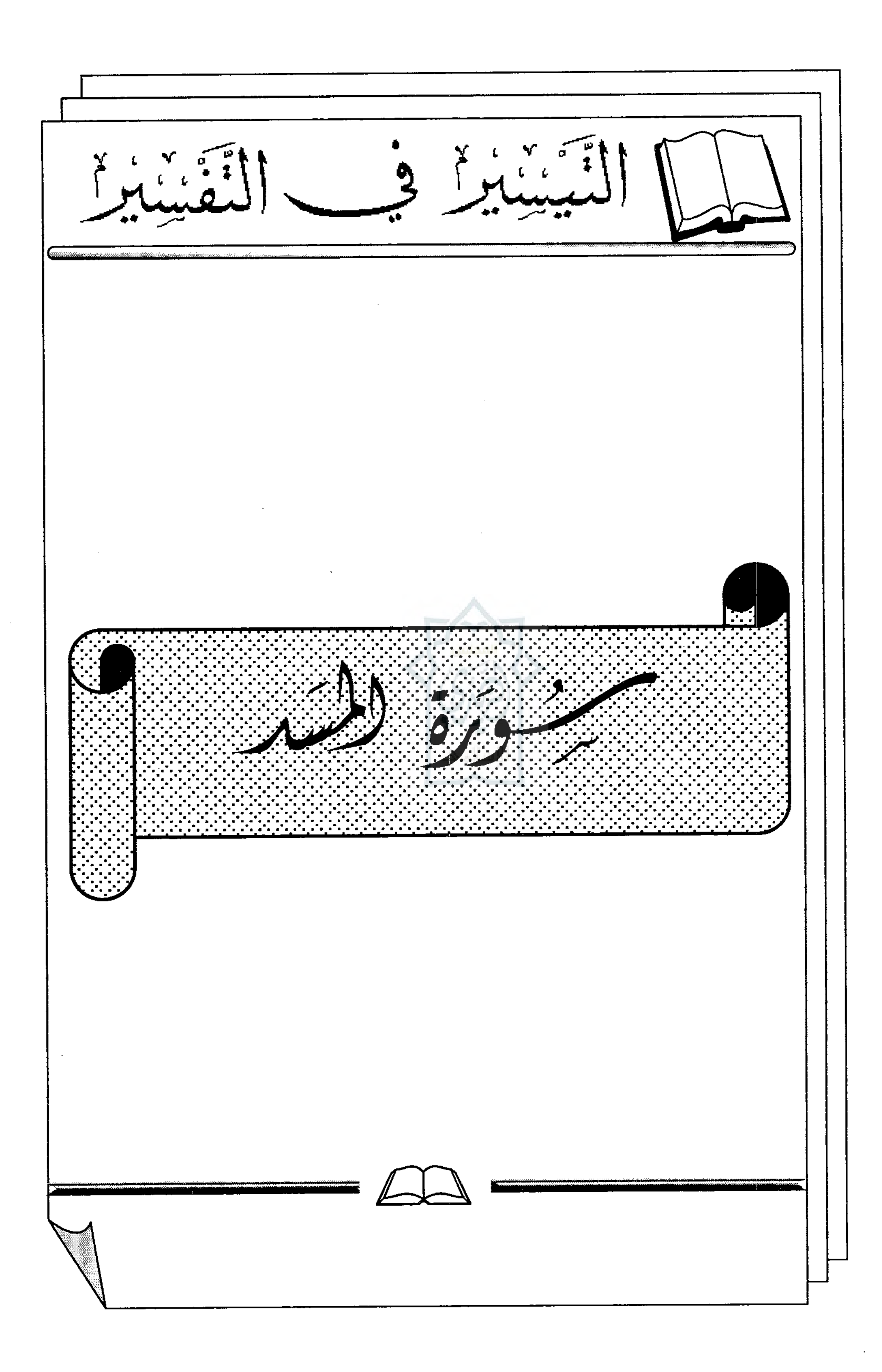
قال الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام ـ وهو المراد في كل هذا التفسير لجزء عم ـ «والأفواج: من الناس فهو ما يرى من الجماعات الَّتي تأتي من القبائل والنواحي المختلفات، شبيه بما كان يفد على رسول الله ﷺ من وفود القبائل والبلدان من عقيل، وتميم، وأهل البحرين، وعمان ومن كل الأمم».

﴿٣﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ سبح حامداً لربك، أي اجمع بين التسبيح لربك والحمد لربك، فالتسبيح لوقوع ما وعد به وظهور قدرته، وأما الحمد فشكراً له على نعمته ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ تذللاً وإفصاحاً بعدم العجب، كقول نوح عليه السلام: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود:٤١].

قال الإمام القاسم عليه السلام: «وتأويل التواب: فهو العواد بالرحمة وبالنعمة منه بعد النعمة، وقد ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أنزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إليه وأمر فيها بالاستغفار، ورأى ما رأى من الإظهار قال عليه السلام: «نُعِيَت إليَّ نفسي وأخبرت بعلامات موتي» فصدق في ذلك كله» انتهى المراد.

ولعله صلى الله عليه وآله وسلم فهم ذلك من جملة الكلام في هذه السورة الكريمة، حيث رتب تعالى على النصر والتمكين وإذلال المناوين أمره بخاصة نفسه بدلاً من سعيه لإظهار الدين في بلاد الروم والفرس وغيرها مما هو واثق بأن دينه سيظهر فيها، وكان المتوقع الترتيب به على النصر والتمكين فلما لم يذكر وذكر بدله الأمر بما يخصه فهم اقتراب أجله، وأن افتتاح تلك البلدان سيكون بعده ـ والله أعلم.


التيسير في التفسير
سورة المسد



سُورَةُ المَسَد

ترتيبها ١١١ — آياتها ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

(١-٣) ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أبو لهب كان من أعمام النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهذه كنيته، واسمه: عبدالعزى، ولكون الاسم فيه شرك لم يذكر به، وذكر بالكنية المناسبة لعذابه.

قال الإمام القاسم عليه السلام: «وتأويل ﴿تَبَّتْ﴾ فهو خابت وخسرت فيما رجت وقدرت» انتهى، وقوله عليه السلام: فيما رجت وقدرت، أي بعملها وسعيها في جمع المال وكسب الأصحاب والموالين المؤاخين له على شركه، فقد تب سعيه هذا أي بطل ولم يفد إلاَّ الخيبة لما أمل، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ﴾ [غافر:٣٧] ﴿وَتَبَّ﴾ أبو لهب نفسه خاب وخسر لأنَّه كان يأمل السعادة بما جمع من المال والسلامة من المصائب، كما مر في الهمزة اللمزة، فخاب أمله؛ لأنَّه ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ وهي أكبر المصائب، فلم ينجه ماله منها، ولا ما كسب من أسباب القوة.

(٤) ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ تبت ولم تنل بحملها للحطب ما أملت، وهي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان، وكثير من الناس يميلون مع أصهارهم لقوة العلاقة والحب بينهم، وقد قال تعالى: ﴿أُوْلَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [البقرة:٢٢١] فلعلها ـ والله أعلم ـ كانت هي السبب في فساد زوجها إلى حد محاربته للدين وجده في ذلك ومخالفته لطريقة أخوته.

قال الإمام القاسم عليه السلام: «وتأويل ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ فقد يكون حملها للنمائم والكذب الذي كانت تكذبه على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتأتي به زوجها وتنقله إليه وتنقله إلى غيره ممَّن كان من الكفر في مثل ما هي وما هو فيه، لتفسد بكذبها وتغري على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم» انتهى باختصار يسير.

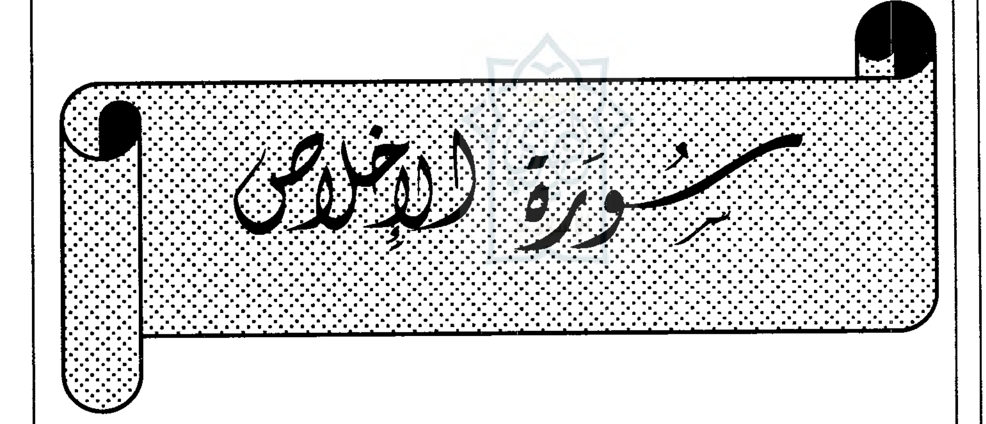
(٥) ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ ﴿جِيدِهَا﴾ عنقها وحبل حاملة الحطب يتصل بجيدها بحيث يؤثر فيه بسبب ثقل الحطب فجعل الحبل في جيدها لشدة تمكنه فيه كقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه:٧١] وهذا ترشيح لاستعارة حمل الحطب لما يراد به إشعال نار الفتنة من النميمة والكذب، كقول الشاعر:

لدا أسد شاكي السلاح مقذف　　له لبد أظفاره لم تُقَلَّم

قال الإمام القاسم عليه السلام: «وهذا مثل يضرب لمن يحمل كذباً أو زوراً ليلقي به [بين] الناس عداوة وشروراً» انتهى، وقال في (الكشاف): «وقيل: كانت تمشي بالنميمة، ويقال للمشاء بالنمائم: المفسد بين الناس، يحمل الحطب بينهم» انتهى.

قلت: وهذا أرجح لأنَّه أنسب للقرآن ذكرُها في خيبتها بسوء عملها، فأما حمل الحطب فهو مباح والناس يحتاجون إليه ولا يعيرون بحمله، فمن البعيد أن تعير به في القرآن الحكيم بدلاً من ذكر جرمها، فظهر: أن حملها للحطب مشيها بالنميمة والكذب؛ لإشعال نار العداوة والفتنة، وإن ذكر الحبل ترشيح للمجاز، وجعله في جيدها وجعل الحبل ﴿مِّن مَّسَدٍ﴾ زيادة في الترشيح، ولعله الغالب في حمل الحطب أن يحمل بحبل من مسد لُيسر المسد.

قال الراغب في (مفرداته): «المسد: ليف يتخذ من جريد النخل، أي من غصنه فيمسد أي يفتل» انتهى، وهو أنسب من تفسير (صاحب الكشاف) للمسد؛ لأجل (من) الَّتي لبيان الجنس.


سورة الإخلاص



سُورَةُ الإِخْلَاصِ

آياتها ٤ — ترتيبها ١١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ الأحد: هو الواحد ليس بمتعدد ولا مؤلف من آحاد ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ ﴿ٱللَّهُ﴾ وحده هو ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي يلجأ إليه ويصمد أي يقصد عند المهمات، قال الإمام القاسم: «﴿ٱلصَّمَدُ﴾ هو النهاية والمعتمد، الذي ليس وراءه مصمود، ولا سواه إله معبود» انتهى.

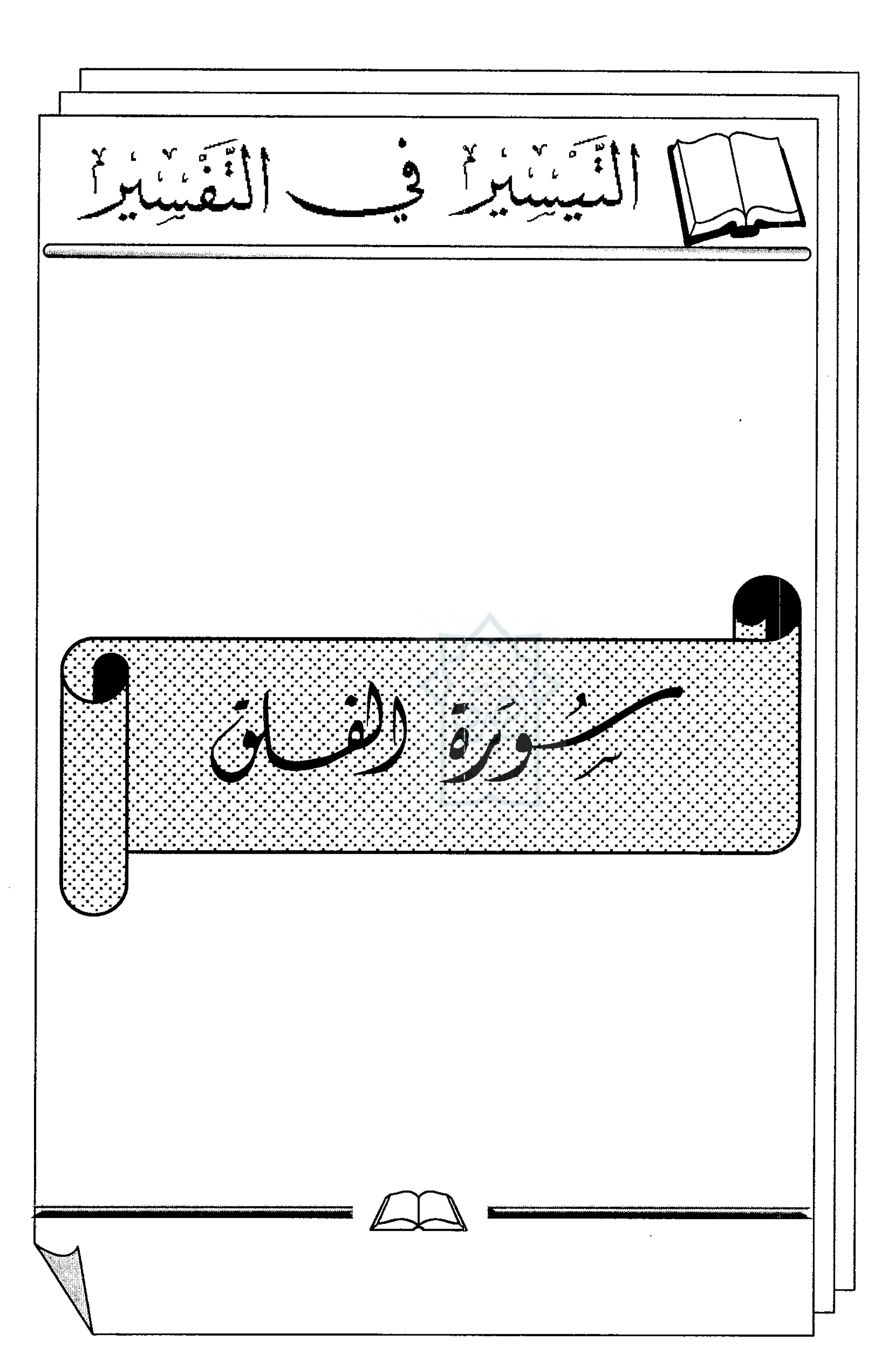
فالله الصمد يفيد توحيد الإلهية، ويناسب هذا ما رواه ابن جرير في (تفسيره): بسنده عن ابن عباس في قوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ يقول: «السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغني الذي قد كمل في غناه، والجبار الذي قد كمل في جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه، هذه صفته لا تنبغي إلاّ له» انتهى.

﴿٣-٤﴾ ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ فليس له ابن ولا بنت ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ ما ولده أحد، فقد أبطل من قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:١٧] فأقروا أن المسيح مولود لمريم، وادعو أن الله هو، فلزمهم أن قد جعلوا الله مولوداً.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ لم يكن له مماثل في العظمة والجلال، ولا في القدرة والعزة، ولا في العلو والغلبة، ولا في شيء من الكمال، وفي (تفسير الإمام القاسم عليه السلام): «الكفؤ: فهو المثل والنظير» انتهى.

ولعل الآية تشير إلى نفي الصاحبة، بمعنى أنا لا نتخذ صاحبة إلاَّ من الأكفاء، فإذا تنازلنا فإنما يكون ذلك للحاجة والظروف الملجئة، وهو سبحانه غني عن الصاحبة على الإطلاق، مع أنَّه لا كفؤ له، إشارة إلى أن المخلوقات كلهن إماؤه، فكيف يتخذ صاحبة أحداً منهن، وإنَّما هي أمته خلقها ورزقها وأنعم عليها، ولا كفاءة بين السيد وأمته، فكيف يتنازل إلى اتخاذ أمته صاحبة وهو الغني ـ والله أعلم.




التيسير في التفسير
سورة الفلق



سُورَةُ الفَلَق

سورة ١١٣ — آياتها ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

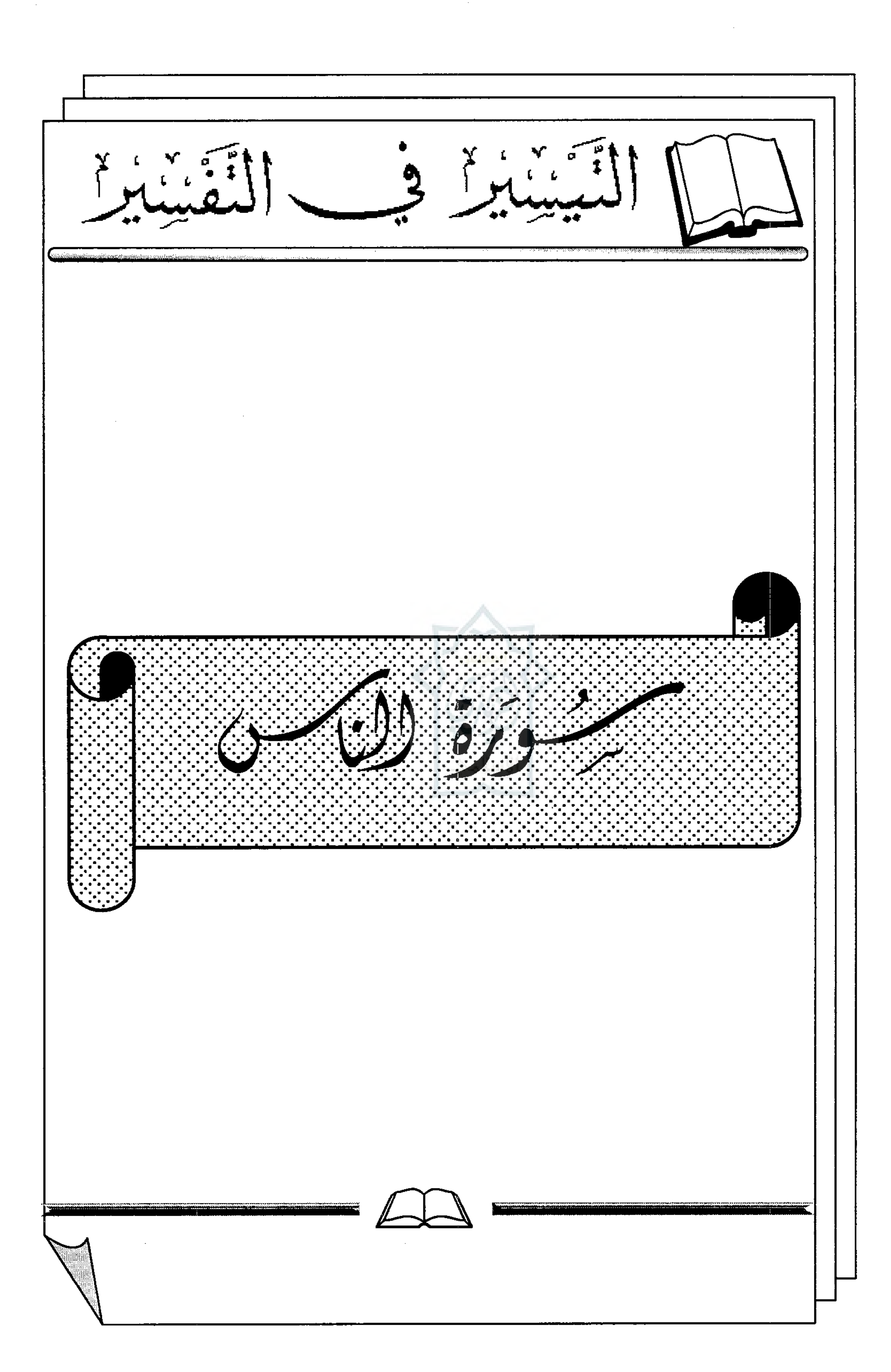
(١-٢) ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ أستجير ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ والفلق: أول الفجر، وربه الله الذي جاء به، و﴿مَا خَلَقَ﴾ عام لكل مخلوق.

(٣) ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ﴿غَاسِقٍ﴾ ليل مظلم ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ إذا وجب، أي وقع واستقر.

(٤) ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ الَّتي تنفخ مع ريق قليل ﴿فِى ٱلْعُقَدِ﴾ الَّتي تعقدها في خيط أو نحوه لتسحر.

(٥) ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ والحاسد: هو الذي يغار غيرة من نعمة غيره فيحب زوالها وتعظم في نفسه، وشره إما أن يبعثه الحسد على الكيد ومحاولة زوال النعمة، وإما أن يعين صاحبها لفرط رغبته فيها فيصيبه بالعين، وهذه السورة الكريمة تعلمنا أن نلجأ من المخاوف إلى الله وحده، لا إلى الجن ولا إلى الشعوذة، ولا غير ذلك من أعمال الجاهلية، فقد كان الخوف يبعثهم على العياذ بغير الله من شركائهم أو من الجن، أو اعتماد الخرافات، وقد يعتقد بعض العامة أنَّه لا مفر من شر الجن إلاَّ إلى الجن وهو غلط فاحش، فإن الله هو القادر على كل شيء، ولعل الجن يسلطها الله على من يلجأ إليها عقوبة له، ولا يبعد أنَّه معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:٦] وقد جربنا النفع في ترك اللجوء إليهم مع التوكل على الله واللجوء إليه، فحصل النفع بإذن الله.




التيسير في التفسير
سورة الناس



سُورَةُ النَّاسِ

ترتيبها ١١٤ — آياتها ٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

(١-٤) ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ رب الناس: الله مالكهم الذي خلقهم ورزقهم ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ وهو الله الذي يحكم فيهم ما يريد، وله الأمر والنَّهي والسلطان والقهر ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ الذي تأله إليه ضمائر القلوب، ويفزع إليه كل مكروب، ويخشى ويرجى ويدعى فيجيب، وهو الله المعبود بحق.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ وشره عظيم من حيث كثرته، فقد يكون بالدعوة إلى المعاصي وتزيينها، وقد يكون بشغل القلب عن ذكر الله في الصلاة وغيرها، وقد يكون بشغل القلب عن تدبر آيات القرآن وتفهم معانيه، فقد جعل الله له سورة مستقلة للأمر بالتعوذ منه بالله، وتأكيد التعوذ بتعليقه على ربوبيته وملكه وإلهيته، وإسناد الاستجارة بالله إليها، وفيه دلالة على نفع التعوذ بالله تعالى وحسنه من جهة الربوبية؛ لأنَّه رب كل شيء فهو القادر على صرف كل مكروه، ولأن له الملك، وهو القاهر فوق عباده، فهو من هذه الجهة ـ أيضاً ـ القادر على صرف المكروه من أي جهة يكون من عزيز أو ذليل أو قوي أو ضعيف، والتعوذ بالله من جهة الإلهية؛ لأن هذا التعوذ به دعاء له ولجوء إليه لقدرته على كل شيء وعلمه بحال المستجير واستجارته، فهو من عبادته الَّتي أمر بها ورضيها لعباده، فالتعوذ به يرجى نفعه من حيث هو لله رضى وعبادة، كما تنفع سائر العبادات للتوسل إلى ما يطلبه العبد من إلهه.

و﴿ٱلۡخَنَّاسِ﴾ الذي يخنس بعد الوسوسة، أي يتأخر لئلا يشعر الإنسان بأنه يريد إغواءه، أو لأنَّه يتبرأ منه متى أطاعه ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ [الحشر:١٦] وهكذا يفعل الشيطان يسعى في إيقاع الإنسان في ورطة ثُمَّ يخذله إذا تورط ولا ينفعه بشيء ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ [الفرقان:٢٩] أو الذي يخنس إذا ذكر الله، وإنَّما يتحين فرصة الغفلة، فإذا ذكر الله خنس؛ لأن كيده ضعيف سواء كان من شياطين الجن أو الإنس، وعندي أن الأول والثاني أنسب لذكر الخناس في نفس الاستعاذة والثالث حسن مستقل.

﴿٥-٦﴾ ﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ ﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ فهو مهم جداً لعموم شره للناس كلهم ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيان للوسواس الخناس، فقد يكون من الناس وهو أضر وأقدر على الإفساد ﴿يَاوَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً﴾ [الفرقان:٢٨] وكم جاء الفساد في الناس من جليس السوء.

نعوذ بالله من الوسواس، ونسأله السداد، وحسن الخاتمة

(تم الكتاب بحمد الله الواحد الوهاب)



فهرس تقريبي لأهم المسائل والمواضيع التي تضمنها هذا المجلد

م	الموضوع	اسم السورة	رقم الآية
١	لفتة جميلة في مسألة اليأس من الحيض	الطلاق	٤
٢	الدليل على أن لجهنم حياة وشعور	الملك	٨
٣	درس مهم في نفي التشبيه	الملك	١٦
٤	تنبيه مهم	الملك	١٦
٥	حسن الخلق ودوافعه	القلم	٤
٦	﴿وتعيها أذن واعية﴾ نزلت في الإمام علي (ع)	الحاقة	١٢ـ ١٣
٧	المتعة ليست زواجاً	المعارج	٣١
٨	الرد على من يدعي علم الغيب لبعض الأئمة والشيوخ	الجن	٢٨
٩	معنى ﴿ناشئة الليل﴾	المزمل	٦
١٠	الأصل في الصلاة أن تكون جماعة	المزمل	٢٠
١١	سبب تدثر رسول الله (ص)	المدثر	١ ـ ٤
١٢	معنى ﴿ولا تمنن تستكثر﴾	المدثر	٥ ـ ٧
١٣	يوم القيامة تعرض الأعمال وتشاهد كما في التلفزيون والسينما	القيامة	١٣
١٤	تفسير الأمشاج	الإنسان	٢
١٥	لفتة عرفانية عن والد المؤلف	الإنسان	٩ ـ ١٠
١٦	معنى ﴿ولدان مخلدون﴾	الإنسان	١٩
١٧	فضل الأيام العشر من ذي الحجة	الفجر	١ـ٢
١٨	أبدع بيان لقوله تعالى: ﴿وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾	الفجر	٢٢
١٩	معنى ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾	البلد	٤
٢٠	تفسير ﴿النجدين﴾	البلد	٨ ـ ١٠
٢١	تفسير ﴿الروح فيها﴾	القدر	٤
٢٢	تفسير ﴿عن صلاتهم ساهون﴾	الماعون	٤ ـ ٧

محتويات الجزء السابع



